السيرة مستمرة

أحمد خيري العمري

عندما طلع البدر علينا

سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام من الهجرة إلى بدر

مكتبة عصير الكتب

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

عندما طلع البدر علينا

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان: عندما طلع البدر علينا ●

● الطبعة الأولى: أغسطس 2025م

● رقم الإيداع: 19585/2025م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-565-3

● تأليف: أحمد خيري العمري

● تدقيق لغوي: مريم عبد الجليل

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

مكتبة

t.me/soramnqraa

السيرة مستمرة

أحمد خيري العمري

عندما طلع البدر علينا

سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام من الهجرة إلى بدر

عصير الكتب

المحتويات

شبه مقدمة 9

لماذا نحب الرسول عليه الصلاة والسلام؟ 12

الباب الأول: هلال البدايات 31

قبل الحقيقة، بعد زوال السراب 32

البيوت مفتوحة والناقة مأمورة، ولكن... 52

ليس بوجه كذَّاب 58

واحد من الناس 65

حجر أساس، وأحجار أخرى 75

أول خطبة جمعة: بيان رقم واحد 95

المؤاخاة: إخوة من أُم أخرى وأب آخر 102

الباب الثاني: فرمتة العقل الجمعي 121

عن النخلة وحواليها: أنتم أعلم بأمر دنياكم 147

ثم جاءت «عائشة» 153

المنافقون: أقنعة ووجوه 177

صحيفة المدينة تحت المجهر: وثيقة التحول الكبير 192

المسألة اليهودية، وأشياء أخرى 229

الباب الثالث: الطريق إلى البدر التمام 269
الخروج من المُحاق: سرايا وغزوات 270
تحويل القبلة: القطيعة والانتماء 308
بدر: التاريخ ينتظر عند البئر 320
الجمعة 17: يوم القتال 381
قريش بعد بدر: لقد أخبرتكم عاتكة! 418
عندما طلع يوم بدر علينا 425

إهداء

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترددت كثيرًا في إهداء هذا الكتاب.

كنت أريد أن أهديه إلى مَن كتبت عنه فيه، عليه الصلاة والسلام.

حتى اللحظة الأخيرة وأنا أقدم رجلًا وأؤخر أخرى، حتى إني فكرت في أن أستفتي الأمر، هل يجوز؟

كنت ممزقًا بين عشمي وخجلي.

وفي اللحظات الأخيرة، قبل أن أدفع الكتاب إلى المطبعة، انتصر خجلي على عشمي.

وها أنا الآن أهدي الكتاب لمن يهديه الكُتَّاب عادة في أول ما ينشرون، درت دورة واسعة وعدت لنقطة البداية.... كنت قد أهديت كتابًا إلى البريق في عيونهم... لكنها كانت ست عيون فقط آنذاك، ثم أكرمنا الله بزوج آخر منها...

إلى نور العين الذي تجسد في أربعة أسماء: زين العابدين وآمنة وأروى ولميس.

ها أنا أراكم تكبرون وتستقلون وتمضون في مسارات حياتكم، لا أقول إنكم لا تزالون في عيوني صغارًا كما كنتم وأنتم أطفالًا، فقد كنتم كبارًا منذ البداية، ولأمكم الحصة الأكبر في ذلك، ولقد تعلمت منكم وكبرت بكم.

ها أنا أهدي لكم جميعًا (عندما طلع البدر علينا) قسمة حق يتساوى فيها الجميع... ولقد كنتم جميعًا أقمارًا طلعت عليَّ في رحلة حياة تعرفون كيف سارت.

أهدي هذا الكتاب لكم، قبل أن يفوت أوان الإهداءات.

***

كلمة أخيرة: أحبكم بأكثر ما يحتمل أي إهداء سأكتبه،

أو يكتبه سواي،

تعرفون ذلك بالطبع، لكني أتركه هنا للذكرى فقط.

شبه مقدمة

السيرة بحرٌ عميقٌ لا قاع له.

ماؤه حلوٌ عذب، صالح للاستشفاء، وكنوزه عصية على الحصر.

والغريق فيه في فيضٍ من النعم.

وأكبر وأغلى نعمها: القرب منه عليه الصلاة والسلام.

***

بدأت هذا الجزء من السيرة قبل أربع سنوات، في صيف 2021، وخلال هذه السنوات كتبت أشياءَ أخرى، وكنت أعود للسيرة بين عمل وآخر فأعيد شحن بطاريتي النفسية، قدر الإمكان.

قررت منذ البداية أن هذا الجزء لا يمكن أن يشمل كل المرحلة المدنية، وحددت معركة بدر كنقطة للنهاية، كان تقديري هذا عامًّا وباعتبار أهمية الأحداث في السنة الأولى للهجرة، وهكذا كان.

إن كتب الله لي أن أكمل، فلا أعرف كم جزءًا سيتطلب تغطية الفترة المرتبطة بالسيرة الشريفة.

أقول تغطية الفترة، وليس تغطية السيرة،

لأني أشعر أنها أكبر بكثير من أن تغطى.

وستبقى تمد الكثيرين بالجديد دومًا.

***

بينما كانت المشكلة في الجزء الأول هي قلة المعلومات نسبة إلى المدة الزمنية التي استغرقتها الفترة المكية، فإن المشكلة في العهد المدني هي العكس كما هو متوقع. الفترة ثرية لدرجة من الصعب التخلي عن أي تفصيل.

في الوقت ذاته، فإن ليس كل ما ورد في هذه الفترة ثَبُت بأحاديث صحيحة من ناحية السند، خاصة فيما يتعلق بالسرايا والغزوات، وإهمال هذه الأحاديث يترك ثغرات غير منطقية في سياق الأحداث؛ لذا فقد استبعدت فقط ما وصف بأنه شديد الضعف وأبقيت على ما كان أقل ضعفًا أو كان هناك خلاف على تضعيفه أصلًا وكان متسقًا مع سير الوقائع الثابتة، وأوضحت ذلك في الهامش فيما يتعلق بأحداث أهم من سواها.

***

في الجزء الأول حاولت ربط أحداث السيرة في المرحلة المكية بتسلسل نزول القرآن الكريم على الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام.

في هذا الجزء أحاول النظر من زاوية مختلفة، زاويتنا نحن الذين لم نلتقِ به عليه الصلاة والسلام ولم ننل شرف صحبته، ولكن صفاته لا تزال تؤثر علينا رغم مرور القرون.

أحاول النظر في خصوصية هذه العلاقة وأسبابها التي أصبحت مقتنعًا تمامًا أنها أعمق وأقدم مما كنت أعتقد.

***

والقرب من السيرة له أثر نفسي صحي.

لا أتحدث هنا عن الأثر الإيجابي العام الذي تتركه السيرة على من يقترب منها، بل عن الأثر الإيجابي بمعنى الصحة النفسية الحرفي لا المجازي.

لا أدعي أني أمتلك نظرية علمية عن ذلك أو أني درست الأمر على نحو موسع.

كل ما أملكه هو الدليل الأقدم والأكثر شعبية، الذي لا يسمن ولا يغني من جوع من الناحية العلمية.

دليل: جربتها ونفعت.

***

لا يمكن لباحث معاصر في السيرة النبوية المشرفة إلا أن يوجه الشكر والتقدير لكل مَن سبقوه في ذلك، وأخص بالشكر هنا الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه (السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية).

وأشكر د. منصور بن ناصر الخالدي على كتابه (غزوة بدر الكبرى كأنك تراها) فقد جمع فيه من معلومات وخرائط ما لم أجده في كتاب آخر.

أشكر أيضًا القائمين على شبكة الألوكة، خاصة مقالات الشيخ محمد طه شعبان رحمه الله عن تسلسل أحداث السيرة وترتيبها الزمني في كل سنة على حِدة.

وأشكر كل أصدقائي المقربين الذين اطلعوا على مسودة الكتاب في أثناء كتابته وقدموا لي ملاحظات قيمة.

لماذا نحب الرسول عليه الصلاة والسلام؟

السؤال قد يبدو مستهجنًا..

فهو يحمل الجواب معه. نحبه لأنه الرسول عليه الصلاة والسلام.

ما دمت مؤمنًا بأنه الرسول، فهذا يعني أنك تحبه.

وبعض الحب لا يحتاج إلى إيضاح؛ لذا فربطه بأدوات الاستفهام لن يقود إلى شيء، أو هكذا نظن.

جزء من هذا الحب يكاد يكون فطريًّا بالنسبة إلينا والسؤال عنه يشبه سؤالًا: لماذا تحب أمك؟ أحب أمي لأنها أمي. نقطة انتهى.

بعيدًا عن ردِّ الفعل هذا، حتى حب الأم -رغم بداهته- يكون مرتبطًا بأسباب كثيرة وعميقة جدًّا لدرجة تجعله يبدو «بديهيًّا».

في النهاية: هناك أسباب لهذا الحب، ربما معرفتها لا تزيد هذا الحب، والجهل بها لا يقلل منه.

ولكن، لا شيء بلا سبب.

معه عليه الصلاة والسلام، الأمر أكثر تعقيدًا، أصبح هذا الحب جزءًا من إيماننا، أصبح حبه جزءًا من هُويتنا ووجودنا وتاريخنا. حتى بالنسبة إلى غير الملتزمين دينيًّا، الأمر واضح. ربما بعضهم لا يؤدي الفرائض، وحياته عمومًا بعيدة عن كل ما أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن ذكره بسوء قد يستفزهم ويغضبهم كما لو أن السوء قد أصاب أحد أفراد أسرته، وقد رأينا هذا كثيرًا في العقدين الأخيرين، مع أحداث

«الصور المسيئة للرسول عليه الصلاة والسلام»، ورغم أن بعض ردود الأفعال كانت مسيئة لصورته عليه الصلاة والسلام أكثر من «الصور المسيئة نفسها»، لكن لا يمكن تجاوز أن أغلب ردود الأفعال كانت تعبيرًا عن رفض الإهانة، وأيضًا عن «حب» كبير له عليه الصلاة والسلام.

حمية؟ عصبية؟

ربما، لكن أيضًا «حبًّا»، مَن قال إنَّ مشاعر الحب لا تحتوي أيضًا على «الحمية» و«العصبية»، مَن يمكن له أن يدَّعي أن حبه لأمه أو وطنه أو لقضاياه لا يحتوي على نسبة من «الحمية» أو «العصبية» أو حتى الغضب؟

قد لا يكون هذا الأمر مثاليًّا تمامًا بالنسبة إلى مقاييس الإيمان برسالته عليه الصلاة والسلام، وربما ما كان سيرضى عنه.

ولكننا نتحدث الآن عن شيء موجود، عن أمر واقع، عن مشاعر حب من عدد لا يحصى من البشر على الأرض، تجاه الرسول عليه الصلاة والسلام.

لا شيء مثالي تمامًا، لكن وجود أي نسبة من الشوائب في هذه المشاعر، لن يقلل من حقيقة الحب الموجَّه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

***

سنسمع البعض يقول متذمرًا: وحدهم المسلمون يثورون وينفعلون عندما يمس أحدهم نبيهم. كل المؤمنين بالأديان والأنبياء يتعرضون أحيانًا لما يشبه هذا، لماذا لا يثورون؟

هل يحبون أنبياءهم أقل مثلًا؟

ربما يحبونهم أقل بالفعل، هذا وارد، لم ينل كل الأنبياء والرسل القدر نفسه من الحب والاتباع.

وربما أن الواقع الراهن بكل ما فيه من ظلم يجعلنا متوترين في الدفاع عمن نحب.

يستطيع المتذمرون أن يذكروا الكثير من الأسباب التي تفسر هذا «الحب» بشتى التفسيرات، وقد يكون بعضها صحيحًا، لكن هناك شيء لا يمكن إنكاره في خضم كل هذا.

يمتلك المسلمون «علاقة شديدة التميز» مع الرسول عليه الصلاة والسلام، علاقةً لا يوجد لها مثيل بين «شخص» وأتباعه.

***

يمكننا أن نبحث في علاقة كل المؤمنين بأنبيائهم أو بمؤسسي أديانهم، لن نجد مثل هذه العلاقة.

ليس فقط الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم، بل حتى مؤسسو الأديان الأخرى التي لا يزال لها أتباع، علاقة هؤلاء المؤمنين بمؤسسي أديانهم لا يمكن أن تقترب من علاقتنا به عليه الصلاة والسلام[1].

زرادشت (مؤسس الزرادشتية)، كونفوشيوس، بوذا، لاو تزو (مؤسس الطاوية) راموناجا (واحد من أهم مؤسسي الهندوسية التي لا يوجد مؤسس واحد لها)، ناناك (مؤسس السيخية)، حمزة بن علي (مؤسس الدرزية) ...ميرزا حسين علي نوري (مؤسس البهائية).. ميرزا غلام علي أحمد (مؤسس الأحمدية).

كل هؤلاء أسسوا/ أو أسهموا بتأسيس أديان لا يزال لها أتباعها ومعتنقيها، كما هو الحال مع أسماء أخرى كان لها دور مهم في تاريخ الأديان السماوية، أو تأسيس مذاهب مهمة داخل هذه الأديان (بطرس، بولس، لوثر في المسيحية/يهوذا هاناسي (كاتب المشناه)، موسى بن ميمون، إبراهيم بن داود في اليهودية).

كل هذه الأسماء يُحتفى بها من قِبل أتباعهم أو أتباع مذاهبهم..

لكن لا شيء أبدًا يشابه -أو حتى يقارب- العلاقة التي تجمعنا بوصفنا مسلمين بنبينا عليه الصلاة والسلام.

لا شيء من قريب أو من بعيد.

***

(1) ربما تكون هناك علاقات معاصرة قد تظهر بعض التشابهات السطحية، «حب مفرط من أتباع لقائد روحي» على نحو قد يجعل البعض يعتقد أن هذه العلاقة تشابه علاقة المسلمين بالنبي عليه الصلاة والسلام، لكن عند التدقيق سنرى أن هذه العلاقات تكون على «نطاق ضيق»، بين عدد محدود من الأفراد، ولفترة زمنية عابرة لا تتعدى المعدل الزمني لحياة القائد الروحي في أحسن الأحوال، لكن عندما نخرج من هذا النطاق الضيق، من (العدد المحدود) و(السنوات المحدودة) فإننا سنجد أن علاقتنا عليه الصلاة والسلام تقف منفردة متفردة، لا علاقة بين أتباع ومتبوع تشبه علاقتنا به عليه الصلاة والسلام.

بعض معتنقي هذه الأديان «ألهوا» أنبياءهم حرفيًّا، البعض منهم أضافوا صفات إلهية إلى المؤسسين، والبعض الآخر أعدَّ هؤلاء المؤسسين تجسيدًا بشريًّا لله، وحلولًا لله في البشر... ألا يجعل هذا «علاقتهم» أكثر قوة من علاقتنا كمسلمين به عليه الصلاة والسلام؟

في تصوري: على العكس.

التأليه يقتل علاقة الحب الشخصية، يمكن للتأليه أن يجعل العلاقة علاقة عبادة وتعبد تتضمن الحب، لكن «الحب الشخصي» الذي نحمله بوصفنا مسلمين للنبي عليه الصلاة والسلام شيء مختلف تمامًا.

بل إن منطقة التوازن هذه، بين منتهى الحب وغايته، وبين عدم السقوط في التأليه -على صعوبتها- هي المنطقة التي سكنت فيها قلوب المسلمين في علاقتهم بالنبي..

لا مقارنة ممكنة أصلًا.

***

سيقول البعض: وحدهم المسلمون هكذا، لأنهم يعيشون في الماضي...

لنفترض هذا..

لكن مع علاقة (مميزة ومختلفة) كهذه، هناك احتمالان لتفسيرها...

إما أن يكون الأمر في المسلمين أنفسهم (كأن يكونوا عالقين في الماضي فعلًا كما قال هذا البعض، وإمَّا أنهم يريدون استعادة مجد الماضي، أو أي سبب آخر مرتبط بالمسلمين أنفسهم).

أو أن يكون الأمر مرتبطًا أكثر به عليه الصلاة والسلام..

أي أن يكون تفرُّده وتميُّزه هو الذي جعل العلاقة على هذا النحو.

أي أن تاريخ الإنسانية لم يشهد رجلًا يقاربه في صفاته؛ ولذلك لم يشهد التاريخ مثل هذا الحب لأحد سواه..

فرادة العلاقة نتجت عن «فرادته» كشخصية لم يكن هناك -عبر التاريخ- من يشابهها أو يقترب منها.

***

بالنسبة إلينا، كل ما سبق بديهي، أمر لا نفكر فيه ولا في أسبابه، بالضبط كما لا نفكر في كل بديهيات حياتنا التي لا تتغير، هو جزء من مكونات تفكيرنا، بل جزء منا، ليس تعبيرًا مجازيًّا. محبة الرسول عليه الصلاة والسلام دخلت في «الشخصية الجمعية أو السلوك الجمعي collective behavior» لمئات الملايين من المسلمين، عاداته اليومية تحولت لتكون جزءًا من طريقة حياة مئات الملايين من طنجة إلى جاكارتا.

حضور اسمه الشريف أصبح جزءًا من «الهوية الجمعية collective identity» التي توحد الملايين، من معرفتهم بأنفسهم، ومما يوحد بينهم وبين الآخرين.

تعريف الملايين لأنفسهم أنهم (مسلمون)، يتضمن ذكر اسمه، شهادتهم له بأنه رسول الله، جزء لا يتجزأ من جوهر إسلامهم.

المسلمون -بشكل عام- عبر اختلاف شعوبهم ولغاتهم وثقافاتهم وعاداتهم، هناك ما يوحدهم في اسمه عليه الصلاة والسلام، باختلاف طريقة اللفظ، محمد، مِمَت[1]، مامدو[2]...

عندما يدب بينهم خلاف، يقول واحد منهم: *صلوا على النبي*، فيرد الجميع بالصلاة عليه كما لو أنهم يعودون لـ «نقطة لا خلاف عليها».

عندما يرون شيئًا فائقَ الجمال، يشهقون: الصلاة على محمد وعلى آل محمد، كما لو أن كل شيء رائع لا بدَّ أن يرتبط به عليه الصلاة والسلام.

لا ريب أن الأمر يزرع منذ الطفولة، لا نقاش في هذا، ولكن ليس كل ما يزرع في الطفولة يبقى راسخًا ومثمرًا كهذا الحب. لا بدَّ أن هناك ما يجعله على ما هو عليه، لا بدَّ أن هناك ما يجعل هذه العلاقة متفوقة ومتميزة ومختلفة عن كل العلاقات بين (الأتباع) و(المتبوعين) من أنبياء وقادة ومصلحين على مر العصور.

لا علاقة للأمر بدرجة الالتزام الديني والعلم الشرعي، ففي التدين الشعبي كثيرًا ما تطغى العواطف على أي شيء آخر، بل إني أجزم أن البعض قد لا يملك شيئًا من الدين سوى عاطفة حب قوية للنبي عليه الصلاة والسلام.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) في التركية والألبانية.

(2) في بعض اللهجات الإفريقية.

فلأحدد هنا بعض النقاط الأساسية التي تتيح لنا أن ننظر إلى علاقتنا به عليه الصلاة والسلام:

أولًا: يتعلق الأتباع بمن يتَّبعون لأسباب تتعلق بمكانة هذا المتبوع، وهي مكانة ناتجة غالبًا عن أهم ما قدمه: رسالة دينية/ روحية (كما في حالة الأنبياء/ أو مؤسسي الأديان الأخرى أو المدربين الروحيين)، أو تأسيس لأمة أو دولة (كما في حالة الآباء المؤسسين للدول، أو قادة عسكريين كبار وحدوا أوطانهم وحققوا لها انتصارات تاريخية) أو تعليمات وإرشادات في الحياة (أقوال مأثورة، حكم، قصص فيها عبر ومواعظ).

ثانيًا: هذه المنجزات تختلط مع السير الشخصية لهؤلاء القادة، وغالبًا ما يجد الجمهور صفاتٍ معينةٍ أساسيةٍ في هذه الشخصيات **تكون بمنزلة نقطة (تعلق)** بينهم وبين هذه الشخصية. صفات تقرب هذه الشخصيات لهم وفي الوقت ذاته تكون بمنزلة حافز لهم في حياتهم.

ثالثًا: سأفترض هنا أن وجود عدة **«صفات أساسية» أو «نقاط تعلق»** (أي أكثر من صفة واحدة) في هذه الشخصية ينتج علاقة أكثر عمقًا بينها وبين جمهور الأتباع، كلما زادت هذه الصفات، تعمقت العلاقة وتعملقت.

رابعًا: بما أن علاقة المسلمين بالنبي عليه الصلاة والسلام تفوق أي علاقة أخرى بين جمهور وقائد، فإن السبب في تصوري **وجود عدد أكبر من «نقاط التعلق»** مع خاتم الأنبياء، وهذه النقاط تحولت لتكون جزءًا أساسيًّا من علاقة مئات الملايين من المسلمين به عليه الصلاة والسلام.

***

هل أقول هنا إن النبي عليه الصلاة والسلام هو «أفضل وأكمل البشر»؟

بالتأكيد، سيد الخلق، لا جدال في ذلك.

ما الجديد في هذا؟

هذا ما نعرفه جميعًا بوصفنا مسلمين، وهو جزء أساسي من إيماننا..

في رحلتنا هذه، سنحاول التدقيق في (الصفات الأساسية).. وبالصفات الأساسية هنا، أقصد شيئًا آخرَ غير ما تعودناه من كلمة (الصفات).

أقصد ما يترجم عادة (بالأنماط الأولية).

أو الـ Archetype.

الأنماط الأولية Archetypes

كان العالم السويسري كارل يونغ[1] (1875–1961) هو أول من استخدم مصطلح الأنماط الأولية في علم النفس لوصف **نماذج متكررة من الشخصيات والسلوكيات** اشتركت بها كل المجتمعات البدائية في أساطيرها وحكاياتها المتوارثة، حتى لو كانت لا تملك أي وسيلة تواصل بينها.

حسب يونغ: «كما أن الجسد البشري يتمتع بتشريح مشترك يتجاوز كل الفروقات العرقية، فإن النفس أيضًا تمتلك بنية تحتية مشتركة.[2]» وهذه البنية التحتية المشتركة تتجلى في الأنماط الأولية.

ولتبسيط فكرة الأنماط الأولية: فلنفترض أن الباحثين وجدوا رسومات بدائية على جدران الكهوف في قارات مختلفة وأماكن بعيدة عن بعضها (جنوب شرق آسيا وأوروبا وأمريكا الجنوبية على سبيل المثال)، وتعود لحقبة زمنية واحدة، ووجدوا أن هذه الرسومات تشترك بوجود رمز معين (دائرتان متداخلتان وسط مثلث مثلًا)، فهذا سيعني أن البشر أينما وجدوا، ودون أي تأثير متبادل، سيرسمون هذا الرمز، كما لو أنهم برمجوا على ذلك، أو كما لو أنه **موجود داخل طبيعتهم البشرية**.

لماذا؟ لأن تباعد القارات في تلك الفترة كان ينفي وجود التأثير المتبادل المحتمل، وهو الأمر الذي أصبح محتملًا أكثر لاحقًا مع تطور وسائل النقل.

الأنماط الأولية مثل هذا الرمز المشترك الافتراضي على جدران الكهوف، لكنها في الحقيقة ليست رمزًا، بل مجموعةً من الشخصيات التي كان لها حضور مشترك في أساطير وحكايات الشعوب البدائية على الرغم من عدم وجود تأثير متبادل بين هذه الشعوب.

---

(1) كارل غوستاف يونغ (1875–1961) طبيب نفسي سويسري ومؤسس علم النفس التحليلي، اشتهر بمفاهيمه عن اللاوعي الجمعي والأنماط الأولية.

تميّزت نظرياته بالتركيز على الرموز والأساطير والدين لفهم النفس البشرية وتكامل الشخصية.

(2) Jung, *CW 9, Part 1, para. 4*

اعتبر يونغ أن هذه (الأنماط) أصبحت تُشكِّل جزءًا أساسيًّا من (اللاوعي الجمعي) الذي انتقل بالوراثة[1] (حسب يونغ) من الأسلاف في المجتمعات البدائية وصولاً إلى الإنسان المعاصر، وأصبحت تحدد الكثير من أفكار هذا الإنسان وسلوكياته دون أن يكون واعيًا بهذا الدور.

على سبيل المثال: النمط المتكرر الأولي للأم في كل المجتمعات البدائية (وحتى الآن) تتمثل في الحنو والرعاية والاهتمام، وهو نمط يفرض سلوكًا «متشابهًا» تجاه الأم في كل هذه المجتمعات، وهذا بدوره ينتقل كمحصلة خبرات إلى الأجيال اللاحقة. وعندما يحدث أن تكون هناك أم (مغايرة) لهذا النمط -كأن تكون أمًّا مهملة أو نابذة- فإن هذا ينتج اضطرابًا في الطفل الذي لن يجد التوافق بين (النمط الأولي) في لا وعيه، وبين الأم في حياته الواقعية[2].

الأمر ذاته بالنسبة إلى الأب، إلى البطل الشجاع، إلى الشيخ الحكيم، القائد.. حسب يونغ كل هذه (أنماط أولية) توارثها البشر منذ المجتمعات البشرية الأولى حتى اليوم، وأصبحت تلعب دورًا في تقييمنا للأحداث والشخصيات. كلما اقتربت شخصية ما من (النمط الأولي)، تفاعلنا مع هذه الشخصية على نحو أكثر إيجابية وانجذبنا لها، وكلما ابتعدت هذه الشخصية عن مواصفات النمط الأولى (كان تكون الأم نابذة، أو البطل الشجاع مدعيًّا لا أكثر، إلى آخره) تفاعلنا على نحو سلبي مع هذا الشخص.

كيف توصل يونغ إلى هذه «الفكرة»؟

وجد يونغ «مشتركات كثيرة» في الأساطير والحكايات المتوارثة في المجتمعات البدائية، وبما أن بعض هذه المجتمعات كانت متباعدة على نحو يصعب تفسير الأمر بمجرد انتقال هذه القصص من مجتمع إلى آخر، فقد توصل يونغ إلى أن (اللاوعي الجمعي البشري) يمتلك مشتركات أساسية تجعله ينتج هذه الأساطير والحكايات التي يمرر من خلالها خلاصة خبراته في الحياة، وهي خبرات متعلقة أساسًا بالقدرة على البقاء على قيد الحياة والنجاة من المخاطر وتكاتف المجموعات البشرية...إلى آخره.

---

(1) لا يرى يونغ أن هذه الأنماط قد انتقلت كما تنتقل صفات لون العيون أو الطول، بل باعتبارها استعدادات أصيلة داخل النفس البشرية.

(2) تعرض هذا النمط إلى هجوم كبير في المئة سنة الأخيرة، حيث يقوم الكل بتحميل الأم كل المشكلات النفسية وبطريقة مبالغ بها، رغم ذلك يبقى للنمط أهميته ومكانته.

وهذا يجعل من شخصيات مثل البطل الشجاع والأم الحريصة والشيخ الحكيم والقائد تمتلك مكانةً أساسيةً في هذه الأساطير.

يعتبر يونغ -إلى جانب فرويد- من أهم مؤسسي علم النفس الحديث، وذلك على الرغم من الاختلاف الكبير بينهما فبينما كان فرويد يولي (اللاوعي) الأهمية الأكبر ويعتبره نتاجًا للرغبات الجنسية المقموعة، فإن يونغ كان يعتبر أن اللاوعي ينتج عن عوامل عديدة ويكون دوره (تفاوضيًّا) أكثر منه قمعيًّا. كذلك كانت رؤية كلٍّ منهما للدين مختلفة تمامًا، فبينما كان فرويد ملحدًا يعتبر الدين بمنزلة (هوس عصابي عالمي)[1]، فإن يونغ كان مقرًّا بوجود الله وله موقف أكثر تعاطفًا مع الدين وإمكانية أن يكون له دورًا إيجابيًّا في فهم النفس البشرية. وهذا الموقف جعل كثيرين من التيار العلموي[2] يتهمون يونغ بالتصوف[3]، وبأن ما قدمه يندرج تحت (العلم الزائف)[4].

الكثير من آراء فرويد لم تصمد ولم يعد لها مكان مهم في علم النفس المعاصر، وكذلك هو الأمر مع يونغ، لكن في الوقت ذاته فإن الأفكار الرئيسة ليونغ عن (الأنماط الأولية) وانتقالها عبر (اللاوعي الجمعي) أخذت تجد دعمًا كبيرًا من حقول علمية مختلفة[5]،

(1) Westen, D. (2005). *Sigmund Freud.* In E. N. Zalta (Ed.), **Internet Encyclopedia of Philosophy**. https://iep.utm.edu/freud-r/

(2) **العلموية (Scientism)** هي الاعتقاد بأن المنهج العلمي هو الطريق الوحيد أو الأسمى لمعرفة الحقيقة، وأن كل ما لا يمكن قياسه أو اختباره علميًّا هو وهم أو لا قيمة له. ينتقدها كثيرون لأنها تُقصي الفلسفة، والدين، والتجربة الإنسانية من دائرة الفهم المشروع.

(3) *Lachman, Gary (2010). Jung the Mystic. New York: Tarcher/Penguin. p. 258. ISBN 978-1-58542-792-5.*

(4) Fritscher, L. (2025, July 8). *What collective unconscious theory tells us about the mind.* Verywell Mind. https://www.verywellmind.com/what-is-the-collective-unconscious-2671571

(5) Stevens, A. (2015). *Archetype Revisited: An Updated Natural History of the Self.* Routledge. https://www.routledge.com/Archetype-Revisited-An-Updated-Natural-History-of-theSelf/Stevens/p/book/9781138824690

مثل علم النفس التطوري وعلم الأحياء[1]، كما أخذ البعض يقارنها بـ(التكيفات النفسية العالمية Global Psychological Adaptations)[2].

كذلك دخل إرث يونغ عن «الأنماط الأولية» عالم التسويق وبنجاح كبير، حيث أخذت الشركات الكبرى تستثمر في هذه الأنماط عبر حملاتها التسويقية لكي تجذب (لا وعي المستهلك المستهدف) ويشعر بالقرب أكثر من منتجاتها[3].

كذلك، فإن فرضيات يونغ هي الأساس الذي بُني عليه مؤشر اختبار الشخصية (Myers Briggs Test Indicator- MBTI)، وهو الاختبار الأكثر شعبيةً واستخدامًا في الشركات العالمية (80 بالمائة من قائمة Fortune الـ 500 و89 بالمائة من قائمة Fortune الـ 100 تستخدم هذا الاختبار في التوظيف[4]) رغم أن هذا الاختبار ليس له أسس علمية متينة ويعتبره أكاديميون كثيرون غير موضوعي ولا قيمة له[5].

---

(1) Bal, A. (2017). *New perspectives on the unconscious mind and their comparison with Carl Jung's theory of the archetypes and the collective unconscious: A literature review. ResearchGate.* https://www.researchgate.net/publication/335260095_New_Perspectives_on_The_Unconscious_Mind_and_Their_Comparison_with_Carl_Jung%27s_Theory_of_The_Archetypes_and_The_Collective_Unconscious_A_Literature_Review

Goodwyn, E. (2010). *Approaching archetypes: Reconsidering innateness. Journal of Analytical Psychology, 55*(4), 502–521. https://doi.org/10.1111/j.1468-5922.2010.01862.x

(2) **Walters, S.** (1994). *Algorithms and archetypes: Evolutionary psychology and Carl Jung's theory of the collective unconscious. Journal of Social and Evolutionary Systems, 17*(3), 287–306. https://doi.org/10.1016/1061-7361(94)90013-2

(3) Tsai, S.-P. (2006). Investigating archetype-icon transformation in brand marketing. *Marketing Intelligence & Planning, 24*(6), 648–663. https://doi.org/10.1108/02634500610701708

(4) Mejia, Z. (2017, June 12). *If you have this personality type, chances are you're making more money than your co-workers.* CNBC. https://www.cnbc.com/2017/06/12/workers-with-this-myers-briggs-personality-type-earns-the-highest-annual-income.html

(5) Yancey-Bragg, N. (2019, May 7). *Here's why people still take the Myers-Briggs test — even though it might not mean anything.* USA TODAY. https://www.usatoday.com/story/news/nation/2019/05/06/myers-briggs-type-indicator-does-not-matter/3635592002/

لكن مبادئ يونغ في الأنماط الأولية أصبحت تعتبر أداةً معتبرةً في دراسة وفهم تأثير الشخصيات التاريخية على العقل الجمعي، **ولا يعني هذا أنها تمثل تحليلًا نفسيًّا لهذه الشخصيات التاريخية**، بل تمثل كيف نظر لها العقل الجمعي وكيف تعامل مع إرثها عبر التاريخ[1].

ما علاقة كل هذا الحديث عن (يونغ) و(الأنماط الأولية) بسيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام؟

لا علاقة مع سيرته عليه الصلاة والسلام، العلاقة هي مع سيرتنا نحن معه، مع «سيرة حبنا» له.

العلاقة هي مع (علاقتنا) نحن به عليه الصلاة والسلام، علاقة الحب التي قد نعبر عنها أحيانًا بطرق ما كانت سترضيه عليه الصلاة والسلام.

كيف تساعدنا نظرية الأنماط الأولية على فهم علاقتنا به صلى الله عليه وسلم؟

(1) Lindenfeld, D. (2009). *Jungian archetypes and the discourse of history. Rethinking History, 13*(2), 217–234. https://doi.org/10.1080/13642520902833833

Shadraconis, S. (2013). *Leaders and heroes: Modern day archetypes. LUX: A Journal of Transdisciplinary Writing and Research from Claremont Graduate University, 3*(1), Article 15. https://scholarship.claremont.edu/lux/vol3/iss1/15/

ما هذه الأنماط الأولية؟

لفهم ذلك علينا أولًا أن نتعرف على أهم هذه الأنماط الأولية[1] في الشخصية الإنسانية، التي تكررت في الموروث الشعبي حول العالم وعبر التاريخ على نحو يشير إلى وجود استعداد فطري عند البشر للتركيز على هذه الأنماط والتأثر بها.

فلننتبه هنا إلى أن كل نمط من هذه الأنماط الأولية يضم جانبًا يمكن أن يحتوي على نقاط ضعف، لكنها لن تكون موجودة في علاقتنا بسيرته عليه أفضل الصلاة والسلام، فهو أكمل البشر، ولكنها موجودة عند الناس العاديين وستمر هنا فقط للتوضيح.

أولًا: النقي، البريء، المثالي The Innocent

في كل عصر وكل مكان كان فيه بشر هناك أساطير أو حكايات عن العصر الذهبي (السابق أو القادم) حيث الحياة مثالية أو ستكون مثالية. يرى البريء أن الحياة يمكن أن تكون مثالية، العالم يجب أن يكون أفضل مما هو عليه، في داخل كل منا، هناك طفل عفوي بالغ الثقة بما حوله، قد يكون معتمدًا على الآخرين قليلًا، لكنه متفائل بأن الرحلة إلى عالم أفضل ممكنة.

أعظم نقطتي قوة لهذا النمط هي ثقته وتفاؤله، وهذان قد يجعلانه «محبوبًا» من الآخرين، وبالتالي يمكنه من الحصول على المساعدة والدعم في سعيه، تعاطفنا مع هذا النمط هو في حقيقته تعاطف مع جزء منسي من براءتنا ونقائنا.

يكمن الخطر الرئيس في هذا النمط في أنه قد لا يكون قادرًا على رؤية نقاط ضعفه، وتفاؤله المفرط قد يجعله بعيدًا عن حقائق الواقع.

يمكن لهذا النمط أن يعبر أيضًا عن شخصية المتدين صادق الإيمان، المتعبد الذي يتحول نقاؤه إلى علاقة مع مصدر النقاء الأول، الخالق عز وجل.

---

(1) الأنماط المستخدمة هنا هي نسخة محدثة من عمل يونغ، ومستندة إلى عمل كارول س بيرسون وهي عالمة نفس استندت إلى عمل يونغ وجوزيف كامبل لبناء ما عرفته بالنظام الإثني عشري للأنماط الأولية.
Pearson, C. S. (1991). *Awakening the heroes within: Twelve archetypes to help us find ourselves and transform our world.* HarperOne.

ثانيًا: اليتيم Orphan The

يدرك اليتيم، عبر وعيه المبكر بالفقد، أن كل شخص مؤثر ومهم، وأن غياب شخص واحد فقط قد يساوي انهيار العالم. في أعماقه هناك طفل مجروح باليتم، مع سقف توقعات منخفض جدًّا من الحياة، ولكن هذا أيضًا يعلمه أن يفهم «معاناة الآخرين»، يجعله أقرب إلى الواقع، إلى الشارع حيث الحياة الحقيقية التي لا تمنح شيئًا بالمجان.

لأن اليتيم يفقد جزءًا مهمًّا من الحب غير المشروط الذي يتمتع به بقية الأطفال فإنه يفهم مبكرًا معنى (الأخذ والعطاء في العلاقات الإنسانية، الاعتماد المتبادل بين الأقران) - ويفهم أيضًا الواقعية التي اضطر أن يتعلمها في سن مبكرة.

الخطر هو أن البعض منهم يقعون في عقلية الضحية وبالتالي لا يحققون موقفًا بطوليًّا أبدًا.

علينا أن ننتبه أيضًا أن نموذج اليتيم يسمى أحيانًا بنموذج «الرجل العادي everyman»، وهو الإنسان الذي يشبهنا جميعًا، يشبه جارك ويشبهك ويشبه الرجل الذي ينتظر الحافلة على الرصيف المقابل. رغم بساطة هذا النموذج فإنه تكرر كثيرًا لأننا نتفاعل مع التشابه بيننا وبينه، ويجعلنا أكثر تأهبًا وتقبلًا لكل ما يمكن أن يمر به هذا «العادي» من أحداث غير عادية.

ثالثًا: المحارب/ البطل The Warrior

عندما تضيق الأمور وتستحكم الحلقات، ويظن الجميع أنها النهاية، يركب المحارب جواده ويشهر سيفه ليغير كل شيء. النمط الأولي للمحارب صلب وشجاع، يساعده على تحديد الأهداف وتحقيقها، والتغلب على العقبات، والاستمرار في أشد الأوقات صعوبة، وغالبًا ما يميل إلى التفكير بطريقة (إما/أو) التي لا تقبل التفاوض والحلول الوسط.

المحارب بسيط نسبيًّا في طريقة تفكيره، ويسعى ببساطة إلى الفوز والانتصار في كل ما يواجه بما في ذلك غيلان الأساطير التي تعيش داخل العقل.

التحدي الذي يواجهه هو إضفاء معنى على ما يفعله واختيار معاركه بحكمة، وهو ما يفعله غالبًا عبر الشجاعة والالتزام بانضباط المحارب.

النمط الأولي للمحارب يمكن أن يلهم الطالب الذي يواجه امتحانًا مصيريًّا صعبًا، أو الأرملة تكافح لتربية أطفالها وتخطف لقمتهم بعرق جبينها، أو مريض بالاكتئاب

يصارع من أجل التمسك بالحياة، أو مفكر يحارب الفكر السائد بفكرة يراها أكثر صوابًا وأقرب إلى الحقيقة.

أعمق مخاوفه هي الضعف والعجز.

رابعًا: الراعي/ مقدم الرعاية The Caregiver

نمط الراعي هو نموذج حي على الإيثار، الشخص الذي يجد نفسه في مساعدة الآخرين، يتحرك بالرحمة والكرم ونكران الذات لمساعدة الآخرين.

وجود هذا النمط في داخلنا يساعدنا في تربية أطفالنا ومساعدة المحتاجين وبناء مؤسسات للحفاظ على الحياة والصحة.

المثل الأعلى لهذا النمط هو الأم التي تقدم لأطفالها الرعاية والحب والاهتمام دون شروط. ولكن النمط يتوفر أيضًا في الكثير من الشخصيات التي تقدم الرعاية والاهتمام لأشخاص لا تربطهم بهم رابطة قرابة أو حتى معرفة.

من المخاطر التي يتعرض لها مقدم الرعاية أنه في سعيه لمساعدة الآخرين ينسى نفسه، وقد ينتهي به الأمر إلى التعرض للأذى الشخصي نتيجة ذلك.

خامسًا: الباحث The Seeker

يميل نمط (الباحث) إلى الخروج من منطقة الراحة والاعتياد التي تحيط بالأشياء ويخرج ليكتشف ويستكشف المجهول بحثًا عن الحق والحقيقة، أو عن حقيقة ما، أو عن منظومة أكثر عدلًا، أو أرض جديدة ومجتمع جديد، أو ربما يبحث عما يحقق له ذاته. هذا النمط الصلب داخليًّا يبحث عن مسارات جديدة متحديًا الشعور بالوحدة والعزلة التي قد تأتي مع هذا البحث ولأنه غالبًا ما يكون معارضًا للسائد فإنه يساعدنا على اكتشاف تفردنا، وجهات نظرنا وقضايانا. يهدف الباحث إلى العثور على شيء يجعل الحياة «أفضل» أو على الأقل يمنحها معنى أعمق. الباحث يعتنق التعلم والطموح، ويتجنب الاعتماد على الآخرين، فهو يحتاج إلى أن «يقوم بذلك بنفسه».

لكنه قد يسقط في فخ البحث الذي لا ينتهي إلى شيء، البحث للبحث بحد ذاته.

سادسًا: المحب/ العاشق The Lover

يعبر نمط «المحب» عن الحاجة الإنسانية العميقة إلى الارتباط، التي قد تبدأ منذ انفصال الجنين عن أمه لحظة الولادة. هذه الحاجة تعبر عن نفسها بطيف واسع من المشاعر تجاه الأشخاص والأماكن وحتى الأشياء، ويشعر المحب من خلالها أن ارتباطه يحقق له نوعًا من الطمأنينة الداخلية، تتدرج مشاعر الحب تجاه الأشخاص من الحب للأم أو الأب والصداقات البسيطة إلى الحب بين الرجل والمرأة.

يخشى المحب أن يفقد الحب الذي حصل عليه مما يدفعه إلى بذل جهد كبير للحفاظ على علاقته بمن يحب.

سابعًا: الهادم أو المتمرد The Destroyer

يطلق نمط الهادم أو المتمرد «الغضب المكبوت» تجاه المؤسسات السائدة والمدعومة التي قد تقوم باستغلال الناس واستلابهم ويحول غضبه إلى أداة هدم لهذه المؤسسات.

نمط الهادم يحتوي على مفارقة واضحة فهو يزيل الأعشاب الضارة في الحديقة بطرق تسمح بنمو جديد. والهدم الذي يمارسه يحتوي ضمنًا على رغبة بناء شيء بديل، أكثر من رغبة التدمير المحض.

لا يهتم الهادم كثيرًا بأمانه الشخصي، مما قد يعرض حياته وحياة من معه للخطر.

الهدف النهائي للهادم هو التغيير، التخلص مما يثير غضبه والعودة إلى التوازن، إنه يعتقد أن دورة الحياة كانت تمر في خلل، وهو لا يريد أكثر من أن يعيدها إلى طبيعتها.

الخطر الذي يحدق إلى هذا النمط هو ألا يعقب هدمه بناء.

ثامنًا: المبدع The Creator

يمثل نمط المبدع كل أنواع الإبداع دون حدود من أعلى الفنون وأعقدها إلى أصغر ابتكار في نمط الحياة أو العمل. نمط «المبدع» مضاد للحالة المستقرة الثابتة ويمكن أن يتسبب ببعض الإرباك بأفكاره الجديدة دومًا، رغم ذلك، فعندما يوظف بشكل صحيح، فهو يساعدنا على التعبير عن أنفسنا وفهمها بطرق عميقة ويضيف بابتكاراته إلى حياة الناس ما يسهلها ويذلل صعوباتها.

يسعى المبدع إلى إثبات «أفكاره» في الخارج من عقله عبر تحقيقها على أرض الواقع.

وأكبر مخاوفه هو أن تكون أفكاره غير مبدعة وغير أصيلة، أو أن يفقد قدرته على الإبداع، فيفقد بذلك جزءًا من ذاته وهويته.

تاسعًا: الحاكم The Ruler

يلهمنا النمط الأولي للحاكم الالتزام بالقانون و«تحمل المسؤولية» عن حياتنا وفي مجالات عملنا وفي المجتمع ككل، لكن مع (الحكم) هناك إغراء دائم وهو إغراء «السيطرة على الآخرين» فإذا تغلب الحاكم على هذا الإغراء فإنه يخلق بيئة جاذبة لكل جهود ومواهب ووجهات نظر الآخرين.

الهدف النهائي للحاكم هو خلق النظام والمؤسسات وبالتالي خلق مجتمع فعال يستطيع فيه رعايا الحاكم أن يعيشوا حياة منتجة وسعيدة نسبيًّا.

الخوف الذي يملكه هذا النمط هو فقدان السيطرة الذي قد يقود إلى الفوضى، أحيانًا يكون النظام والفوضى قريبين من بعضهما بأكثر مما نعتقد.

عاشرًا: المُحوِّل The Transformer [1]

افتُتن البشر منذ بدء التاريخ بفكرة التحويل، تحويل شيء إلى شيء آخر وتغيير حالة إلى أخرى، كان ذلك يتمثل كثيرًا في شخصية الساحر الذي يستخدم قوى غامضة لإحداث التحويل، لكن جوهر هذا النمط ليس «عمل السحر» أو «خرق القوانين الطبيعية» بل القيام بعملية التغيير والتحويل من حالة إلى حالة أخرى، وإذا كانت الأمثلة الأسطورية تقدم قصصًا خرافية مثل تحويل الأمير إلى ضفدع أو تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، فإن التحويل الأكثر واقعيةً ورشادًا هو في إحداث التغيير في بناء الإنسان ونفسيته وسلوكه.

يبحث النمط الأصلي للمُحوِّل عن القوانين الأساسية للعلم و/ أو الميتافيزيقيا لفهم كيفية تحويل المواقف والتأثير في الناس وجعل الرؤى تتحول إلى حقائق.

---

(1) في الأصل الساحر (The magician)، ولكن فضلت استخدام تعبير بديل لسوء سمعة الكلمة.

إذا استطاع المُحوِّل التغلب على إغراء قواه في للتلاعب بالآخرين، فإنه يحفز الطاقات من أجل الخير.

الحادي عشر: الحكيم The Sage

يسعى نمط الحكيم إلى الوصول إلى البصيرة والموضوعية ومعرفة الحقائق التي تحرر الإنسان من جهله وتحيزاته المسبقة.

هذا النمط يساعدنا في أن نرى دواخل أنفسنا بموضوعية، ويعملنا كيف نرى العالم ببصيرة منفتحة ويلهمنا أن نصحح مسار حياتنا بناءً على تحليلات موضوعية لنتائج أفعالنا وخياراتنا.

الخطر على نمط الحكيم يأتي من أن تكون نقطة الانطلاق في رحلته خاطئة، أي أن تكون حكمته مبنية على رمل الباطل، وأن يستغل حكمته للسيطرة على الآخرين.

يتداخل هذا النمط أحيانا مع نمط النقي عندما تكون حكمته تعبر عن قيم دينية صافية.

***

هذه هي الأنماط الأولية[1] الشائعة والمتكررة في أساطير وحكايات الشعوب البدائية[2] أي التي يعتقد تيار علم النفس المرتبط بيونغ أننا ورثناها عبر «اللاوعي الجمعي»، وهي أنماط تملك كما هو واضح بالإضافة إلى صفاتها الإيجابية، جانبًا سلبيًّا مظلمًا أطلق عليه يونغ الظل. فالحاكم قد يتحول إلى مستبد، والمتمرد قد يتحول إلى فوضوي، والمبدع قد يتحول إلى شخص خيالي غارق في الأوهام، واليتيم قد يتحول إلى أسير في دور الضحية، والمحارب قد يدمن الانتصار بمعزل عن القضية، وهكذا.

يمكننا أن نجد شخصياتٍ معاصرة ينطبق عليها هذا النمط أو ذاك من هذه الأنماط، كما يمكن أن نذكر بسهولة تأثرنا بشخصيات في أعمال أدبية وفنية كانت تمثل واحدة أو أكثر من هذه الأنماط الأولية.

---

(1) حسب بيرسون هناك نمط آخر لا يناسب المقام وهو نمط المضحك أو المهرج وأهميته هامشية تاريخيًّا.

(2) التركيز على أن هذه الأنماط استلت من حكايات الشعوب البدائية لأن هذه الشعوب لم تكن تمتلك فرصة التواصل فيما بينها، ورغم ذلك امتلكت نفس الأنماط أي أن هذا النمط أصيل في اللاوعي الجمعي، بينما الشعوب الأحدث يمكن أن تتواصل مع بعضها وتتبادل التأثيرات.

بعبارة أخرى، حسب ما سبق أعلاه، فإن **لا وعينا الجمعي يجعلنا «مبرمجين» على التأثر والارتباط بشخصيات تمثل هذه الأنماط.**

لدينا، في أعماقنا، مناطق معينة تتصرف مثل «برادة حديد» مع قطب المغناطيس.

لكل منطقة برادتها الخاصة التي تنجذب إلى قطب مغناطيس مختلف.

... لكن مرة أخرى.

ما علاقة كل هذا بسيرة حبنا للرسول عليه الصلاة والسلام؟

أزعم أنا، أنه عليه الصلاة والسلام هو الشخص الوحيد في التاريخ الذي يمكن أن نرى ونستشعر (في سيرته وشخصه وسنته) كل هذه الأنماط الأولية، وبجانبها الإيجابي تحديدًا.

هذه الأنماط ترتب عادة على شكل دائري، يبدأ بالـ (النقي)، وينتهي بالـ (مبدع)، وأنا أزعم أنه عليه الصلاة والسلام هو الوحيد الذي جعل هذه الدائرة مغلقة.

كل الأنبياء قبله وكل القادة والمصلحين قبله وبعده حققوا أجزاءً من هذه الدائرة، لكنه وحده عليه الصلاة والسلام جعل هذه الدائرة مغلقة.

ولم يكن هذا كله مصادفة، أو جهد شخصي، بل هو جزء من النبوة الخاتمة، جزء من تقديره عز وجل وفضله وتيسيره.

وهو جزء من رحمته عز وجل بنا، أنه ترك في فطرتنا ما يجعلنا نحبه عليه الصلاة والسلام هذا الحب الذي لا يشبه أي حب آخر..

***

ليس هذا تحليل نفسي لشخص الرسول الكريم، حاشا نفسه الكريمة الشريفة أن تخضع لتحليل أو تشريح، بل هو تحليل لنا نحن، لحبنا له، تحليل لهذا الحب الذي يشكل جزءًا مهما من شخصيتنا وهويتنا وفهمنا لأنفسنا.

تحليل لهذا الحب الذي لا يفهمه الآخرون، لأنهم لم يعرفوا شيئًا مقارب له.

يمكننا بسهولة أن نرى في أنفسنا تأثرًا وارتباطًا بجزء (اليتيم) من سيرته الكريمة. أو جزء (المحب)، المحب الوفي الذي بقي يحمل أعمق المشاعر للسيدة خديجة رضي الله عنها حتى بعد وفاتها- أو جزء (الباحث) الذي رفض معتقدات قومه قبل أن يأتيه

الوحي، أو جزء (المُحوِّل) الذي غير البشر ومن ثم العالم، أو جزء (الحكيم) قبل الوحي وبعده...

أفترض أنا أن هذا كله مرتبط بأعماقنا بأكثر مما نعتقد، وأن هذا الارتباط لا علاقة له بالضرورة بتربيتنا على حبه عليه الصلاة والسلام ونشأتنا عليها، بل إن النفس الإنسانية المبرمجة على وجود أنماط أولية تجعلنا نحبه لأنه قدم النموذج الأعلى لهذه الأنماط.

وأزعم أن فهمنا لهذه الفرضية، سيجعلنا نحب أكثر، وبطريقة ترضيه عليه الصلاة والسلام أكثر.

***

سأشير إلى هذه الأنماط في بعض مواقف السيرة الشريفة.

لكني أريد من القارئ أن ينتبه إلى سيرة علاقته هو بسيرة سيد الخلق عليه الصلاة والسلام.

وسينتبه أن فيها الكثير من هذه الأنماط.

***

لماذا الحديث عن هذا مع السيرة في المدينة؟

لماذا لم يكن الأمر منذ أن كتبت عن السيرة في مكة؟

ربما لأن الأمر يصبح أكثر وضوحًا في المدينة، ربما لأننا يمكن أن نرى «الصورة الكبيرة» عندما نصل معه عليه الصلاة والسلام إلى المدينة..

لسنوات وأنا أتامل في لحظة الوصول الفارقة بين زمنين...

ما الذي حدث حقًّا فيها...ما الذي جعل الأمور تتغير هكذا؟

لقد ظهر اكتمال الدائرة هنا في المدينة، وعندما اكتملت، تدفق النور ليغير كل شيء.

كل شيء.

الباب الأول

هلال البدايات

قبل الحقيقة، بعد زوال السراب

الحديث الذي رواه عروة بن الزبير عن وصوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة يستحق الوقوف مطولًا والتأمل بدقة في تفاصيله.

(عن عُروةَ بنِ الزبيرِ أن رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- لَقِيَ الزبيرَ في رَكْبٍ مِن المسلمينَ؛ كانوا تجارًا قافلينَ مِن الشامِ، فكَسا الزُّبيرُ رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- أبا بكرٍ ثيابَ بَياضٍ، وسمِعَ المسلمونَ بالمدينةِ مَخْرَجَ رسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- مِن مكَّةَ، فكانوا يَغْدُونَ كلَّ غداةٍ إلى الحَرَّةِ، فيَنْتَظِرونَهُ حتى يَرُدَّهُم حرُّ الظهيرةِ، فانْقَلبوا يومًا بعدَ ما أطالوا انْتِظارَهُم، فلمَّا أووْا إلى بيوتهم؛ أوْفى[1] رجلٌ من يهودَ على أُطُمٍ مِن آطامِهِم[2] لأمرٍ ينظُرُ إليهِ، فبَصُرَ برسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- وأصحابِهِ مُبَيَّضِينَ، يَزولُ بِهِمُ السَّرابُ، فلم يملِك اليهوديُّ أنْ قالَ بأعْلى صوتِهِ: يا مَعاشِرَ العربِ! هذا جَدُّكُم الذي تَنْتَظِرونَ. فثارَ المسلمونَ إلى السِّلاحِ، فتَلَقَّوْا رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- بظَهْرِ الحَرَّةِ[3]،...)[4]

نحن الآن في الفترة بين فترتين.

---

(1) أوفى: أشرف، طلع.

(2) أطم: بناء مرتفع أو حصن.

(3) الحرة هي هضبة طويلة ممتدة شرق المدينة، وتعرف بهذا الاسم بسبب وجود حجارة وصخور بركانية التي تجعلها شديدة الحرارة، وهناك «حرات» عديدة في المدينة، والمقصود هنا هي الحرة الشرقية أو حرة واقم.

(4) صحيح البخاري: 3905.

هذه هي الفترة التي تفصل بين فترتين. مكية، ومدنية.

على مشارف المدينة، على بعد بضع كيلومترات منها، أصبح عليه الصلاة والسلام الآن خارج سيطرة قريش تمامًا.

لقد خرج من مكة وفترتها، لكنه لم يدخل المدينة وزمنها بعد.

في الطريق إلى المدينة، يقابل الرسول عليه الصلاة والسلام الزبير وكان في قافلة راجعة من الشام.

الزبير يهدي الرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه ثيابًا بيض، من البضاعة التي كان قد رجع بها من الشام.

فلنتذكر أن مسيرة الهجرة -التي أوشكت على نهايتها- قد استغرقت قرابة أسبوعين، وتضمنت هذه المسيرة اختباءً في الغار لثلاثة أيام.

لا بدَّ أن ثيابه عليه الصلاة والسلام وثياب من معه قد تعرضت لما تتعرض له أي ثياب بقيت على صاحبها لأسبوعين في الصحراء وتضمن ذلك اختباء داخل غار ضيق.

بعبارة أخرى، لا بدَّ أن الصحراء قد تركت آثارها على ثياب الرسول عليه الصلاة والسلام.

لكن قافلة قادمة من الشام، فيها الزبير، سيتقاطع طريقها مع طريقها، وسيهدي الزبير الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ومن معه، ثيابًا بيضًا جديدة.

وسيكون لهذه الثياب البيض دور في هذا المشهد الذي يوشك على البدء.

بياض يزيل السراب

حسب حديث عروة، فإن المسلمين علموا بقرب وصول النبي عليه الصلاة والسلام، وأخذوا يخرجون كل يوم إلى (الحَرَّة) في خارج المدينة، ينتظرون قدوم الرسول عليه الصلاة والسلام، لحين اشتداد الحر في الظهيرة، حيث كانوا يعودون إلى بيوتهم.

بعد ظهيرة يوم من أيام هذا الانتظار المترقب، وبعد أن عاد المسلمون لبيوتهم، صعد يهودي إلى سطح حصن من حصونهم، وهناك رأى شيئًا في الأفق.

رأى السراب الذي يراه الجميع، الذي يراه في كل مرة يصعد فيها إلى سطح هذا البناء أو ذاك، ولكن هذه المرة رأى شيئًا يزيل السراب، يزيحه... شيئًا أبيض يخترق السراب.

إنها تلك الثياب البيض التي أهداها الزبير للرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه.

تلك الثياب التي جعلت هذا اليهودي المجهول يميز قدوم النبي من بعيد، ويعبر عن هذا بقول عبقري لعله لم يكن يدرك مدى عبقريته يوم قاله.

«مُبَيَّضِينَ يزول بهم السراب».

للوهلة الأولى سيبدو قوله مجرد وصف «حسي» لما رآه.

لكن ثمة دلالات رمزية تتفوق على المعنى المباشر لهذا الوصف.

كان كل شيء ينطبق عليه هذا الوصف، بأكثر مما تحتمل الكلمات.

كل شيء قبل ذلك كان سرابًا، أو شبه سراب.

لا شيء في الأفق غير سراب كاذب، مجرد وهم بصري ناتج عن انكسار أشعة الشمس بين منطقتين متفاوتتين في الحرارة.

ثم، شيء أبيض، يقتحم السراب بالتدريج، يخرج من السراب، يظهر تارة ويختفي أخرى فلا يعود السراب سرابًا.

ها هو البياض يتقدم أكثر، يحمل ملامح ركب بعيد.

ثلاثة رجال عليهم ثياب بيض، يقتربون.

ومع كل خطوة، يتبدد السراب.

***

ذاك الرجل اليهودي على السطح صرخ بما يدل على أنه قد فهم الكثير ممن يتعامل معه من المسلمين.

صرخ بهم: يا معاشر العرب، وفي رواية (يا بني قيلة)[1] -وقيلة هي الجدة المشتركة للأوس والخزرج-، هذا جَدُّكُم الذي تنتظرون.

الجد في لسان العرب يعني الحظ، والسعد، والجلال، والعظمة.

(1) الصحيح من أحاديث السيرة النبوية: (1/159).

وقال البغوي في شرح السنة: يَعْنِي: حظكم ودولتكم الَّتِي كُنْتُم تتوقعونها[1].

لا نعرف إن أسلم هذا اليهودي لاحقًا أو لا.

لكننا نعرف أنه قد فهم الكثير جدًّا عن هذا الذي أوشك على البدء. عن الفترة المدنية التي دخلت مرحلة العد التنازلي.

لقد وقف على السطح لينجز أمرًا من أموره، ثم رأى شيئًا في الأفق...ثم قال كلامًا في العمق.

في منتهى العمق.

فثار المسلمون إلى السلاح..

أي وثبوا إلى السلاح. ولعل هذا أسلوب لاستقبال ضيف مهم كان معروفًا عند العرب في الجاهلية، وهو لا يزال قائمًا حتى الآن في بعض مناطق الريف.

ولكن، في ذلك السياق، في تلك الظروف التي خرج فيها النبي الأكرم من مكة، يمكن للسلاح، وللثورة إليه أن يكون لهما معنى ورمزًا أكبر بكثير من مجرد استقبال ضيف مهم.

«السلاح» هنا يحقق البيعة التي بايعها الأنصار للنبي في العقبة الثانية، بيعة نصرته والدفاع عنه، بيعة الحرب.

لحظات فقط، منذ أن انشق السراب ليكشف عن الحقيقة، ولكن في هذه اللحظات حدث ما يلخص الفترة المدنية القادمة...

الدولة، العز، والجلال والعظمة.

لكن ليس بلا ثمن: بل مع السلاح.

اللقاء في قباء

(.. فعَدَلَ بهِم ذاتَ اليمينِ، حتَّى نزلَ بهِمْ في بَني عمرِو بنِ عوفٍ، وذلك يومَ الإثنينِ مِن شهرِ ربيعٍ الأولِ، فقامَ أبو بكرٍ للنَّاسِ، وجلَسَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- صامِتًا، فطَفِقَ مَن جاءَ مِن الأنصار ممَّنْ لمْ يَرَ رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-

(1) شرح السنوي للبغوي: (13/ 365).

يُحَيِّي أبا بكرٍ، حتَّى أصابَتِ الشمسُ رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-، فأَقبَلَ أبو بكرٍ حتَّى ظَلَّلَ عليهِ بردائِهِ، فعَرَفَ النَّاسُ رسولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - عندَ ذلك).[1]

خرجوا إليه، مع أسلحتهم، ليلتقوا به في الطريق.

لكنه لم يكمل معهم إلى المدينة.

بل عدل بهم إلى أقرب «حي» أو ضاحية من موضع اللقاء الذي كان خارج «الحرة».

وكان ذلك الحي هو منازل عمرو بن عوف، الذين سكنوا «قباء» خارج المدينة المنورة بنحو ثلاث كيلومترات.

نحن على بعد كيلومترات فقط من المدينة...

يمكن قطع المسافة في أقل من ساعة مشيًا على الأقدام.

لكنه فضَّل عليه الصلاة والسلام أن ينزل قباء، قبل أن يدخل المدينة.

لماذا؟

لا نعرف قطعًا ما السبب وراء ذلك، ولا يمكن الجزم بأي شيء.

ولكن لو حاولنا تصور الأمر فإن سببًا ما قد يتضح، أو على الأقل يصبح محتملًا.

الرسول عليه الصلاة والسلام في طريقه إلى المدينة، أهلها يهبون للترحيب به، فيلتقون به على بعد بضع كيلومترات.

أعدادهم تتزايد، بعض الروايات تقول إن العدد وصل إلى خمسمئة[2].

كان قرار الذهاب إلى منازل بني عوف بن عمرو قرارًا يخص التوازنات التي سيحرص الرسول عليه الصلاة والسلام السير عليها في المدينة.

كيف؟

الذهاب إلى المدينة مباشرة، والالتقاء بأهلها هناك، كان سيحتم أن يحدث ذلك في منزل أحد «زعماء المدينة»، وقد طالب كلهم ذلك بالفعل، تكريمًا له عليه الصلاة والسلام..

(1) صحيح البخاري: 3905.

(2) التاريخ الأوسط للبخاري: (8/1).

لكن حدوث ذلك مع وجود تاريخ طويل وقريب من العداء بين «الأوس» و«الخزرج» سيجعل النزول عند أي زعيم من الطرفين بمنزلة ترجيح لطرف على آخر، وهو أمر ما كان يريد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يمر به.

أما بنو عمرو بن عوف، فالذهاب إليهم واللقاء عندهم فلن يحسب على أي طرف، هم من الأوس أساسًا، لكن اختيارهم كان مبنيًّا على أسس الموقع لا أكثر، لن يحسب ذلك محاباةً للأوس أو تجاهلًا للخزرج.

في الوقت نفسه، فإن انتماء بني عمرو بن عوف للأوس، كان سيبدد أي شكوك عند عموم الأوس، بوجود محاباة عنده عليه الصلاة والسلام -حاشاه- للخزرج بناءً على أن أخواله بني النجار من الخزرج (وهم في الحقيقة أخوال جده عبد المطلب).

اللقاء إذن عند بني عمرو بني عوف. في قباء.

الحياء الجميل والصمت المهيب.

خلال دقائق، سيحدث شيء قد يبدو بسيطًا لكنه سيخبرنا الكثير عنه عليه الصلاة والسلام.

سيجعلنا نقترب منه أكثر.

نتمنى أن نجلس بين يديه.

نكون من هؤلاء الخمسمائة الذين نالوا هذا الشرف، خرجوا عند الظهيرة فور أن سمعوا الخبر..

لكن، لو كنا من هؤلاء الخمسمائة، وتكون هذه هي أول مرة نرى الرسول عليه الصلاة والسلام، **فإننا لن نعرف أيٌّ من الرجلين اللذين عليهما البياض كان الرسول وأيهما كان أبو بكر.**

هذا بالضبط ما حدث.

الرجلان غريبان عن يثرب -في عمر واحد تقريبًا- عليهما البياض نفسه الذي أهداه لهما الزبير.

في مواقف كهذه، الجموع المترددة تتبع أول من يتخذ قرارًا ويبادر، هذه ظاهرة معروفة في علم نفس الجماهير[1]، يفترض الناس أن أول مَن بادر قد فعل لأنه يعرف أكثر.

في هذه الحالة كان من الطبيعي جدًّا أن الجمع المتردد سيحسم أمره عند أول شخص يتقدم لأي من الرجلين مُرحِّبًا به، وهو يعتقد أنه الرسول عليه الصلاة والسلام.

وأسهم في حسم ذلك أن أبا بكر قد قام للناس.

افترض أكثر من شخص أنه لا بدَّ أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام...واتبعهم الجمع في ذلك.

غالبًا لو كنا معهم سنفعل الشيء ذاته.

(.... فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَامِتًا، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الأَنْصَارِ -مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ،....)[2]

وجلس رسول الله صامتًا.

لو أننا نقترب منه في هذه اللحظات، بينما الجموع تحيي أبا بكر ظنًّا أنه هو وهو صامت..

صلى الله عليه، ما أجمله!

ما أجمل هذا الصمت! ما أفصحه! ما أكثر ما يقول!

هذا الصمت المهيب، لا ندري كم استمر، لكنه استمر بحيث لاحظه ونقله مَن رواه.

لم أفهم ما قاله أبو سعيد الخدري عن حياء الرسول إلا بالربط بهذا المشهد، بهذا الصمت المهيب.

كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا»[3]. كنت أقول في نفسي: كيف؟ كيف يكون حييًّا إلى هذه الدرجة؟

(1) سيكون لنا وقفة معها لاحقًا.

(2) صحيح البخاري: 3905.

(3) صحيح البخاري: 3562.

ثم فهمت، عندما ربطت بهذا المشهد، وهذا الصمت، وهذا الجمال المتدفق حتى من صمته.

في ذلك الصمت، أحاول أن أُنصتَ إلى الكلمات المتدفقة، إلى النبع المتفجر من صمته.

سنسمع في الصمت المهيب، والحياء الجميل عن تواضعه، عن تفضيله عدم تبيان أنه هو الرسول كي لا يحرج الناس المرحبين ولا يحرج أبا بكر..

لم يعرفوه أولًا..

وعندما عرفوه، فقد **(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهًا وأحسنهم خلقًا)**[1]، **(وكان إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر)**[2] **(مثل الشمس والقمر وكان مستديرًا)**[3].

(ما رأيت أجمل من رسول الله)[4]، **(وهو أَحْسَنُ فِي عَيْنِي مِنَ الْقَمَرِ)**[5].

وكلها أوصاف تتعدى الشكل الخارجي إلى الأبعاد الأعمق، الجوهر الأكثر أهمية في حسابات الارتباط..

الشكل الخارجي الذي لم يميزوه أولًا جعلهم لاحقًا يدخلون إلى ذلك الجمال الآسر، الحضور الباهر الذي يكتسح العقول والقلوب.

بعض من هؤلاء الذين قالوا هذه الأوصاف عن الرسول عليه الصلاة والسلام ربما كانوا من الخمسمائة الذين ذهب بعضهم ليحيي أبا بكر وهو يظن أنه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام..

ولكن تلك كانت مجرد اللحظة الأولى، حتى قبل أن يقول كلمة واحدة..

ثم عندما عرفوه، حلقوا إلى الشمس والقمر والنجوم والكواكب والمجرات البعيدة...

***

(1) صحيح البخاري: 3549.

(2) صحيح البخاري: 3556.

(3) صحيح مسلم: 2344.

(4) سنن ابن ماجه: 3599.

(5) المستدرك على الصحيحين: 7383.

في صمته المهيب ربما ننصت أيضًا إليه وهو يناجي ربه.

يسجد له وهو جالس صامتًا بين الناس.

يسبح بحمده ويستغفره.

لعله تذكر الطائف والصبية يركضون خلفه..، تذكر سَلا الجزور التي وضعها عقبة بن أبي المعيط عليه في سجوده، تذكر الحصار، تذكر عمه وهو يصد الناس عنه.

كانت رحلة طويلة بين زمنين.

ولم يسبق له أن مر بشيء مماثل كهذا الذي يحيط به الآن.

خمسمائة! خمسمائة ومعهم سلاحهم!

جاؤوا لينصروه.

حتى في البيعة الثانية، كان العدد يتجاوز السبعين، ولكنها كانت في السر، تحت ستار الليل...

الآن، في وضح النهار.

ما تصوره البعض سرابًا، أصبح حقيقة.

النظرة الأولى

... حتَّى أصابَتِ الشمسُ رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-، فأَقبَلَ أبو بكرٍ حتَّى ظَلَّلَ عليهِ بردائِهِ، فعَرَفَ النَّاسُ رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم - عندَ ذلك...

أصابته الشمس، هو الذي سيكون لهم كالشمس بعد ظلام دامس.

دلتهم الشمس عليه، كما لو أنها تستغرب أنهم لم يعرفوه.

فأقبل أبو بكر يظلله بردائه...لفتة عبقرية من الصديق، لم يجرح بها أحد من الذين توهموا أنه الرسول، وعبر في الوقت ذاته عن مكانة الرسول عليه الصلاة والسلام وحبه له.

فعرف الناس رسول الله عند ذلك...

التفتوا إليه، يجلس صامتًا بأنبل وأكرم ما يمكن للحياء أن يكون.

كانت هذه النظرة الأولى، النظرة الأولى بعد أن عرفوا أنه الرسول عليه الصلاة والسلام.

في موقف كهذا، لا بدَّ أنه كان حبًّا من النظرة الأولى..

كيف يمكنك ألا تحب هذا الرجل وقد رأيته في هذا الموقف، كنت سأقول: كيف يمكن ألا تقع في حب هذا الرجل؟

لكن «الوقوع» ضد كل ما جاء به هذا الرجل عليه الصلاة والسلام.

لقد جاء بالقيام...وبالقيام جاء.

لا وقوعَ في حبه عليه الصلاة والسلام، بل حبه اليد التي تمتد إليك، تساعدك في النهوض من وقوعك.

ومن واقعك.

مفارقة الغياب: أين كان المهاجرون وأصحاب البيعتين؟

وهج لحظة الوصول واللقاء غطَّى على سؤال منطقي: أين كان المهاجرون وأصحاب البيعتين في العقبة ممن يعرفون النبي عليه الصلاة والسلام؟

من الواضح من سياق الواقعة المذكورة أن أغلب من خرج لاستقبال النبي من أهل المدينة كان ممن لم يروه...فأين كان المهاجرون والأنصار ممن سبق ورأوا النبي عليه الصلاة والسلام؟

من المحتمل أنهم لم يتوقعوا وصوله من هذه الجهة، فكانوا يترقبون ظهوره من ناحية أخرى، وعندما انتشر خبر وصوله في المدينة لم يصل الخبر كاملًا محدَّدًا جهة الوصول، أو أن الخبر وصل، ولكنهم اعتبروا هذا التفصيل خاطئ، فهرعوا إلى الجهة التي توقعوا وصوله منها.

لكن لماذا يتوقعون وصوله من جهة أخرى وقباء أو جنوب المدينة هي الجهة المتوقعة للقادم من مكة؟

مرَّ بنا أن الزبير التقى بالنبي عليه الصلاة والسلام بينما كان في قافلة راجعة من الشام، حيث أهداه الثياب البيض، لكننا لا نعرف أين كان هذا اللقاء وأين كان مقصد الزبير، علمًا أن خبر عودة قافلة الشام في هذه الفترة يتفق مع الحسابات العلمية التي

ترجح دخول المدينة في شهر سبتمبر من عام 623 هجرية[1]، وهو توقيت مناسب لعودة القوافل التجارية من رحلة الصيف التي تذهب إلى الشام.

إذا كان الزبير متجهًا إلى المدينة من الشام فهذا يعني أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد تجاوز المدينة ليدخلها من الشمال على العكس من الطريق المتوقع جنوبًا، وذلك استمرارًا بأخذ الحذر من مشركي قريش ومؤامراتهم، ويكون الزبير قد أرسل من يخبر المهاجرين في المدينة أن الرسول عليه الصلاة والسلام فتوقعوا وصوله شمالًا، من ناحية الشام.

ولكنه عليه الصلاة والسلام مرة أخرى أخذ الحذر، فربما كان هناك في القافلة من يسرب الخبر إلى عين من عيون قريش أو حلفاء لها، فرجع جنوبًا ليدخل المدينة من ناحية قباء.

أما لو كان الزبير قاصدًا مكة بقافلته (وهذا المتوقع إذ إننا لم نعرف أن المدينة قد تحولت لتكون مركزًا للتجارة في هذه المرحلة) فيحتمل أن يكون قد التقى بالرسول الكريم جنوب المدينة، فإذا كان الأمر كذلك، فسيكون عدم وجود المهاجرين وأصحاب البيعتين في استقبال النبي عليه الصلاة والسلام مجرد تأخر في وصول الخبر لهم.

أيام في قباء

فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَأُسِّسَ المَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى[2]

بضع عشرة ليلة؟

أليس هذا كثيرًا؟

العدد المحدد لبقائه في قباء مختلف عليه -أقله ثلاث ليال- وأكثره اثنتان وعشرين ليلة[3].

حتى لو سلمنا بالعدد الأقل... لماذا البقاء في قباء وهي على مرمى عصا من المدينة؟ لا يحتاج الأمر إلى أكثر من مسير أقل من ساعة على القدمين.

---

(1) مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة. «الأبحاث العلمية.» موقع السيرة، https://www.alsirah.com/الأبحاث-العلمية/ تم الدخول إليه بتاريخ 22 يوليو 2025.

(2) صحيح البخاري: 3905.

(3) السيرة النبوية لابن كثير: (2/292).

لا يمكن الجزم بشيء، يمكن أن تكون هناك حزمة من الأسباب لا سبب واحد.

لكن يُخيَّل لي أن تتمة الجملة تفسر الأمر.

وَأُسِّسَ المَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى.

هل تأسيس المسجد يتطلب كل هذا الوقت؟

الحديث ليس عن بناء كبير يحتاج إلى وقت طويل، هذا المسجد لم يمر بمراحل البناء المعقدة المعتادة اليوم، وهو كان بالأصل مربدًا لكلثوم بن الهدم[1]، والمربد هو الموضع الذي يجمع فيه التمر ليجف، وهبه كلثوم للرسول عليه الصلاة والسلام فأعده ليكون مسجدًا.

قد نفهم أن يكون المكوث من أجل بناء المسجد مدة يومين أو حتى ثلاثة.

لكن الروايات الأصح توصل العدد إلى أكثر من هذا بكثير: بضع عشرة ليلة.

ما الأمر؟ لماذا بقي عليه الصلاة والسلام هذه المدة في قباء إذا كان بناء المسجد لا يحتاج إلى كل هذا الوقت؟

على الأغلب بسبب الأساس الذي بُني عليه المسجد.

التقوى.

حراء في قباء؟

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدرك حتمًا أنه قد تجاوز المنطقة التي بقي فيها أغلب الأنبياء والرسل في فترة حياتهم، منطقة (الأقلية المؤمنة)، المضطهدة، التي تحمل إيمانها وتخرج فقط لتنجو به. مر بذلك لثلاث عشرة سنة، لكنه تجاوزه، والآن هو في المنعطف الذي سيطل منه على مرحلة مختلفة تمامًا، قلة من الأنبياء والرسل وصلوا لها.

مرحلة مختلفة، تحمل معها صعوبات المرحلة السابقة، ولها بالتأكيد صعوبات خاصة بها.

هو الآن، في قباء، على عتبة الدخول في هذه المرحلة، على بعد خطوات منها، في هذه المرحلة بين المرحلتين، قرر عليه الصلاة والسلام أن يخلو إلى ربه، كما كان يتعبَّد

(1) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: (3/267).

في حراء قبل أن ينزل عليه الوحي، لكن هذه الخلوة مختلفة، لن ينعزل بها عن العالم، بل سيؤسس مسجدًا يصلي فيه الناس معه.

سيد التقوى وإمام المتقين، لعله كان يريد أن يتزود بها لهذه المرحلة.

لعله كان «يتقوى» بالتقوى.

لعله كان يستمد القوة من التقوى، القوة منه عز وجل، ولكن عبر التقوى...

عليه أفضل صلاة وسلام، خير البشر.

***

هناك صورة ذهنية سائدة عند كثيرين عن التقوى، قد لا تكون مرتبطة كثيرًا بالقوة، وربما تكون، للأسف، مرتبطة بعكس ذلك.

لكن التقوى في حقيقتها يمكن أن تكون مصدرًا للقوة ووسيلة بناء.

التقوى يمكن أن تكون قوية لدرجة أن أساسات البناء يمكن أن تقوم عليها.

بعد مدة من الزمن، ستنزل آية تتضمن

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة: 197)

وجاء في سبب نزولها: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ أَهْلُ اليَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ المُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] [البقرة: 197]

كانوا لا يتزودون بالطعام، هكذا فهموا التوكل على الله، أن يمضوا في رحلة عبر الصحراء دون زاد، ليقينهم أن من توكلوا عليه سيوفر لهم الزاد في الطريق دون تدبير منهم.

ونزلت الآيات لتصحح فهمهم عن التوكل، تزودوا بالطعام والماء، وخيرًا من هذا وذاك تزودوا بالتقوى، مخافة الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه أمر لا ينفصل ولا يستقل عن اتباع الأسباب المباشرة، الطعام والماء في رحلة طويلة في الصحراء، وعلى قمة الأمر: التقوى.

كل مَن تأرجحت تقواه صعودًا وهبوطًا يميز تمامًا أنه كلما كان ضعيفًا أمام شهواته ونفسه، وتكون تقواه «ضعيفة» فإن مواجهته لمصاعب الحياة تكون أشق، وعلى

(1) صحيح البخاري: 1523.

العكس، كلما ارتفع بتقواه، فإن مواجهته لحياته تكون أفضل. كما لو أن الانتصار في معركة الداخل سيكسب النفس سلاحًا إضافيًّا تواجه به الخارج..

وها هو إمام المتقين، يعتبر التقوى أداة بناء فيبني المسجد على التقوى، يصلي به، يناجي ربه، ربما يبث له مخاوفه من هذه المرحلة القادمة التي لم يسبقه إليها أحد من الأنبياء...

كما في حراء قبل أن ينزل الوحي وتبدأ المرحلة المكية، كان عليه الصلاة والسلام يتعبد دون أن يعرف أنه مقبل على حدث كبير...

الآن قباء، على أعتاب الفترة المدنية التي كان عليه الصلاة والسلام واعيًا بأهميتها..

ها هو عليه الصلاة والسلام يتزود بالتعبد والتقوى..

ويؤسس ما سيبقى علامة على ذلك.

***

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فِيمَا يَذْكُرُونَ- عَلَى كُلْثُومِ بْنِ هِدْمٍ، ويقال بَلْ نَزَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ خَيْثمةَ. وَيَقُولُ مَنْ يَذْكُرُ أَنَّهُ نَزَلَ عَلَى كُلْثُومِ بْنِ هِدْمٍ: إِنَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِ كُلْثُومِ بْنِ هِدْمٍ جَلَسَ لِلنَّاسِ فِي بَيْتِ سَعْدِ بْنِ خَيْثمةَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ عَزَبًا لَا أَهْلَ لَهُ، وَكَانَ مَنْزِلُ الْأَغْزَابِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ، فَمِنْ هُنَالِكَ يُقَالُ: نَزَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ خَيْثمةَ، وَكَانَ يُقَالُ لِبَيْتِ سَعْدِ بْنِ خَيْثمةَ: بَيْتُ الْأَغْزَابِ[1]

سيموت كلثوم بن هدم (أو بن الهدم) بعد فترة قصيرة.

أما سعد بن خيثمة، الأعزب، فسنراه لاحقًا في موقف لا ينسى.

***

وفي تلك الأيام التي قضاها في قباء، التحق به عليٌّ ابن أبي طالب الذي بقي في مكة ليرد للناس ودائعها التي ائتمنتها عند الرسول عليه الصلاة والسلام[2]..

(1) سيرة ابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد: (2/99).

(2) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: (3/267) .

هل كان ينتظره، لا يريد أن يدخل المدينة دون علي.. ابن العم الحبيب الربيب والصهر قريبًا؟

ربما...

أما فاطمة فستأتي بعد دخول المدينة بأسابيع.

وفي الركب نفسه، ...عائشة.

(عُرِفَ فِي وَجْهِهِ)

مر شيء عن حياء الرسول عليه الصلاة والسلام في أثناء الحديث عن «صمته المهيب» في قباء، قبل أن يظلله أبو بكر بردائه... فعن أبي سعيد الخدري أنه عليه الصلاة والسلام كان «أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا...ثم قال: وَإِذَا كَرِهَ شَيْئًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ[1].

...عُرِفَ فِي وَجْهِهِ

كان وجهه الشريف عليه الصلاة والسلام مرآة لمشاعره الداخلية، لم يكن يخفي مشاعره، بل كانت تظهر عليه فلا فرق هناك بين خارجه وداخله، يكره الشيء فلا يقول كلمة، ولكن وجهه يقول فيفهم الجميع، لا يتصنع ولا يتظاهر حاشاه.

ما المميز في هذا؟ كثيرون منا يمكن أن يكون لديهم وجوه تحكي كل شيء، حبًّا وكراهية.

نعم، لكن هذه الصفة التي ربما تكون محببة عند أمك أو صديقك أو زميلك في العمل، قد لا تكون كذلك عند القادة والسياسيين ومن يناظرهم في الشركات المعاصرة الكبرى، مثل المديرين التنفيذيين CEO.. بل على العكس قد تضر بهم وبقيادتهم[2].

أغلب هؤلاء، يفضل أن يغطي على مشاعره بحيث لا يفهم من حوله ما يدور في ذهنه أو قلبه، شيء أصبح يعد من ضروريات الدهاء والخبرة والخداع في التفاوض للحصول على أكبر ما يمكن من المكاسب- وهي القابلية التي تعرف شعبيًّا بـ «وجه لاعب القمار

(1) صحيح البخاري: 3562.

(2) Boussalis, C., Coan, T. G., Holman, M. R., & Müller, S. (2021). *Gender, candidate emotional expression, and voter reactions during televised debates.* American Political Science Review, 115(4), 1242–1257. https://doi.org/10.1017/S0003055421000666

poker face» (وتعرف علميًّا بـ «قمع التعبيرات» expressive suppression)[1] حيث يقوم اللاعب بإخفاء مشاعره كي لا يكون لدى اللاعبين الآخرين فرصة لمعرفة أوراقه، وينصح خبراء الإدارة المديرين التنفيذيين بضرورة التمرس بها لا في المفاوضات فقط، بل للحفاظ على معنويات فريقهم في حالة وجود أخبار مكدرة[2]. مؤشر هذه القابلية يزداد مع الشخصيات التي تمتلك ما يعرف بـ (ثالوث الظلام) وهي صفات النرجسية والميكافيلية والسايكوباثية[3]، وهذا ثالوث كثيرًا ما يتوفر عند الساسة[4] والزعماء[5] والطامحين بالزعامة[6].

(1) Vanderhasselt, M.-A., Kühn, S., & De Raedt, R. (2013). *'Put on your poker face': Neural systems supporting the anticipation for expressive suppression and cognitive reappraisal.* Social Cognitive and Affective Neuroscience, 8(8), 903–910. https://doi.org/10.1093/scan/nss090

(2) Forbes Coaches Council. (2016, August 26). *Five tips to cultivate a CEO's poker face.* Forbes. https://www.forbes.com/sites/forbescoachescouncil/2016/08/26/five-tips-to-cultivate-a-ceos-poker-face/

(3) Brandes, L. (2020). *The Dark Personality Behind a Poker Face: A Quantitative Study into Dark Triad Personality and Texas Hold'em Poker* (Master's thesis, University of Twente). University of Twente Student Theses. https://essay.utwente.nl/81484/

(4) Greene, K., & Burleson, B. R. (2018). *Managing impressions through emotion regulation: The communicative construction of «poker face».* In A. N. Graham, J. K. Hall, & R. S. Stephenson (Eds.), *Handbook of communication and emotion* (pp. 67–84). Springer. https://doi.org/10.1007/978-3-319-64740-1_4

Chen, P., Pruysers, S., & Blais, J. (2020). *The dark side of politics: Participation and the Dark Triad.* Political Studies, 69(3), 577–601. https://doi.org/10.1177/0032321720911566

(5) Langner, C. A., Epel, E. S., Matthews, K. A., Moskowitz, J. T., & Adler, N. E. (2012). *Social hierarchy and depression: The role of emotion suppression.* Journal of Psychology, 146(4), 417–436. https://doi.org/10.1080/00223980.2011.652234

(6) *Peterson, R. D., & Palmer, C. (2019). The Dark Triad and nascent political ambition. Journal of Elections, Public Opinion & Parties, 32(2), 1–22. https://doi.org/10.1080/17457289.2019.1660354*

Blais, J., & Pruysers, S. (2017). *The power of the dark side: Personality, the Dark Triad, and political ambition. Personality and Individual Differences, 113,* 167–172. https://doi.org/10.1016/j.paid.2017.03.029

حسنًا، ما لنا وكل هذا؟ عليه الصلاة والسلام كان إذا كره شيئًا عرف على وجهه.

بالضبط!

فأولئك الذين يحاولون اعتباره مجرد قائد تاريخي مهم يتجاهلون هذه التفاصيل في شخصيته، نعم كانت له ميزات قيادية بلا شك، لكنها كانت ضمن «شخصية النبي»، وتفوقها صفة الصدق الذي كان يجعل من وجهه شاشة تعرض مشاعره دون أن ينبس ببنت شفة، طالما كان هذا الذي « كرهه» دون ما حرم الله أو نهى عنه.

لو أنه كان مجرد قائد من أهم قادة التاريخ في العالم، لما وصل إلى تلك المكانة دون أن يتمرس على إخفاء مشاعره، يكره شيئًا فعله شخص، فيخفي الشعور، ثم يتخلص من الشخص، بطريقة أو بأخرى، كما يفعل الساسة دومًا.

لكنه عليه الصلاة والسلام، الإنسان أولًا، يشبهنا في نسخنا الأفضل، نسخنا البريئة، قبل أن نتعلم اللف والدوران والخداع.

ظاهره كباطنه، لا خداع ولا مراوغة ولا تغليف لمشاعره.

لماذا نحبه؟

بل كيف يمكن ألا نفعل؟

صلاة وسلام عليه، وعلى قلبه ووجهه الشريفين..

وعلى كل خلية عصبية نقلت ما في قلبه، وأظهرته على وجهه...بيانًا جليًّا يعلن «كم هو صادق في أصغر تفصيل» للعالمين...

النور يدخل المدينة

ثم جاء النور، عندما دخل عليه الصلاة والسلام المدينة.

يقول أنس: **فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ أَنْوَرَ وَلَا أَحْسَنَ** مِنْ يَوْمٍ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ الْمَدِينَةَ[1]

(1) مسند أحمد: 12234.

وقد أكمل قائلًا: «وَشَهِدْتُ وَفَاتَهُ، فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ أَظْلَمَ، وَلَا أَقْبَحَ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ».

أنس بن مالك كان في العاشرة عندما دخل الرسول عليه الصلاة والسلام المدينة. وهو ينقل لنا الحدث بشغف من لم يخف شغفه لعشر سنوات قادمات، لم يكن هناك يوم أكثر نورًا وأحسن من هذا اليوم، ثم يكمل: **وَشَهِدْتُ وَفَاتَهُ، فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ أَظْلَمَ، وَلَا أَقْبَحَ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ.**

هل ما قاله مجازًا؟

لغويًّا نعم، لكن هذا لا ينفي حقيقة ما قال بالنسبة إليه وبالنسبة إلى بضع مئات (على الأقل) من سكان المدينة يومها.

أنس لم يكن يبالغ كما نبالغ عندما نكتب موضوعًا في التعبير.

نرى العالم بشكل مختلف فعلًا عندما نشعر بالفرح، ليس مجازًا، بل هذا ما يحدث فعلًا، أعني أن إدراكنا البصري يتأثر بشكل مباشر بما نشعر به، مشاعرنا الداخلية تؤثر بحيث أن اليوم قد يبدو أكثر إشراقًا أو إظلامًا.[1]

لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ لَعِبَتِ الْحَبَشَةُ لَقُدُومِهِ فَرَحًا بِذَلِكَ، لَعِبُوا بِحِرَابِهِمْ[2]

الفرح كان عامًّا، والنور كان عامًّا...

هل لهذا أنشدوا «**طلع البدر علينا؟**» لأن النور جاء من الشمس والبدر معًا، عندما دخل عليه الصلاة والسلام النور؟

عن عبيد الله بن محمد بن عائشة: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ جَعَلَ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ يَقُلْنَ: طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا * مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ[3]

(1) Zhang, X., Zuo, B., Erskine, K., & Hu, T. (2016). Feeling light or dark? Emotions affect perception of brightness. *Journal of Environmental Psychology, 47*, 107–111. https://doi.org/10.1016/j.jenvp.2016.05.007

Zadra, J. R., & Clore, G. L. (2011). Emotion and perception: The role of affective information. *Wiley Interdisciplinary Reviews: Cognitive Science, 2*(6), 676–685. https://doi.org/10.1002/wcs.147

(2) سنن أبي داود: 4923.

(3) السيرة النبوية لابن كثير: (2/ 269).

يتفق أهل الحديث والباحثون فيه أن سند الرواية التي ذكر فيها هذا النشيد ليس صحيحًا[1].

وفي أحسن الأحوال، فإن هذا النشيد ربما قيل في مرحلة لاحقة، عند عودته عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوك، حيث تلقاه الصبيان عند «ثنية الوداع»[2]، وهي طريق في جبل يمر به من يقصد السفر من المدينة شمالًا إلى الشام.

بعيدًا عن الخلاف في تحديد موقع «ثنية الوداع»، أو إن كان قيل عند مقدم الرسول عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوك أو عند الهجرة، أو بعد مرور سنين من الحادثة وُلد راوي الحديث عبيد الله بن محمد بن عائشة ...

بعيدًا عن كل هذا، هناك حقيقتان ثابتان:

الحقيقة الأولى أن هذا النشيد قد غرس فينا بوصفنا مسلمين على نحو عميق جدًّا، وهذا الغرس ربط كلمات النشيد بخروج المسلمين لاستقبال الرسول عليه الصلاة والسلام عند الهجرة، لا شيء من المشهد والنشيد المصاحب له يمكن أن يتغير، جزء من انتشار هذا النشيد على هذا النحو يعود لفيلم الرسالة، ولكن يُخيَّل لي أن الأمر منتشر قبل ذلك بكثير أيضًا، وأنه ما انتقل إلى فيلم الرسالة إلا بعد أن أصبح من «بديهيات الهجرة».

الحقيقة الثانية هي أن البدر قد طلع علينا بالفعل.

تفاصيل الـ«متى وأين وكيف» مهمة حتمًا للباحثين، لكن بالنسبة إلى وجدان مئات الملايين من المسلمين هذه التفاصيل لا يمكنها أن تغطي على الخبر الأهم: لقد طلع البدر! لا يمكن لك إلا أن تهرع لاستقباله الآن وقد طلع...أما هذه الأسئلة فيمكن مناقشتها لاحقًا.

ولقد طلع البدر علينا بالفعل، بعضنا رآه بوضوح، وأنار ذلك دربه وقلبه وحياته... وبعضنا لم يره، بقي نائمًا، أو اعتقد أنه يمكن تأجيل رؤيته متى ما أراد..

والبعض فضَّل أضواء النيون الباهتة العابرة، بل إن هناك مَن فضَّل الظلام..

(1) Islam Q&A. (2023, November 22). نشيد «طلع البدر علينا». IslamQA. Retrieved July 22, 2025, from https://islamqa.info/ar/answers/119722/

(2) صحيح البخاري: 4427.

لكن الأغلبية رأت مطلع البدر، وعرفت أثر ذلك في حياتها..

وأكثر من عرف ذلك الأثر وقدره، هم أولئك الذين كانوا على وشك الضياع بعيدًا عنه وعن كل ما جاء به، أولئك الذين كانوا على حافة الوداع لكل أمان في حياتهم.. وفجأة، بين ثنيات الوداع الأخير، طلع البدر، كقارب نجاة أخير، يمد لهم يده الكريمة لتنقذهم من «غرقٍ ما» كان يوشك أن يبتلعهم.

نعم، لقد طلع البدر علينا جميعًا.

الباقي مجرد تفاصيل.

البيوت مفتوحة والناقة مأمورة، ولكن...

بعد أن ترك عليه الصلاة والسلام قباء وتوجه إلى المدينة، كانت أبواب كل البيوت في كل الأحياء تُفتح له..

(.. خرج الرسول من قباء وذهب إلَى الْمَدِينَةِ يوم الجمعة...فَأَتَاهُ عِتْبان بْنُ مَالِكٍ، وَعَبَّاسُ بْنُ عُبادة بْنِ نَضلة فِي رِجَالٍ مِنْ بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقِمْ عِنْدَنَا،... فِي العَدد والعُدَّة والمَنَعَة.

قَالَ خَلُّوا سبيلَها: فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، لِنَاقَتِه.

فخلَّوْا سبيلَها؛ فَانْطَلَقَتْ حَتَّى إِذَا وَازَنَتْ دَارَ بَنِي بَيَاضَة، تَلَقَّاهُ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ، وَفَرْوَةُ بْنُ عَمْرٍو، فِي رِجَالٍ مِنْ بَنِي بَيَاضة فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلُمَّ إِلَيْنَا، إِلَى العَدد والعُدة والمَنَعة..

قَالَ: خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

فخلَّوْا سَبِيلَهَا. فَانْطَلَقَتْ، حَتَّى إِذَا مَرَّتْ بِدَارِ بَنِي سَاعِدَةَ، اعْتَرَضَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ عَمْرٍو، فِي رِجَالٍ مِنْ بَنِي سَاعِدَةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلُمَّ إِلَيْنَا إِلَى الْعَدَدِ والعُدة والمنَعة.

قَالَ: خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

فخلَّوْا سبيلها، فانطلقت. حتى إذا وازنت دار بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، اعْتَرَضَهُ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَة، فِي رِجَالٍ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هلُم إِلَيْنَا إِلَى العَدد والعُدة والمَنَعة.

قَالَ: خَلُّوا سَبِيلَهَا، فإنها مأمورة.

فخلَّوْا سبيلها. فانطلقت حَتَّى إذَا مَرَّتْ بِدَارِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ، وَهُمْ أَخْوَالُهُ دِنْيا -أُمُّ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، سَلْمى بِنْتُ عَمْرٍو إحْدَى نِسَائِهِمْ- اعْتَرَضَهُ سَلِيط بْنُ قَيْس، وَأَبُو سَلِيط، أسَيْرة بْنُ أَبِي خَارِجَةَ، فِي رِجَالٍ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلُمَّ إلَى أَخْوَالِكَ، إلَى العَدد والعُدة والمَنَعة.

قَالَ: خَلُّوا سبيلَها فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ،

فخلَّوْا سَبِيلَهَا، فَانْطَلَقَتْ....حَتَّى إذَا أَتَتْ دَارَ بَنِي مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ بَرَكَتْ عَلَى بَابِ مَسْجِدِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَوْمئِذٍ مِرْبَد[1] لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، ثُمَّ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ، وَهُمَا فِي حِجر[2] مُعاذ بْنِ عَفْراء، سَهْل وسُهَيْل ابْنَيْ عَمْرٍو، فَلَمَّا بَرَكَتْ، وَرَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَيْهَا لَمْ يَنْزِلْ، وَثَبَتَ فَسَارَتْ غيرَ بَعِيدٍ وَرَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَاضِعٌ لَهَا زِمَامَهَا لَا يَثْنِيهَا بِهِ، ثُمَّ الْتَفَتَتْ إلَى خَلْفِهَا، فَرَجَعَتْ إلَى مَبْرَكِهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَبَرَكَتْ فيه، ثم تَحلْحَلت ورزَمت وألقت بجرانِها[3] فَنَزَلَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...)[4]

(..عن صِدِّيقُ بْنُ مُوسَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَاسْتَنَاخَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ بَيْنَ دَارِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ وَدَارِ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدٍ، فَأَتَاهُ النَّاسُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمَنْزِلُ، فَانْبَعَثَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ: «دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ حَتَّى جَاءَتْ بِهِ بَابَ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ فَاسْتَنَاخَتْ بِهِ، فَأَتَاهُ النَّاسُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمَنْزِلُ، فَانْبَعَثَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ حَتَّى جَاءَتْ بِهِ مَوْضِعَ الْمِنْبَرِ فَاسْتَنَاخَتْ بِهِ ثُمَّ تَحَلَّلَتْ، وَلِلنَّاسِ ثَمَّ عَرِيشٌ كَانُوا يَرُشُّونَهُ، وَيُقِيمُونَهُ، وَيَتَبَرَّدُونَ فِيهِ فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ رَاحِلَتِهِ فَأَوَى إلَى الظِّلِّ، فَنَزَلَ فِيهِ وَأَتَاهُ أَبُو أَيُّوبَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ مَنْزِلِي أَقْرَبُ الْمَنَازِلِ إلَيْكَ فَانْقُلْ رَحْلَكَ إلَيَّ، قَالَ: «نَعَمْ» فَذَهَبَ بِرَحْلِهِ إلَى الْمَنْزِلِ،

(1) موضع لتجفيف التمر.

(2) في حجر: في رعاية وكفالة.

(3) ثبتت في مكانها وألقت بعنقها.

(4) سيرة ابن هشام (2/100-101)، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد.

ثُمَّ أَتَاهُ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ انْزَلْ عَلَيَّ، فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ مَعَ رَحْلِهِ حَيْثُ كَانَ»..)[1]

واقعة بروك الناقة و«خلوا سبيلها فإنها مأمورة» من الوقائع المنتشرة التي لم تثبت[2]. ولكن ليس كل ما لم يثبت بسند صحيح لم يحدث بالضرورة، ليس في الرواية ما هو ممتنع عقلًا بحيث يقود عدم ثبوتها إلى رفضها.

ما ثبت هو ما يلي:

عن أنس، قِيلَ فِي المَدِينَةِ: جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ، جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَشْرَفُوا يَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ، جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ، فَأَقْبَلَ يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَ جَانِبَ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ... فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّ بُيُوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ». فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَذِهِ دَارِي وَهَذَا بَابِي، قَالَ: «فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لَنَا مَقِيلًا»، قَالَ: قُومَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ[3]

وعن أنس: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، وَأَبُو بَكْرٍ رِدْفُهُ، وَمَلَأُ بَنِي النَّجَّارِ حَوْلَهُ، حَتَّى أَلْقَى بِفِنَاءِ أَبِي أَيُّوبَ..[4]

وهذه الواقعة التي رواها أنس بن مالك رضي الله كشاهد عيان بسند صحيح في البخاري ومسلم لا تتعارض بالضرورة مع الروايات الأخرى، التي تضمنت «خلوا سبيلها فإنها مأمورة». فرواية أنس تروي المشهد من بعيد كما هو واضح، والروايات الأخرى تروي التفاصيل الأقرب من الرسول عليه الصلاة والسلام، والرواية الثابتة من ناحية الصحة «وصفت» المشهد، ولكنها لم تفسره ولم تخبرنا كيف ولماذا اختير هذا المكان ليكون موضعا لنزوله عليه الصلاة والسلام.

ليس هذا فحسب، بل إن واقعة «خلوا سبيلها..» تتضمن تفاصيل اعتراض القبائل لطريقه عليه الصلاة والسلام ومحاولة كل عشيرة استضافته وتقديم «العدد والعدة

(1) سنن سعيد بن منصور: 2978.

(2) السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين/ د. أكرم ضياء العمري: (1/2119-221).

(3) صحيح البخاري: 3911.

(4) صحيح مسلم: 524.

والمنعة».. وهي تفاصيل منطقية ومتوقعة تمامًا، أن تتنافس بطون وعشائر الأوس والخزرج على استضافة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتخلو منها رواية أنس.

من المؤكد أن «محاولات الاستضافة» قد حدثت من قبل كل مَن مَرَّ بأحيائهم الرسول عليه الصلاة والسلام، هذا أمر بديهي ولا يعيب رواية أنس الصحيحة أنها لم تذكر؛ فالبديهيات لا تحتاج إلى ذكر.

لكن رواية سيدنا أنس، لا تقول لنا كيف تعامل الرسول الأكرم مع محاولة كل طرف استضافته والفوز بشرف مكوث الرسول عنده...

بعبارة أخرى: في ظل الحساسيات «النائمة، ولكن الموجودة» بين الأوس والخزرج، فإن قبول الرسول لدعوة أي طرف كان يمكن أن تثير حساسية الطرف الآخر الطامع في شرف استضافته عليه الصلاة والسلام.

لذلك كان إلقاء الأمر على عاتق الناقة وسيلة ذكية لرفع الحرج عن الجميع، الأمر كان مثل (القرعة) التي لا يمكن أن يلومها الخاسر من المقترعين، لا يمكن لأحد أن يعتبر أن ثمة تحيزًا لهذا الطرف أو ذاك لأن الناقة بركت عنده، فلننتبه هنا إلى أن القوم حديثو عهد بالإسلام، وهناك جروح ملتئمة قد يستثمر في نكأها البعض.

«خلوا سبيلها فأنها مأمورة» إذن، لو ثبتت، فستكون وسيلة ذكية ودبلوماسية منه عليه الصلاة والسلام لردم أي احتمال لفتنة بين الأوس والخزرج، ستكون أكثر من «بعد نظر» و«حسن إدارة»، بل هي «جزء من حكمة النبوة» التي تنتبه لأدق التفاصيل وتراعي الحساسيات وتحرص على ألا يجرح أو يحرج أحد، وفي الوقت ذاته، تمضي قدمًا في تحقيق أهدافها.

للأسف، فإن هناك من فهم أن الأمر كان استسلامًا لكل ما تأتي به الريح، وترك الأمور تسير خبط عشواء أو كيفما اتفق، دون تخطيط أو تدبير. استخدمت العبارة أحيانًا لتبرير الفوضى وعدم التخطيط بدعوى أن النبي عليه الصلاة والسلام ترك الناقة فهي مأمورة. قيل عن أحداث مهمة فيها أطراف متنازعة، دعوها فإنها مأمورة، على العكس تمامًا مما حدث في قصة الناقة.

فلنتذكر هنا أن سياق حادثة «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» لم يكن عن «بناء المسجد» كما يفهم البعض اليوم، بل كان عن موضع نزوله عليه الصلاة والسلام، وليس هناك ما

يشير إلى أنه عليه الصلاة والسلام قد أشار إلى أن موضع بروك الناقة سيكون مسجدًا له، كل السياق كان عن نزوله هو هنا، عليه أفضل صلاة وأتم تسليم.

أما إن المطاف انتهى عند منازل بني مالك بن النجار فقد ذلك كان متوقعًا لأنها آخر ما في المدينة من تجمعات سكنية، وتوازيها غربًا منازل بني معاوية من الأوس، وشرقًا منازل لبني ساعدة من الأوس، وشمالها أرض فضاء وبساتين لغاية جبل سلع، وفي الرواية في سنن سعيد بن منصور أن الأرض هناك فيها مكان يستظل به ويرشونه ويتبردون فيه، والجمال تميل إلى مكان أكثر برودة إذا أتيح لها ذلك.

بل إن خروج رجالات وسادات العشائر تباعًا لمحاولة استضافته عليه الصلاة والسلام يتفق إلى حد كبير مع معرفتنا الحالية بمواقع منازل هذه العشائر في خط السير من قباء وصولًا إلى منازل بني مالك بن النجار، فبنو سالم بن عوف أولًا، ثم بنو بياضة وبنو ساعدة[1]، ثم بنو الحارث بن الخزرج، يليهم بنو عدي بن النجار (أخوال والده)، ثم بنو مالك بن النجار.

(1) في رواية ابن هشام بنو بياضة سبقوا بني ساعدة رغم أن موقع منازلهم يلي منازل بني ساعدة، لكن التسلسل صحيح في السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبّان (1/142).

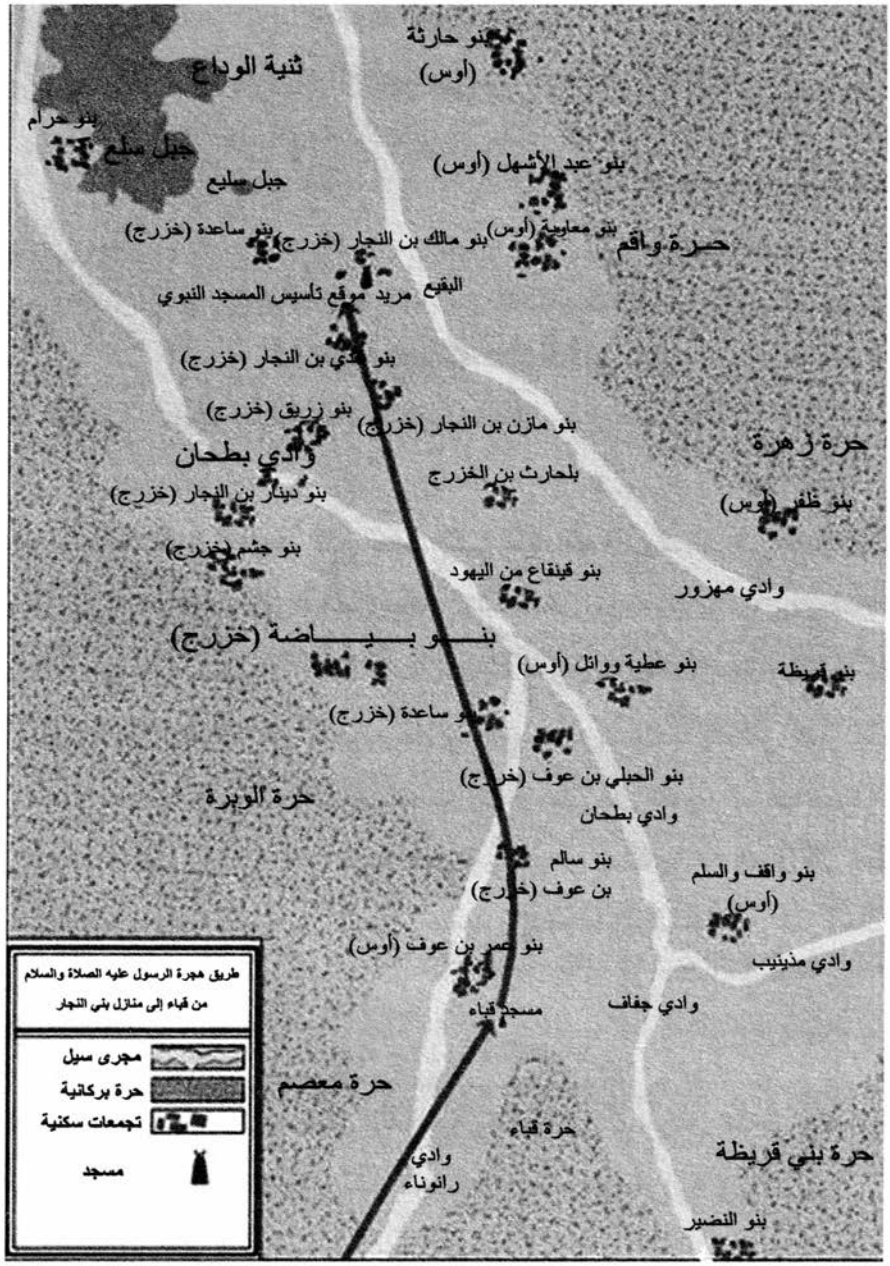

الخريطة من:

شعبان، أحمد محمد. (2004). طريق هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من قباء إلى المدينة المنورة. *مجلة بحوث المدينة المنورة ودراساتها*، العدد 8، ص ص. 89–108.

https://search.emarefa.net/detail/BIM-32424

ليس بوجه كذَّاب

من ذلك الاستقبال المهيب الذي حدث للنبي عليه الصلاة والسلام في المدينة تأتينا شهادة من شاهد عيان، من شخص حضر ليستكشف بنفسه، يريد أن يرى هذا الذي يقول إنه نبي وعاداه قومه وآمن به آخرون، وجاء لكي يراه بنفسه، دون حكم مسبق.

الشهادة من عبد الله بن سلام، رجل يهودي سنعرف لاحقًا أنه من كبار اليهود ومن أحبارهم، مما يعني أنه كان في مقتبل العمر على أقل تقدير. لمَ هذا مهم الآن؟ لأن شهادته ستكون مبنية على خبرة حياتية يمكن أن يمتلكها من وصل إلى مقتبل العمر، شخص عرف الناس، ومر بتجارب معهم ذاق مرها وعرف حلوها وخبر معادنهم بصالحها وطالحها.

قال عبد الله بن سلام في شهادته عن لحظة اللقاء الأولى:

قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ[1]...

انجفل الناس إليه. أي ذهبوا مسرعين نحوه.

انتشر خبر وصوله، وأسرع الناس، منهم مَن آمن به، ومنهم مَن سمع به فقط ولم يتخذ قلبه قراره بعد، ومن أراد أن يرى هذا الذي يهرع الناس لرؤيته، مجرد فضول.

(1) سنن الترمذي: 2485.

وكان عبد الله بن سلام من الذين سمعوا، وكانت عنده تساؤلاته، رجل من مكة يقول إن الوحي ينزل إليه، أي شخص عاقل يجب أن يتبين أولًا قبل أن يقرر أن يصدق أو يكذب.

فجئت في الناس لأنظر إليه..

أمشي مع الناس إذ يمشون نحوه، لا أحكام مسبقة، لا قرار رفض أو قبول مسبق، كل شيء يعتمد على ما سيحدث لاحقًا، ربما فكر عبد الله بن سلام أن رفضه سيكون من لقاء واحد، أما تصديقه فسيتطلب عدة لقاءات.

..... فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ[1]...

فلما استبنت.

لما عرفت أنه هو.

لما وصلت إلى حيث عرفت أن هذا هو الرجل الذي اجتمع عليه الناس.

لما نظرت إلى وجهه.

ماذا حدث؟

عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب.

هكذا -فورًا- لما استبان وجهه عرف ذلك.

لم يجلس ليجادله أو يطلب منه أن يقرأ له القرآن أو يطالبه بمعجزات -سأله لاحقًا كما سيأتي بيانه- لكن في اللحظة الأولى عرف أنه ليس بكاذب.

ربما عبد الله بن سلام كان يريد من هذا اللقاء أن يجد شهادة نفي، أن ينظر إلى وجه القادم من مكة فيقول في نفسه: لا. لا يمكن أن يكون صادقًا.

لكن ما حدث كان أنه رأى وجهه، قبل أن يسمع كلامه رأى وجهه.

رأى وجهه فقط.

لم يقل إنه شاهد النور منبعثًا من محياه عليه أفضل الصلاة والسلام.

---

(1) سنن الترمذي: 2485.

قال فقط ما قاله.

هذا ليس بوجه كاذب.

وهذا كافٍ لكي يبني عليه ما بُني لاحقًا.

بمجرد أن استبان وجهه، قبل أن ينطق.

عرف.

حكم من أول نظرة؟

هل يمكن أن يحدث هذا؟ الحكم من أول نظرة؟ من نظرة واحدة فقط؟

لقد حدث بالفعل مع عبد الله بن سلام، ولا بدَّ أنه حدث مع كثيرين عندما شاهدوه عليه الصلاة والسلام، شاهدوه وعرفوا فورًا أن وجهه ليس بوجه كذاب.

فلنحاول أن نفهم الأمر على الصعيد النفسي والإنساني، هناك آلية إنسانية تتيح لنا أن نحكم هكذا.

سنضرب أمثلة عامة تمر بحياتنا اليومية لكي نستطيع أن نقترب قليلًا مما شعر به عبد الله بن سلام، هذه الأمثلة تقرب لنا الأمر، والأمثلة تضرب ولا تقاس، ولا وجه شبه أو مقارنة مع حضرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

نريد أن نفحص الآلية البشرية فقط.

***

يحدث فعلًا، أن تلتقي بشخص وتشعر أنه ليس بكذاب.

نتحدث هنا عن شخص عادي، يتحدث معك عن تجربة شخصية مر بها، أو عن ظلم تعرض له، أو عن أحلامه وطموحاته. فتشعر بصدقه فيما قال.

شخص آخر، يتحدث معك عن تجربة مماثلة، بالتفاصيل نفسها، ولكن لا يصلك صدقه، بل تعمل كل راداراتك على رفض ما يقول، هناك شيء ما في لا وعيك يقول لك أن ثمة خطأ ما.

الكثير من الناس يملكون هذا الشعور، مزيج من الفراسة وتراكم الخبرات ومراقبة (لا واعية) لأنماط السلوك، تنتهي بهم إلى الوصول إلى الحكم على الأشخاص من نظرة واحدة.

لا نتحدث هنا عن (ملامح الوجه)، فكثير من الناس يحكمون عليها بالفعل، هذا ملامحه طفولية فيتوهمون البراءة، وهذا ملامحه قاسية فيتوهمون شره، ولكن هذا يقود كثيرًا إلى الأخطاء في الحكم على البشر[1].

الحديث في الحقيقة عن (تعابير الوجه)، عن وضع عضلات الوجه التي ليس من السهل تزييفها، والتي تفتح نافذة إلى الداخل، يستطيع من يمتلك بصيرة ما أن ينظر من خلالها.

يطور بعض البشر عبر تاريخ خبراتهم المتراكمة آلية للحكم السريع على الأشياء والأشخاص عبر نظرة سريعة قد لا تتجاوز أجزاء من الثانية، تفسر هذه الآلية عبر نظرية (التقطيع الرفيع Thin Slicing)[2] التي جرى تداولها منذ تسعينيات القرن الماضي في مجال علم النفس، التي تعني باختصار أن الحصول على لمحات بسيطة من حدث ما، أو قطعة رفيعة منه، قد يساعد على الاستنتاج والوصول إلى حكم عام، بناء على خبرات تربط هذا الجزء البسيط بنمط متكرر من السلوك.

فيما يخص الصدق، هناك قطع رفيعة أو أجزاء بسيطة تظهر على الوجه، هناك نظرة ثابتة وعميقة وهادئة، الصادق لا يحاول أن يتهرب بعينيه منك، لا يظهر أي تشنج على عضلات وجهه في مبالغة أو انفعال، تكون عضلات وجهه مسترخية دون تكلف. ابتسامته طبيعية دون جهد عضلي وتصل إلى عينيه. عيناه تبتسمان وليس شفتاه فقط، حضوره واثق دون توتر، لا يحاول أن يفرض شيئًا عليك[3].

(1) Baker, A., Porter, S., ten Brinke, L., & Mundy, C. (2016). Seeing is believing: Observer perceptions of trait trustworthiness predict perceptions of honesty in high-stakes emotional appeals. *Psychology, Crime & Law, 22*(9), 850–865. https://doi.org/10.1080/1068316X.2016.1190844

(2) LitCharts. (n.d.). *Blink: Chapter 1—The theory of thin slices: Summary & analysis.* https://www.litcharts.com/lit/blink/chapter-1-the-theory-of-thin-slices

(3) Ekman, P. (2009). *Telling lies: Clues to deceit in the marketplace, politics, and marriage* (4th ed.). W. W. Norton & Company.

Song, R., Over, H., & Carpenter, M. (2016). Young children discriminate genuine from fake smiles and expect people displaying genuine smiles to be more prosocial. *Evolution and Human Behavior, 37*(6), 490–501. https://doi.org/10.1016/j.evolhumbehav.2016.05.002

العضلات حول الحاجب، الفك، والفم غالبًا تكون مرآة لما في الداخل، كلما زادت الأقنعة الاجتماعية زاد التشنج في هذه العضلات وبان الجهد عليها[1].

وعلى العكس كلما كانت مسترخية، بانت إشارات الصدق.

***

حاول أن تتخيل عبد الله بن سلام.

نتمنى جميعًا أن نكون مكانه، ندعو الله أن يرزقنا مكانًا مماثلًا أو مشابهًا.

حاول أن تتخيله، عبد الله بن سلام، يذهب في زحمة الناس التي تركض لتراه عليه الصلاة والسلام. يتدافع بين الناس، يزيح هذا الكتف، ويحاول أن يرفع رأسه...

ثم الوجه الشريف.

لا أقنعة.

ابتسامة مسترخية بلا تشنج.

يبتسم فتبتسم معه عيناه.

العين الهادئة التي تلتقي بعينك لتطرق أبواب قلبك، دون محاولة، وبتلقائية.

الحضور الهادئ العميق الذي يفرض وجوده دون تسلط.

تكاد تسمع عبد الله بن سلام يقولها كتحصيل حاصل، كبديهة من بديهيات الحياة، حقيقة مثل الشمس وتعاقب الليل والنهار.

تكاد تسمعه: ليس هذا بوجه كذّاب.

وتقول نعم.

وكل هذا قبل أن ينطق حتى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) Dong, Z., Wang, G., Lu, S., Dai, L., Huang, S., & Liu, Y. (2022). Intentional-deception detection based on facial muscle movements in an interactive social context. *Pattern Recognition Letters, 164*, 30–39. https://doi.org/10.1016/j.patrec.2022.10.008

وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»[1]

أول ما قال: أفشوا السلام.

لعلنا تعودنا الأمر، لكنه لم يكن كذلك يوم قالها عليه الصلاة والسلام.

تعودنا أن السلام هو التحية التي نلقيها على بعضنا بعضًا، لكن يومها لم يكن الأمر قد ساد وانتشر كما هو اليوم، على الأقل بين الجميع.

كان لعرب الجاهلية عدة عبارات يستخدمونها للتحية، لا نعرف أيًّا منها كان الأكثر انتشارًا في المدينة قبل الهجرة، لكن ربما كانت واحدة من هذه: حييت صباحًا أو حييت مساءً، أنعم صباحًا أو مساءً، أو أنعم الله بك عينًا، عش ألف عام، أبيت اللعن.

هذه عبارات التحية التي كانت سائدة آنذاك، بعضها لا تزال لها مرادفات مستخدمة حتى اليوم.

لكنه عليه الصلاة السلام يتحدث عن إفشاء السلام، عن نشره بين الناس، لا عن التحية بالسلام فحسب، يتحدث عن إشاعة السلام في مجتمع سبق أن مر بالحروب والنزاعات والثارات، أمر لا يمكن أن يكون دون أثر في هذ السياق، سياق دخوله على هذ المجتمع.

والسلام لا يعني المسالمة فحسب، بل يعني أيضًا المعافاة والخلو من الآفات.

وهو أيضًا اسم من أسماء الله الحسنى.

عن عبد الله ابن مسعود قَالَ: «**إِنَّ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَضَعَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ، فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ، إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَلَّمَ عَلَى الْقَوْمِ فَرَدُّوا عليه كانت عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ، لِأَنَّهُ ذَكَّرَهُمْ**»[2]

تتمة ما قاله عليه الصلاة والسلام يومها، والذي نقله عبد الله بن سلام أقرب إلى أن يكون توصيفًا لما يكون عليه إفشاء السلام. **أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام.**

(1) سنن الترمذي: 2485.

(2) صحيح الأدب المفرد: 1039.

عليه الصلاة والسلام يقوم بذلك على الفور بالفعل.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ، نَحَرَ جَزُورًا أَوْ بَقَرَةً»[1]

وصل الأرحام في هذا السياق كان له معنى أيضًا بالإضافة إلى المعنى العائلي المباشر الذي يخصنا جميعًا. فرغم حروبهما كانت هناك مصاهرات كثيرة بين الأوس والخزرج، بل إنهما في الأصل من رحم واحدة، فقد عرفا أنهما معًا يسميان ببني قيلة، وقيلة هي قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو بن عامر بن ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، جدة الأوس والخزرج.

وصلوا بالليل والناس نيام، هذا أيضًا سلام، لكنه سلام داخلي هذه المرة، سلام يجعلهم أقوى وأكثر قدرة.

سلام يحاول أن يقترب من ذلك السلام الذي ظهر على وجهه الشريف، عندما رآه ابن سلام أول مرة.

وقال: هذا ليس بوجه كذاب.

---

(1) صحيح البخاري: 3089.

واحد من الناس

للأرزاق قوانين قد لا نتمكن من فهمها تمامًا، لكن عدم فهمها لا يعني عدم وجودها. بعض الرزق يأتي لمن نعتقد أنهم قد لا يستحقونه، لكن الرزاق أيضًا عليم خبير...

يتسابق زعماء العشائر وأغنياء المدينة لنيل شرف نزول الرسول عليه الصلاة والسلام عندهم، يلوحون بالعدد والعدة والمنعة، وعليه الصلاة والسلام يتجنب الرفض والقبول، ينزل حيث تبرك الناقة في موضع فيه مربد للتمر وأرض خربة...

يأتيه خالد بن زيد، شاب ليس من الزعماء ولا من الأثرياء. يسأله عليه الصلاة والسلام: **أي بيوت أهلنا أقرب؟**

يقول له: «أهلنا»، كلهم أهلنا، كلكم أهلنا، لكن أيَّ بيوت أهلنا أقرب إلى هذا الموضع.

يقول له خالد: **أنا يا نبي الله، هذه داري، وهذا بابي...**

وسينزل الرسول عليه الصلاة والسلام عنده، خالد بن زيد بن كليب.

كان رزق خالد أن الرسول دخل من تلك الباب عليه.... ونزل عنده..

وسيأخذه هذا الرزق إلى آفاق ممتدة ما كان يمكن تخيلها في تلك اللحظات...

من بابه، سينتقل خالد إلى أسوار وأبواب أقوى مدن العالم آنذاك...

وبعدها إلى حيث سيكون الباب العالي..

خالد بن زيد بن كليب الأنصاري من بني غنم بن مالك بن النجار، لم يعرف بثراء أو زعامة بين قومه.

وعرف أكثر بكنيته.

أبو أيوب الأنصاري.

***

أبو أيوب.

لم يصلنا أنه دعا النبي إلى منزله كما فعل زعماء المدينة، ربما كان خجلًا من ذلك، ربما قال في نفسه: «من أنا حتى ينزل عندي رسول الله وقد عرض عليه ذلك كل زعماء يثرب؟».

بل وصل لنا أنه قال للرسول الكريم عليه: **يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مَنْزِلِي أَقْرَبُ الْمَنَازِلِ إِلَيْكَ فَانْقُلْ رَحْلَكَ إِلَيَّ..**

قَالَ: «نَعَمْ» فَذَهَبَ بِرَحْلِهِ إِلَى الْمَنْزِلِ، ثُمَّ أَتَاهُ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ انْزَلْ عَلَيَّ، فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ مَعَ رَحْلِهِ حَيْثُ كَانَ..».[1]

ضع متاعك عندي، بيتي قريب، كما لو أنه يقول: لا أطمع بأكثر من ذلك، شرف أن يكون متاع الرسول عندي أكبر من كل ما تخيلته أن يحدث.

فقال الرسول: نعم...

ثم جاء آخر، وعرض على الرسول أن ينزل عنده..

هنا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: الرجل مع رحله..

وفي السند الأصح: **قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّ بُيُوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ». فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَذِهِ دَارِي وَهَذَا بَابِي، قَالَ: «فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لَنَا مَقِيلًا»، قَالَ: قُومَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ**[2]..

في الروايتين -ولا تعارض بينهما- أبو أيوب لم يتحدث عن عدة وعدد ومنعة كما فعل الزعماء...بيتي أقرب، ضع رحلك عندي، تصرف أبو أيوب كما يفعل الإنسان العادي الذي لا يملك غير قربه وحبه ليقدمه، وليس مثل «علية القوم».

وعليه الصلاة والسلام اختار أن يكون مع الحب والقرب. العدد والعدة والمنعة مهمة ولا نقاش في ذلك، خاصة في ساحات القتال، أما معركة القلوب والعقول فلها معايير

(1) سنن سعيد بن منصور: 2978.

(2) صحيح البخاري: 3911.

مختلفة، والقرب من الناس العاديين وحبهم واحد من أهم المعايير التي تنتصر في هذه المعركة، أغلب من يقرأ تفاصيل ما حدث سيجد نفسه أقرب إلى أبي أيوب من الزعماء، يقدمون العدد والعدة والمنعة وهو يقدم القرب والمحبة ومكانًا للقيلولة والراحة، هذا ما نستطيع أن نقدمه جميعًا، وعندما يقبله عليه الصلاة والسلام نشعر أنه يقبل بنا أيضًا، يقربنا منه، نكاد نذهب معه ومع أبي بكر إلى منزل أبي أيوب كما لو أنه دعانا معهما..

يقول له عليه الصلاة والسلام: فانطلق فهيئ لنا مقيلًا...

اعد لنا مكانًا نرتاح فيه.

يأتي الجواب فورًا: **قومًا على بركة الله...**

كان قد أعد داره لذلك بالفعل، قبل أن يقول له عليه الصلاة والسلام أن يعد المكان للقيلولة، ربما أعده هو وزوجته بينما كانا يلهجان بالدعاء لله أن يأتي عليه الصلاة والسلام عندهما..

قوما على بركة الله...

لنا أن نتخيل لمعة الفرح في عينيه، لنا أن نتخيل رعشة قلبه، نتخيل كل نانوجرام من هرمونات السعادة الأربعة وهي تتسابق في التدفق فيه..

لا. لا يمكن لنا أن نتخيل للأسف، ففرحته خارج مستوى خيالنا...ليست لدينا فرصة تجربة ذلك، على الأقل ليس في حياتنا هذه..

كان واحدًا من الناس، لكنه لم يعد كذلك

لا نعرف الكثير عن شخص أبي أيوب الأنصاري، لم نعرف إن كان تكنيه بأبي أيوب مجرد كُنية أم كان له ولد باسم أيوب، أعني أننا نعرف القليل عن حياته الشخصية... لكن البعض «قليلهم لا يقال له قليل».

كل ما نعرفه عنه يرشح ليس فقط حبًّا بالرسول عليه الصلاة والسلام، بل يرشح أيضًا صفاءً ورقةً وشفافيةً...

ولعل الأحاديث التي رواها أبو أيوب عنه عليه الصلاة والسلام تعكس جزءًا من شخصه وشخصيته بما أنها بقيت في ذاكرته أو سأل عنها..

روى أبو أيوب عن الرسول عليه الصلاة والسلام نحو خمسين حديثًا [1] .

جولة في هذه الأحاديث ستجعلنا نفهم كيف ساهم ما نقله من أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام...

«لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ»[2]

«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ» [3]

«لَوْ أَنَّكُمْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ ذُنُوبٌ، يَغْفِرُهَا اللهُ لَكُمْ، لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ لَهُمْ ذُنُوبٌ، يَغْفِرُهَا لَهُمْ»[4]

هو الذي نقل لنا الموعظة الموجزة البليغة عن الصلاة «صَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ»[5]

«مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[6]

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ...»[7]

هو الذي نقل لنا أدب الاستئذان عند دخول البيت[8]

هو الذي وَجَدَ غِلْمَانًا قَدْ أَلْجَئُوا ثَعْلَبًا إِلَى زَاوِيَةٍ، فَطَرَدَهُمْ عَنْهُ (عن الثعلب!) وَقَالَ: أَفِي حَرَمِ رَسُولِ اللهِ -صلى اللهُ عليه وسلَّم- يُصْنَعُ هَذَا؟[9] **وهو الذي نقل نَهَيه عليه الصلاة والسلام عَنْ صَبْرِ الدَّابَّةِ -أي حبسها دون علف- قَالَ أَبُو أَيُّوبَ: «لَوْ كَانَتْ دَجَاجَةً مَا صَبَرْتُهَا»** [10]

---

(1) سير أعلام النبلاء: (2/ 406)، طبعة الرسالة.

(2) صحيح البخاري: 6077.

(3) صحيح مسلم: 1164.

(4) صحيح مسلم: 2748.

(5) سنن ابن ماجه: 4171.

(6) سنن الترمذي: 1566.

(7) مسند أحمد: 23516.

(8) سنن ابن ماجه: 3707.

(9) السنن الكبرى للبيهقي: 10062.

(10) سنن الدارمي: 2017.

هذا الإنسان الرقيق الذي دافع عن الثعلب وعن الدجاجة، والذي نقل لنا من وصايا الرسول ما يذكرنا بعدم فصل الوالدة عن ولدها وعدم هجر الأخ لأخيه، ونقل لنا عن صيام الدهر وأذكار الصباح والمساء، هو نفسه الذي ظل يجاهد حتى بلغ من العمر ما بلغ، وعندما كان في جهاد الروم حمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس وقالوا سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة فقام أبو أيوب الأنصاري فقال **يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أُنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقال بعضنا لبعض سرًّا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها؛ فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم يرد علينا ما قلنا** ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة/195]، **فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو**[1]

هذا هو أبو أيوب الأنصاري، الذي رزقه الله نزول الرسول عليه الصلاة والسلام عنده.

لا نعرف إن كان ذلك الرزق هو الذي جعل منه هذا الشخص بهذه الصفات...أم إن هذه الصفات هي التي جعلته يستحق هذا الرزق...

يرزق من يشاء بغير حساب، وهو العليم القدير، قوانين الرزق بيده...قوانين الرزق التي لا نفهمها ولا نراها، ولا يعني هذا أنها ليست موجودة.

الحب العابر للقرون

لكن أكثر صفة يمكن أن نلمسها في أبي أيوب الأنصاري هي حبه للرسول عليه الصلاة والسلام.. أكثر صفة وضوحًا وإشعاعًا تكاد تخرج لنا من بين سطور الكتب والمرويات عابرة للقرون والقارات والمشاعر...

حبه له عليه الصلاة والسلام يجعلنا نتخيله وهو ينظر إلى الرسول وعيناه تتدفقان بالمشاعر، مثل طفل استيقظ على كل أحلامه وقد تحققت وأكثر.

فَكَانَ يَصْنَعُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَعَامًا فَإِذَا جِيءَ بِهِ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِهِ فَيَتَتَبَّعُ مَوْضِعَ أَصَابِعِهِ[2]

---

(1) سنن الترمذي: 2972.

(2) صحيح مسلم: 2053.

يريد أن يأكل مما مرت عليه أصابعه، لعل شيئًا منه يدخل في جوفه، فينيره ويملأه إيمانًا وسلامًا...لم يكن أحد يعرف شيئًا عن الحامض النووي، لكن قلب المؤمن دليله، أخبره أن تتبع موضع الأصابع سيقوده إلى شيء منه، وهذا الشيء منه مهما تناهى في الصغر حجمه فلا يمكن أن يقال له صغير، وحدهم المحبون يفهمون هذا، وكان الحب دليلًا لأبي أيوب وهو يتلمس موضع أصابع الرسول على الطعام..

اليوم يعامل موضوع التبرك بآثار الرسول عليه الصلاة (والنقاش حول ذلك بين مَن يمنع الأمر ومن يجيزه) على نحو إشكالي، لكن الأمر وقتها لم يكن فقهيًّا أو عقائديًّا، بل كان مشاعر حب متدفقة تريد القرب والمزيد من القرب..

نَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السُّفْلِ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي الْعِلْوِ، قَالَ: فَانْتَبَهَ أَبُو أَيُّوبَ لَيْلَةً، فَقَالَ: نَمْشِي فَوْقَ رَأْسِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

فَتَنَحَّوْا فَبَاتُوا فِي جَانِبٍ! (1)

انتبه فجأة!

نحن نمشي كما لو كنا نمشي فوق رأسه، صاروا يمشون على أطراف الغرفة، تجنبًا لفكرة أنهم يمشون فوق رأسه الشريف. تخيلوا فقط أي حب يجعله يفكر هكذا، ويتخذ احتياطات كهذه.

وَكُنْتُ فِي الْغُرْفَةِ، فَأُهْرِيقَ مَاءٌ فِي الْغُرْفَةِ، فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ بِقَطِيفَةٍ لَنَا نَتْبَعُ الْمَاءَ شَفَقَةَ أَنْ يَخْلُصَ الْمَاءُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(2)

يهرق الماء، فيهرع أبو أيوب وزوجته يحاولان تجفيف الأرض بمخمل يملكانه. بمخمل! نعم بمخمل. أغلى أنواع القماش يستعمله أبو أيوب في حالة الطوارئ التي حدثت، حالة انسكاب القليل من الماء على السقيفة، لكنه لم يستعمله لا لأنه غالٍ، بل لأنه يمتص الماء.

ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السُّفْلُ أَرْفَقُ»، فَقَالَ: لَا أَعْلُو سَقِيفَةً أَنْتَ تَحْتَهَا، فَتَحَوَّلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعُلُوِّ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي السُّفْلِ...

---

(1) صحيح مسلم: 2053.

(2) مسند أحمد: 23570.

فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فِيهِ ثُومٌ، فَلَمَّا رُدَّ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقِيلَ لَهُ: لَمْ يَأْكُلْ، فَفَزِعَ وَصَعِدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَحَرَامٌ هُوَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ»، قَالَ: فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا تَكْرَهُ - أَوْ مَا كَرِهْتَ[1] ..

أين أثر أصابعه الكريمة؟ لم يأكل؟!

فزع وصعد له ربما راكضًا، أهو حرام؟ ولسان حاله يقول: هل أغضبناك يا رسول الله؟

لا، ولكني أكرهه، قال عليه الصلاة والسلام.

الرد حاسم وقاطع وفوري: فإني أكره ما تكره، لا سؤال عن السبب، لا محاولة لتحديد علة الكراهة، أكره ما تكره، الأمر حتمي وفوري ولا يحتاج إلى تعليق.

هذا هو الحب، لا شيء يمكنه أن يفعل هذا على هذا النحو سوى الحب، لو كان أمرًا شرعيًّا لكان الإيمان والطاعة، لكن هنا، وعلى هذا النحو الذي حدث: الحب بلا شك.

***

قد يعترض معترض على كل هذا.

قد يقول إننا نرى- في عصرنا هذا- مظاهر مشابهة نسبيًّا تحدث بين جمهور ما وقائده، هناك (ظاهريًّا) عاصفة من المشاعر وحمى من العواطف الموجهة لقادة وزعماء عند لحظة لقاء هذا الجمهور (أو أفراد منه) بالزعيم الخالد المفدى. هذه لحظة تاريخية في حياة كل هؤلاء، وبالروح بالدم نفديك، إلى آخره. هذا مُشَاهَد اليوم، ويفسر غالبًا بالنفاق والتملق، فما الذي يمنع أي أحد من المشككين أن يعترض ويقول لنا: عن أي حب تتحدثون؟ هذا نفاق وتملق نراه اليوم ولا يصدقه أحد، ربما حتى الزعماء أنفسهم لا يصدقونه، فلماذا لا ننتبه إلى أن السلوك في هذه الحادثة في السيرة يمكن أن تنطبق على أي حالات من الهتاف الهستيري لزعيم أو رئيس، ومن ثَمَّ الهتاف الهستيري ذاته لخلفه أو المنقلب عليه؟

من يطرح هذا الاعتراض قد ينسى أن حمى النفاق وهستيريا التطبيل تكون مع (المنتصر) أو على الأقل من تشير الدلائل أنه سيكون منتصرًا، أو يكون يمتلك من أدوات ووسائل القوة ما يفسر هذا النفاق.

---

(1) صحيح مسلم: 2053.

عليه الصلاة والسلام كان في هذه المرحلة لا يزال مطلوبًا من قريش حيًّا أو ميتًا، غادر بلده لأنهم كانوا يتآمرون لقتله، وحصل في المدينة على ما يحميه منهم، لكنه كان بعيدًا جدًّا عن لحظة الانتصار التي يتوقع من خلالها من يظهر هؤلاء المنافقون.

حاشا أن يكون أي أحد من الصحابة من ينطبق عليه هذا التوصيف.

لكن ذكرت الاعتراض لتوضيح الفرق.

***

وَلَمَّا رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُرَيْقِطٍ الدَّيْلِيُّ إِلَى مَكَّةَ بَعَثَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بكر زيد بن حَارِثَةَ وَأَبا رَافع مَوْلَيَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَأْتُوا بِأَهَالِيهِمْ مِنْ مَكَّةَ، وَبَعَثَا مَعَهُمْ بِحِمْلَيْنِ وَخَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ لِيَشْتَرُوا بِهَا إِبِلًا مِنْ قُدَيْدٍ، فَذَهَبُوا فَجَاءُوا بِبِنْتَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ وَأُمِّ كُلْثُومَ وَزَوْجَتَيْهِ سَوْدَةَ وَعَائِشَةَ، وَأُمَّهَا أُمِّ رُومَانَ، وَأَهْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلِ أَبِي بَكْرٍ صُحْبَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ[1]

الدليل الذي رافق الرسول عليه الصلاة والسلام وأبي بكر في رحلة الهجرة يرجع إلى مكة، لكنه لا يرجع وحيدًا، بل معه زيد بن حارثة وأبو رافع مولى الرسول لكي يرتبا معًا لم شمل الرسول الكريم ببنتيه: فاطمة وأم كلثوم، وزوجتيه: سودة وعائشة، وبقية آل أبي بكر: زوجته أم رومان، أسماء، ويصحبهما عبد الله بن أبي بكر.

أما زينب فقد كانت عند زوجها وابن خالتها أبو العاص بن الربيع الذي كان ما يزال على دين قومه.

ورقية كانت لا تزال في الحبشة مع عثمان.

رتب عليه الصلاة والسلام لذلك وهو ما يزال في بيت أبي أيوب الأنصاري.

---

(1) السيرة النبوية لابن كثير: (2/314).

واحد آخر من الناس

ماذا عن الدليل، عبد الله بن أريقط الديلي؟

نعرف أنه كان مشركًا يوم اتفق معه أبو بكر على «المهمة»، كان على دين قومه، ونعرف أنه امتلك ما يكفي من الأخلاق لكيلا يبيع عهده واتفاقه مع الرسول عليه الصلاة والسلام طمعًا بمكافأة قريش..

لكن هل بقي مشركًا بعد كل ما حدث؟ هل بقي مع الرسول كل هذه المدة دون أن يدخل قلبه الإيمان؟

من المنطقي أن نفترض أنه أسلم.

لكن لا.. لم يحدث، لم يعرف شيئًا عن إسلامه، وأغلب الظن أنه لم يسلم[1]...

الإيمان يتحرك بطرق غامضة، معايير المنطق مهمة حتمًا، ولكنها ليست حاسمة ولا نهائية، هناك شيء ما إضافي، فقدانه يجعل شخصًا كهذا، يمتلك فرصة عظيمة كهذه، بينه وبين الإيمان أقل من خطوة، بينه وبين الرسول الكريم أقل من خطوة، بينه وبين أن يكون ممن نذكرهم اليوم أقل من خطوة...ولكنه، عكس كل التوقعات، عكس كل المنطق، يمضي في طريقه ولا يخطو تلك الخطوة.

ربما سنستنكر ما لم يفعله عبد الله بن أريقط...كيف لم يؤمن وقد رافق الرسول في رحلة غيرت مجرى التاريخ...لكننا ننسى أننا في أحيان كثيرة نكون قريبين جدًّا من الصواب، كل شيء يبدو كما لو أننا سنفعله، لكننا نمشي في الاتجاه المعاكس..

كثيرون منا «عبد الله بن أريقط».

وللأسف ...قليلون منا « أبو أيوب».

***

فلننتبه أننا انتقلنا من مرحلة لم يميز فيها الأنصار بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين أبي بكر من ناحية الشكل، إلى مرحلة لم نعد فيها نعرف أين ذهب أبو بكر، أو عليٌّ الذي نعرف أنه قدم مع النبي من قباء. لا نعرف إن كانا نزلا معه عليه الصلاة والسلام عند أبي أيوب أو ذهبا إلى مكان آخر، هناك ما يشير إلى أن أبا بكر كان معه

(1) الإصابة في تمييز الصحابة: 4445.

عليه الصلاة والسلام عندما قام إلى دار أبي أيوب، بعد هذا لا نعرف شيئًا، كما لا نعرف شيئًا عن علي.

لقد طغى حضوره عليه الصلاة والسلام على كل التفاصيل، لم تكن لديه هالة نورانية كما في الأيقونات الكنسية، لكن حضوره كان يشع بكل أطياف الضوء غير المرئية، مثل الأشعة التي لا تُرى بالعين المجردة لكنها قد تقتل، بفارق أن هذا «الضوء اللامرئي» كان يحيي القلوب...هذا النور المتدفق من حضوره الواقعي جعل أبي أيوب ينسى أن يذكر أي شيء عن ضيفه الثاني...

عليه الصلاة والسلام.

حجر أساس، وأحجار أخرى

الشروع في بناء المسجد كان أول خطوة عملية يقوم بها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بعد هجرته إلى المدينة.

وسورة البقرة كانت أول ما بدأ بالنزول من القرآن في المدينة[1]، ولم تنزل كلها دفعة واحدة، بل في فترات مختلفة حتى إن آخر آية نزلت في الوحي كانت في سورة البقرة أيضًا[2].

وثمة شبه بين الأمرين، بين أول ما نزل من الوحي على الرسول في المدينة، وبين أول ما فعله الرسول فيها.

بطريقة ما، بناء المسجد بالنسبة للسيرة النبوية، يشبه مكانة سورة البقرة بالنسبة إلى القرآن.

أثر كل منهما على المجتمع (قيد التكوين) كان متشابهًا، كما لو أن كلًّا منهما يقوم بالدور نفسه ولكن في بعد مختلف.

بناء المسجد كان وسيلة لبناء المجتمع، لجعله يتفاعل مع بعضه ومع محيطه ويتبلور مع الواقع.. وسورة البقرة كانت تقدم خريطةَ طريق وخطة لهذا البناء.

سورة البقرة كانت تحول ما مضى من القرآن الذي تنزل في مكة من (إيمانيات) إلى (مواد بناء) وتضعها في سياق البناء والإعمار.

---

(1) فتح الباري: (3/180).

(2) صحيح البخاري: 4544.

كل ما سبق هذه الخطوة، كان بمنزلة إعداد للمواد الأولية الضرورية لعملية البناء.

دون هذه المواد، ما كان يمكن لبناء أن يقوم، فضلًا عن أن يصمد.

كذلك المسجد، ما كان يمكن له أن يمثل الدور الذي مثله والذي قام به لولا كل ما سبق من تراكم إيماني في عقول وقلوب المسلمين.

جاء قرار البناء بمنزلة وضع الحجر الأساس.

لا للمسجد فحسب، بل لمجتمع جديد.

من المجموعة إلى المجتمع

كيف كان المسجد نقطة تحول في عملية التحول والانتقال؟

كان المسلمون قبل ذلك، في مكة: مجموعة.

والآن هم على وشك دخول طور اجتماعي مختلف.

لم تتحول المجموعة إلى مجتمع بمجرد الهجرة وبناء المسجد. ولكن كانت الهجرة ومن ثم بناء المسجد خطوتين وعلامتين فارقتين في الطريق على الانتقال إلى المجتمع.

هل هناك فرق بين الأمرين؟ المجموعة والمجتمع؟

بالتأكيد.

المجموعة عددها أصغر بكثير من المجتمع، يمكن أن تكون ما يسمى الآن (مجتمعًا محليًّا)، وهي الترجمة الأكثر رواجًا لمصطلح (Community)، ويرتبط أفرادها بعلاقات شخصية ومشتركات تميزهم عن غيرهم.

على سبيل المثال والتبسيط: المجموعة أو الجماعة تشبه مجموعة مغلقة على وسائل التواصل الاجتماعي، مثل مجموعة على الفيس بوك تخص المهتمين بأعمال كاتب معين أو بفترة زمنية معينة في بلد محدد أو بهواية محددة، أو مثل مجموعة واتس آب خاصة بسكان عمارة معينة. لكل من هذه المجموعات قوانين خاصة يتفق عليها أعضاء المجموعة، يمنع النشر في موضوعات محددة، أو يمنع استخدام ألفاظ معينة على سبيل المثال.

العلاقات بين أعضاء مثل هذه المجموعة شخصية، لديهم ما يجمعهم ويميزهم عن البقية، سواء الاهتمام المشترك بأفكار هذا الكاتب أو أحداث فترة معينة في بلد معين، أو مشكلات الصيانة في العمارة التي يشتركون في السكن فيها.

في الوقت ذاته، هذه المجموعة (أو الجماعة) هي جزء من مجتمع أكبر، مجتمع المنصة الأصلية (الفيس بوك) أو الحي الأكبر الذي يسكنون فيه، أو حتى المدينة التي يوجد فيها هذا الحي.

العلاقات بينهم وبين المجتمع الأصلي قائمة أيضًا، ولكن تحكمها قواعد وقوانين مختلفة.

يمكن لأعضاء هذه المجموعة أن ينتقلوا إلى مرحلة أعلى، كأن يؤسسوا منصة تواصل خاصة بهم، أو أن يعمموا تجربتهم على أشخاص أوسع في الحي الذي يقطنون فيه.

ليس كل مجموعة أو جماعة يمكن أن تنتقل إلى هذه المرحلة الأعلى، لن يكون الكل مهتمين بأعمال كاتب معين أو بجمع الطوابع، أصلًا ليس كل المجموعات بحاجة إلى هذا الانتقال.

لكن بعض المجموعات تستطيع لأن ما تناقشه من أفكار يمكن أن يثير اهتمام عدد أكبر.

من دار الأرقم إلى المسجد

الانتقال من (المجموعة) إلى (المجتمع) في حالة المسلمين حدث تدريجيًّا عبر الانتقال إلى المدينة، لكن الانتقال لم يكن انتقالًا جغرافيًّا فحسب، ولا فقط في الظروف المحيطة من ناحية (المحاربة أو القبول)، بل كان أيضًا في توفر الشبكة اللازمة للتفاعل...دون هذه الشبكة كانت الجماعة ستبقى جماعة تراوح مكانها، دون أن تتحول إلى مجتمع.

في هذه الحالة، كان المسجد النبوي هو الشبكة الأساسية التي حركت التفاعل ككل، ومن خلال هذا التفاعل أصبحت المجموعة تتفاعل على نحو متزايد مع الآخرين، وبالتالي تضم عددا أكبر، ويزداد بسرعة.

الفرق بين المجموعة والمجتمع هو كالفرق بين المسلمين في دار الأرقم بين أبي الأرقم، أو حتى في شعب أبي طالب، وبينهم لاحقًا في المسجد النبوي.

ما كان يمكن بسهولة لشخص عابر أن يطرق الباب على باب الأرقم بن أبي الأرقم وينضم للجالسين، والأمر أبعد في الشعب المحاصرة.. بينما أصبح يمكن لأي شخص أن يدخل المسجد النبوي ويتفاعل مع الآيات التي تُتلى أو ما يقال في الخطبة.

والاختلاف هنا ليس في (العلن/ السرية) أو (الحرية/ القمع) فقط، بل في شبكة العلاقات التي تتوفر في الحالة الثانية، والتي تتيح النمو الطبيعي للمجتمع على أكثر من مستوى.

هل حدث الانتقال فورًا إلى مرحلة المجتمع بمجرد الهجرة؟

قطعًا لا.

لكن الهجرة أوجدت الفرصة والظروف لبدء التحول.

الهدم كجزء من البناء

...أَمَرَ بِبِنَاءِ المَسْجِدِ، فَأَرْسَلَ إِلَى مَلَأِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ فَقَالَ: «يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا»، قَالُوا: لاَ وَاللَّهِ لاَ نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ[1]

ولا يتعارض هذا مع ما جاء في سيرة ابن كثير:

«تَقَدَّمَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَن عُرْوَة، أَن الْمَسْجِد الذي كَانَ مِرْبَدًا - وَهُوَ بَيْدَرُ التَّمْرِ - لِيَتِيمَيْنِ كَانَا فِي حِجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ وَهُمَا سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ، فَسَاوَمَهُمَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَا: بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَأَبَى حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا وَبَنَاهُ مَسْجِدًا[2].

فربما كانت الأرض في جزء منها مربدًا للتمر يعود لليتيمين، وجزء آخر يعود إلى (الملأ من بني النجار)، فقبل من الملأ ما لم يقبله من اليتيمين، لأنهما كانا صغيري السن وربما لا يمكن الاعتماد على قرارهما في هذا العمر.

لكن الأهم هو ما قاله أنس رضي الله عما كان في هذه الأرض:

---

(1) صحيح البخاري: 424.

(2) السيرة النبوية لابن كثير: (1/303).

(... فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ لَكُمْ قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ، وَفِيهِ خَرِبٌ وَفِيهِ نَخْلٌ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ، فَنُبِشَتْ، ثُمَّ بِالْخَرِبِ فَسُوِّيَتْ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ...)[1]

كان في الأرض التي أقيم عليها المسجد قبورًا للمشركين.

وأمر عليه الصلاة والسلام بنبشها..

أخرجت العظام من قبورها، وسويت الخرب وقطع النخل.

وهذا الجزء وإن كان لا يتعارض مع أن الأرض كانت مربدًا للتمر فإنه أكثر ثبوتًا، لأنه في صحيح البخاري.

نعم، كانت الأرض فيها قبورًا، نبشت وأزيلت.

سبق لي أن ذكرت هذه المعلومة في أكثر من موضع، وكنت أصطدم دومًا برد فعل عنيف يشكك في إمكانية حدوثها ويطالبني بالتأكد أكثر، والمعلومة في صحيح البخاري.

جزء كبير منا يتعامل مع الأمر بحذر شديد قد يعود جزئيًّا إلى حساسية مسألة (الصلاة أمام القبور)، وهو أمر لا معنى له في هذا السياق لأن القبور أخرجت من الأرض، وجزء من هذا الحذر يعود إلى مسألة احترام الموت بشكل عام، وهو أمر لم يسبب مشكلة في وقت حدوثه فلماذا يحدث الآن؟

على العكس من هذا الحذر، أجد هذا الفعل بالتحديد مناسبا جدًّا لإقامة المسجد، أقصد هنا هذا المسجد تحديدًا، المسجد الذي سيقوم بدور المفاعل الحضاري والاجتماعي اللازم في هذه المرحلة.

ثمة رمزية كبير في هذا الفعل، ما يبدو أنه مجرد نبش وحفر هو في الحقيقة تعبير عميق جدًّا عن حقيقة هذا البناء، بناء المسجد، وبناء المجتمع. حقيقة أن هذا البناء يقوم ولا بدَّ على الهدم، هدم ما لا بدَّ من هدمه، ونسف ما لا يمكن إلا أن ينسف، واستئصال ما يجب أن يستأصل.

من الخارج يبدو الأمر كما لو كان تهيئة للأرض التي قرر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبنى عليها المسجد.

---

(1) صحيح البخاري: 424.

لكن في العمق من المشهد ثمة شيء آخر: هذا البناء يقوم على قلع الوثنية من جذورها. قبور المشركين التي نبشت هي الأوثان العميقة التي يجب أن تزال، وهي أكثر أهمية وأشد خطورة من الأوثان المادية المجسمة. هذه الأوثان العميقة هي «الأجداد» واتباعهم بكل المنظومة الجاهلية التي أورثوها للأحفاد، وعبادة الأصنام المجسمة ليست سوى جزء من هذه المنظومة.

لكي يعلو البناء ويشتد لا بدَّ لهذا الهدم والاستئصال أن يحدث، ولولا ذلك فإن هذه (الأوثان العميقة) ستحدث شرخًا عميقًا في أساس البناء، ما يلبث هذا الشرخ أن يتحول إلى ثقب أسود يلتهم البناء كله.

الهدم والاستئصال والنسف، كلها ألفاظ قد تبدو للبعض متطرفة، لكن لا بدَّ من استخدامها مع بعض الأمور على الأقل.

في هذه الحالة: ليس كل ما أورثه الأجداد يستحق هذا النسف والاستئصال بالتأكيد.

لكن هذه المكانة كأوثان عميقة لا يمكن التنازل عن استئصالها، هي أول ما يجب أن ينسف.

لن يتنصل أحد من أجداده، هم قدر لا يمكن إلغاؤه، أسماؤهم تبقى وكذلك بصماتهم الوراثية، لكن التعامل معهم كأوثان لن يستمر.

عمارة المسجد: بساطة ونظام

علاقة النمط المعماري بالمجتمع مركبة. فمن ناحية، تعكس العمارة قيم هذا المجتمع ورؤيته للعالم[1]، ومن ناحية أخرى تؤثر في تشكيل وبناء الإنسان الذي يسكن في/ أو يتعامل مع هذا النمط المعماري[2].

(1) Dursun, M., Isikveren, V., Idiris, A., Sajjad, M., Said, T. M., & Zubair, E. (n.d.). *Architecture as a reflection of social structure: A reminiscence of the Suleymaniye complex of Istanbul.* International Islamic University Malaysia.

Ettehad, S., Karimi Azeri, A. R., & Kari, G. (2014). The role of culture in promoting architectural identity. *European Online Journal of Natural and Social Sciences, 3*(4), 410–418.

(2) Salam, M. (2020). Psychological impacts of architectural design on living spaces. *Journal of Art, Architecture and Built Environment,* 3(2), 31–41. https://doi.org/10.32350/jaabe.32.03

لن أدَّعي هنا أن عمارة المسجد النبوي كانت خارجة عن المألوف في البناء في ذلك الوقت، فقد كانت بسيطة وأساسية، وبساطتها هذه كانت جزءا من القيم التي تعكسها وتعبر عنها، قيم التوحيد والفطرة الخالية من التعقيد والفذلكة، خلو المسجد النبوي من « الزخارف» -مثلًا- لم يكن لأن الزخارف لم تكن معروفة عند العرب، فغير بعيد عن المسجد النبوي، في كنيسة اليهود في المدينة[1] كانت هناك زخارف عرفها العرب، وكان بإمكان الرسول عليه الصلاة والسلام أن يأمر بوضع ما يماثلها أو يشابهها، لكن الزخارف لم تكن مناسبة لرسالة المسجد النبوي، الرسالة البسيطة العميقة المباشرة التي تخاطب الناس بلا «زخارف» من القول ولا تحتاج إلى التجميل أو التنميق.

البساطة في عمارة المسجد الحرام لم تكن فقرًا في الخيال أو في المعرفة المعمارية، بل كانت جزءًا أساسيًّا من الرسالة التي يحملها المسجد. ما كان يمكن لعمارة معقدة أن تعبر عن رسالة الفطرة.

لكن عمارة المسجد لم تحمل فقط رسالة البساطة، بل كانت رسالة (النظام والتنظيم) حاضرة وبقوة أيضًا.

عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَحَدِ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ قَالَ بَنَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسْجِدَهُ سَبْعِينَ ذِرَاعًا فِي سِتِّينَ ذِرَاعًا أَوْ يَزِيدُ[2]

فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ المَسْجِدِ وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ الحِجَارَةَ[3] والعضادة هي العمود الذي يستند إليه الباب من كل جانب.

وقد ذكر غير واحد أن المسجد النبوي بُني باللبن، وجعل له ثلاثة أبواب: باب في مؤخره، وباب يقال له باب الرحمة، وباب يدخل منه عليه السلام، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائتي ذراع.

(1) صحيح البخاري: 435، مسند الإمام أحمد: 23984.

(2) شرح المهذب للنووي: (8/277).

(3) صحيح البخاري: 428.

وقال السهيليّ: وبُني مسجد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلَّم، وسقف بالجريد، وجعلت قبلته من اللبن إلى بيت المقدس، ويقال: بل من حجارة منضودة بعضها على بعض، وجعلت عمده من النخل[1]،

وبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم مربعًا وجعل قبلته الى بيت المقدس، وطوله سبعون ذراعًا في ستين أو يزيد وجعل له ثلاثة أبواب ولم يسطحوه فشكوا الحر فجعلوا خشبه وسواريه جذوعًا وظللوا بالجريد ثم بالخصف فلما وكف (سال وقطر الماء منه بسبب المطر) طينوه بالطين وجعلوا وسطه رحبة وكان جداره قبل أن يظلل قامة وأشبرًا [2]

الاتجاه محدد بالقبلة التي كانت أولًا نحو بيت المقدس، في هذا المجتمع الجديد قيد التكوين والتبلور ثمة اتجاه واحد وهدف مشترك.

ثلاثة أبواب، من كل جهة من جهات المسجد باستثناء جهة القبلة، وهذا يجعل الداخلين إلى المسجد كل يدخله من جهته ومدخله، كل الجهات متساوية، لا يضطر أحد من المصلين إلى الالتفاف لكي يدخل من جهة أخرى. المسجد هو المكان الذي يفتح أبوابه من كل الجهات.... ويدخله الكل من أي جهة شاءوا..

وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصَلِّيَ حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ، وَيُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الغَنَمِ[3]..

فالأرض كلها جعلت له مسجدًا وطهورًا...فلماذا إذن يبني المسجد، ما دامت الأرض كلها مسجدًا وطهورًا، وما تزال كذلك؟

لأن وجود مكان واضح المعالم يحتوي المسلمين كان -ولا يزال- أمرًا ضروريًّا لشعور المسلمين بهوية واحدة لهم. المكان والانتماء له يوحدهم، يجعلهم يشعرون بوجود هدف مشترك، قبلة واحدة.

الانتقال من إلى مرحلة من مراحل بناء المجتمع -بالمعنى الانتقالي الفاعل- كان يحتم وجود «المسجد».

---

(1) إمتاع الأسماع: (89/10).

(2) بهجة المحافل وبغية الأماثل: (157/1).

(3) صحيح البخاري: 428.

الرسول الذي بنى

بين كل الأديان الكبرى التي لا تزال منتشرة اليوم، الإسلام هو الدين الوحيد الذي تأسس مكان العبادة الخاص به على يد نبيه (أو على يد مؤسسه بالنسبة إلى الأديان غير السماوية)..

في اليهودية مثلًا، أول كنيس (معروف) يعود للقرن الثالث قبل الميلاد، وإن كان هناك اعتقاد عام بأن تدمير (الهيكل) على يد البابليين في عام 586 قبل الميلاد قد أدى إلى نشوء دور عبادة يهودية متفرقة[1]

بكل الأحوال هناك فترة زمنية تتراوح بين عشرة إلى ثمانية قرون تفصل بين هذين التاريخين وبين خروج اليهود من مصر مع موسى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد[2]، ولو اعتبرنا (الهيكل) هو أول كنيس فقد بني وقت النبي داود عام 957 قبل الميلاد أي بعد عصر النبي موسى بأربع قرون.

في المسيحية أقدم أثر لكنيسة كانت لبيت عاديٍّ استُخدم ليكون كنيسة بين 233-256 ميلادية[3] ولم تظهر الكنائس التي أسست على هذا الأساس إلا مع نهاية القرن الثالث الميلادي.[4]

أقدم معبد بوذي يعود للقرن الثالث قبل الميلاد وأسس على يد الإمبراطور أشوكا، أما العصر الذي عاش فيه بوذا فهو مختلف عليه، بين القرن السابع أو الرابع قبل الميلاد[5].

قرون إذن تفصل بين الأنبياء والمؤسسين وبين أماكن العبادة المرتبطة برسالتهم.

(1) Encyclopædia Britannica. (n.d.). *Synagogue*. In *Britannica.com*. Retrieved July 22, 2025, from https://www.britannica.com/topic/synagogue

(2) Encyclopædia Britannica. (n.d.). *Exodus (Old Testament)*. In *Britannica.com*. Retrieved July 22, 2025, from https://www.britannica.com/event/Exodus-Old-Testament

(3) Snyder, G. F. (2003). *Ante pacem: Archaeological evidence of church life before Constantine* (p. 128). Mercer University Press.

(4) Esler, P. F. (2000). *The Early Christian World* (Vol. 2, p. 20). Routledge. https://doi.org/10.4324/9780203470626

(5) Morgan, J. (2013) *'earliest shrine' uncovered at Buddha's birthplace*, *BBC News*. Available at: https://www.bbc.com/news/science-environment-25088960 (Accessed: 23 July 2025).

أما مع النبي عليه الصلاة والسلام، فقد كان يحمل الحجر بيديه الكريمتين..

وهذا سيكون له أثر كبير على كل شيء.

وسيكون لنا وقفة.

أضبطكم للطين

وتدل الأخبار على أن النبي عليه الصلاة والصلاة في أثناء بناء المسجد كان يختار الأكثر خبرة في البناء، وأن بعضًا مَن شارك في البناء لم يكن من مهاجري قريش ولا من أنصار المدينة، بل كان من اليمامة، حيث يروي أحد الصحابة:

جِئْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَهُمْ يَبْنُونَ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ عَمَلَهُمْ أَخَذْتُ أُحْذِقُ الْمِسْحَاةَ، فَخَلَطْتُ بِهَا الطِّينَ، فَكَأَنَّهُ أَعْجَبَهُ أَخْذِي الْمِسْحَاةَ وَعَمِلُوا، فَقَالَ: «دَعُوا الْحَنَفِيَّ وَالطِّينَ، فَإِنَّهُ أَضْبَطُكُمْ لِلطِّينِ»[1]. وهذا الحنفي الذي أشار له الرسول عليه الصلاة والسلام هو طلق بن علي الحنفي، وبعض روايات الحديث تسميه (اليمامي)، وأهل اليمامة أهل خبرة بالبناء أكثر من أهل يثرب، فحجر اليمامة، أو الحجر، كانت مدينة بناها بنو حنيفة قبل قرون من الإسلام، ولهذا فطلق بن علي أكثر حذقًا في البناء. كما أن هذا يؤكد ما نعرفه من أن عدد المسلمين كان يزداد حتى خارج المدينة، وربما كان ذلك بفعل ملاقاة الرسول الكريم لوفود الحجيج في مكة مباشرة، أو حديث المسلمين أنفسهم عن دينهم الجديد، ولعل خبر وصول الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ونجاته من قريش أسهم في ذلك أيضًا..

حجرٌ وطينٌ وعَرقٌ.. وبناءٌ مستمر

وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُمْ، وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الآخِرَة فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ[2]

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يبنيه وهم يناولونه والنبي صلى الله عليه وسلم يقول ألا إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة [3]

(1) المعجم الكبير للطبراني: 8254.

(2) صحيح البخاري: 428.

(3) سنن ابن ماجه: 742.

القادة والزعماء في زماننا هذا يأتون للإشراف والاطمئنان على سير العمل، يضعون حجر الأساس، ويلتقطون الصور لمشاركتهم التاريخية في استعمال الجاروف، ثم الصور مرة أخرى لقص الشريط، لديهم أعمال أهم من هذا الذي يمكن أن يفعله بسطاء الناس... نعم نعم.

لكنه عليه أفضل الصلاة والسلام، واحد من الناس، يده معهم، يحمل بها، ويناول بها، ويبني بها، عرقه مع عرقهم، يعطي المثل على القدوة دون حدود.

كيف يمكن ألا يحبوه كل هذا الحب، وهم يرونه هكذا بينهم؟

بل كيف يمكن لأي أحد ألا يحبه؟

إنه (القائد) الذي لا يتعالى على أتباعه، يعمل معهم، يداه مع أيديهم...

لا يمكن لأحد ألا يحب ما يراه في هذا القائد...عليه أفضل الصلاة والسلام.

وهو عندما يفعل ذلك فهو على خطى أبيه إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

كان يرفع القواعد بيديه أيضًا...

وكان معه ابنه فقط...

أما عليه الصلاة والسلام، فمعه أتباعه، رضوان الله عليهم أجمعين.

أبو الأنبياء كان هناك

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة/ 127] الآية من سورة البقرة، أول ما نزل في المدينة.

لا نعرف إن كانت هذه الآية قد نزلت في أثناء بناء المسجد أو قبله...لكن لا يمكن لنا أن نتخيل هذا المشهد الشريف المهيب دون أن نستحضر الآية، لا يمكن أن يمر المشهد دون أن نرى إبراهيم وابنه عليهما السلام وهما جزء من هذا المشهد، كما لو أن المشهدين يتداخلان مع بعضهما، كما لو أن إبراهيم هنا يناول الحجر له عليه الصلاة والسلام، وإسماعيل هناك، ينقل الحجر مع الصحابة، نكاد نسمع سيدنا إبراهيم وابنه يرتجزان مع الرسول عليهم الصلاة والسلام جميعًا، ويرددان مع الصحابة: **«أَلَا إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَة، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ، وَالْمُهَاجِرهْ»**[1]

(1) سنن ابن ماجه: 742.

وننتبه إلى أن الصيغة المستخدمة في تقديم هذا المشهد في الآية القرآنية هي صيغة «الفعل المضارع» التي تفيد الحاضر والمستقبل، كما لو أن الآية تشد من أزرنا جميعًا بأن تقول لنا إن الفرصة لم تفت تمامًا، وإن كل بناء يلتزم بالثوابت نفسها هو بناء يمتد من بنائه عليه الصلاة والسلام ومن قبله سيدنا إبراهيم وابنه، عليهما الصلاة والسلام، كل بناء يلتزم بالثوابت نفسها هو مثل حجرة إضافية على بناء عريق عميق ضارب في جذر تاريخ الإنسانية وسعيها الدائم لتحقيق احتياجاتها الأساسية.

أي احتياجات أساسية؟

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، لكنه يحتاجه بالتأكيد

كان الجواب قد جاء مسبقًا قبل أن نطرحه، في الآيات التي سبقت مشهد البناء المستمرة مباشرة...

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ (البقرة: 124-126)

مثابة وأمنا...بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثمرات.

لسنا أمام هرم ماسلو[1] للاحتياجات الإنسانية.

بل نحن أمام آيات قرآنية مثلت السعي الإنساني لتحقيق احتياجاته، منذ إنسان الكهوف والعصر الحجري إلى إنسان ناطحات السحاب وعصر الحياة الرقمية، دومًا وأبدًا سيبقى الإنسان يبحث عما يسد احتياجاته، يبحث عما يكون (مرجعية له)، «مثابة» يمكن الرجوع إليها وما يحقق له الأمن والأمان، والرزق والعيش المرتاح، الذي لا يكون مترفًا بالضرورة.

(1) هرم ماسلو هو نظرية في علم النفس وضعها أبراهام ماسلو، تُصنّف الحاجات الإنسانية إلى خمس طبقات مرتبة تصاعديًا: تبدأ بالحاجات الفسيولوجية (كالطعام والنوم)، ثم الأمان، ثم الانتماء والحب، ثم التقدير، وأخيرًا تحقيق الذات. لا يمكن الانتقال إلى مستوى أعلى إلا بعد إشباع المستوى الأدنى.

وأيضًا إلى ما يؤمن به.

يسعى الإنسان إلى الإيمان بشيء ما[1]. بمعنى، ولو كان بعدم الإيمان، لكنه يسعى إلى ذلك، لا تتساوى الأشياء التي يؤمن بها الإنسان، فمنها ما هو خاطئ بالنسبة إلى الآخرين. لكن السعي إلى الإيمان بشيء ما حقيقة إنسانية تنطلق من حاجته إلى ذلك.

هي احتياجات أساسية إذن، والبناء الذي يرفعه (بصيغة الفعل المحاضر والمستمر والمتجه دومًا إلى المستقبل) هو البناء الذي يعمل على تحقيق هذه الاحتياجات بما يتناسب مع معايير الثوابت.

لماذا لا يأتي ترتيب هذه الاحتياجات منسقا كهرم ماسلو؟ البيولوجية أولًا، ثم احتياجات الأمان، ثم الاحتياجات الاجتماعية...إلى آخره؟

أولًا: لأن اتخاذ هذه التصنيفات والترتيبات هو أمر إجرائي بحت ويتم لأغراض توضيحية وتعليمية، والقرآن ليس ملزمًا بهذا، حاشا لكلام الله أن يكون ملزمًا بشيء.

ثانيًا: لأن ملحمة الاحتياجات الإنسانية أكثر تعقيدًا وتداخلًا وتشعبًا من أن تعرض على طريقة الاحتياج تلو الآخر. الإنسان كائن معقد واحتياجاته تأتي في أحيان كثيرة (حزمة واحدة) أو على الأقل حزمة مختلفة الترتيب، ما يكون أولوية أساسية لشخص قد لا يكون كذلك لشخص آخر، وما يكون ضروريًّا جدًّا لشخص في سياق اجتماعي معين قد لا يحتل الأهمية نفسها في سياق اجتماعي آخر..

هناك أولوية بديهية للإنسان أن يعيش لكي يلبي احتياجاته الأخرى، وهذا احتياج بيولوجي بحت، ولكن حتى هذا الذي يبدو لا نقاش فيه، نجد أن بعض البشر يضحون به من أجل ما يؤمنون به.

---

(1) Frankl, V. E. (2006). *Man's search for meaning* (I. Lasch, Trans.). Beacon Press. (Original work published 1946)

Routledge C, FioRito TA. Why Meaning in Life Matters for Societal Flourishing. Front Psychol. 2021 Jan 14;11:601899. doi: 10.3389/fpsyg.2020.601899. PMID: 33519608; PMCID: PMC7842113.

Tønnesvang, J. (2025). Meaning and psychological needs. *Journal of Theoretical and Philosophical Psychology, 45*(3), 316–332. https://doi.org/10.1037/teo0000269

في كل ما يتعلق بالإنسان، من الصعب جدًّا وضع جدول متسلسل أو بترتيب متعاقب، إلا لأغراض التوضيح والتعليم. كومة اللحم البشرية لا يمكن فصل جهازها العصبي عن التنفسي عن الدموي كما يحدث في قاعات الدرس، كذلك هي الاحتياجات الإنسانية.

لكن: سيبقى هناك الاحتياج إلى الأمن والأمان والرزق.

وأيضًا الاحتياج إلى ما نؤمن به.

أسلم الطرق إلى الآخرة: بناء الدنيا

ألا إن العيش عيش الآخرة.... فاغفر للأنصار والمهاجرة.

أحب أن أقف هنا قليلًا.

العيش عيش الآخرة؟

هذا كلام لا يقوله أشخاص يعيشون في صوامع منعزلة بعيدة عن الناس والعمران ومشكلات الحياة، بل يقوله النبي الكريم الذي كان يحمل الحجر بيديه، ويردده أصحابه معه وهم يبنون معه ما سيكون مركزًا لتجمع الناس وتفاعلهم فيما بينهم، بعبارة أخرى: يبنون شبكة للتواصل والتفاعل مفتوحة فيما بينهم وبين الآخرين، مع العالم.

لماذا؟ لماذا يفعل ذلك من يؤمن أنه لا عيش إلا عيش الآخرة؟

لماذا لا ينسحب بعيدًا عن كل شيء، يتعبد ويتنسك ويؤدي ما فرضه الله عليه ويجتنب ما نهاه عنه، ليضمن الآخرة؟

أليس هذا الخيار، ظاهريًّا على الأقل، أكثر ضمانًا للوصول إلى البر الآمن في الآخرة؟ بينما أي تعاطٍ مع الدنيا وما يتعلق بها قد يقود إلى طرق جانبية تبعدك عن بر الأمان؟

هذا السؤال له إجابات عديدة، بعضها بديهي.

لكني أحب أن أضعه هنا لنجد الإجابات من خلال سياق وتسلسل ما سينتج من معطيات حدثت في بداية الفترة المدنية من السيرة النبوية الشريفة.

فلنسجل هنا: كانوا يتحدثون أن لا عيش إلا عيش الآخرة، في اللحظة نفسها التي كانوا يبنون فيها كيانًا ماديًّا على أرض الواقع الدنيوي، لم يكن هناك انفصال حقيقي بين رؤيتهم للدنيا، ورؤيتهم للأخرة، بل كانا متصلين ببعضهما بعضًا عبر هذا البناء الذي يجسر الدنيا بالآخرة.

الولادة من جديد: أسماء جديدة

شيء آخر لا يجب أن يفوتنا هنا: هذه المناسبة هي أول مرة ما وصلنا من استخدام للفظ الأنصار مقابل لفظ المهاجرين...لم يستخدم اللفظ في أي حديث أو رواية سابقة عن هذه الرواية – الحادثة، أو على الأقل لم يصلنا هذا.

وكانت هذه الحادثة مبكرة جدًّا، لا نزال في مرحلة بناء المسجد، ربما نحن في أول أسبوعين بعد نزوله عليه الصلاة والسلام في دار أبي أيوب الأنصاري.

نحن نعرف طبعًا، وهم أيضًا كانوا يعرفون، أن هؤلاء هاجروا، وهؤلاء نصروهم، لكن الآن أصبح الأمر اسمًا، لقبًا، أصبح وصفًا لصيقًا بهم.

لم تكن تلك مصادفة، بل كانت أمرًا مقصودًا.

قبل ذلك، كانوا قرشيين، من أهل مكة، من هذا البطن أو ذاك.

أو من أهل يثرب، من بطون الأوس أو الخزرج.

كان انتسابهم لمحض قدر بيولوجي جعلهم يولدون في تلك العشيرة أو ذلك البطن.

الآن النسبة إلى فعل فعلوه باختيارهم وإرادتهم. أسلموا أولًا، آمنوا بنبوته عليه الصلاة والسلام، ثم هاجروا معه، أو ناصروه.

الآن نسبتهم لفعل فعلوه، لا لقدر لا يمكن الفكاك منه.

وهذا الأمر، رغم أنه يبدو بسيطًا للوهلة الأولى، فإن آثاره كانت كبيرة حتمًا على نفوس الأنصار والمهاجرين على حد سواء، شعورهم بالانتماء إلى شيء مختلف كان يُكرس، وهويتهم الجمعية كانت تعاد صياغتها عبر هذه التسميات الجديدة.

عملية إعادة التسمية كانت مثل وضع علامة جديدة على الإنسان، علامة تجعله يتذكر صفته الجديدة أو مواصفاته الجديدة وبالتالي يجعله أكثر تمسكًا بهذه المواصفات، يحدث ذلك مع العلامات السلبية التي يوصم بها بعض أفراد المجتمع من قبل المجتمع، يكرهون تلك العلامة ويرفضونها ويعانونها، ولكنها بالتدريج تصبح جزءًا منهم ومن رؤيتهم لنفسهم، وقد يبذلون جهودًا كبيرة للتخلص منها بقية حياتهم[1]، كذلك الأمر

(1) Lungu, M. (2016). The consequences of labelling on personality development. *Journal Plus Education, 14*(1), 112–131.

عندما تكون العلامة إيجابية، تصبح جزءًا من بنائهم وتكوينهم النفسي والشخصي وتبقى حافزًا داخليًّا للارتقاء دومًا إلى مستوى العلامة.

إعادة التسمية لم تكن فقط إضافة صفة جديدة نتجت من تغير الظروف كما مع المهاجرين والأنصار، بل شمل ذلك أسماء الأشخاص والقبائل والأماكن، فقد كان يغير الاسم القبيح[1]، كما قالت السيدة عائشة، ولم يقف ذلك عند أسماء الأشخاص إذا كانت هذه الأسماء تحمل معاني سلبية، بل أيضًا أسماء القبائل والأماكن والقرى.

قال أبو داود: «**وغَيَّر رَسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- اسمَ العاصي، وعزيز، وعَتْلة، وشيْطانَ، والحَكَم، وغُرابَ، وحُبابَ، وشِهابَ، فسمَّاه: هشام، وسمَّى حَرْبًا: سِلْمًا، وسمّى المضطَجعَ: المُنْبَعِثَ، وأرضًا تُسمَّى عَفِرَة، سماها: خَضِرَة، وشِعْبَ الضلالَةِ سماه: شِعبَ الهُدى، وبني الزَّنيَة سمَّاهم: بني الرِّشْدَة، وسمّى بني مُغْوِيَةَ: بني رِشدَةَ**».[2]

فيما يتعلق بالأشخاص خصوصًا فتغيير الأسماء كان يسهم في بناء هوية جديدة، شئنا أم أبينا، وجود اسم بمعنى قبيح أو محرج سيسهم في تشكيل شخصيتنا وهويتنا السردية[3](Narrative identity) أي القصة التي نرويها داخليًّا عن أنفسنا وكيف أصبحنا على ما نحن عليه.

تغيير الاسم نحو اسم يحمل معنًى إيجابيًّا يساعد في إعادة بناء سردية ذاتية جديدة تبنى عليها هوية مختلفة، أكثر قوة وأكثر إيجابية[4].

---

(1) سنن الترمذي: 2839.

(2) صحيح الترغيب والترهيب، الجزء 2 صفحة 434.

(3) في علم النفس، تُعد «الهوية السردية» مفهومًا محوريًّا لفهم كيف يبني الفرد تصوراته عن ذاته عبر الزمن. تُستخدم في العلاج السردي (Narrative Therapy) كمدخل علاجي حديث، حيث يُعاد تأطير قصة المريض عن نفسه بطريقة إيجابية تساعده على تجاوز الصدمات وتشكيل هوية أكثر اتزانًا وفاعلية.

(4) Petracek, L. J. (2024, December 2). *How changing your name just might change your life.* Psychology Today. https://www.psychologytoday.com/us/blog/the-psyche-pulse/202411/how-changing-your-name-just-might-change-your-life

لا نعرف طبعًا متى حدثت هذه التغييرات تحديدًا، وغالبًا كانت تحدث تلقائيًّا مع مرور هؤلاء الأشخاص أو القبائل على النبي الكريم أو مروره بهذه الأماكن التي غيَّر أسماءها.

ولكن هناك تغيير كبير آخر، أجزم أنه حدث في فترة مبكرة، لا يمكن تحديدها بالضبط، كما لا يمكن الجزم بأنه حدث مرة واحدة، بل ربما حدث بالتدريج.

كان ذلك هو تغيير اسم يثرب إلى المدينة.

المدينة: يثرب سابقًا

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ القُرَى، يَقُولُونَ يَثْرِبُ، وَهِيَ المَدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ**»[1]

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى سَمَّى الْمَدِينَةَ طَابَةَ**»[2]

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**رَأَيْتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا اليَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ المَدِينَةُ يَثْرِبُ..**».[3]

كان اسمها يثرب، ويقال إن ذلك كان نسبة إلى يثرب بن عميل من قبيلة العماليق التي ربما تكون أول من سكن يثرب.

ويثرب في العربية ترتبط بالجذر ثرب، الذي يعني الفساد أو اللوم والتعيير بالذنب. أي إن اللفظ يحمل للسامع معاني سلبية لا يمكن مسحها تمامًا من نفسيته عند التعامل مع هذا المكان أو سكنه، لا أتحدث هنا عن طاقة سلبية للمكان الذي يؤمن به البعض ويروج له، بل أتحدث عن معنى سلبي لاسم المكان يحمل بالتأكيد أثرًا نفسيًّا على المقيمين فيه أو المارين به.

وهكذا كان لا بدَّ من تغيير الاسم، المدينة التي ستكون حاضنة الإنسان الجديد والمجتمع قيد التكوين لا يمكن أن تحمل معنى الفساد أو اللوم. على العكس، يجب أن يكون اسمها يحمل معنى المهمة الجديدة والدور الجديد الذي سيحمله سكانها.

---

(1) صحيح البخاري: 1871.

(2) صحيح مسلم: 1385.

(3) صحيح البخاري: 7035.

يقولون يثرب، وهي المدينة.

المدينة، اللفظ يعني مكان الإقامة، مدن يعني أقام بالمكان، كما لو أنها أصبحت تعني منذ تلك اللحظة المكان المستقر الذي سيقيم فيه المسلمون، ويقيمون به نواة بنائهم المدني الأول. لا أريد أن أسترسل أكثر في ربط لفظ المدينة بالتمدن وما نفهمه اليوم من معنى كلمة المدنية، لأن هذه معاني لاحقة طرأت على اللفظ ولم تكن مفهومة أو متداولة آنذاك، لكن إطلاق اللفظ، مع أل التعريف، كان لا بد أن يحمل معاني كثيرة مرتبطة بالبناء والاستقرار.

فلننتبه هنا أن لفظ يثرب ورد في القرآن الكريم بالفعل، ولكنه كان مرتبطا بما يقوله المنافقون ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: 12/13]

لقد كان هؤلاء يقاومون الاسم الجديد، يريدون التمسك بالاسم القديم، لأنهم يعرفون أن الأمر أعمق بكثير من مجرد اسم جديد، بل كان تغييرًا لكل ما كان يمثل عالمهم القديم الذي ربما كانوا يشعرون فيه بأهمية أو مكانة أكبر، أو كان يقدم لهم منافع (عشائرية/ طبقية) لم يعد لها وجود في العالم الجديد الذي يمثله الاسم الجديد: المدينة.

فلننتبه هنا إلى الاسم لم يتغير بمرسوم قانوني أو بتحريم ذكر الاسم القديم، رغم وجود نص يشير إلى الاستغفار من ذكر يثرب بدلًا عن المدينة، فإن نص هذا الحديث لم يصح[1].

التغيير حدث بالتدريج، أصبح الناس يقولون المدينة، أو طيبة، لأنها لم تعد يثرب، لم يعد ذلك المكان الذي يرتبط اسمه بشخص (ربما يكون من صنع الخيال، عاش قبل قرون في المكان)، ولم يعد هذا المكان يذكر بالفساد أو اللوم، بل أصبح شيئًا آخر تمامًا. أصبح (المدينة)، بالمطلق، كل المدن مدن لها أسماء مختلفة، أما المدينة فهي المدينة حصرًا، هي المدينة بالمطلق، كما لو أن التاريخ يشهد للمرة الأولى ولادة واقعية حقيقية لأول مدينة فاضلة، لكنها فاضلة ليس بمعايير الفلسفة المبالغة بمثاليتها

(1) (من سمى المدينة يثرب؛ فليستغفر الله عز وجل، هي طابة، هي طابة) - سلسلة الأحاديث الضعيفة 4607.

البعيدة عن الطبيعة البشرية، بل المدينة الفاضلة بتوازناتها مع طبيعة البشر وحاجتهم حتى إلى الخطأ أحيانًا لكي يتعلموا من التجربة.

تلك كانت المدينة.

على السطح تغير اسمها من يثرب.

لكن في الحقيقة، كان التغيير الأكبر في الجوهر، في العمق.

وكان تغييرَ الاسم محض تحصيل حاصل.

في الأرض خليفة..

لا نعرف بالضبط في أي مرحلة من مراحل بناء المسجد نزلت الآية 30 من سورة البقرة..

هل كان قد اكتمل البناء؟

هل نزلت والعمل فيه على قدم وساق، والرسول والمسلمين يبنونه حجرًا حجرًا ولبنةً لبنةً؟

هل نزلت قبل أول خطبة في المسجد؟ أم بعدها؟

قبل أول صلاة فجر فيه؟ أوبعدها..

لا نعرف. وربما هذه التفاصيل ليست مهمة كثيرًا.

لكننا نعرف أنها الآية 30 من أول سورة نزلت في المدينة.

في القرآن المكي نزلت آيات كثيرة تروي قصة سيدنا آدم، خاصة في سورتي الأعراف وطه.

لكن في الآية 30 من أول ما نزل في المدينة، هناك «تفصيل» في هذه القصة، لم يرو إلا فيها.

تفصيل جوهري، يجعلنا جميعًا في قلب قصة أبينا آدم.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ {البقرة/30}

الآن، في هذه المرحلة، بينما ينتقل المسلمون من مرحلة إلى أخرى، تأتي الآيات لتقول لهم إن دورهم في الأرض هو أن يكونوا خلفاء فيها، مسؤولين عنها وعن رعايتها.

وأن يكون هذا، على مقربة من «بناء المسجد».

لا شيء بالصدفة، حقًّا.

***

ولا نعرف متى قال عليه الصلاة والسلام هذا الحديث.

كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ[1]

هل قاله قبل نزول الآية 30؟ أم بعد؟

ربما لا فرق كبير.

لكن الحديث يخبرنا عن جوهر الاستخلاف، الرعاية، الرعاية المتبادلة التي يقوم بها كل فرد في المجتمع الجديد قيد التكوين. الإمام مسؤول عن رعيته، والرجل راع لأهله، والمرأة راعية لبيتها[2]، والعامل الخادم راعٍ لما أوكل له.

كلكم راع.

وكان هو عليه الصلاة والسلام الراعي الأول للجميع، يرعى الجميع ويهتم بتفاصيل الجميع، يغير حتى أسماءهم التي ولدوا بها. ولا تتوقف رعايته عند من عاصره وتشرف برؤيته..

بل تمتد أكثر وأبعد من ذلك، تمتد لتصل لكل منا شخصيًّا، فردًا فردًا ملايين بل مئات الملايين، بنصائحه، بوصاياه، برسالته المنجية..

ونحن مبرمجون على نرتبط ونحب من يقدم الرعاية..

فكيف بمن يرعانا نحن..

هل يذكرنا هذا بنمط من الأنماط الأولية؟

---

(1) صحيح البخاري: 893.

(2) من بعد إذن أخواتنا النسويات، لا يعني هذا أنها ليست مسؤولة عن رعاية منصبها أو أي شيء آخر تختاره.

أول خطبة جمعة: بيان رقم واحد

ثم جاءت الجمعة الأولى في التاريخ، نعم المسجد قد اكتمل بناؤه، لكن «البناء» لا يزال في بدايته.

حدث في المدينة خلال فترة قصيرة جدًّا تغييرات كبيرة جدًّا، لكن ذلك كان مستمرًّا بالحدوث، لا تزال المدينة تشهد تغيرات كبيرة ربما تحتاج وقت طويل حتى يستوعبها الجميع.

انتشر حتمًا خبر أنه عليه الصلاة والسلام سيلقي خطبة عند صلاة الظهر من يوم الجمعة، لا نعرف ذلك يقينًا عبر رواية أو سند لكنه منطقي. تجمع المؤمنون كما يتجمعون كل صلاة، لكنهم هذه المرة يتوقعون شيئًا مختلفًا أيضًا، شيئًا لا يعرفون ما هو.

قال ابن إسحاق بسنده[1]: **وَكَانَتْ أَوَّلُ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ، فحمِد اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ،**

تخيلوا الأعين والقلوب وهي متجهة نحوه، نحو شفتيه، تنتظر كل كلمة ستخرج من فمه.

تخيلوا دقات القلوب وهي تعلن أنها لم تعد تطيق الانتظار.

كان قد استند إلى جذع نخلة -سنعود إليها لاحقًا- فحتى النخلة لها حكاية!

ها هي خطبة الجمعة الأولى، ها هو البيان رقم واحد على وشك أن يذاع.

(1) سيرة ابن هشام (2/105-106) تحقيق طه عبد الرؤوف سعد.

هل سيكون خطاب النصر بالوصول إلى المدينة سالمًا رغم محاولات قريش اللحاق به؟ هل سيكون خطاب التهديد والوعيد بقريش؟

أبدًا، تلك التفاصيل لن يكون لها أي أثر في الخطبة الأولى، كما لو أنه لم يقم برحلة خطرة تعرضت فيها حياته للخطر، عليه الصلاة والسلام.

البيان رقم واحد يخص رحلتنا نحن، الرحلة التي قام بها كانت من أجل إيصال ما سيقوله الآن فيما يخص رحلتنا.

يقوله لأولئك الذين تعلقت قلوبهم وأعينهم به، في انتظار ما سيقوله لهم.

وسينقلونه لنا.

ماذا سيقول؟

سيقول: **قدموا لأنفسكم.**

ماذا يعني هذا؟

يعني استعدوا ليوم القيامة بشيء تقدمونه لأنفسكم.

هل كنت تتوقع شيئًا يخص ما نفهمه اليوم أنه يخص بناء الدولة أو الأمة في تلك الظروف العصيبة؟

لا، كل شيء يبدأ من خلاصك الفردي في يوم القيامة، كل شيء من تلك المفاهيم الكبيرة لن يكون له أهمية ما لم يكن مبنيًّا على أنه جزء مما تقدمه لنفسك لكي تنجو يوم القيامة.

ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فقدِّموا لِأَنْفُسِكُمْ.

تَعَلَّمُنَّ وَاللَّهِ ليُصْعَقَنَّ أحدُكم ثُمَّ لَيَدَعَنَّ غنمَه لَيْسَ لَهَا راعٍ، ثُمَّ ليقولنَّ لَهُ ربُّه وَلَيْسَ لَهُ تَرجمان وَلَا حَاجِبٌ يَحْجُبُهُ دُونَهُ: أَلَمْ يَأْتِكَ رَسُولِي فبلَّغك، وَآتَيْتُكَ مَالًا وَأَفْضَلْتُ عَلَيْكَ فَمَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ،

فَلَيَنْظُرَنَّ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَا يَرَى شَيْئًا،

ثُمَّ لَيَنْظُرَنَّ قُدَّامَهُ فَلَا يَرَى غَيْرَ جَهَنَّمَ.

فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقِيَ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِ مِنْ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ،

وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فَإِنَّ بِهَا تُجزى الْحَسَنَةُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضَعْفٍ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وبركاته».

ولو بشق من تمرة.

أو بكلمة طيبة.

كانت تلك فترة صعبة اقتصاديًّا على المدينة مع تزايد أعداد من المهاجرين من مكة تاركين خلفهم أموالهم هناك.

وشق صغير من تمرة صغيرة يمكنه أن يحدث أثرًا كبيرًا.

كذلك الكلمة الطيبة...تحدث أثرًا...

ويتعاضد الأثران...كأثر الفراشة الذي يتراكم ليحدث إعصارًا.

ثُمَّ خَطَبَ رسولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- النَّاسَ مَرَّةً أُخْرَى، فَقَالَ: «إِنَّ الحمدَ لِلَّهِ، أحمدهُ وَأَسْتَعِينُهُ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلل فَلَا هاديَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

هذه المقدمة هي التي عرفت لاحقًا بخطبة الحاجة، والتي علمها عليه الصلاة والسلام لأصحابه[1]، والتي تستخدم في النكاح وغيره، والتي أصبحت تستخدم اليوم بشكل دائم حتى في مقدمات الكتب أحيانًا.

ربما نكون قد تعودنا الكلمات اليوم وألفناها..

لكن تلك كانت خطبة الجمعة الأولى، وربما كانت أول مرة يقول عليه الصلاة والسلام هذه الكلمات كجزء من خطبة، لا يمكن أن نؤكد ذلك، لكن هذا أبكر ما وصلنا، خطبة الجمعة الأولى، تخيلوا أننا نسمع هذه الكلمات لأول مرة ومباشرة منه عليه الصلاة والسلام..

الحمد والاستعانة، والحمد على كل شيء، بما في ذلك على الاستعانة، والحمد لله على الهداية بعد الضلال...

ثم يقول: **(ونعوذ بالله من شرور أنفسنا. وسيئات أعمالنا)**

(1) سنن أبي داود: 2118.

نعرف أن لا شر في نفسه الكريمة، ولا سيئات في صحيفة أعماله.. لكنه يستخدم ضمير الفعل المتكلم لكي يضمنا معه، نحن الذين نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وهو يضمنا معه ليرفع معنا، يجعلنا تحت عباءته وجناحيه، لعلنا نصبح أقوى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا... مجرد شعورنا أنه معنا فهذا يمنحنا قوة أكبر على أن نواجه أنفسنا ...

إِنَّ أحسنَ الحديثَ كِتَابُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَيَّنَهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَدْخَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْكُفْرِ، وَاخْتَارَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ مِنْ أَحَادِيثِ النَّاسِ، إِنَّهُ أحسنُ الْحَدِيثِ وأبلغهُ، أَحِبُّوا مَا أَحَبَّ اللَّهُ، أَحِبُّوا اللَّهَ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ، وَلَا تملُّوا كلامَ اللَّهِ وذِكْره، وَلَا تَقْسُ عَنْهُ قلوبُكم، فَإِنَّهُ مِنْ كُلِّ مَا يَخْلُقُ اللَّهُ يختار ويصطفي، وقد سَمَّاهُ اللَّهُ خِيرته مِنْ الْأَعْمَالِ وَمُصْطَفَاهُ مِنْ الْعِبَادِ، وَالصَّالِحَ مِنْ الْحَدِيثِ، وَمِنْ كُلِّ مَا أُوتِيَ النَّاسُ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشركوا بِهِ شَيْئًا، وَاتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَاصْدُقُوا اللَّهَ صَالِحَ مَا تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ، وتحابُّوا بِرُوحِ الله بينكم إن الله يغضب أن يُنْكَسَ عهدهُ، والسلام عليكم».

كلماته عليه الصلاة والسلام لديها أجنحة، لا تحتاج إلى محركات نفاثة لكي تعبر الزمن، تشعر أنها ولدت اليوم وقيلت اليوم ويمكن أن يشعر بها كما لو أنها ولدت وقيلت بعد ألف سنة من اليوم..

أحبوا الله من كل قلوبكم!

وتحابوا بروح الله بينكم.

خطبته الأولى، بيانه الأول، تضمنت، ضمن ما تضمنت، هذه الجملة القوية عن حب الله.

هذه هي الأساسات التي كان عليه الصلاة والسلام يبني عليها المجتمع الجديد...

هناك القيامة والنار واتقائها ولو بشق من تمرة أو بكلمة طيبة.

وهناك أيضًا حب الله

حبه من كل قلوبكم.

أي من كل قلوبنا.

عمتنا النخلة[1]

ماذا عن النخلة؟

النخلة التي كان عليه الصلاة والسلام يستند إليها في خطبته الأولى وفي الخطب التالية..

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلاَ نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ»، فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى المِنْبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ. قَالَ: «كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا»[2]

عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب إلى لزق جذع واتخذوا له منبرا فخطب عليه فحن الجذع حنين الناقة فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فمسه فسكن وفي الباب عن أبي وجابر وابن عمر وسهل بن سعد وابن عباس وأم سلمة [3]

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ لَمْ يَأْتِهِ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[4]

عندما كثر الناس الذين يأتون إلى صلاة الجمعة، اقترح الأنصار على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يصنعوا له منبرًا لكي يقف عليه.

وكان ذلك.

وعندما جاءت الجمعة القادمة، تقدم النبي عليه الصلاة والسلام إلى المنبر وارتقاه.

ولكن النخلة التي كان يستند إليها وجدت نفسها وحيدة فجأة، كان يستند إليها عليه الصلاة والسلام، ولكن على ما يبدو كانت هي التي تستند إليه...

حنَّت إليه عليه الصلاة والسلام.

جعلها حنينها تئن مثل طفل يريد أمه.

---

(1) الحديث الذي ذكر فيه لفظ «أكرموا عمتكم النخلة» حديث موضوع وأنا أستخدم اللفظ هنا لا لأنه حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام بل لأن التشبيه جميل.

(2) صحيح البخاري: 3584.

(3) سنن الترمذي: 3627.

(4) سنن ابن ماجه: 1417.

وهو الحنين الذي يجعلني أقف هنا قليلًا عند هذا الجذع.

أقف عنده وعند حنينه وأنينه وعند مواقفنا من هذه الحوادث.

هامش من النقاش تحت ظل النخلة

أن تشعر النخلة بأي شيء، أو تصدر صوتًا.. ليس حدثًا يمكن تصنيفه بأنه ضمن الأحداث (الطبيعية)، هذا بشكل مبدئي.

والحديث الذي رواه عدد من الصحابة منهم أنس بن مالك وابن عمر وجابر وأبي بن كعب وأم سلمة نُقِلَ بشكل تقريري لما حدث، دون أن يتعامل أي منهم معه على أنه معجزة من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام. كلهم كانوا مؤمنين به أساسًا، أي أن تعريف المعجزة (تحدي غير المؤمنين لجعلهم يؤمنون) لا ينطبق على الحادثة، هو حدث خارق للطبيعة لكنه لم يحدث لهدف إعجاز أحد، على الأقل لم يفهم منه ذلك من قبل من رووا ما حدث.

والحدث هنا رغم خرقه للطبيعة فإنه يتعلق بحيز مكاني ضيق، جذع نخلة في المسجد وصوت يصدر عن هذا الجذع.

مع ذلك هناك خمسة صحابة على الأقل شهدوا الحادثة ونقلوها[1].

من السهل جدًّا لمن يريد أن يعقلن كل شيء أن يتجاهل الخبر أو يعتبره ضعيفًا لمجرد أنه لا يتوافق مع معاييره لما هو مقبول أو مرفوض عقليًّا.

لكن ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن هذه الحوادث الخارقة للطبيعة كانت قليلة ومتفرقة ولم تستخدم في جعل الناس يدخلون في الإسلام، فإني أعتقد أن ندرة هذه الحوادث يمكن أن تكون دليلًا على صحتها.

بعبارة أخرى: لو أن منظومة نقد المرويات عن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام كانت متساهلة في قبول حوادث خارقة للطبيعة في سيرته الشريفة دون سند صحيح بمعايير نقد الأحاديث العالية لكنا رأينا عددًا أكبر بكثير من هذه الحوادث وبتفاصيل أكبر حجمًا.

لكن هذا لم يحدث، المنظومة الناقدة للأسانيد مررت القليل من هذه الحوادث، وحكمت على العشرات من الحوادث المروية بالضعف والوضع.

(1) لم أحسب ابن عباس لأنه غالبًا نقلها عمن حضرها إذ لم يكن في المدينة.

وهذا قد يجعلنا أكثر تقبلًا لوجود هامش (صغير، ولكنه موجود) من الحوادث الخارقة للطبيعة على متن كان خاليًا منها إلى حد بعيد، ما دام كانت هذه الحوادث في نطاق مختلف عن نطاق التحدي الإعجازي الذي اختص به القرآن وحده.

بعد كل شيء، ما لا يمكن تفسيره علميًّا في فترة ما، يمكن أن يكون له تفسير علمي مقبول لاحقًا.

واليوم هناك دراسات علمية كثيرة تشير إلى قدرة النباتات على درجة دنيا من درجات الحس[1]. بالتأكيد هذه القدرة مختلفة تمامًا عن الجهاز العصبي الذي تملكه الحيوانات والإنسان. لكن هناك آلية (ما) تحاكي الشعور والإحساس، رد فعل (ما) تجاه متغيرات بيئية محيطة بها، ومن ضمن هذه المتغيرات اللمس والصوت[2].

لا تزال الدراسات العلمية في بدايتها، ولا أنوي تسخيرها لتفسير ما حدث مع ذلك الجذع...

فقط أقول ربما ارتبط الأمران...

***

«فَلَمَّا هُدِمَ الْمَسْجِدُ وَغُيِّرَ أَخَذَ أَبُوهُ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، ذَلِكَ الْجِذْعَ، فَكَانَ عِنْدَهُ فِي بَيْتِهِ حَتَّى بَلِيَ وَأَكَلَتْهُ الْأَرَضُ، وَعَادَ رُفَاتًا»[3]

بلى الجذع...وعاد رفاتًا...

لكنه دخل التاريخ بحنينه إليه عليه الصلاة والسلام.

---

(1) Myers, N. (2015). Conversations on plant sensing: Notes from the field. *NatureCulture, 3*, 35–66. https://doi.org/10.18910/75519

Pollan, M. (2013, December 23). The intelligent plant: Scientists debate a new way of understanding flora. *The New Yorker*. Retrieved from https://www.newyorker.com/magazine/2013/12/23/the-intelligent-plant

Gullari, J. K. (2024, December 12). *Sonic roots: The hidden power of sound in plant growth*. SSRN. https://doi.org/10.2139/ssrn.5056305

(2) Mishra, R. C., & Bae, H. (2019). Plant cognition: Ability to perceive 'touch' and 'sound'. In S. Sopory (Ed.), *Sensory biology of plants* (pp. [insert page range if known]). Springer. https://doi.org/10.1007/978-981-13-8922-1_6

(3) مسند أحمد: 21252.

المؤاخاة: إخوة من أم أخرى وأب آخر

كلنا نحتاج إلى الصداقة.

هذا من بديهيات طبيعتنا البشرية، ولأنه بديهي ومعتاد فإننا أحيانًا نغفل عن أهميته.

لا أتحدث هنا عن الصداقة بالمعنى الدارج للصحبة وقضاء الوقت وممارسة النشاطات معًا، هذا مهم ولا شك، ولا أحد يقلل منه، لكني أتحدث عن الصداقة الحقيقية. الصداقة-الصداقة؛ الصداقة بمعنى أن يكون لك شخص قريب من قلبك تخلع أمامه أقنعة المجاملة التي تضطر وضعها للتعايش مع الناس.

شخص قريب لا تخجل من دمعتك أمامه، يمسحها عنك حتى قبل أن تذرفها، شخص يعرف عيوبك ونقاط ضعفك ويقبلك رغمًا عنها، العيوب التي تحاول إخفاءها عن الناس، وتحرج من أي إشارة لها منهم، لكنك معه يمكنك تقبل حتى مزاحه عنها ومنها.

هذا الصديق الذي تشعر معه بالأمان، ويشعر هو بأمان مماثل معك، هو حقيقة وجودية مكنت البشر من جعل حياتهم الصعبة أقل صعوبة[1].

(1) Lewis, David & Al-Shawaf, Laith & Russell, Eric & Buss, David. (2015). Friends and Happiness: An Evolutionary Perspective on Friendship. 10.1007/978-94-017-9603-3_3.

Güroğlu, B. (2022). The power of friendship: The developmental significance of friendships from a neuroscience perspective. *Child Development Perspectives, 16*(2), 110–117. https://doi.org/10.1111/cdep.12450

King, A. R., Russell, T., & Veith, A. C. (2016). Friendship and mental health functioning. *Psychology Faculty Publications*, (21). https://commons.und.edu/psych-fac/21

لو أن المؤاخاة التي عقدها عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار في أوائل الفترة المدنية كانت عامة، بين عامة المهاجرين وعامة الأنصار، لما كان للكلام السابق أي معنى، الأخوة العامة، مثل أخوة المؤمنين لبعضهم، مختلفة، مثل رابطة عامة تجمع كل من لديهم قيم عليا مشتركة، أما ما فعله عليه الصلاة والسلام في المؤاخاة فقد كان مختلفًا تمامًا، لم يجعلها رابطة عامة، مثل رابطة المؤمنين ببعضهم بعضًا، بقيت الرابطة العامة بطبيعة الحال، ولا شيء يمكنها أن ينسخها ما دام الإيمان قائمًا، لكنه في المؤاخاة فعل شيئًا آخر، حكمته النبوية جعلته أكثر فهمًا للطبيعة البشرية واحتياجاتها، لذلك جعل المؤاخاة بين شخصين، جعلها بين مهاجر وأنصاري، لكل مهاجر أخ من الأنصار، ولكل أنصاري أخ من المهاجرين، رابطة أخوية خاصة تعين كلًّا منهما على مواجهة المرحلة الجديدة.

لماذا الرابطة الخاصة؟ أليست الرابطة العامة كافية؟

بمنطق الشعارات التي تعامل الجميع بمعيار واحد كما لو كانوا قوالب جامدة تنتج أشخاصًا متشابهين حد التطابق، كافية.

لكن هذه الشعارات -التي لا تزال تجد من يروج لها- غير منطقية ولا علاقة تربطها حقًّا بواقع الطبيعة البشرية المعقدة المتشابكة التي تجعل من كل إنسان بصمة فريدة لا تتطابق مع سواها.

الرابطة العامة مهمة بلا شك، وموحدة، ولها دور كبير لا شك فيه في تشكيل هوية للمجتمع، خاصة عندما يكون هذا المجتمع في مراحل نشوئه الأولى، لكنها ليست كافية ولا يمكن أن تكون كافية، بعض أصحاب الشعارات يتعاملون مع الجمهور (أو الشعب) كما لو كانوا وحدة واحدة، لذلك فاحتماليات سقوط هذه الشعارات في الاختبار واردة جدًّا، لأن هناك هامشَ اختلاف مهم، متفاوت الحجم يمد ويجزر حسب الظروف، لا يدخل ضمن متن الرابطة العامة، ولا يعارضها بالضرورة، لكنه يؤثر على الأفراد وخياراتهم وتفاعلاتهم.

هذا الهامش هو الهامش الفردي الشخصي، الهامش الذي يهمله أصحاب الشعارات الذين يعاملون الجمهور كما لو كان مجرد أدوات وقطيع يساق إلى تنفيذ المهام.

هذا الهامش الفردي هو الذي يجعل البعض مميزين على نحو استثنائي؛ قادة استثنائيون، مفكرون استثنائيون، مخططون استثنائيون.. كل ما هو استثنائي، إيجابًا وسلبًا، ينبع من هذا الهامش.

الحكمة النبوية جعلته عليه الصلاة والسلام، يفهم هذا الهامش الفردي الذي يميز كل شخص بل ويقدره ويوظفه لما فيه نماء هذا الشخص والمجتمع من بعد.

ضمن هذا الفهم المتفاعل مع تقاطع الهامش الفردي مع السياق العام، يمكن النظر إلى المؤاخاة التي أقامها عليه الصلاة والسلام باعتبارها مقدمة لتعامل النبي الكريم عليه الصلاة والسلام مع الأفراد وخصوصية كل منهم.

لم تكن المؤاخاة شعارًا عامًّا يصهر الجميع في بوتقة واحدة.

بل كانت مثل إخوة خاصة، حميميَّة، ضمن الإخوة العامة التي تربط الجميع.

ثُمَّ آخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي دَارِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَكَانُوا تِسْعِينَ رَجُلًا نِصْفُهُمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَنِصْفُهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ، آخَى بَيْنَهُمْ عَلَى الْمُوَاسَاةِ، يَتَوَارَثُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ دُونَ ذَوِي الْأَرْحَامِ[1]

المواساة..

وَرَوَى الْمُنْذِرِيُّ عَنْ أَبي طَالِبٍ أَنه قَالَ فِي المُؤَاسَاة وَاشْتِقَاقِهَا إِنَّ فِيهَا قَوْلَيْنِ: أَحدهما أَنها مِنْ آسَى يُؤَاسِي مِنَ الأُسْوَة وَهِيَ القُدْوة، وَقِيلَ إِنَّهَا مِنْ أَسَاه يَأْسُوه إِذَا عَالَجَهُ وَدَاوَاهُ، وَقِيلَ إنها من آسَ يَؤُوس إِذَا عَاضَ، فأَخَّر الْهَمْزَةَ ولَيَّنهاو لكلّ مَقَالٌ. وَيُقَالُ: هُوَ يُؤَاسِي فِي مَالِهِ أَي يساوِي .... والمساواة تعني الْمُشَارَكَةُ والمُساهَمة فِي الْمَعَاشِ وَالرِّزْقِ[2]..

علاج ودواء، عوض ومشاركة...بالضبط كما يكون الأخ لأخيه...عندما يكون أخًا حقًّا.

وقد كانوا بالفعل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد: (56/3).

(2) لسان العرب آسى.

الرعاية بالاختيار

لا أشك أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام اختار كل أخ بعناية.

لم يكن الأمر اقتراعًا عشوائيًّا، حاشا أن يفعل ذلك عليه الصلاة والسلام.

لكن هذا النبي الخبير بالنفوس والشخصيات، كان يختار بدقة كل شيء.

كانوا تسعين رجلًا، نصفهم من المهاجرين، والنصف الآخر من الأنصار.

وكان يعرف المهاجرين جيدًا، يعرف كل واحد منهم، ليس لأنهم من مدينته فحسب، بل لأنه عرفهم في سنوات مكة صعبة، وهم يسيرون معه على الشوك الدامي، في الأزمات والمصاعب تبرز النفوس وتتوضح المعادن، وتظهر مواطن القوة ونقاط الضعف.

لعله احتاج إلى بعض الوقت لكي يعرف من يناسب من الأنصار، لكن ليس الكثير من الوقت، تراكم الخبرة بالأنفس يختصر ذلك حتى بالنسبة إلينا، فكيف به عليه الصلاة والسلام.

هناك الكثير من المعلومات الشخصية التي لم تسجل في قائمة المؤاخاة، لأن الكثيرين منهم، خاصة من جانب الأنصار، استشهدوا مبكرًا، وبذلك لم تصلنا التفاصيل الشخصية التي تجعلنا نفهم لماذا اختارهم عليه الصلاة والسلام لكي يكونوا إخوة لمن آخاهم..

لكن ما نعرفه من تفاصيل، يكفي ليغطي ذلك، لكي نعرف أنه اختار كل شخص بعناية بحيث يكون مناسبًا للآخر في رابطة الأخوة.

على سبيل المثال: آخى بين عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل. نعرفهما اليوم ككبيرين من كبار فقهاء الصحابة، لكن في تلك الفترة المبكرة، كان عبد الله في التاسعة عشر من العمر، ومعاذ كان حتى أصغر من ذلك، كان في السابعة عشر من العمر.

هل كانت مصادفة أن يجعلهما عليه الصلاة والسلام أخوين؟ وأن يصبحا بعد ذلك من كبار الفقهاء في الصحابة؟ بالتأكيد لا. لم تكن الفئة العمرية وحدها ما تجمعهما، بل كان هناك حتمًا حدة الذكاء والانتباه للتفاصيل والحرص على الفهم، وكلها إشارات التقطها عليه الصلاة والسلام، وعرف أنها تمهد لفقيهين قادمين لا محالة فوضعهما معًا، يزود أحدهما الآخر بالمزيد من الفهم والدقة.

وآخى بين طلحة بن عبيد الله، وكعب بن مالك، وكانا في عمر متقارب، وكان طلحة فارسًا شجاعًا، وكان كعب شاعر فروسية وحرب، كما لو أنه عليه الصلاة والسلام يجمع

بين النظرية والتطبيق، يجمع بين من يحث على الشجاعة في الحرب، وبين النموذج العملي عليها.

وآخى بين مصعب بن عمير وأبي أيوب الأنصاري، وقد تعرفنا على حياء أبي أيوب الأنصاري ورقته، أما مصعب فقد كان السفير الأول في الإسلام، ولا بدَّ أنه كان متحدثًا بارعًا خبيرًا بشؤون النفس الإنسانية، كما لو أنه يجمع بينهما ليحدث تفاعل تكميلي بينهما.

ليست مصادفة أيضًا أنه اختار أبي بن كعب من الأنصار، الكاتب الأول للوحي في المدينة، وأفضل الصحابة قراءة للقرآن، ليكون أخًا لسعيد بن زيد من المهاجرين، أحد العشرة المبشرة بالجنة، الذي نشأ عند أب حنيفي ترك عبادة الأصنام قبل الإسلام. كما لو أنه اختار أن يصل بين من لم يتأثر بالشرك في حياته السابقة، وبين من سيكون واحدًا من أهم من جمع القرآن وكتبه مباشرة من الرسول عليه الصلاة والسلام.

وليست مصادفة أنه اختار عمار بن ياسر ليكون أخًا لحذيفة بن اليمان. كانا قادمين من خلفية اجتماعية متشابهة، فقد كان عمار حليفًا لبني مخزوم من قريش، وكان حذيفة مواليًا لبني عبد الأشهل من الأنصار، أي أنهما لم يكونا من قريش أو من المدينة أصلًا، بل سكناها وحالفا القوم لظروف اجتماعية مختلفة. عمار الذي (ستقتله الفئة الباغية) كما أخبره عليه الصلاة والسلام لاحقًا، وحذيفة الذي كتم أسرار النبي عليه الصلاة والسلام عن المنافقين. الفرق العمري كان كبيرًا بينهما (عمار كان سنه 52 عامًا في الهجرة، بينما كان حذيفة في أواخر العشرينات)، لكنه عليه الصلاة والسلام رأى في شخصية كلٍّ منهما ما يمكن أن يجسر الهوة العمرية.

لا نعرف الكثير عن كل من في القائمة، لكن ما نعرفه كافيًا جدًّا لنعرف أنه عليه الصلاة والسلام كان يراعي أدق التفاصيل الفردية في المؤاخاة.

حلف من نوع آخر

سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: حَالَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي دَارِنَا، فَقِيلَ لَهُ: أَلَيْسَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حِلْفَ فِي

الْإِسْلَامِ»، فَقَالَ: «حَالَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي دَارِنَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا»[1] وفسره العلماء، حالف: آخى[2].

أنس بن مالك كان عمره عشر سنوات آنذاك، ما رآه كان ظاهريًّا يبدو كما لو كان تحالفًا، لكنها المؤاخاة، تتضمن التحالف، ولكنها تتجاوزه، التحالف معاهدة يمكن أن تخرق، لكن لا شيء يمكن أن يخترق المؤاخاة. الأخّوة عسيرة على الذوبان، مقاومة للتحول، وهي -على العكس من التحالفات- تخص كل فرد بذاته، يحملها معه، بينما التحالفات عادة تكون بين عشائر وبطون أو كيانات قبلية لا يكون للفرد أمامها أي خيار، فالخيار يخص عشيرته وزعماءها أكثر مما يخصه.

يمكن أن نرى اليوم في تلك الرابطة الجديدة التي ولدت في دار أنس بن مالك جوانب نفسية شخصية تخص كل فرد في قائمة المؤاخاة..

لكن هناك أيضًا وحتمًا ما هو أكثر من ذلك.

الاقتصاد أولًا، ولكن ليس آخِرًا

الأسباب الاقتصادية هي عادةً أول ما يذكر في هذا الصدد، وذكرها أولًا منطقي.

فما كان يمكن لمدينة بحجم متوسط مثل المدينة المنورة أن تتحمل هجرة قرابة مئة رجل وامرأة دون أن يؤثر ذلك على اقتصادها ومعيشتها، والحديث هنا ليس عن ضيافة مؤقتة محدودة يتوقع لها المرور سريعًا، بل عن استقرار وإقامة دائمة، العالم المعاصر يعج بقصص يعاني فيها المهاجرون عداء المجتمعات الجديدة بسبب تأثيرهم على الوضع الاقتصادي، صحيح أن الطبيعة الاقتصادية في العالم بأسره آنذاك كانت أبسط بكثير وخالية مما تعودنا عليه من طبيعة المجتمع الاستهلاكي المعاصر، إلا أن فكرة الغرباء الذين سيزاحمون أهل البلد الأصليين كانت ولا بد موجودة في أي مجتمع إنساني، بل هي جزء من الطبيعة البشرية على ما يبدو. ماذا عن رابطة الإيمان التي يجب أن تزيح مشاعر العداء -إن وجدت- تجاه المهاجرين؟ الرابطة موجودة حتمًا وبلا شك، لكننا نتحدث عن مجتمع قيد التكوين، وفي فترة مبكرة من تكوينه، وسيكون هناك

(1) سنن أبو داود: 2926.

(2) مسند الحميدي: 1239.

منافقون، وأشخاص آخرون لم يحسموا أمرهم، وهناك اليهود الذين يبدو أنهم كانوا قد حسموا أمرهم حتى ولو لم يعلنوه.

لا نعرف إن كانت هناك أي بوادر تذمر من الأعباء الاقتصادية من قِبل أولئك الذين يسلموا بعد في هذه المرحلة المبكرة، لكن عمق النظرة النبوية كانت تعمل على منع اندلاع الحرائق بدلًا من إطفائها عند اشتعالها؛ لذا جاءت المؤاخاة بمنزلة رسالة طمأنة اقتصادية: هؤلاء المهاجرون، كل واحد منهم، في رابطة أخوَّة مع عدد مماثل من الأنصار، ستكون هذه الرابطة بمنزلة كفالة تخفف من أعباء اقتصادية يمكن أن تنتج عن استقبال المهاجرين في المدينة.

كانت المؤاخاة التي عقدها عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار اثنين اثنين بالأسماء خطة استباقية نابعة من حكمة النبوة لمواجهة الأعباء الاقتصادية الناتجة عن الأمر.

لا شك أنه عليه الصلاة والسلام كان يدرك أن الجانب الاقتصادي من المؤاخاة يجب أن يكون مؤقتًا. فمن ناحية، أغلب المهاجرين كانوا في عمر منتج اقتصادي، ولكن طبيعة أعمالهم السابقة في مكة كانت مرتكزة على التجارة، بينما المصدر الاقتصادي الأساسي في المدينة المنورة كان العمل الزراعي، وهذا يعني أنهم لا يملكون الخبرة اللازمة للانخراط في الحياة الاقتصادية السائدة في المدينة، عدا عن تحمل سوقها لمنافسة من هذا النوع، وعدا عن عدم تمكن أغلبهم من نقل رؤوس أموالهم من مكة بسبب مصادرة قريش لها.

لكن هؤلاء المهاجرون أيضًا لا يمكن أن يتقبلوا وضع الإعالة الاقتصادية الذي حبتهم به المؤاخاة. هذا غير مقبول إلا بشكل مؤقت حتى مع أخوة الدم، ستكفيهم فترة مؤقتة (لم تحدد طبعًا) لكي يقفوا على أرجلهم في مجتمع زراعي، أو في طبيعة اقتصادية جديدة ستغير من وضع المدينة، ريثما يحدث ذلك، هناك المؤاخاة التي ستيسر ولادة ذلك.

كانت المؤاخاة حقيقية لدرجة التوارث، أي أن يرث كلٌّ منهم الآخر، لا نعرف إن كان هناك مَن مات حقًّا في تلك الفترة، لكن مجرد إعلان ذلك وقبوله من طرفيه (الأخوين)

فهذا يعني إرسال رسالة للجميع: هذه الأخوة حقيقية، ليست شعارات، ليست مجرد كلام، بل هي تأخذ محل إخوة النسب في الميراث. هل من رسالة أكثر وأعمق وأوضح من ذلك؟ ضع نفسك مكان الذين لم يحسموا أمرهم بعد، هذا الذي يحدث يغير كل شيء، ويستحق أن يؤخذ بجدية تمامًا، إلى أي جانب ستكون.

رغم أهمية هذا الجانب ووضوحه، فإن ذلك يجب ألا يجعلنا ننسى الجانب النفسي الشخصي من الأمر، الذي لا يمكن أن يكون مؤقتًا أو مرتبطًا بوضع اقتصادي عابر.

المؤاخاة كانت تتضمن مشاركة ودعمًا نفسيًّا، وتربط كل شخص من المهاجرين بآخر من الأنصار، بحيث يتركز الدعم ولا يتشتت دون تنظيم، كانت تتضمن «معايشة» من كل الاثنين لواقع الآخر، وتبادل للخبرات فيما بينهما.

***

ماذا سنجد لو تفحصنا قائمة[1] المتآخين من المهاجرين والأنصار؟ ما هي السمة الأكثر بروزًا في الأنصار تحديدًا؟

	المهاجرون	الأنصار
1	عبد الله بن مسعود	معاذ بن جبل من الخزرج/ العقبة الثانية/ أسلم وعمره 18/ شهد المشاهد كلها/ أرسله إلى اليمن/ أبقاه في مكة ليعلم الناس القرآن بعد الفتح **البطن: بنو أدّى من بني جشم بن من *الخزرج*** ***17***
2	أبو بكر بن أبي قحافة	خارجة بن زيد بن أبي زهير من الخزرج/ العقبة الثانية/ استشهد في أحد البطن: بنو كعب بن من الخزرج بن الحارث بن خزرج
3	عمر بن الخطاب	عتبان بن مالك من الخزرج/ شهد بدر وأحد ثم ذهب بصره البطن: بنو غنم بن عوف من الخزرج 50-40

(1) عيون الأثر: (1/ 231-233)

	المهاجرون	الأنصار
4	أبو عبيدة بن الجراح	سعد بن معاذ سيد الأوس، استشهد بعد جرح في معركة الخندق البطن: بنو عبد الأشهل ؟30 (أو آخى بين أبي عبيدة وأبي طلحة)
5	عبد الرحمن بن عوف	سعد بن الربيع من الخزرج/ العقبة الثانية/ نقيب الأنصار/ استشهد في أحد البطن: بنو كعب بن من الخزرج بن الحارث بن من الخزرج
6	الزبير بن العوام	سلمة بن سلامة بن وقش من الأوس/ العقبة الأولى والثانية/ المشاهد كلها/ ولاه عمر على اليمامة من بني عبد الأشهل
7	عثمان بن عفان	أوس بن ثابت بن المنذر من الخزرج/ العقبة الثانية/ استشهد أحد بني عدي بن مالك بن عمرو بن النجار
8	طلحة بن عبيد الله	كعب بن مالك من الخزرج/ شهد أحد ولم يشهد بدر/شهد العقبة/ أحد الثلاثة الذين تخلفوا / شاعر الرسول بني سلمة
9	سعيد بن زيد	أبي بن كعب من الخزرج/ العقبة الثانية المشاهد كلها من بني معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار
10	مصعب بن عمير	أبو أيوب خالد بن زيد من الخزرج العقبة وكل المشاهد بني غنم بن مالك بن النجار
11	أبو حذيفة بن عتبة	عباد بن بشر/ من الأوس/ أسلم على يد مصعب شهد المشاهد كلها، استشهد في حروب الردة بني عبد الأشهل

	المهاجرون	الأنصار
12	عمار بن ياسر	حذيفة بن اليمان/ ولد وعاش في المدينة/ عبسي غطفاني قيسي/ حافظ أسرار النبي محالف للأوس / بني عبد الأشهل/ كل المشاهد عدا بدر يقال: بل ثابت بن قيس بن الشماس من الخزرج/ شهد المشاهد كلها عدا بدر/ استشهد في حروب الردة من بني كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج
13	أبو ذر أو طليب بن عمير	المنذر بن عمر من الخزرج/ العقبة الثانية/ أحد النقباء شهد بدر وأحد، واستشهد في بئر معونة. بني ساعدة
14	حاطب بن أبي بلتعة	عويم بن ساعدة من الأوس. من الـ 8 الأوائل في مسلمي الأنصار/ عقبة أولى وثانية/ مشاهد كلها بني أمية بن زيد
15	مهجع مولى عمر	سراقة بن عمرو بن عطية من الخزرج/ المشاهد كلها من بني غنم بن مالك بن النجار
16	أبي مرثد	عبادة بن الصامت الخزرج/ العقبة الأولى والثانية/ المشاهد كلها بني غنم بن عوف بن النجار
17	عبد الله بن جحش	عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح من الأوس/ العقبة/ بدر وأحد/ استشهد يوم الرجيع / بئر معونة بني ضبيعة بن زيد
18	عتبة بن غزوان	أبي دجانة من الخزرج/ بدر وأحد والخندق بني ساعدة

	المهاجرون	الأنصار
19	أبي سلمة بن عبد الأسد	سعد بن خيثمة من الأوس/ العقبة الثانية/ من نقباء الأنصار/ استشهد في بدر/ بيته في قباء يسمى بيت العزاب بني غنم بن السلم
20	عثمان بن مظعون[1]	أبي الهيثم بن التيهان من الأوس أو حليف للأوس/ أحد الـ 8 الأوائل/ العقبة الأولى والثانية/ كل المشاهد أما حليف بني عبد الأشهل أو من بني عمرو بن جشم بن الحارث
21	عبيدة بن الحارث	عمير بن الحمام استشهد في بدر/ من الخزرج بني حرام بن كعب
22	الطفيل بن الحارث أخي عبيدة	سفيان بن نسر بن زيد من بني جشم بن الحارث بن من الخزرج من الخزرج/ شهد بدر وأحد بني جشم
23	الحصين أخو الطفيل	عبد الله بن جبير من الأوس، العقبة الثانية/ بدر بني ثعلبة بن عمرو بن عوف
24	عثمان بن مظعون مكرر	العباس بن عبادة بن نضلة من الخزرج، أسلم قبل البيعتين/ عقبة أولى وثانية استشهد في أحد سالم بن عمرو بن عوف من الخزرج
25	صفوان بن بيضاء	رافع بن المعلى من الخزرج/ استشهد في بدر بني حبيب بن عبد حارثة
26	المقداد	ابن رواحة من الخزرج/ عقبة / نقباء كل المشاهد بن ثعلبة بن كعبة بن من الخزرج

(1) تكرر اسم عثمان بن مظغون مرتين في القائمة وربما المقصود أخوه قدامة بن المظغون.

	المهاجرون	الأنصار
27	ذي الشِّمالين	يزيد بن الحارث من بني حارثة من الخزرج/ استشهد في بدر بني كعب بن من الخزرج بن الحارث بن من الخزرج
28	عمير بن أبي وقاص	خبيب بن عدي من الأوس/ بدر واحد/ استشهد مصلوبًا بعد بئر معونة بني جحجبا بن كلفة من الأوس
29	عبد الله بن مظعون	قطبة بن عامر بن حديدة من الخزرج/ الأنصار الـ 8/ عقبة أولى وثانية بني سواد بن غنم من بني سلمة من الخزرج
30	شماس بن عثمان	حنظلة بن أبي عامر من الأوس/ استشهد في أحد / غسيل الملائكة بني ضبيعة
31	الأرقم بن أبي الأرقم	أبو طلحة زيد بن سهل من الخزرج بيعة العقبة الثانية المشاهد كلها بني عدي بن عمرو بن مالك بن النجار
32	زيد بن الخطاب	معن بن عدي محالف للأوس/ بيعة العقبة 2/ كل المشاهد حليف لبني معاوية بن مالك بن عوف من الأوس، بالأصل من قبيلة بلى من قضاعة أخو عاصم بن عدي
33	عمرو بن سراقة	سعد بن زيد بني عبد الأشهل من الأوس/ العقبة الثانية/ كل المشاهد
34	عاقل بن البكير	مبشر بن عبد المنذر من الأوس/ العقبة الثانية (مختلف في اسمه/ أبو أمامة) بني أمية بن زيد (استشهد في بدر)

	المهاجرون	الأنصار
35	عبد الله بن مخرمة	فروة بن عمرو البياضي خزرج / عقبة ثانية / كل المشاهد بني بياضة
36	خنيس بن حذافة	المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح من الأوس / بدر / استشهد في بدر مِنْ بَنِي جَحْجَبَى بْنِ كِلْفَةَ بْنِ عَوْفِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ
37	سبرة بن أبي رهم	عبادة بن الخشخاش حليف للخزرج / استشهد في أحد حليف بني سالم من بني عوف
38	مسطح بن أثاثة	زيد بن المزين من الخزرج / بدر واحد بن عَوْف بن الحارث بن من الخزرج الأنصاريّ
39	عكاشة بن محصن	المجذِّر بن زياد حليف الخزرج / استشهد في أحد بالخطأ بني غنم بن عوف من الخزرج
40	عامر بن فهيرة	الحارث بن الصمة من الخزرج / شهد بدر واحد واستشهد يوم الرجيع /بئر معونة بني مبذول من الخزرج

من القائمة المتوفرة[1] التي تضم ثمانين (40 مهاجرًا و40 أنصاريًّا) **سنجد فيما يخص الأنصار** ما يلي:

أولًا: 26 منهم كانوا من الخزرج (أو محالفين لهم) مقابل 14 من الأوس (أو محالفين لهم)، غالبًا لأن عدد الخزرج كان أكثر بالأساس وليس غير ذلك؛ إذ إن عدد بطونهم كان أكثر كما سنلاحظ.

(1) حُذف أبو الدرداء الذي ترد روايات بمؤاخاته مع سلمان الفارسي لأن قصة إسلامه متأخرة إلى يوم بدر، وواقعة المؤاخاة أبكر.

ثانيًا: أكثر من نصفهم (22) صحابيًّا كان قد شارك في واحدة أو أكثر من بيعتي العقبة، أي أنه أسلم قبل هجرة النبي، بل وقبل ذهاب مصعب بن عمير لدعوة الناس إلى الإسلام.

ثالثًا: استشهد منهم لاحقًا تسعة عشر صحابيًّا (قرابة النصف) (سبعة منهم في أحد، ستة في بدر، وأربعة في بئر معونة وما تلاها، واحد في الخندق، وواحد آخر استشهد في حروب الردة)، رضوان الله عليهم جميعًا.

رابعًا: كلهم (عدا من استشهد منهم) شهدوا (المشاهد كلها) مع الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى إن قصة تخلف واحد منهم عن غزوة معينة أصبحت قرآنًا يتلى (كعب بن مالك، أحد الثلاثة الذين خلفوا).

هؤلاء إذن الذين اختارهم عليه الصلاة والسلام ليكونوا (إخوة) للمهاجرين كانوا نخبة أثبتت لاحقًا أنها تستحق ما نالت من ثقة، لقد دافعوا عن الإسلام ورسوله بأقصى ما يمكن أن يفعله إنسان.

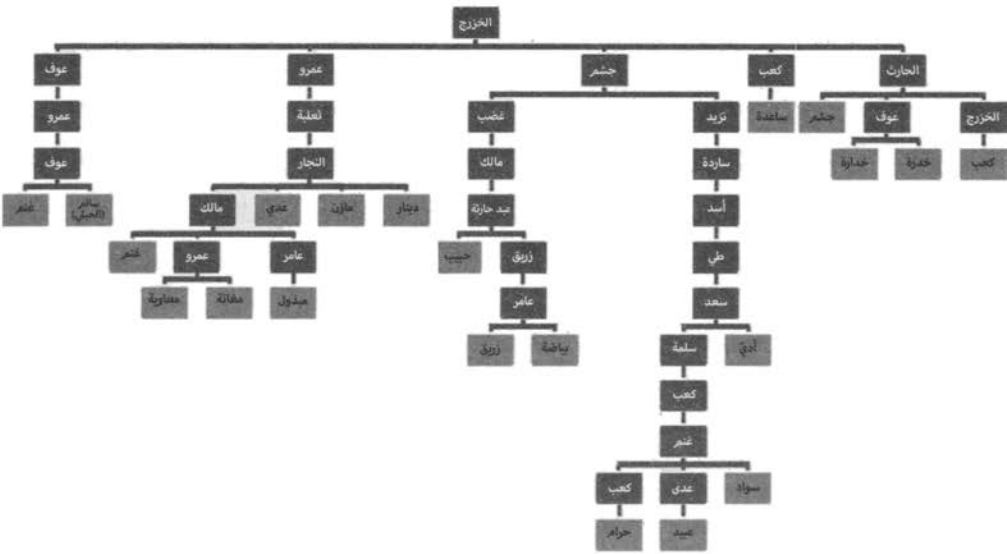

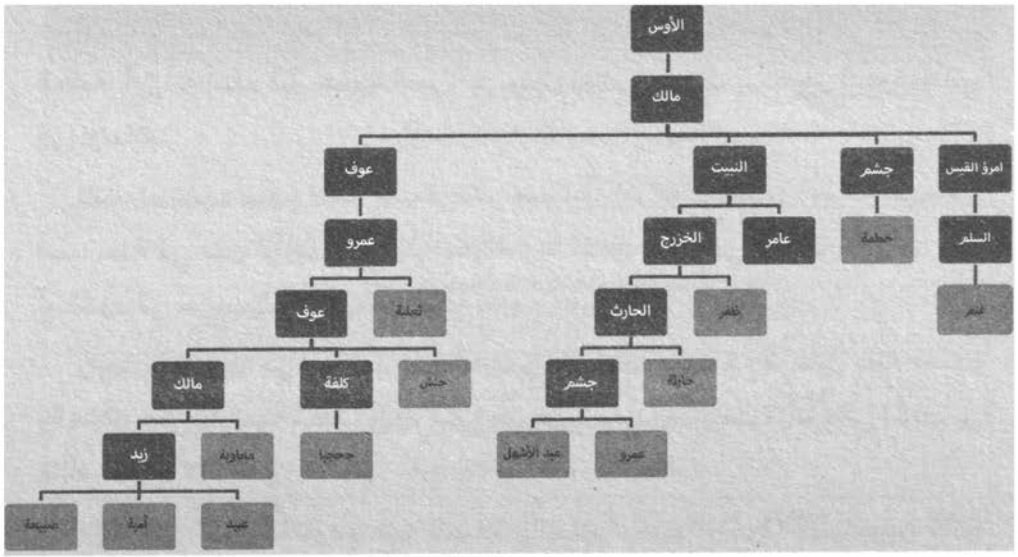

لكن هناك أيضًا ما هو أكثر.

هؤلاء الـ 41 أنصاريًّا كانوا يمثلون قرابة 70 بالمائة من بطون الأوس والخزرج التي تبلغ أكثر من 30 بطنًا، (21 بطنًا للخزرج، 13 للأوس)، البطون التي ليس فيها أحد ممن شملتهم المؤاخاة هي بطون صغيرة ولديها أبناء عمومة موجودة في القائمة، أما البطون الأكبر (مثل بني عبد الأشهل من الأوس، وبني كعب بن الخزرج بن الحارث وبني غنم بن عوف من الخزرج) فقد نالت تمثيلًا أكبر.

مصادفة؟

حاشا لله، وحاشا لحكمة نبيه أن تكون هناك اختيارات عشوائية.

لقد أنتج (تحالف) المؤاخاة نسيجًا متشابكًا متداخلًا مع كل بطون الأوس والخزرج مما جعل كل الأنصار في المدينة، بكل بطونها، إخوة لأحد المهاجرين. أخوَّة تتفوق حتى على أخوَّة الدم بأنها تحجب (الميراث) عن قرابة الدم وتمنحها للأخوة التي عقدها عليه الصلاة والسلام. هذا الذي حدث، دخل مهاجرو قريش داخل النسيج المدني أساسًا كما لو كانوا حقنة سائل ملون في شريان يغذي الجسم كله، فيتلون بهذا السائل كل الدم.

هذا ما حدث، صار الجميع إخوة، بطريقة أو بأخرى.

وعندما تدفقت دماؤهم معًا -مهاجرين وأنصار- يوم بدر، صار الأمر واقعًا واضحًا، مرويًّا بدم التضحيات والجهاد.

عندها حذف الإرث من معادلة المؤاخاة.

وبقي كل شيء آخر.

شكرًا، ولكن لا، أين السوق؟

واحدة من حوادث المؤاخاة المعروفة تستحق وقفة تأمل.

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَآخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ وَعِنْدَ الأَنْصَارِيِّ امْرَأَتَانِ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ، فَأَتَى السُّوقَ فَرَبِحَ شَيْئًا مِنْ أَقِطٍ، وَشَيْئًا مِنْ سَمْنٍ،...[1]

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ، تَزَوَّجْتَهَا، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لاَ حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقُ قَيْنُقَاعٍ، قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ،...[2]

الذهنية المعاصرة تقف عند جزئية واحدة.

سعد بن الربيع يعرض على عبد الرحمن بن عوف أن يريه زوجتيه، ويختار واحدة منهما، لكي يطلقها سعد، ويتزوجها عبد الرحمن.

عرضها كما عرض بقية ماله، مناصفة في كل شيء.

لكن هل المرأة سلعة كي تعامل هكذا؟ تطلق وتزوج دون أن تعلم أصلًا بما يحدث؟

لقد كانت كذلك فعلًا عند العرب، أو عند جزء منهم على الأقل.

وسعد بن الربيع، كان ابن بيئته، وما عرضه على عبد الرحمن كان منطلقًا من هذه البيئة، وربما من مفاهيم الكرم عند العرب، لم تكن هناك أي إشارة من الرسول عليه

(1) صحيح البخاري: 5072.

(2) صحيح البخاري: 2048.

الصلاة والسلام ليتنازل أيٌّ من الأنصار عن زوجاتهم لأجل المهاجرين، بل إن أغلب المهاجرين كان معهم زوجاتهم أصلًا، ولم يكونوا بحاجة إلى زواج جديد، وإذا كان الأمر (مناصفة) في الزوجات، فعلى المهاجرين أيضًا أن يتنازلوا عن نصف زوجاتهم لإخوتهم في قائمة المؤاخاة.

لكن هذا الأمر لم يكن ولم يحدث.

نعم، عرض سعد بن الربيع الأمر، دون أن يطلب الرسول عليه الصلاة والسلام من أي أحد ذلك، لكن عبد الرحمن بن عوف رفض وقال له (بارك لك في أهلك ومالك) وطلب معرفة مكان السوق ليبدأ في ممارسة ما يعرفه جيدًا: التجارة.

ولو افترضنا جدلًا أن عبد الرحمن بن عوف كان قد قبل العرض، فزواجه من طليقة سعد لن يكون تلقائيًّا بمجرد قبوله الأمر وانتهاء عدتها، لأن هذا الزواج يحتاج إلى موافقتها هي.

البضاعة عندما تشترى من بين البضائع، لا رأي لها فيمن يبتاعها، إنها مجرد بضاعة معروضة لمن يمتلك السعر، لكن الوضع الجديد للمرأة مختلف، ولا نعرف إن كان الأوس والخزرج يعاملون نساءهم هكذا قبل الإسلام، لأنهن عرفن أيضًا بقوتهن مقارنة بنساء مكة، فقد وصف المهاجرون أهل المدينة بأنهم (قوم تغلبهم نساؤهم)[1] ولذا فربما الجزء الخاص بالزوجة من عرض سعد بن الربيع كان على سبيل المبالغة في الكرم والحمية في إظهار الضيافة، ولكنه لم يكن عرضًا جادًّا في هذه الجزئية.

لماذا نتحدث هنا عن شيء لم يحدث؟ كلمة قالها سعد بن الربيع وقال عبد الرحمن بن عوف بما معناه شكرًا ولكن لا، أين السوق؟

نتحدث عن الأمر لأن الكثير من الدعاة والوعاظ استخدموا الواقعة للدلالة على عظمة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، عظمتها لدرجة أن الرجل تنازل عن زوجته لأخيه.

والمؤاخاة عظيمة بلا شك، وأقوى دلالات عظمتها هي الإرث الذي أحل المؤاخاة محل أخوة الدم، لكن هذا المثال (عن كلمة قيلت دون إشارة من النبي ودون حضوره ولم تنفذ ولم يفعلها أحد من الصحابة) يترك آثارًا سلبية أكثر بكثير من إيجابيات الأمر الذي يحاول الدعاة توظيفه فيها.

(1) صحيح البخاري: 5191.

الإيجابي الأهم في الحادثة كان: دلوني على السوق.

إصرار المهاجرين على العمل رغم وجود من يناصفهم ماله ويكفيهم.

***

(كانت المؤاخاة بَعْدَ بِنَائِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ الْمَسْجِدَ. وَقَدْ قِيلَ: كَانَ ذَلِكَ وَالْمَسْجِدُ يُبْنَى، وَقَالَ أَبُو عُمَرَ: بَعْدَ قُدُومِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ الْمَدِينَةَ لِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ)[1]

إذن هناك خلاف على توقيت هذه المؤاخاة.

في أثناء بناء المسجد، بعد بناء المسجد مباشرة، بعد قدوم النبي عليه الصلاة والسلام للمدينة بخمسة أشهر.

أميل شخصيًّا إلى أن ذلك كان في أثناء بناء المسجد، وقبل اكتماله، إذ لو كان قد اكتمل، فلم تحدث المؤاخاة في دار أنس بن مالك؟ أما يكون الطبيعي أن يحدث في المسجد.

ربما، ولكن ربما أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام ارتأى أن يختار مكانًا أكثر خصوصية من المسجد ليعقد هذه المؤاخاة، ممكن.

لكن لو رجعنا لكلمة عبد الرحمن بن عوف (دلوني على السوق)، لرجحنا أن تكون المؤاخاة قد عقدت في أثناء بناء المسجد، أو بعده مباشرة، لأنه من المستبعد ومن غير المنطقي أن يكون عبد الرحمن قد قضى مدة طويلة في المدينة دون أن يعرف مكان السوق في المدينة.

***

عندما تحدث أنس بن مالك عن مؤاخاة الرسول عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار قال في (دارنا).

كان في العاشرة فقط، ووالده كان قد توفي في الجاهلية.

لكن والدته (أم سليم بنت ملحان) كانت قد تزوجت من أبي طلحة الأنصاري قبل بيعة العقبة الثانية.

---

(1) عيون الأثر صفحة: 231.

أي أن الدار الذي عقدت في المؤاخاة كان دار أبي طلحة، أو دار أم سليم وزوجها أبي طلحة.

ويبدو أنه الدار الذي كان يجتمع فيه المسلمون قبل اكتمال بناء المسجد.

ولهذا، والله أعلم، من دون كل المهاجرين، آخى الرسول عليه الصلاة والسلام بين أبي طلحة، والأرقم بن أبي الأرقم.

الذي كانت داره يجتمع فيها المسلمون في بداية البعثة.

سبحان الله.

***

وفي تلك الفترة زيدت الصلاة في الحضر.

«فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ»[1]

كانت الصلاة ركعتين في كل الأوقات[2]، في الحضر والسفر.

وفي المدينة أتم الله صلاة الظهر والعشاء أربعًا.

كما لو كانوا على سفر قبل ذلك.

وعندما وصلوا المدينة حان وقت صلاة الحضر.

---

(1) صحيح مسلم 685.

(2) إلا المغرب كانت ثلاثة مسند أحمد 26338

الباب الثاني

فرمتة العقل الجمعي

من المؤكد أن الأيام الأولى لوصول النبي عليه الصلاة والسلام كانت مليئة بمشاعر إيجابية.

ومن المؤكد أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام كان مدركًا تمامًا أن مشاعر الضيافة والكرم التي بذلها أهل المدينة بمختلف بطونهم تجاه المهاجرين -حتى قبل وصوله الشريف- تستحق التسجيل والأجر والدعاء، ولكن لا يمكن الركون إليها فقط في الوضع الجديد للمدينة بعد وصول المهاجرين.

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ أَتَاهُ المُهَاجِرُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ[1] وَلاَ أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ مِنْ قَوْمٍ[2] نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ لَقَدْ كَفَوْنَا المُؤْنَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي المَهْنَأِ حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا مَا دَعَوْتُمُ اللَّهَ لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ»[3]

والحديث أعلاه يشير إلى وجود أغنياء وفقراء في المدينة، كما في أي مجتمع آخر، لكن من المؤكد أن الوضع الاقتصادي العام في المدينة لم يكن بقوة الوضع في مكة أو الطائف.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (الحشر/4)

والخصاصة شدة الحاجة والفاقة

(1) أي: ما رأينا قومًا أغنياءَ أكثرَ إنفاقًا وإعطاءً للمالِ.

(2) أي: ولا رأيْنا قومًا فُقراءَ أفضلَ مُواساةً لِفُقراءَ مِثلِهم.

(3) سنن الترمذي: 2487.

وكانت الأسر الغنية في المدينة تمتلك أطمًا يأوي لها الفقراء ويحصلون على الطعام فيها، كما كان يفعل سعد بن عبادة سيد الخزرج[1] الذي كان يبعث كل ليلة جفنة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أول مقدمه إلى المدينة[2].

الفارق الأساسي في الوضع الاقتصادي بين مكة والمدينة كان يكمن أولًا في أن طبيعة الاقتصاد في المدينة كانت قائمة على الزراعة، بعكس مكة التي كانت تعتمد على التجارة وتدير القوافل إلى الشام واليمن وتقصدها قوافل من كل مكان للحصول على بضائع الشام واليمن.

كانت طبيعة التربة الخصبة (بسبب بقايا الترسبات البركانية) ووفرة نسبية للمياه (بسبب تجمع مياه السيول في الأودية المحيطة بالمدينة) سببًا رئيسًا لازدهار الزراعة في يثرب وفي كونها المورد الاقتصادي الرئيس، وتدل الآثار على ازدهار زراعة النخيل، ووجود أنواع كثيرة من التمور التي كانت تعتبر غذاءً رئيسًا للعرب في بدوهم وحضرهم، وكذلك انتشرت زراعة العنب وبعض الفواكه والشعير، وكانت غالبًا تزرع بين أشجار النخيل[3].

ويبدو أن ملائمة الأرض للزراعة هي الدافع الرئيس لهجرة الأوس والخزرج إلى (يثرب) من اليمن بعد سيل العرم وانهيار سد مأرب، وحسب أغلب كتابات المؤرخين فإن اليهود كانوا قد استوطنوا يثرب قبل الأوس والخزرج[4]، ومن ثم سكنت الأوس والخزرج في جوارهم، وكانت السيطرة على عموم يثرب بأراضيها لليهود وعومل الأوس والخزرج كما لو كانوا عبيدًا للعمل في الأرض، إلى أن استنجد مالك بن العجلان -وهو أحد سادة الخزرج- بملك من ملوك الغساسنة ضد اليهود، وهو أبو جبيلة، فدبر لهم الأخير مقتلة[5] غيرت موازين القوى في المدينة، وكان ذلك قرابة 130 عامًا قبل الهجرة.

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (15/116).

(2) مصنف ابن شيبة: 26618.

(3) شعبان، أ. م. م. (2009). الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة قبيل الهجرة وبعدها: دراسة مقارنة. مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، 1(شوال - ذو الحجة 1430هـ)، 6-35.

(4) الكامل في التاريخ: (1/584).

(5) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (6/132).

تغيُّر موازين القوى أنهى السيطرة المباشرة لليهود على الأوس والخزرج، ولكنه على ما يبدو لم ينهِ سطوتهم الاقتصادية على المدينة، فعندما دخل النبي المدينة كان أهم أسواقها وأكبرها هو سوق بني قينقاع رغم وجود أسواق أخرى أقل أهمية[1]، ربما كان ذلك يعود للتراكم السابق للثروة عندما كانوا يسيطرون على أغلب الأراضي الزراعية، وربما أيضًا بسبب تنوع مصادر الدخل الذي تميز به يهود يثرب عن عربها. فقد اقتصر الأوس والخزرج على الزراعة بشكل أساسي وعلى التجارة بشكل ثانوي حيث كانوا يشاركون بأموالهم في قوافل تجارية تسيرها قبائل أو مدن أخرى. أما اليهود فبالإضافة إلى الزراعة والمشاركة في التجارة فقد كانوا أيضًا يعملون في الحرف والصناعات اليدوية[2] التي كان العرب يحتقرونها ويأنفون منها، وكذلك كان اليهود يعملون في إقراض المال ويأخذون مقابله عائد ربوي[3]، وهو أمر شاركته معهم قريش بما كان لديهم من فائض مالي، بينما لم يعمل فيه الأوس والخزرج على ما يبدو.

واحتقار عرب الجاهلية للحرف اليدوية معروف ومتواتر[4]، لكنه كان يختلف من قبيلة لأخرى ومن منطقة لأخرى، فقريش كانت تحتقر الزراعة أيضًا وتعتبرها من المهن الوضيعة (وفي حديث قتل أبي جهل، قال عند موته: فَلَوْ غَيْرُ أَكَّارٍ قَتَلَنِي[5]، والأكَّار هو الفلاح أو الزارع بالأجرة، وقد تمنى أبو جهل لو أن قتله يكون على يد مَن هو أرقى مكانة من الفلاح لأن قريش كانت تستخف بالزراعة)، بينما لم يكن عرب الأوس والخزرج يأنفون منها، ومن الحرف التي احتقرها العرب الحدادة والنجارة والحياكة والنساجة والخياطة والصياغة والدباغة والبناء وكان الشريف منهم لا يحضر وليمة دعاها إليه واحد من أصحاب تلك الحرف[6].

(1) المسند للشاشي: 245.

(2) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (12/ 111-112).

(3) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (12/111).

(4) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (1/277).

(5) صحيح البخاري: 4020.

(6) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (14/231).

مكتبة
t.me/soramnqraa

وهناك أمثلة كثيرة من الشعر الجاهلي تعبر عن احتقار العربي لنافخ الكير (الحداد)[1].

الموجز الاقتصادي للمدينة عشية الهجرة

المشهد الاقتصادي في المدينة عشية الهجرة وفي اليوم التالي لقدوم النبي عليه الصلاة والسلام، كان يمكن تلخيصه بما يلي:

أولًا: الزراعة كانت المصدر الرئيس للمعيشة في المدينة، وإذا أراد المهاجرون الانخراط في العمل فيها فهناك تحديان، الأول هو جهلهم بها، والثاني وهو التحدي الأخطر والأعمق، وهو قدومهم من خلفية كانت تحتقر الزراعة والفلاحة. صحيح أنهم انسلخوا من الركيزة الأساسية لقيم الجاهلية، عبادة الأوثان ودين الآباء، لكن هذا لا يعني أنهم تخلصوا من كل رواسب الجاهلية تمامًا وفي لحظة واحدة، بل يحتاج الأمر إلى عملية مستدامة كانت تقاد عبر الوحي المُنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام، وبوجوده نفسه أيضًا.

ثانيًا: سيطرة اليهود على السوق وعلى اقتصاد المدينة كان يعود بشكل أساسي إلى امتلاكهم لأكبر سوق في المدينة وتنوع الحرف التي مارسوها، التحدي هنا بالنسبة إلى الأنصار والمهاجرين على حد سواء كان يكمن في عدم وجود سوق موحدة تنافس سوق بني قينقاع، وفي النظرة الدونية إلى الحرف اليدوية التي كانت تمنح اليهود اليد العليا في صناعات مهمة مثل الحدادة والصياغة، وما دام الوضع في المدينة كان على الأغلب يتجه إلى التصعيد مع قريش فقد كانت صناعة الحدادة مهمة لأنها بمنزلة الصناعة الحربية بمصطلحاتنا اليوم.

ثالثًا: بسبب عدم تحقق وحدة اجتماعية بين عشائر المدينة، وبالتالي عدم وجود سلطة واضحة يمكن أن تفرض قوانينها أو أعرافها، فقد كان الغش سائدًا في التعاملات التجارية من البيع والشراء، وكان هذا الغش يأخذ أشكالًا متعددة ويؤدي كتحصيل حاصل إلى المزيد من ضعف الثقة بين الناس وضعف الوضع الاقتصادي.

(1) منصور، حمدي أهم صناعات الجاهليين كما تبدت في أشعارهم. المكتبة الشاملة الذهبية.

هذا الغش كان جزءًا من سمعة أهل المدينة قبل الهجرة[1]، وكان يتخذ أشكالًا مختلفة، منها غش مباشر وصريح، ومنها أنواع من التعاملات التجارية التي تتيح مجالًا للغش والتلاعب، كما سنرى تباعًا، وكما سنرى كيف بدأ محاربتها عليه الصلاة والسلام واجتثاثها من جذورها فور دخوله المدينة.

بل إن جزءًا من هذه الحرب بدأ قبل وصوله لها، عليه الصلاة والسلام.

ويل للمطففين: أول الغيث

سورة المطففين نزلت في طريق الهجرة بين مكة والمدينة[2]

لمَّا قَدمَ النبيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- المدينةَ كانوا مِنْ أَخْبَثِ الناسِ كيْلا، فأنزلَ الله عزَّ وجلَّ: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ}، فأحسَنوا الكيْلَ بعدَ ذلكَ[3]

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ (المطففين/ 1-6)

نزلت في طريق الهجرة.

أي أنها نزلت قبل وصول النبي عليه الصلاة والسلام وبينما كان أهل المدينة يترقبون وصوله بلهفة وقلق.

لكن السورة نزلت بلهجة قوية تهدد بالويل لمن يتلاعب بالموازين، أي بعض أهل المدينة، الذين كانوا ينتظرون وصوله عليه أفضل الصلاة والسلام.

وماذا كان خبر السماء الأول لهؤلاء؟

الويل للمطففين.

---

(1) سنن ابن ماجه: 2223.

(2) قال ابن القيم في زاد المسير (413/1) وفيها ثلاثة أقوال «1»: أحدها: إنها مكّيّة، قاله ابن مسعود، والضّحّاك، ويحيى بن سلام. والثاني: مدنيّة، قاله ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة، ومقاتل، إلّا أنَّ ابن عباس، وقتادة قالا: فيها ثمان آيات مكيّة، من قوله عزّ وجلّ: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا «2» إلى آخرها. وقال مقاتل: فيها آية مكّيّة، وهي قوله عزّ وجلّ: إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ «3». والثالث: أنها نزلت بين مكّة، والمدينة، قاله جابر بن زيد وابن السّائب، وذكر هبة الله بن سلامة المفسّر أنها نزلت في الهجرة بين مكّة والمدينة، نصفها يقارب مكّة، ونصفها يقارب المدينة.

(3) صحيح الترغيب والترهيب: 1760.

الويل للمتلاعبين بالميزان.

حسب منطق البشر، إذا جاء رجل يطلب الجوار والنصرة من قوم، فإنه سيغض النظر (بداية على الأقل) عمَّا يقترفه من ينصره من أخطاء، لكن القرآن يعيد تشكيل السياق على نحو مختلف، ومَن جاء يطلب النصرة والحماية يقرأ على مَن يحمونه آيات فيها تهديد قوي بعذاب أخروي على سلوك معتاد عند أهل المدينة، أو على الأقل عند العاملين في السوق والميزان منهم.

من المتضرر من هذا التحذير شديد اللهجة؟

بالتأكيد القائمين على الموازين، وهدفهم في ذلك كان واضحًا، زيادة الربح.

وهذه الآية هي أول ما نزل من تشريع ينهي عن سلوك اقتصادي في كل القرآن.

كانت هناك -سابقًا- آيات تحدثت عن الأمانة وذمت البخل والشح بشكل عام.

لكن هذه الآية كانت محددة؛ التطفيف، الغش بالميزان، عندما تبيع شيئًا تزيد من الوزن، وعندما تشتري شيئًا تقلل منه.

هذه لحظة فارقة بين ما سبق وما بدأ الآن.

أكثر ما سبق كان قد ركز على أركان الإيمان، العقيدة، تحطيم أوثان وأصنام الآباء والعشائر.

ولم يكن هذا بلا ثمن، عدا عن عداء الأهل والمقربين، كان هناك صراع داخلي حتميٌّ في لحظة قرار الإيمان، قراره الداخلي، وإعلانه الخارجي.

لكن هذا لم ينه كل الفواتير، الثمن لم يدفع كاملًا بعد.

ثمة فاتورة جديدة في المرحلة الجديدة المختلفة عما سبق.

الآن عليك أن تضع إيمانك على المحك، لأنه ليس مجرد فكرة في رأسك تتخلى فيها عن أصنامك القديمة وتؤمن بإله واحد أحد خلق كل العالم.

بل لأن هذا الإيمان يتطلب أيضًا سلوكيات تتطابق وتنسجم مع هذا الإيمان.

وأول امتحان لهذا السلوك هو أن تفقد بعضًا من مكتسبات المرحلة السابقة، أن تخسر جزءًا من أرباح سبق أن جنيتها عبر سلوكيات لم تعد منسجمة مع وضعك الجديد.

أي سلطة كان يلوح بها النص القرآني وهو يطلق هذا التحذير؟

سلطة الإيمان فحسب.

الإيمان بالآخرة والبعث والحساب فقط، لم تكن هناك أي سلطة أخرى غير سلطة الإيمان بالبعث بعد الموت والحساب.

لم تكن هناك سلطة دنيوية ستراقب هذا السلوك وتتوعد المخالف بعقوبة دنيوية عاجلة.

بل الويل، التهديد الآجل في الآخرة.

لم يؤسس النبي عليه الصلاة والسلام رقابة خارجية مستقلة عن ضمائر المؤمنين به، لم يعيِّن رقباء على سلوك الناس، ولم تظهر (الحسبة) كمؤسسة رقابية على السوق إلا لاحقًا في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1].

أي نهي نبوي أصدره عليه الصلاة والسلام في مجال التعاملات التجارية كان موجهًا إلى داخل الضمير المؤمن الذي هو الأساس في أي عملية رقابية لاحقة.

النهي عن التطفيف والتلاعب في الوزن كان مثالًا عن كل المنهيات النبوية اللاحقة التي شرعها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام تباعًا. الأصل هو التوجه نحو ضمير الفرد المسلم وإيمانه، لم تسجل أي عقوبة قانونية على اختراق هذه المنهيات، ورغم ذلك كان الالتزام بها واسعًا وفوريًّا.

كيف حدث هذا؟ نعرف أن مجتمعات كثيرة تعجز عن الالتزام بالقانون إلا عبر الغرامة إلى أن يتحول الأمر إلى ثقافة وسلوك طبيعي، لكن هذا السلوك يبدأ غالبًا بالعقوبة أو الغرامة[2].

حدث الأمر عبر سلطة أحيانًا تكون أكبر من سلطة القانون، سلطة الإيمان الروحية التي تجعل المؤمنين ينصاعون لها داخليًّا أكثر من أي التزام بقانون دنيوي.

---

(1) (5/43-44) طبعة العلمية الطبقات الكبرى لابن سعد.

(2) Mulder, L. B., Kurz, T., Prosser, A. M. B., & Fonseca, M. A. (2024). The presence of laws and mandates is associated with increased social norm enforcement. *Journal of Economic Psychology, 101*, 102703. https://doi.org/10.1016/j.joep.2024.102703

لا ضرر ولا ضرار

كيف يعمل الأمر؟ نزل النهي المهدد بالويل لمن يتلاعب بالميزان. المؤمنون توقفوا عن ذلك فورًا رغم أن هامش أرباحهم ستتعرض للانكماش. غير المؤمنين ربما لم يكترثوا في البداية، وادٍ في جهنم التي سيعرضون عليها بعد الموت؟ قبل عام أو أكثر قليلًا ربما بعضهم لم يكن قد سمع بوجود شيء كهذا، وعندما سمعوه لم يعقلوه ورفضوا تصديقه، بقيت علاقتهم مستمرة على الشاكلة نفسها مع الميزان.

لكن أرباحهم لم تبقَ كما هي كما كانوا يأملون بل نقصت، بالتدريج عرفوا ما يحدث، لقد أخذ الناس يذهبون إلى الآخرين الذين التزموا بالأمر وتوقفوا عن التطفيف في الميزان، ليس بالضرورة أن من ذهب إلى الآخرين كان مؤمنًا، بل لأن الأمانة جاذبة، ولأن المحافظة على الميزان تحفظ حقوق الزبون.

كل المنهيات النبوية تعاملت مع الواقع المعقد بالطريقة نفسها.

المؤمنون يلتزمون بالنهي بدوافع الإيمان، لكن هذا الالتزام يثبت أنه يحمي حقوق الجميع، قد لا يحقق الطرف المنتفع الربح الذي كان يحققه سابقًا من عملية واحدة، لكن سيكون حتمًا له دور آخر لاحقًا عندما يكون هو الطرف المتضرر؛ لذا فإن عملية تبادل أدوار الضرر والضرار يجب أن تتوقف، وهذا سيكون أكثر فائدة للجميع على المدى البعيد.

في البداية الالتزام بالأمر هو أمر ديني ونابع من الإيمان، لكن أولئك الذين لم يؤمنوا بعد أو لم يتمكن الإيمان بعد من سلوكياتهم أخذوا ينفذون الأمر لأنه أصبح أكثر نفعًا لهم على المدى البعيد من النواحي الاقتصادية. الغش والتعاملات التي تتيحه تحقق أرباحًا سريعة، لكن النزاهة في التعامل تحقق استقرارًا يحقق المزيد من الأرباح على المدى الأبعد.

هذا جدول[1] ببعض أنواع البيوع والتعاملات التي نهى عنها الرسول عليه الصلاة والسلام، والتي كانت تفتح المجال للخداع والغش من طرف البائع تجاه المشتري

(1) موقع الألوكة. *البيوع المنهي عنها*. https://www.alukah.net/sharia/0/100735/

اسم البيع المنهي عنه	وصف البيع	نص النهي النبوي	علة النهي
بيع الغرر	كل بيع فيه جهالة أو خطورة في المبيع أو الثمن أو الأجل.	(نهى عن بيع الغرر) رواه مسلم	لأنه يؤدي إلى النزاع والغبن وأكل المال بالباطل.
بيع النجش	أن يزيد شخص في ثمن السلعة من غير نية الشراء ليغرر المشتري.	(نهى عن النجش) متفق عليه.	لما فيه من الغش والخداع للمشتري.
بيع ما لا يملك	بيع سلعة قبل تملكها أو التأكد من وجودها.	(لا تبع ما ليس عندك) رواه أبو داود.	لما فيه من الغرر وعدم ضمان التسليم.
بيع العينة	أن يبيع سلعة بثمن مؤجل ثم يشتريها نقدًا بأقل.	(إذا تبايعتم بالعينة... سلط الله عليكم ذلًا) رواه أبو داود.	لأنها حيلة على الربا.
بيع الحصاة	أن يتم البيع بناءً على مكان سقوط الحصاة..	(نهى عن بيع الحصاة) رواه مسلم.	لأنه يتضمن جهالة ومقامرة.
الملامسة	أن يتم البيع بمجرد لمس المشتري للسلعة دون رؤيتها.	(نهى عن الملامسة) متفق عليه.	فيه غرر كبير وجهالة بحقيقة المبيع.
المنابذة	أن يتم البيع برمي السلعة إلى المشتري دون فحص..	(نهى عن المنابذة) رواه البخاري.	لأنه غرر وجهالة.
تلقي الركبان	استقبال البضائع من خارج السوق وشراؤها قبل معرفة سعر السوق.	(لا تلقوا السلع حتى يهبط بها إلى السوق) رواه البخاري.	لمنع الغبن وأكل أموال القادمين بالباطل.
بيعتان في بيعة	أن يُعرض خياران في عقد واحد دون تحديد الثمن المتفق عليه.	(نهى عن بيعتين في بيعة) رواه الترمذي.	لما فيه من الغرر أو الربا الخفي.

اسم البيع المنهي عنه	وصف البيع	نص النهي النبوي	علة النهي
بيع الثمار قبل بدو صلاحها	بيع الثمار وهي لا تزال في مراحل مبكرة قبل نضجها..	(نهى عن بيع الثمرة حتى يبدو صلاحها) متفق عليه.	خشية تلفها أو تعيبها قبل الاستفادة منها.
بيع المزابنة	بيع الثمار على رؤوسها مقابل تمر يابس معلوم.	(نهى عن المزابنة) رواه البخاري	لأنه نوع من الربا وجهالة في المثلية.
بيع المحاقلة	بيع الزرع في سنبله بحبوب من جنسه..	(نهى عن المحاقلة) رواه مسلم.	لأنه بيع مجهول بظاهر، يعرض للغرر..
بيع المصراة	ترك الحليب في الضرع ليظن المشتري أن الدابة كثيرة اللبن.	(لا تُصروا الإبل والغنم.. فإن رضيها أمسكها وإن سخطها ردها وصاعًا من تمر) رواه البخاري.	لأنه تدليس وغش.
البيع على بيع أخيه	أن يعرض المسلم على المشتري أو البائع إفساد البيع السابق بعرض أفضل..	(لا يبع بعضكم على بيع بعض) متفق عليه.	لما فيه من الإفساد والتباغض.
بيع الحاضر للبادي	أن يبيع المقيم سلع القادم نيابة عنه لرفع السعر.	(لا يبع حاضر لباد) رواه مسلم.	لأنه يؤدي لاحتكار السوق ورفع الأسعار.

من المنطقي أن هذه البيوع لم ينه عنها مرة واحدة، ولكن النهي ربما كان يحدث تباعًا، وكلما شاهد الرسول عليه الصلاة والسلام شيئًا منه أو سمع عنه أو سأله أحد من أهل المدينة سؤالًا عن هذه البيوع، والمؤكد أن هذا النهي النبوي كان يحدث تغييرًا في التعاملات الاقتصادية في المدينة وبالتالي في اقتصادها ككل، وهذا لا بدَّ أنه كان له أثاره المباشرة على من كانت له السطوة على السوق قبل أن يبدأ كل شيء بالتغير.

اليهود.

هذا سوقكم

وجود قواعد أخلاقية جديدة للتعاملات الاقتصادية كان لا بد أن يصطدم مع (السوق) كمؤسسة قائمة، وهذه المؤسسة هي سوق بني قينقاع، السوق الأهم والأكبر الذي كان يستقطب أغلب عمليات البيع والشراء في المدينة، وكان بنو قينقاع ينتفعون ليس فقط منه ليس بسبب ما يبيعونه فيه، بل لأنهم كانوا أيضًا يفرضون خراجًا (ضريبة) على كل من يقف ليبيع بضاعة في السوق.

في مرحلة ما، غالبًا خلال السنة الأولى من الهجرة، قرر النبي عليه الصلاة والسلام أن ينشأ سوقًا جديدة.

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَهَبَ إِلَى سُوقِ النَّبِيطِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «**لَيْسَ هَذَا لَكُمْ بِسُوقٍ**»، **ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى سُوقٍ فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «لَيْسَ هَذَا لَكُمْ بِسُوقٍ»، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى هَذَا السُّوقِ فَطَافَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سُوقُكُمْ، فَلَا يُنْتَقَصَنَّ، وَلَا يُضْرَبَنَّ عَلَيْهِ خَرَاج»**.[1]

وفي رواية أخرى أنه اختار النبيط، ووضع خيمة فيها لتكون علامة على السوق الجديد لكن كعب بن الأشرف أحد سادة بني النضير، وهو شخص سيرد اسمه لاحقًا في حدث مهم في السيرة، دخل الى الخيمة وقطع حبالها، في حركة متحدية للرسول عليه الصلاة والسلام، ولكنها تعبر أيضًا عن تخوفهم من إنشاء سوق جديدة تسحب البساط منهم.

وذكر عمر بن شبة من حديث مجزر بن جعفر، عن صالح بن كيسان قال: **ضرب رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم في موضع [النبيط] فقال: هذا سوقكم، فأقبل كعب بن الأشرف، فدخلها، وقطع أطنابها،**

لكن الرسول لم يرد على هذا الفعل العدائي بفعل مماثل، وكان يمكنه أن يفعل ذلك بسهولة، لكنه فضل أن يمضي قدمًا في مشروع السوق الجديد الذي سيكون أكثر جدوى ونفعًا على المدى البعيد.

---

(1) سنن ابن ماجه: 2233.

فقال رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وسلّم **لا جرم، لأنقلنها إلى موضع هو أغيظ له من هذا، فنقلها إلى موضع سوق المدينة. ثم قال: هذا سوقكم، لا يحجر، ولا يضرب عليه الخراج،**[1]

ويبدو أن الموضع الأول كان أقرب إلى سوق بني قينقاع، واعتبره اليهود منافسًا لهذا السبب، ولأنه في منطقة أقرب لهم فقد سهل ذلك لكعب بن الأشرف أن يفعل ما فعل، وربما بالاتفاق مع سادة بني قينقاع.

أما السوق الجديد فقد كان أقرب إلى المسجد النبوي، حيث يصعب على اليهود التخريب.

كان اليهود لا يرغبون في أن يكون السوق قريبًا من سوقهم لتصورهم أن هذا سيسهل انتقال الباعة من سوقهم إلى السوق الجديد.

لكن ما أعده لهم الرسول عليه الصلاة والسلام كان أكثر صعوبة.

فالسوق الجديد لم تفرض فيها خراج على الباعة، كانت سوقًا حرة لا تفرض الضريبة على الباعة، عكس سوق بني قينقاع.

وكان هذا بالتأكيد عنصرًا جاذبًا إضافيًّا للسوق الجديد.

وأيضًا ضربة مؤلمة لليهود أضافت المزيد من التوتر الموجود أصلًا.

كان هذا جزءًا من قدر المرحلة وطبيعتها.

جزءًا من عملية التفاعل الحتمية، بكل استقطاباتها ونتائجها النهائية، والعرضية.

معركة اللاوعي الجمعي: حرب صامتة في الداخل

جزء من المشاعر الإنسانية تعمل وتؤثر من خلال اللاوعي، ولهذا فعملية تغييرها أصعب بكثير من تغيير القناعات العقلية الواعية.

إقناع شخص بعبثية عبادة الأوثان قد يكون أسهل من إقناعه بالتخلي عن مشاعر التعصب والفخر تجاه عشيرته مثلًا.

---

(1) إمتاع الأسماع: (9/2622-263).

كذلك فإن التخلص من مشاعر الاحتقار والاستعلاء التي يمتلكها هذا الشخص تجاه آخرين من عشيرة أخرى يعتبرها أدنى منه قد يكون أصعب بكثير من التخلص من المعتقدات الوثنية، ومثلها مشاعر احتقار عرق آخر أو مهنة تعود أن ينظر لها باحتقار.

هذه المشاعر هي جزء من لاوعي الإنسان ولهذا فمن الصعب نقاشها بالمنطق أو البراهين العقلية.

كيف يمكن أن يحل الأمر؟

بعملية إعادة تشكيل اللاوعي وهي عملية أعقد بكثير من إعادة تشكيل الوعي.

انتقال المهاجرين من مكة إلى المدينة يقدم لنا مثالًا نموذجيًّا عن تجربة التخلص من بعض هذه التحيزات اللاواعية مثل تلك التي تحتقر العمل الزراعي وتنظر باستعلاء إلى من يعمل بالزراعة.

بالتأكيد كانت هناك مقدمات لهذه التجربة عبر الكثير من الآيات القرآنية التي استخدمت أمثلة الزراعة لتعيد تشكيل الوعي من جديد، آيات استخدمت مصطلحات ومفاهيم الزراعة بطريقة إيجابية معاكسة لمفاهيم الجاهلية

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ (الواقعة/63-64)

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس/33-35)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام/141)

بل إن سرد قصة النبي يوسف عليه السلام في رحلته من البئر إلى القصر انطوى على خطة زراعية تمكن من خلالها الخصول على مكانته عند عزيز مصر:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (يوسف/47)

لكن الانتقال إلى المدينة وضع (اللاوعي) عند المهاجرين في مواجهة جديدة.

دورة إطلاق الفلاح في داخلك

أمام الواقع الجديد في المدينة، دخل المهاجرون في حالة تشبه دورة تدريبية للتخلص من التحيزات المسبقة ضد مهنة الزراعة ومن يعمل بها، لن نجد نصوصًا تتحدث عن تخطئة هذا التحيز، كما لو أن الانتقال يجب أن يحدث دون شعور بالعار أو بالخجل من هذا التحيز، لأنه جزء من حزمة يتم الانسلاخ عنها وتنجز القطيعة معها بالتدريج.

كيف تم الانسلاخ والعبور من مرحلة (احتقار المهنة) إلى ممارستها؟

بالإيمان.

الإيمان، القوة التي تتجاوز الوعي واللاوعي، وحده يستطيع الدخول إلى تلك الأماكن المظلمة العميقة المختبئة داخل مجاهل النفس البشرية، ووحده يستطيع أن يضيء رحلة التغيير الداخلي الذي ينعكس من اللاوعي إلى الوعي ومن ثم تمتد آثارها إلى التغيير في الخارج...

جاءت الأحاديث النبوية بالضوء في درب المجاهل النفسية الموحشة، نسميها أحاديثًا نبوية اليوم، وهي كذلك بالفعل، لكنها يوم قيلت **كانت معاول هدم وجرافات تزيل مفاهيم قديمة وتضع أسسًا لمفاهيم جديدة**، وتفعل ذلك على نحو يمكن تشبيهه بالوضع الصامت، لا توجد أحاديث مباشرة تقول لمهاجري قريش أن يتركوا مفاهيم احتقار الزراعة، عملية التغيير تحدث بهدوء (على الأقل خارجيًا)، تتفاعل المفاهيم الجديدة مع الواقع الجديد ومعطياتها على نحو يقود إلى حدوث التغيير داخل كل فرد. هل كانت هناك ضجة في دواخل الأفراد في أثناء ذلك؟ لا نعرف، ربما، لكن الإيمان أسهم في جعل الانتقال أيسر وأعمق وأجدى.

جاءت الأحاديث النبوية لتتسرب إلى الوعي قيد التكوين، ومن ثم اللاوعي، وهي تربط الإيمان بالله، والعمل الصالح، والأجر الأخروي، بعمل كان يحمل بعض المهاجرين بقايا رواسب تعتبره عملًا مهينًا وحقيرًا ولا يليق بمكانتهم.

بيد أحدكم فسيلة

«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أو يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أو إِنْسَانٌ أو بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»[1] العمل الذي كان ينظر له بازدراء أصبح يحمل إمكانيات هائلة للأجر، بمجرد أن ينتج عمله هذا ويطرح ثمرًا، حتى لو لم أكل من هذا الناتج طير عابر. فلننبته إن الحديث وجههم إلى الغرس والزراعة، والغرس هو تثبيت شتلة شجرة في الأرض، شتلة صغيرة لن تثمر إلا بعد فترة طويلة، على العكس من الزراعة، التي تعني البذر وانتظار الحصاد في نهاية الموسم ذاته.

«إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»[2]

هذا الحديث جعل من الفسيلة رمزًا للعمل والأمل رغم كل الظروف وحتى لو كنت لا تتوقع أن ترى أي نتيجة أو أثر نهائي لعملك.

ربما كانت الفكرة نفسها قد دارت في أذهان المهاجرين. بالنسبة إليهم كتجار في مكة، كانت دورة رأس المال سريعة، تذهب القافلة إلى الشام أو اليمن، تأتي بالبضائع، تبيعها في مكة. المال الذي استثمر في القافلة يعود مع أرباحه.

مع زراعة الشعير والحنطة الأمر أطول قليلا لكنه يحدث خلال موسم واحد، عادة بضعة أشهر.

أما مع النخيل، فلا ثمرة قبل ثلاث سنوات كحد أدنى، وعادة تكون ثمرات السنوات الأولى أقل مما سينتج لاحقًا، أي إن الأرباح لن تأتي إلا بعد سنوات كثيرة.

فسيلة النخل التي تحدث عنها النبي عليه الصلاة والسلام كانت مثالًا لتغيير جذري في رؤية العالم. الرؤية أصبحت بعيدة المدى، ليست قاصرة على نهاية الموسم الحالي أو الموسم القادم أو حتى الذي يليه، بل بالآخرة نفسها، بعض آثار أعمالنا لن نعيش لنراها، بل قد تثمر بعد رحيلنا بفترة طويلة وسنلتقي بها في الآخرة، مثل لقاء أب مع ابن له ولد بعد أن رحل عن الدنيا.

---

(1) صحيح البخاري: 2320.

(2) مسند أحمد: 12981.

هذه الفسيلة لا تتعلق فقط بتغيير الرؤية للزراعة والغرس ولا منطقية التعالي القريشي، ولا ترتبط فقط بتغيير النظرة لدورة رأس المال والاستثمار طويل الأمد والنفس، بل تربط كل ذلك بجوهر القضية كلها، القضية التي من أجلها حدثت الهجرة، قضية الإيمان، الإيمان بالآخرة تحديدًا، الإيمان بأن هذا كله ليس مجرد عبث لا معنى له، بل مرتبط بحساب يحصي كل ما فعلناه حتى لو لم نرَ آثاره في فترة وجودنا على الكوكب.

«مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ»[1]

مَن أحيا الأرض؟

لا بدَّ أنه عليه الصلاة والسلام وهو يستخدم هذا التعبير (إحياء الأرض) قد ذكرهم بشيء سبق لهم أن مروا عليه ومر عليهم..

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (النحل/ 65)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت/63)

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الجاثية/5)

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة/164)

الآيات الثلاثة الأولى كانت مكية، والرابعة كانت مدنية من سورة البقرة، وهي السورة التي نزلت في السنة الأولى من الهجرة، أي في ذات الفترة التي كان المهاجرون يواجهون فيها الواقع الذي تغيرت معطياته وأصبح عليهم اقتحامه.

إحياء الأرض بعد موتها هو آية من آياته عز وجل.

---

(1) سنن أبي داود: 3073.

والآن أصبح يمكن لفعلهم أن يكون جزءًا من هذا الإحياء الرباني لهذه الأرض، هذا الفعل الذي كان ينظر له بنظرة دونية، أصبح جسرًا يربطهم بأن يكونوا جزءًا من آيات الله في إحياء الأرض...

لا بدَّ أنها كانت صدمة لأفكارهم السابقة، لا بدَّ أنها كانت جزءًا من رحلة تغيير المفاهيم والأفكار، ولا بدَّ أن ذلك ترك أثرًا كبيرًا في وعيهم، ومن ثم في لا وعيهم.

«مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، فَإِنْ لَمْ يَزْرَعْهَا، فَلْيُزْرِعْهَا أَخَاهُ»[1]

فليزرعها (هو)، هو بنفسه.

لا يعطيها لفلاح يعتبره أقل منه مكانة، لا. عليه أن يزرعها هو ربما لكي يقتحم هذه العقبة التي تعرقل خلاصه النهائي من رواسب ما قبل الإسلام.

فلنتذكر هنا أن بعض أغنياء قريش كانوا يمتلكون بالفعل البساتين والأراضي في أماكن صالحة للزراعة، مثل الطائف (كما في قصة عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة في أثناء زيارة الرسول عليه الصلاة والسلام للطائف[2]) ولكنهم لم يكونوا يزرعونها بأنفسهم، بل يستأجرون من يزرعها لهم.

الآن تغير هذا، امتلاك الأراضي ليس للاستثمار فيما تأنف منه أو للتفاخر بما تملكه. *فليزرعها*.

أرض الله لعباد الله، لكن بشروط

«مَنْ أَعْمِرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»[3]

مفهوم إعمار الأرض له أصول قرآنية كما في:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم/9)

(1) صحيح مسلم: 1536.

(2) سيرة ابن هشام: (1/420).

(3) صحيح البخاري: 1014.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود/61)

هذا المفهوم، تداخل مع مفهوم إحياء الأرض -الذي له أصول قرآنية أيضًا- ليصبح مدخلًا لتطبيق عملي على أرض الواقع. تغير الأفكار تلاحم مع تغير معطيات الواقع وصب كل ذلك في التغيير الكبير، في الداخل والخارج. التغيير الذي سمعنا الكثير عن نتائجه التي غيرت العالم وجعلت قومًا كانوا على هامش التاريخ يصبحون قوة عظمى خلال ثلاثة عقود فحسب. عادة يفهم الأمر بصعود المسلمين والعرب كقوة عسكرية استطاعت أن تهزم إمبراطورية وتحجم أخرى، لكن هذا كان مجرد نتائج نهائية لعملية تغيير جذرية.

جزء مهم من ذلك التغيير الجذري بدأ بتغير المفاهيم، تغير الرؤية نحو الأرض والعالم، إحياء الأرض وإعمارها أصبح جزءًا من الإيمان، أصبح جزءًا من المنافسة على الأجر للنجاة في الآخرة..

بعد سنوات قليلة من بدء عملية التغيير هذه، سنجد هذا المشهد...

والمسحاة في يده

قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْمَدِينَةَ، فَلَقِيَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ غَائِبًا فِي أَرْضٍ لَهُ بِالْجُرُفِ، فَأَتَاهُ، فَإِذَا هُوَ وَاضِعٌ رِدَاءَهُ، وَالْمِسْحَاةُ فِي يَدِهِ وَهُوَ يُحَوِّلُ الْمَاءَ فِي أَرْضِهِ، فَلَمَّا رَآهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَضَعَ الْمِسْحَاةَ مِنْ يَدِهِ، وَلَبِسَ رِدَاءَهُ،[1]

يسأل عنه رجل من أهل الشام، يريد أن يرى صحابي رسول الله عليه الصلاة والسلام، فيقال له هو في أرضه، فيذهب فيلقاه **وبيده المسحاة** وقد وضع رداءه وهو يحول الماء في الأرض.

هذا الرجل كان قبل سنوات فقط ينظر نظرة مختلفة إلى الفلاحة، لكن ذلك كله تغير...

بقية الحوار بين عبد الرحمن بن عوف وضيفه تضيء لنا المزيد عن الموقف:

(1) مجمع معمر بن راشد: 20997.

قَالَ: فَوَقَفَ عَلَيْهِ الرجل فسلم عليه وَقَالَ: جِئْتُ لِأَمْرٍ، فَرَأَيْتُ أَعْجَبَ مِنْهُ، مَا أَدْرِي أَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ نَعْلَمْ، أو جَاءَكُمْ مَا لَمْ يَأْتِنَا، مَا لَنَا نَخِفُّ فِي الْجِهَادِ وَتَتَثَاقَلُونَ عَنْهُ، وَنَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَنْتُمْ سَلَفُنَا وَأَصْحَابُ نَبِيِّنَا؟[1]

الرجل الشامي تصور أن هناك تعارض بين ما رآه من عمل عبد الرحمن بن عوف في أرضه وبين الجهاد.

لكن الحقيقة أن الرغبة في إحياء الأرض وإعمارها، التي أصبحت جزءًا من الإيمان كانت جزءًا من الممهدات والمحفزات الأساسية في كل التغيير الذي حدث، وصولًا إلى الجهاد والفتوحات.

أراضٍ موات؟ يمكن أن تعود إلى الحياة

لكن من أين جاءت تلك الأراضي الموات التي أصبح أحياؤها وإعمارها جزءًا من الإيمان؟

من المنطقي أن بعض الأنصار ربما يكونوا باعوا أراضي لهم إلى المهاجرين، لكن هذا لم يكن في هذه المرحلة المبكرة التي كان المهاجرون أصلًا في عوز مادي.

عن ابن عباس أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ جَعَلُوا لَهُ كُلَّ أَرْضٍ لَا يَبْلُغُهَا الْمَاءُ، يَصْنَعُ بِهَا مَا شَاءَ[2].

إذن تبرع الأنصار للرسول عليه الصلاة والسلام بكل الأراضي التي لم تكن تصلح للزراعة بالنسبة لهم.

لماذا لم تكن تصلح للزراعة؟

لأن الماء لا يصلها، غالبًا لأنها تكون مرتفعة بحيث يصعب وصول الماء لها.

هل هذا الأمر صعب جدًّا بحيث يجعلها غير صالحة للزراعة بالمطلق؟ وما الفائدة من منحها الرسول عليه الصلاة والسلام إذا كانت كذلك فعلًا؟

---

(1) مجمع معمر بن راشد: 20779.

(2) الأموال لابن زنجويه: (2/629).

ليس الأمر كذلك. فقد تَرَكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَلْفَ بَعِيرٍ وَثَلَاثَةَ آلَافِ شَاةٍ بِالنَّقِيعِ، وَمِائَةَ فَرَسٍ تَرْعَى بِالنَّقِيعِ، وَكَانَ يَزْرَعُ بِالْجُرُفِ عَلَى عِشْرِينَ نَاضِحًا،[1] والناضح البعير أو الحمار أو الثور الذي يستقي عليه الماء.[2]

إذن أخذ المهاجرون الذين وزع عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام تلك الأراضي يستخدمون الدواب لسقي الأرض بعد زراعتها، حيث كان الماء يوضع في قرب على ظهر الدابة سواء كانت بعيرًا أم حمارًا أم ثورًا، ومن ثمَّ يتم التحكم بتدفق الماء من القرب في الأماكن المراد سقيها.

هذه الطريقة لم تكن اختراعًا خاصًّا بالمهاجرين، لكن على ما يبدو كان الأنصار يقتصرون على زراعة الأرض التي يمكن أن تسقى بسهولة أكثر، ربما لأن استعمال الدواب الناضحة سيزيد من الكلفة، وربما لأن فترة عدم الاستقرار في أثناء النزاع بين الأوس والخزرج جعلت من الصعب بناء سوق قوي يتحمل الكلفة الإضافية.

إحياء الأرض وإعمارها تناسق أيضًا مع ما شرعه الرسول عليه الصلاة والسلام في جعل المصادر الطبيعية الأساسية للحياة مباحة للجميع دون ثمن.

شركاء في ثلاث

«المسلمونَ شركاءُ في ثلاثٍ: في الماءِ، والكَلأِ، والنَّارِ»[3].

قوله: «المسلمون شركاء في ثلاث: في الماء والكلأ والنار»؛ يعني: الماء الذي يجري في نهرٍ ليس ملكًا لأحد، أو في عينٍ مباحة، فالناسُ كلُّهم شركاءُ في هذا الماء، يأخذ كلُّ واحد ما شاء منه، وليس لأحد أن يمنع أحدًا منه، وكذلك الكلأ الذي نبت في مواتٍ. وأما النار فقيل: المراد منه: حجر النار الذي يكون في المَوات، لا يُمنع أحدٌ من أخذه لتُقدح منه النار.

وقيل: بل المراد منه النار؛ يعني: من أراد أن يستصبح مصباحًا من نار لا يمنعه صاحبُ النار؛ لأنه لا ينقص من عين النار شيء، فكذلك لو أراد أحد أن يجلس بنور تلك النار في موضعٍ هو ملكه، أو مواتٍ، وليس بملك صاحب النار، لا يجوز لصاحب النار

(1) المستدرك على الصحيحين: 5350.

(2) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (13/ 41).

(3) سنن أبي داود: 3477.

أن يمنعه من الجلوس؛ لأنه لا ينقصه من عين تلك النار شيء، فأما له: أن يمنع مَن يأخذُ من خشبه أو جمره أو فحمه أو رماده شيئًا.[1]

في السياق نفسه، كان هناك حدث مهم سهل الأمور على أهل المدينة، باستثناء البعض الذين كانوا ينتفعون من صعوبتها. اليهود.

أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) **قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال: مَن يشترى بئر رومة ويجعل دلوه فيها كدلاء المسلمين وله بها مشرب في الجنة، فأتى عثمان اليهودي فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى نصفها باثني عشر ألف درهم فجعله للمسلمين، فقال له عثمان: إن شئت جعلت على نصيبي قرنين، وإن شئت فلي يوم ولك يوم. فقال: بل لي يوم ولك يوم، فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين، فلما رأى ذلك اليهودي قال: أفسدت على ركيتي فاشترِ منى نصيبي.**[2]

حدث ذلك في السنة الأولى غالبًا، مع كل تلك الأحداث التي تبدو صغيرة ولكنها تراكمت لتزلزل المجتمع القديم وتخرج منه أساسات المجتمع الجديد.

ـ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ

أين سكن المهاجرون خلال ذلك؟

في البداية كانوا ضيوفًا على الأنصار.

ولكن النبي عليه الصلاة والسلام **أَقْطَعَ الدُّورَ**[3] **للمهاجرين وقيل: المعنى أنه أقطع ساحات من الموات ليتخذوها دورًا، وكان ما أقطعه بين النخيل والمنازل.**[4]

أي أن الأرض الموات، التي لا يصلها الماء، والتي لم يكن الأنصار يستغلونها، ولم تكن ملكًا لأحد منهم أقطعها عليه الصلاة والسلام لتكون دورًا يستقر فيها المهاجرون.

خلال ذلك، برز موقف قد يبدو صغيرًا، لكنه كبير في معناه، وهو يؤكد لنا أن المجتمع الجديد لا يمكن له أن يتخلص من كل رواسبه القديمة بسهولة.

---

(1) المفاتيح في شرح المصابيح: (3/508-509).

(2) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (8/204).

(3) المعجم الأوسط: 4949.

(4) شرح مسند الشافعي: (4/323).

لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ أَقْطَعَ الدُّورَ، وَأَقْطَعَ ابْنَ مَسْعُودٍ فِيمَنْ أَقْطَعَ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَكِّبْهُ عَنَّا، قَالَ: «فَلِمَ بَعَثَنِي اللهُ إِذًا؟ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُقَدِّسُ أُمَّةً لَا يُعْطُونَ الضَّعِيفَ مِنْهُمْ حَقَّهُ»[1]

عبد الله بن مسعود كان مهاجرا، ولكنه لم يكن قرشي الأصل، والده كان من هذيل وأصاب دمًا فجاء يطلب الحماية في مكة وحالف بني زهرة من بطون قريش.

كان القريشيون -بل وعامة العرب- يعتبرون المحالفين مثل الموالي (أي الخدم أو العبيد السابقين) وينظرون لهم نظرة ازدراء[2]

وربما بقيت بعض رواسب هذه النظرة حتى بعد الإسلام ولذلك عندما وزع الرسول عليه الصلاة والسلام الأراضي لبناء الدور استكثر أحدهم أن يكون عبد الله بن مسعود جارًا له وطلب من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبعده.

سند الحادثة ضعيف، لكن على فرض وقوعها، علينا ألا نستهول الأمر ونستفظعه رغم صدوره عن الصحابة بل عن المهاجرين منهم، التغيير عملية بطيئة وتتطلب وقتًا طويلًا وصبرًا ومواجهاتٍ داخلية مع النفس فيما رسب منها من بقايا جاهلية. وهناك موقف مشابه صحيح السند عندما عاير الصحابي أبو ذر الغفاري صحابيًّا آخر هو بلال الحبشي بأمه، وقال له عليه الصلاة والسلام: **يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ.**[3] الأمر خاطئ بلا شك، ولكنها النفس البشرية .الخطأ جزء أساسي من طبيعتها، والتعامل الواقعي مع توقعاتنا منها هو الحل الأمثل في ترويضها وجعلها في أفضل حالاتها.

في الواقعتين، أشار الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الخطأ في السلوك والنظرة، في الحادثة الأولى اعتبر أن الأمر مناط به هو عليه الصلاة والسلام، أن يعطي الضعيف حقه أسوة بالقوي دون اكتراث بالنظرة السابقة للمحالفين، لأن مَن أشار على الرسول أن يبعد عبد الله بن مسعود لم ينل من عبد الله أمامه، بل اقترح ذلك على الرسول فقط،

(1) المعجم الكبير للطبراني: 10534.

(2) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (370/7).

(3) صحيح البخاري: 30.

بينما في الواقعة الثانية التي تضمنت إهانة مباشرة من صحابي لآخر، كان رده عليه الصلاة والسلام مختلفًا: فيك جاهلية.

في الحالة الأولى: سيتعامل صاحب المقترح مع واقع أن عبد الله بن مسعود أصبح جارًا له، وسيقوده ذلك بالتدريج إلى التخلص من نظرته، خاصة في ظل وجود الوصايا النبوية بالجار، **مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**[1]

أما في الحالة الثانية فقد تضمن رده إشارة مباشرة إلى مراجعة الصحابي لذاته لأن فيه بقية من رواسب الجاهلية عليه أن يواجهها بنفسه، لكن علينا هنا أن تغير الرد النبوي الكريم كان ربما مرتبطًا أيضًا بتغير الزمن، فالحادثة الأولى على فرض صحة وقوعها كانت في السنة الأولى للهجرة، أما حادثة أبي ذر الغفاري فكانت في فترة لاحقة لأن فترة قدومه إلى المدينة كانت بعد غزوة الخندق[2] في السنة الخامسة للهجرة.

بعبارة أخرى: في السنة الأولى سيكون هناك حد معين من التقبل لبقاء رواسب الجاهلية لحداثة العهد بالتغير، التعويل كان على أن التفاعل مع تغير معطيات الواقع سيقود تدريجيًّا إلى التخلص من هذه الرواسب.

لكن بعد أربع سنوات: المواجهة يجب أن تكون مع النفس؛ **فيك جاهلية، واجهها، لقد تغير الواقع، آن أيضًا أن تتغير أنت.**

جواز أكل طعام الخياط!

في سياق تغيير النظرة نفسه، نجد حادثة قد تبدو لنا الآن طبيعية جدًّا.

عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: إِنَّ خَيَّاطًا دَعَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِطَعَامٍ صَنَعَهُ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَذَهَبْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى ذَلِكَ الطَّعَامِ...[3]

خياط دعا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى طعام صنعه.

وذهب الرسول الكريم لإجابة الدعوة وذهب معه أنس بن مالك الذي كان يخدم الرسول منذ وصوله المدينة.

(1) صحيح البخاري: 6015.

(2) الطبقات الكبرى: (4/170).

(3) صحيح البخاري: 2092.

وكان الطعام مرقًا وخبزًا، والمرق فيه دباء وقديد، قرع أو يقطين مع لحم مجفف.

الأمر يبدو لنا طبيعيًّا جدًّا، وأغلب الاهتمام انصب لاحقًا على تتبع الرسول عليه الصلاة والسلام الدباء من نحو القصعة، أي من جوانبها، وتعليق أنس بن مالك أنه أصبح يحب الدباء من يومئذ.

ولكن هناك أيضًا شيء آخر، ربما كان له أثر أكبر آنذاك.

قال مالك: كان النَّبي- صلّى الله عليه وسلم - يُجِيبُ كلَّ من دَعَاهُ حتّى الخيَّاطَ[1].

قال المهلب: فيه جواز أكل الشريف طعام الخياط والصانع، وإجابته إلى دعوته[2].

وفيه أيضًا أن الأجير المشترك الذي لا يعقد مع الاجراء عقودًا على يوم معلوم ولكن على عمل معين، فإن ذلك جائز لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكل من طعام الخياط، وهو أجير مشترك[3]

...إن الشريف منهم وذا الجاه، كان لا يحضر وليمة يدعوه إليها شخص من أصحاب هذه الحرف، استنكافًا وازدراءً؛ لأنه ليس في منزلته ومكانته. وقد كان عمل الرسول كبيرًا في نظر رؤساء القوم يومئذ، حينما جوَّز حضور طعام الخياط والصائغ وأمثالهما، وكان يحضر منازلهم، فعد القوم ذلك عملًا غير مألوف ومخالفًا للعرف والتقاليد[4].

كانوا يستنكفون ويأنفون من مجرد قبول دعوة الخياط والصانع على الطعام، عدا عن مصاهرته أو اتخاذه صديقًا.

ثم يقوم الرسول عليه الصلاة والسلام بفعل أبلغ من كل كلمات الوعظ.

يدعوه خياط فيلبي الدعوة.

صفعة إلى المفاهيم السائدة، صفعة صامتة بالتطبيق، وبالفعل المباشر، هذا ليس توحيدًا لله نتحدث عنه ونكرسه ونرسخه ونكرره، هذا موقف اجتماعي سيندثر بالتطبيق دون حروب مستنزفة للجهد والوقت.

---

(1) المسالك في شرح موطأ مالك: (5/523).

(2) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (6/224).

(3) الإفصاح عن معاني الصحاح: (5/86).

(4) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (14/231).

تغيير البارادايم[1]: العمل جزء من الإيمان

التحدي الأكبر لم يكن فقط في التخلص من نظرة الاحتقار للعمل اليدوي أو الزراعة.

التحدي الأكبر كان في تغيير مفهوم العمل نفسه.

العمل لن يكون (عملًا) فحسب، لن يكون من أجل توفير لقمة العيش والربح، بل سيكون أيضًا جزءًا من الإيمان بالله والعمل الصالح، سيكون عملًا للآخرة وليس فقط للدنيا.

سيكون عملًا دنيويًّا، ولكن بأبعاد أخروية.

سيكون جزءًا من عملية التغيير الكبرى. كل عمل، كل منتج لهذا العمل، كل ربح يُجنى، كل مال ينفق في أثناء هذا التغيير...سيكون جزءًا من التغيير متعدد الأبعاد.

وليس مصادفة أبدًا -حاشا لله- أن يأتي تشبيه الإنفاق في سبيل الله بالسنبلة، في سورة البقرة تحديدًا التي تنزلت في هذه الفترة. سنة أولى هجرة.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/261)

كما أصبحت الفسيلة رمزًا للأمل والعمل ولو كان بعيد الآثار غير منظور النتائج، كذلك أصبحت السنبلة رمزًا للعمل الصغير الذي تتعدى نتائجه النهائية حجمه الذي ابتدأ به.

فسيلة وسنبلة، رمزان للبارادايم وهو يتغير في تحول كبير في الرؤوس والسلوك وعلى أرض الواقع.

---

(1) تغيير البارادايم (Paradigm Shift) مفهوم طرحه توماس كوهن في كتابه (بنية الثورات العلمية)، ويعبر عن انتقال جذري في النموذج الفكري أو التصور السائد لكيفية فهم ظاهرة أو نظام معين. يحدث عادة عندما تتراكم الأدلة التي لا يمكن تفسيرها بالنموذج القديم، فيُستبدل بإطار جديد يفسر الظواهر بطريقة مختلفة تمامًا. المفهوم ينسحب أيضًا على الأفكار السائدة اجتماعيا وتغيير البارادايم الاجتماعي يعني تبدّل الإطار الفكري الذي يُفسّر به الناس واقعهم كأن تتحول نظرتهم من قبول التراتبية القبلية إلى المطالبة بالعدالة والمساواة. هذا التحول لا يحدث دفعة واحدة، بل يبدأ بتراكم الوعي وتحدي المسلّمات حتى يصبح التصور الجديد هو السائد.

عن النخلة وحواليها: أنتم أعلم بأمر دنياكم

بعد أشهر قليلة من وصول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، لا تقل عن أربع أشهر ولا تزيد عن ستة، حدثت حادثة تأبير النخل الشهيرة.

كيف يمكن لنا أن نجزم بأن تاريخ الحادثة في هذا التاريخ؟

الهجرة حدثت حسب التقويم الميلادي في شهر سبتمبر/ أيلول، في الأيام العشرة الأخيرة من هذا الشهر حسب أغلب المؤرخين.

وقت تأبير النخل، أي تلقيح النخلة الأنثى بحبوب الطلع المأخوذة من النخلة الذكر، يكون عادة بين أواخر شهري يناير/ كانون الثاني إلى منتصف شهر مارس/ أذار.

أي أربعة إلى ستة أشهر من وصول الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

لماذا نفترض أن ذلك قد حدث في السنة الأولى للهجرة؟

لأنه من المستبعد ألا ينتبه عليه الصلاة والسلام لهذا الحدث، أي عندما استعد الأنصار لتأبير النخل كعادتهم، ولم يسألهم عنه، ثم انتبه إلى ذلك في سنة لاحقة.

فلننتبه هنا إلى أن عملية التأبير كانت (ولا تزال في مناطق كثيرة) تتضمن صعود المزارع إلى قمة النخلة ليضع فيها حبوب الطلع، ويحدث ذلك في كل نخلة على حدة، وهو أمر لا بدَّ أن يلفت نظر الرسول الكريم في المرة الأولى التي تحدث في أثناء وجوده في المدينة لأنه أمر لا يحدث في مكة باعتبارها ليست (دار نخل) كما هو معلوم.

عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟» فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ، يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ

فِي الْأُنْثَى فَيَلْقَحُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شيئًا» قَالَ فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَقَالَ: «إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شيئًا، فَخُذُوا بِهِ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[1]

وفي سند آخر عن نفس الصحابي «إِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ ظَنَنْتُهُ، إِنْ كَانَ يُغْنِي شيئًا فَاصْنَعُوا، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَالظَّنُّ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، وَلَكِنْ مَا قُلْتُ لَكُمْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلَنِ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[2]

حَدَّثَنِي رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ، قَالَ: قَدِمَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ، يَقُولُونَ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: «مَا تَصْنَعُونَ؟» قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ، قَالَ: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا» فَتَرَكُوهُ، فَنَفَضَتْ أو فَنَقَصَتْ، قَالَ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ».[3]

عَنْ عَائِشَةَ، وَعَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ» قَالَ: فَخَرَجَ شِيصًا[4]، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «مَا لِنَخْلِكُمْ؟» قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ».[5]

هناك خمسة صحابة رووا ما يبدو أنه حادثة واحدة، ولكن يمكن بسهولة أن عدة حوادث متفرقة حدثت في الفترة نفسها تقريبًا، مع بدء موسم التأبير وصعود رجال الطلع إلى رؤوس النخل.

يعني هذا أنه من المحتمل أن يكون تعدد الألفاظ ناتجًا عن تكرر الحادثة أكثر من مرة، خاصة أن رواتها مختلفين، وأن المدينة لا بدَّ أن تكون قد شهدت عددًا كبيرًا ممن قام بعملية التأبير في الفترة ذاتها.

(1) صحيح مسلم: 2361.

(2) مسند أحمد: 1399.

(3) صحيح مسلم: 2362.

(4) الشيص: التمر الرديء.

(5) صحيح مسلم: 2363.

فلنركز في موقف الرسول الكريم مما حدث.

في البداية، ما قاله عليه الصلاة والسلام لم يكن نهيًا حاسمًا عن التأبير بقدر ما كان تساؤلًا عن جدواه، على الأقل في روايتين من الروايات الثلاث التي وصلتنا.

كشخص عاش في مكة ولم يألف عملية التأبير اليدوية التي اعتاد عليها أهل المدينة وأي أشخاص يعيشون في أرض بها نخل، بدا له الأمر غريبًا، في الغالب لأن المعتاد أن عملية التلقيح في أغلب الأشجار تحدث دون تدخل بشري.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ (الحجر/22)

علق النبي عليه الصلاة والسلام على التأبير بما يلي في الروايات الثلاثة:

مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شيئًا

لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا

لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ

في التعليقين الأول والثاني، لهجة الظن غالبة، وهي أكثر حسمًا في التعليق الثالث.

بعد أشهر قليلة قد لا تتجاوز الثلاثة- لأن رداءة الثمار تظهر مبكرًا قبل موسم الحصاد-جاءت تتمة الروايات الثلاثة والتي فيها خلاصة الموقف النبوي الحكيم.

عن التعليق الأول **مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا**، جاء الرد المتمم:

«إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شيئًا، فَخُذُوا بِهِ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».[1]

«إِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ ظَنَنْتُهُ، إِنْ كَانَ يُغْنِي شيئًا فَاصْنَعُوا، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَالظَّنُّ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، وَلَكِنْ مَا قُلْتُ لَكُمْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلَنِ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».[2]

عن التعليق الثاني **لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا** جاء الرد المتمم:

(1) صحيح مسلم: 2361.

(2) مسند أحمد: 1399.

«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ».[1]

وعن التعليق الثالث الذي كان الأكثر حسمًا من ناحية اللهجة **لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ** جاءت التتمة الأكثر قطعية المناسبة لحسم اللهجة.

«أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ».[2]

هذا التناسق بين الرد وبين الجملة الأولى في كل رواية يجعلني أميل أكثر إلى أنها ثلاث حوادث منفصلة وقعت في الفترة نفسها تقريبًا، في موسم التأبير الأول بعد الهجرة، وكان تعقيبه عليه الصلاة والسلام مناسبًا لما قاله في كل حادثة.

سلّة تمر من النخلة التي لم تنتج

التأمل في روايات حادثة التأبير يجعلني هنا أسجل عدة نقاط لا بدَّ من ذكرها، لأننا كثيرًا ما نغفل عنها في غمرة تعاملنا مع ما أصبحنا نعتبره من البديهيات.

أولًا: تواضعه عليه الصلاة والسلام.

هذا أمر لا جدال فيه، كان متواضعًا بالتأكيد، لكن فلنحاول فقط أن نتخيل حصول حدث مشابه مع شخص معاصر بمنزلة سياسية أو إدارية. يشير إلى مساعديه بنصيحة يتبين أن الأخذ بها سبب خسائر في الإنتاج، ماذا يحدث عادة؟ التنصل، الادعاء أن هذا لم يحدث أصلًا، إلقاء اللوم على صغار الموظفين، تجاهل كل شيء... إلى آخره.

هذا يحدث كل يوم، لكن مع النبي الكريم، صلوات الله وسلامه عليه، الأمر مختلف، لا محاولة أصلًا لذلك، على العكس هناك مواجهة مباشرة لما حدث.

ثانيًا: صدق الرواة: في سياقات أخرى، يمكن توقع أن تموت القصة وتدفن نهائيًّا ولا يذكرها أحد إلا إذا تمكن الخصوم من نشرها، لكن من ينقلها هنا هم صحابته وأنصاره المخلصون الذين قضوا حياتهم وهم ينقلون سيرته وأحاديثه، لم يحاولوا أن يتجاهلوا الحادثة أو يغيبوها، لم يفكروا أنها يمكن أن تنتقص من مكانته أو النظرة له عليه أفضل الصلاة والسلام، بل نقلوها كما هي.. قال كذا... حدث كذا... رد بكذا.

(1) صحيح مسلم: 2362.

(2) صحيح مسلم: 2363.

ثالثًا: عليه الصلاة والسلام يفصل بمنتهى الوضوح بين **ما يقوله ظنا وكاجتهاد** في أمور الدنيا المتغيرة وبين ما يقوله في أمور الدين وعن الله عز وجل. **كلمة (ظن) هنا يمكن أن يعترض عليها كثيرون عندما ترتبط به عليه الصلاة والسلام**، أما هو فيقولها بمنتهى البساطة والوضوح والمباشرة فيما يعتبره عليه الصلاة **والسلام (ظنًّا) بشريًّا لا عن تشريع** إلهي كلف عليه الصلاة والسلام بحمله ونقله. مجرد التحدث عن الفصل بين الأمرين هذه الأيام مغامرة غير مأمونة العواقب، سادت عند كثيرين نظرة مغايرة تمامًا لما قاله النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وجعلت كل كلمة قالها يقينًا تشريعيًّا مطلقًا، بينما فصل هو بمنتهى الوضوح والبساطة في حوادث تأبير النخل بين ما هو (ظن) بشري نطقه بناء على ما رآه، وبين ما كان ينطقه بناء على وحي تنزل عليه، صلوات الله وسلامه عليه. ظنه البشري هذا لا يمكن أن يقارن بظن بقية البشر بالتأكيد ناهيك بالمقاربة والمساواة، لكنه مع ذلك يبقى في موضع الظن الذي يمكن أن يتحول إلى يقين أو عكس ذلك بحسب التجربة البشرية واختبار الواقع.

رابعًا: **الفصل بين الدين والدنيا:** دون أدنى مشكلة، فصل عليه الصلاة والسلام بين ما هو دنيوي ويتعلق بمعايش الناس الطبيعية اليومية، وبين ما هو ديني ويتعلق بعبادة الله واجتناب نواهيه ومحارمه، حدث هذا بمنتهى الوضوح بينما نجد اليوم من يحرم التمييز بين المجالين ويعتبر أي تلميح إلى ذلك شيء أقرب إلى الكفر، بل إن عبارة (شمول الإسلام في كل مناحي الحياة) أدخلت في مجالات جديدة وأصبحت من البديهيات التي لا تناقش، بينما كانت سنته عليه الصلاة والسلام تشمل هذا الفصل الحكيم بين مناحي الحياة الدنيوية والدينية.

في سنته، في سيرته، كما في هذا الحديث بتعدد أحداثه، هناك فصل واضح بين الدين والدنيا، وهناك مرجعية واضحة لكل منهما، مرجعية الوحي والتشريع للدين، ومرجعية الاختصاص والتجارب والخبرات البشرية المتراكمة للدنيا.

هل هناك تداخل بين المجالين؟ حتمًا، كما مع كل شيء، لا توجد جدران عزل كونكريتية فاصلة بوضوح كما يحدث بين البيوت المتجاورة، لكن هناك أجهزة مختلفة ضمن جسم واحد، لكل منها وظيفتها المستقلة، ولكن هناك حدود معينة من التداخل بينهما، التداخل لا التماهي.

خامسًا: حادثة التأبير تشير بوضوح إلى الآليات التي تستخدم **للحصول على إنتاج أعلى وأكثر جودة**، ويمكن بسهولة مدها إلى الآليات والأساليب التي تستخدم لتسيير معايش الناس وتسهيل حياتهم فيما لا يتعارض مع نص ديني، مع وجود الكثير من (المسكوت عنه) في النصوص التي يمكن أن يترك فيها الأمر للأعلم بأمر الدنيا، **أي لأهل التخصص.**

***

لو افترضنا أن موسم حصاد النخيل يتأخر لبضع سنوات، أو أن توقيت الحادثة كان قبل أشهر فقط من وفاته عليه الصلاة والسلام، لرأينا من يقول إنه نهى صلوات الله وسلامه عليه عن تأبير النخل وربما أي عملية تدخل لزيادة المحصول. بالتأكيد سيقف فهم الصحابة المتشرب بسنته بالمرصاد لهذا الفهم الخارج عن السياق، لكن سنجد أيضًا من يتمسك بالنهي بل ويعيد تفسير معاني زيادة الإنتاج وزيادة الغلة لكي تتلاءم مع النهي المزعوم.

الحمد لله الذي من علينا بمواقف من سيرته عليه الصلاة والسلام لكي نفهم الصورة الكاملة ولا نتعثر بتفاصيل وأجزاء الزوايا المشوشة للرؤية.

ثم جاءت «عائشة»....

كانت السيدة خديجة الملجأ والسند للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، كانت سلوانا متعددة الأشكال عوضه الله به عن اليتم المزدوج الذي افتتح حياته ووعيه به، وكل ما مر به في حياته السابقة.

كانت الحكمة والخبرة والنضوج، كما كانت القوة والمركز والمال، قابلته عليه الصلاة والسلام في أول الطريق، فأصبح الطريق معها وبها أيسر -رغم كل الصعوبات.

كانت الملاذ الآمن يوم مر باليوم الذي غير حياته (وحياة مئات الملايين) إلى الأبد، ليلة نزل عليه الوحي عليه، كان يرتعد فرقًا مما حدث، لا يكاد يصدق ما يحدث حقًّا، ذهب لها مسرعًا وهو يرتجف، لم يذهب إلى أقرب أصدقائه، أبي بكر، أو إلى عمه الذي رباه، كان يعرف أين سيجد المرفأ الذي يرسي فيه ويجد فيه طمأنينته والأجوبة عن قلقه وهواجسه مما مر به، خديجة المرفأ الأمين، أربعة نساء في امرأة واحدة تعدت كل الأنماط والتصنيفات، الزوجة والأم والرفيقة والحبيبة، عندما وصل إلى مرفئه الحنون قال لها: زملوني زملوني؛ يطلب تغطيته، وضعت عليه الدثار وهو يرتجف، لكنه يريد غطاءها هي، يريد صلوات الله عليه وسلامه أن يلتف بحنانها وفهمها. قال لها: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**» فدثرته بكلمات كالبلسم المطمئن الذي يزيل القلق والتوتر، قالت له ما لن ننساه نحن أبدًا. **كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ**[1] ..

ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل.

(1) صحيح البخاري: 3.

انطلقت به هي الكلمة التي جاءت في الحديث الشريف، بكل ما يحمله الانطلاق من معانٍ يمكن أن تجعلك تتأمل فيما فعلته السيدة خديجة تلك الليلة.

مهما عرفنا من صفاتها، تلك الليلة مختلفة، دخلت في أذهاننا لأن ما حدث تلك الليلة أصبح جزءًا من وعينا بذات الرسول وهو يتلقى للمرة الأولى أمانة الوحي.

جاءت تلك الليلة، ولكنها لم تذهب، بقيت في وعينا بكل ما فيها من صدق الرسول الكريم وهو يروي لخديجة ما حدث...وبكل ما فيها من قوة وتماسك وإيمان خديجة به.

جاءت تلك الليلة، لم تذهب.

ولكن خديجة لم تذهب أيضًا.

***

ثم جاءت السيدة عائشة....

كانت مختلفة تمامًا عن السيدة خديجة. اختلاف شخصيات في سياقات مختلفة، لا مقارنة ممكنة، ما كان لواحدة منهما أن تبادل الأخرى دورها، ما كان يمكن لعائشة أن تكون خديجة في تلك الليلة، وما كان يمكن لخديجة أن تكون عائشة في السنوات التسعة التي قضتها معه عليه الصلاة والسلام.

تكاملَ دوراهما معًا في حياته النبوية.

كانت خديجة هي المرأة المناسبة في فترة الصعوبات الأولى، كما لو أن شخصيتها قد تركبت وتشكلت وخلقت في كل السنوات التي سبقت زواجها منه عليه الصلاة والسلام لكي تؤدي هذا الدور الذي أدته معه في السنوات الأولى للبعثة. القوة والصلابة والحكمة والاتزان والتماسك والصبر، كلها كانت عدة خديجة الشخصية التي استخدمتها في دعمه عليه الصلاة والسلام، سُنَّة من سنن التيسير التي سخرها الله له.

عائشة كانت المناسبة لمرحلة مختلفة تمامًا، للنبي وهو يؤسس ويبني المجتمع الجديد، لم تعد تلك العدة الشخصية التي ساعدته في المرحلة السابقة من أولويات متطلباته، جاءت عائشة لتؤدي دورًا مختلفًا تمامًا.

ما هو هذا الدور؟

الناقل الدقيق العميق

لنأخذ لمحة بسيطة عن هذا الدور، علينا أن نعي حقيقة أن هذا الموقف العظيم للسيدة خديجة، في تلك الليلة التي غيرت التاريخ، بتفاصيله التي جعلت السيدة خديجة تتربع على مكانتها في قلوبنا، هذا الموقف العظيم، بكل صدقه ورهبة مشاعره، ما كنا سنعرفه، **لولا أن عائشة نقلته لنا.**

نعم. وحدها عائشة نقلت ذلك-بتفاصيله الرائعة- عن النبي عليه الصلاة والسلام.

وهذه حادثة واحدة فقط، من عشرات المواقف؛ بل قد يصل الأمر إلى المئات من الأحاديث والحوادث التي نقلتها عائشة وحدها.

انفردت بها عائشة.

لماذا انفردت بها عائشة؟

بعض ما انفردت به كانت شاهدة وحيدة عليه، كانت وحدها معه عليه الصلاة والسلام.

ولكن البعض الآخر من الذي انفردت لم يكن مما كانت شاهدة عليه أو حاضرة فيه أو حتى معاصرة له.

كيف روته إذن، بل كيف انفردت به؟

لأنها كانت تسأله عليه الصلاة والسلام.

كانت شغوفة بالمعرفة والفهم، ومثل كل من يتملكه هذا الشغف، كان السؤال جزءًا أساسيًّا من آليات تفكيرها. كان تفكيرها مبنيًّا على التساؤل. والتفكير المبني على التساؤل يرفض الاكتفاء بسطح المعرفة، بل يغوص عمقًا ليحلل ويربط بين التفاصيل، يتحسس الفجوات ويعمل على ردمها، يربط بين المعلومات المختلفة بشبكة تنتج أجوبة جديدة، وأحيانًا أسئلة جديدة، يعالجها بالطريقة نفسها.

تفكير ناقد؟ تفكير إبداعي؟ تفكير تحليلي؟ مسميات جديدة لتوصيف نمط من التفكير عرفه الكثيرون عبر التاريخ. مارسوا هذا النمط أو ذاك وأثروا المعرفة البشرية بأسئلتهم وأجوبتهم وما أورثته للآخرين من طرح أسئلة جديدة والبحث عن أجوبة أخرى.

وكانت عائشة من هؤلاء، تسأل لأنها تريد أن تفهم، تريد أن تغوص في العمق، شغف معرفي تحول ليصبح جزءًا من الإيمان. ولأنها حصلت على الأجوبة، فقد نقلتها، ونقلت معها أسلوبًا في الفهم والإدراك والربط بين الوقائع والنصوص، وربما الأهم من كل ذلك: طريقة التساؤل.

أنماط التفكير، ومن ضمنها التفكير النقدي المبني على التساؤل، لا تأتي من فراغ، ولا تنمو كذلك في فراغ، فأنواع المعالجة المعرفية (طريقة استقبال المعلومة) تحدد غالبًا عبر الجينات، أو تكون استعدادًا جينيًّا يحمله الشخص وقت ولادته[1]، لكن البيئة التي يكبر فيها هذا الشخص يمكنها أن تفعل هذه الاستعدادات وتجعلها تزدهر وتثمر لتصير نمطًا واضحًا للتفكير وجزءًا من شخصية حاملها، ويمكنها أيضًا أن تقمعها وتثبطها وتجعلها خاملة لا نشاط فيها.

ليس هذا فقط، كانت السيدة عائشة لديها قدرة لغوية واضحة، تستطيع التعبير عن نفسها وعما يجول في خاطرها بجزالة وسلاسة ووضوح، وكان هذا يعني -لأنه يجتمع مع خصائصها الفكرية الأخرى- إن قدرتها على طرح الأسئلة تكون معضدة بقدرة لغوية تستنفر أقصى الوضوح في الجواب، كما أن قدرتها على نشر نمط تفكيرها واستفزاز الأسئلة والبحث عن أجوبة عبر الربط بين مختلف المواضيع تكون أقوى مع قدرتها التعبيرية.

ما علاقة هذا بموضوعنا؟

علاقته أن السيدة عائشة على الأغلب ولدت وهي تحمل هذا الاستعداد الفطري لهذا النوع من نمط التفكير القائم على التساؤل والتحليل والبحث عن الصورة الكاملة.

وإن يكن، ما علاقة هذا بما نتحدث عنه؟

علاقته أنني أضع هنا احتمالية أنه عليه الصلاة والسلام ربما يكون، وأعيد وأؤكد على (ربما) و(احتمالية)، قد لاحظ ذكاء هذه الفتاة الصغيرة، ابنة رفيق دربه، أبي بكر الصديق.

(1) Shakeshaft, N. G., Trzaskowski, M., McMillan, A., Krapohl, E., Simpson, M. A., Reichenberg, A., Cederlöf, M., Larsson, H., Lichtenstein, P., & Plomin, R. (2015). Thinking positively: The genetics of high intelligence. *Intelligence, 48*, 123–132. https://doi.org/10.1016/j.intell.2014.11.005

هذا الذكاء يظهر عادة مبكرًا. الكثير من الأطفال يظهرون ملامح تفكيرهم عبر أسئلة تنم عن ذكائهم، وكثيرًا ما يتم تدجينهم وقمع هذه الأسئلة تحت حجج شتى.

لكن بعضهم يتمكن من النجاة.

وكان عليه الصلاة والسلام يتردد بشكل دائم على بيت أبي بكر.

تقول السيدة عائشة: **وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طَرَفَيِ النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً.**[1]

كان يأتي الرسول كل يوم، صباحًا ومساءً.

كان منتظمًا في ذلك لدرجة أنه عندما جاء في غير هذين الوقتين، حدس أبو بكر فورًا أن ثمة شيئًا خطيرًا...

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَقَنِّعًا، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ»[2]

إذن كان عليه الصلاة والسلام يأتي إلى بيت أبي بكر كل يوم مرتين حسبما تذكر السيدة عائشة.

وهناك واقعة تذكر أنه كان عليه الصلاة والسلام قد ميز حضورها واستوصى أمها أم رومان بها خيرًا.

فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْتَلِفُ إِلَى بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ وَيَقُولُ: «يَا أُمَّ رُومَانَ، اسْتَوْصِي بِعَائِشَةَ خَيْرًا وَاحْفَظِينِي فِيهَا» فَكَانَ لِعَائِشَةَ بِذَلِكَ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ أَهْلِهَا وَلَا يَشْعُرُونَ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهَا، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ مَا كَانَ يَأْتِيهِمْ وَكَانَ لَا يُخْطِئُهُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ مُنْذُ أَسْلَمَ إِلَى أَنْ هَاجَرَ، فَيَجِدُ عَائِشَةَ مُتَسَتِّرَةً بِبَابِ أَبِي بَكْرٍ تَبْكِي بُكَاءً حَزِينًا، فَسَأَلَهَا فَشَكَتْ أُمَّهَا وَذَكَرَتْ

(1) صحيح البخاري: 476.

(2) صحيح البخاري: 3905.

أَنَّهَا تُولَعُ، فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ رُومَانَ فَقَالَ: «يَا أُمَّ رُومَانَ، أَلَمْ أُوصِكِ بِعَائِشَةَ أَنْ تَحْفَظِينِي فِيهَا؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنَّهَا بَلَّغَتِ الصِّدِّيقَ عَنَّا وَأَغْضَبَتْهُ عَلَيْنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِنْ فَعَلَتْ» قَالَتْ أُمُّ رُومَانَ: لَا جَرَمَ لَا سُؤْتُهَا أَبَدًا[1]

والواقعة تدل أيضًا على موقف أخلاقي لعائشة الصغيرة ربما يكون قد لفت انتباهه عليه الصلاة والسلام، *بلغت الصديق عنّا وأغضبته علينا*، لم تقل أم رومان أن عائشة قد كذبت أو افترت فقالت لأبيها ما لم يحدث، بل قالت إنها (أبلغته عنا)، أي أن هناك أمرًا معينًا طلب الصديق من أهل بيته الامتثال له وهو غالبًا أمر تافه مما يحدث في كل البيوت، لكنهم خالفوه سرًّا في غيابه، فقامت الصغيرة بإخبار والدها عنه رغم علمها المسبق أن والدتها قد تعاقبها على ذلك، وقفت الصغيرة مع ما تصورت أنه مفهوم الحق والصواب وقالت كلمة الحق رغم احتمالية تعرضها للعقاب، موقف مبكر يدل على إرهاصات لشخصية مستقلة قوية ذات حس أخلاقي عالٍ.

كل هذا، إضافة إلى حقيقة أخرى، ترتبط بأن عائشة نشأ وعيها في الإسلام ولم يتشكل لها وعي في الجاهلية حيث تقول (**لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ، إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ**[2]) وهذا سيجعلها مؤهلة للدور الذي ستقوم به أكثر من غيرها ممن سبق لجزء من وعيه أن تشكل في الجاهلية.

مرة أخرى، ما علاقة كل هذا بما نتحدث عنه؟

ببساطة، وما سأقوله مجرد رأي تحليلي لكل ما سبق من معطيات، إن كل هذا ربما كان أسهم في اختياره عليه الصلاة والسلام لعائشة لتكون زوجته.

ذكاؤها ونمط تفكيرها سيجعلها مؤهلة لفهم عميق للدين، أسئلتها ستتيح لها أن تعرف أكثر، حسها الأخلاقي المستقل سيجعلها قادرة على الصمود بوجه الضغوط، وكونها تجيد التعبير بالكلام سيجعلها تتحدث عن كل ذلك.

كونها صغيرة السن كان يمنحها أيضًا نقطتين إضافيتين:

(1) المستدرك على الصحيحين:6774.

(2) صحيح البخاري: 3905.

الأولى: أن كل وعيها نشأ وتشكل وبني في الإسلام، رواسب الجاهلية ستكون في الحد الأدنى الممكن.

الثانية: أن فرصتها في أن تصل لمرحلة زمنية متقدمة كانت أكبر من سواها، حيث يكون أغلب الصحابة ممن كانوا في عمر النبي عليه الصلاة والسلام أو أصغر قد توفوا. بالتأكيد كان هناك صحابة مهمين كانوا صغارًا أيضًا في عمر مقارب للسيدة عائشة (أنس بن مالك بعمرها تقريبًا، عبد الله بن عمر أكبر منها قليلًا، وعبد الله بن عباس أصغر منها)، وكل هؤلاء الصحابة كان لهم دور كبير لاحقًا لأنهم عاشوا ليرووا ما حدث وما فهموه وما نقلوه، وهذا أمر طبيعي، ولكن المختلف مع السيدة عائشة أنه عليه الصلاة والسلام اختارها لتكون زوجته، أي لتكون الأقرب له.

هذا كله عندما نضعه في سياقه وفي سياق دور السيدة عائشة لاحقًا في نقل السنة والحديث، نضع في أذهاننا، على نحو منطقي، أنه عليه الصلاة والسلام قد اختار عائشة كزوجة، ليس فقط لأنها ابنة أقرب صحابته، ولكن لأنها كانت تحمل هذه القدرات التي ستساهم في نقل فهمه وسنته إلى أجيال تلد لاحقًا.

وهذا ما حدث بالفعل.

الخلاف الحديث حول عمر السيدة عائشة عند زواجها

لا أقول ما سبق دفاعًا عن موضوع سن السيدة عائشة عند زواجها، فهو موضوع مفتعل جدًّا، بقي الأمر بلا أي جدال وبلا أي مشكلات طيلة 13 قرنًا، وفجأة في أواخر القرن التاسع عشر يتحدث أحدهم عن عمر السيدة عائشة ويقترح أنها لم تكن في التاسعة من العمر كما هو ثابت في كل كتب الحديث وبأسانيد صحيحة.

لاحقًا، بدأت بعض الأصوات تكرر ذلك وتؤكد أن السيدة عائشة كانت قد بلغت الثامنة عشر عندما تزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام[1] وهو أمر لا يوجد له أي مصداقية إخبارية، كل ما صح وثبت يشير إلى أنها كانت في التاسعة.

(1) استند هذا الرأي إلى ثلاث (مقولات): المقولة الأولى: ما ذكره أبو نعيم الأصبهاني (في معجم الصحابة 6/ 3253) من أن عمر السيدة أسماء بنت أبي بكر (أخت عائشة لأبيها) في الهجرة كان سبعة وعشرين عامًا، وبما أن الفرق في السن أسماء وعائشة كان عشر سنوات، فهذا يعني أن السيدة عائشة كانت في السابعة عشر عند الهجرة. وهذا القول الذي ورد دون سند يوضح كيف وصل الخبر للمؤرخ، وهو يناقض نفسه فورًا عندما يقول إن أسماء ولدت قبل البعثة بعشر سنوات، مما يجعل الفترة المكية سبعة عشر

هزيمة نفسية؟ ليس بالضرورة

قد يستسهل كثيرون بطبيعة الحال الحديث عن الهزيمة النفسية أمام القيم الغربية التي تجعل من هؤلاء يتخذون هذا الموقف، ولا أشكك شخصيًّا بنية أي من القائلين بأنها كانت في الثامنة عشرة، ولكني أعتقد أن الأمر أعقد من أن يختصر بالهزيمة النفسية أمام الغرب، وقد يرتبط أكثر بما هو معقول وغير معقول في حياتنا المعاصرة. لدينا في كثير من الأحيان موقف تبريري يحاول أن يقفز فوق تغيرات التاريخ لكي يجعل كل ما حدث في الفترة التاريخية التي عاشها الرسول عليه الصلاة والسلام ملائما لكي

عامًا (وهو قول موجود في بعض كتب السير لكنه ضعيف). كما أن الفرق بين سن الأختين أسماء وعائشة لم يثبت لكي يمكن إجراء أي عملية حسابية. فقد استند من يقولون بأن الفرق عشر سنوات على رواية **عبد الرحمن ابْنِ أَبِي الزِّنَادِ الذي روى أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ أَكْبَرَ مِنْ عَائِشَةَ بِعَشْرِ سِنِينَ. (السنن الكبرى للبيهقي 12147)** بينما ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء عن أسماء:**كَانَتْ أَسَنَّ مِنْ عَائِشَةَ بِبِضْعَ عَشْرَةَ سَنَة (سير أعلام النبلاء 3/520)** وما روي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد في الفرق بين سن عائشة وأسماء لم يكن عبر سند متصل، بل مجرد قول مرسل، علمًا أنه هو نفسه كان ضمن رواة الحديث الذي تذكر فيه السيدة عائشة أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام تزوجها وهي بنت تسع سنوات! (المعجم الأوسط6957)

هذا مع العلم أن ابن أبي الزناد نفسه قال في رواية أخرى أن أسماء كانت أسن من عائشة بعشر سنين **أو نحوها. (الاستيعاب في معرفة الأصحاب 2/616)**

ولعل هذا يفسر بأن العرب كانت أحيانًا تجبر كسور الأرقام، فربما جبر ابن أبي الزناد (بضع عشرة) سنة إلى عشر سنوات، ببساطة لأن سن السيدة عائشة عند زواجها لم يكن مختلفًا عليه آنذاك ولا يمكن لأحد وقتها أن يتخيل حدوث خلاف في ذلك فيحتاط بالدقة في ذكر فرق السن بين الأختين.

المقولة الثانية: ما فهمه البعض أن الطبري في تاريخه قد قال إن كل أولاد أبي بكر قد ولدوا في الجاهلية. والحقيقة أن الطبري لم يقل ذلك، بل قال إن هؤلاء هم أولاد أبي بكر من الزوجتين التي تزوجها في الجاهلية، وهما قتيلة وأم رومان. (تاريخ الطبري 3/ 425)

المقولة الثالثة: ذكر السيدة عائشة لموقف حدث مع والدها أبي بكر وهو ينوي الهجرة إلى الحبشة وذلك في حديث صحيح:(لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ، إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفَيِ النَّهَارِ، بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ المُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الحَبَشَةِ)(صحيح البخاري 3905) وبما أن الهجرة إلى الحبشة كانت في السنة الخامسة للبعثة، وما دامت السيدة عائشة تعي الأمر وتذكره فقد كانت على الأقل بعمر الخمس سنوات، مما يجعلها في الثالثة عشر أو أكثر يوم تزوجته عليه الصلاة والسلام.

لكن الهجرة إلى الحبشة كانت مرتين، الأولى في السنة الخامسة للبعثة، والثانية في السنة الحادية عشر للبعثة تقريبًا، وما تذكره عائشة واضح أنه كان بعد الهجرة الثانية لأنها تذكر في تكملة نفس النص أنه عليه الصلاة والسلام قد أخبره بقرب الهجرة إلى المدينة. واستخدام الحديث الصحيح لحساب سن السيدة عائشة يتناقض مع هذه الحقيقة التاريخية المعروفة، وجود هجرتين إلى الحبشة.

يحدث في حياتنا المعاصرة. وعندما أقول (ما حدث في الفترة التاريخية) فإني أعني حرفيًّا ما كان شائعًا ومعروفًا في حياة العرب في تلك الفترة ولا أعني سنته عليه الصلاة والسلام. لدينا خلط كبير بين الأمرين للأسف وهو خلط مربك في أحيان كثيرة، كما في الموقف من حقيقة عمر السيدة عائشة عند زواجها منه عليه الصلاة والسلام.

أعراف العرب ليست دينًا

ما فعله العرب في حياتهم اليومية (التي لم ينه عنها عليه الصلاة والسلام تحديدًا ومارسها بشكل طبيعي) لا تعتبر بالضرورة من (سنته) هو عليه الصلاة والسلام، بل هي من (أفعال العرب) فحسب، على سبيل المثال: ركوبه عليه الصلاة والسلام للخيل أو غيرها من الدواب أمر طبيعي في سياق عصره واستخدامه عليه الصلاة والسلام لما تطبب به العرب في أمراضهم، أو استخدامه السيوف والرماح عند القتال كلها كانت أمور يفعلها الكل في زمانه وفعلها عليه الصلاة والسلام على نحو طبيعي، وعندما دخلت أدوات جديدة مع تطور الزمن لم يقاومها أحد، أو على الأقل لم تصمد مقاومة.

مع العادات الاجتماعية والأعراف الأمر أعقد قليلًا، الأدوات والوسائل أمرها أوضح، لكن العادات فيها سلوك شخصي، لذا فالفصل بين ما هو مجرد عرف اجتماعي يمكن أن يتغير من القبول إلى الرفض، وما هو سنة نبوية تختص به عليه الصلاة والسلام أصعب قليلًا وليس مثل الأدوات والوسائل التي تتغير باستمرار دون مشكلة.

لكن الكثير من العادات والأعراف الاجتماعية عبر التاريخ، وفي كل المجتمعات، تنتقل من خانة القبول الاجتماعي إلى خانة الرفض، حدث ذلك ويحدث باستمرار مثل: العبودية، وامتلاك الأراضي بفلاحيها، وقتل الساحرات، وعقوبات التعذيب والإعدام أمام الجماهير، والرياضات العنيفة التي تنتهي بموت أحد المتسابقين، والمحاكمة بامتحان التعذيب، والمبارزة لإثبات شرف متخاصمين، وتعذيب الحيوانات للتسلية، والعقوبة بالضرب في المؤسسات التعليمية، وعمالة الأطفال، والفصل العنصري في الأحياء السكنية.

كل هذه كانت ممارسات اجتماعية مقبولة في الكثير من المجتمعات، الغربية خصوصًا، فيما يعرف الآن بالعصور الوسطى، ثم اختفت بالتدريج، ومن ثمَّ أصبحت غير مقبولة اجتماعيًّا وقانونيًّا، وبعضها لا تزال تمارس في مجتمعات أخرى.

زواج الصغيرات من هذه العادات الاجتماعية التي كانت مقبولة على نطاق واسع في كل المجتمعات الإنسانية عبر التاريخ، بالتدريج تغيرت النظرة إلى هذا الأمر، وأصبح هذا الأمر مرفوضًا من كل النواحي[1] ولا علاقة لهذا بالتغريب أو بسيادة قيم الغرب، المجتمعات تتغير بكل الأحوال، مع الغرب أو من دونه.

لذلك فموقف بعض المعاصرين من سن السيدة عائشة عند زواجها لا يعبر بالضرورة عن هزيمة نفسية بقدر ما يعبر عن مغالطة منطقية[2] في إسقاط أحكام أخلاقية (حالية) على عصر تاريخي آخر، ما (لا يعقل) و(لا يقبل) حاليًّا يمكن أن يكون مقبولًا في سياق تاريخي آخر دون أي مشكلة، لكن هؤلاء يسقطون في مغالطة إن كل ما هو مرفوض حاليًّا يجب أن يكون كذلك في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

أين كنا سنواجه مشكلة حقيقية؟

لو كان الأمر خاصًّا بسنة النبي فعلًا، وليس بأسلوب حياة العرب، أي لو كان النبي قد حول الأمر من (مجرد زيجة عادية مقبولة اجتماعيًّا حسب أعراف العرب آنذاك) إلى أمر ديني يأمر به أصحابه ويعدهم الأجر والثواب لو تزوجوا الفتيات الصغيرات في السن، وهذا ما لم يحدث بأي شكل من الأشكال.

ماذا عن الاتهامات التي يوجهها بعض من لا يذكرون التي تتهمه عليه الصلاة والسلام بالـبيدوفيليا؟ حشاه.

حسب (الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية- الطبعة الخامسة)، المعروف اختصارًا بـ (DSM 5) وهو الدليل الأكثر قبولًا في أوساط الطب النفسي، فإن فيما يتعلق باضطراب البيدوفيليا يحدد بوضوح: (لا تنطبق الإرشادات التشخيصية فيما يتعلق بالسن على جميع الثقافات. تقبل العديد من الثقافات النشاط الجنسي والزواج والإنجاب في سن أصغر وتقبل اختلافات عمرية أكبر بكثير بين الشركاء الجنسيين)[3].

والحديث هنا عن الاختلافات الثقافية ضمن العالم المعاصر، فالدليل موجه للأطباء النفسيين الذين يعالجون حالات حقيقية وليس لفشلة منصات التواصل الاجتماعي الذين

(1) للمزيد عن هذا فصل (زواج السيدة عائشة) في كتابي ليطمئن عقلي الصادر عن منشورات عصير الكتب.

(2) مغالطة المؤرخ historian fallacyومغالطة الحاضرية presentism

(3) American Psychiatric Association. (2013). *Diagnostic and statistical manual of mental disorders* (5th ed.). American Psychiatric Publishing.

لديهم مشكلات تستحق العلاج يهربون منها بالتطاول على مقام النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وبمجرد أن نضيف الاختلافات التاريخية (14 قرنًا) إلى الاختلافات الثقافية نعرف أن أي محاولة لإلصاق تهمة البيدوفيليا بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام هي محاولة فاشلة علميًّا ومنطقيًّا.

أكثر من هذا، تؤكد الدراسات العلمية أن الأشخاص الذين يعانون هذا الاضطراب يكونون عادة (متسلسلين)، أي لا يكتفون بطفلة واحدة[1]، بل يكررون سلوكهم هذا مع عدد كبير ممن يمكنهم الوصول إليهن، رغم المحاذير القانونية وعواقبها.

في المقابل، كان الأمر مقبولًا في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان بمكانته يمكنه الزواج ممن يريد، بل كانت كل القبائل ستتسابق لذلك، رغم ذلك فالسيدة عائشة هي الوحيدة التي تزوجها عليه الصلاة والسلام في سن صغيرة، وكل زوجاته الأخريات كن كبيرات في السن، بل أرامل.

لكن عائشة لا يمكن أن تختصر بسنها وقت زواجها، عائشة كانت الروح الحرة المتسائلة، العقل الذكي الذي يبحث عن الأجوبة، الفكر المتوقد الذي سيفهم الجوهر واللب والمقصد بتوازن دون أن يهمل التفاصيل. الموقف الأخلاقي المستقل الذي لا يتردد عن الاعتراف بالخطأ عندما يكتشف ذلك.

لهذا كله، لا يمكن اختصار السيدة عائشة بعمرها.

ولهذا كله أيضًا، ربما رأى فيها الرسول عليه الصلاة لتكون الرفيقة الأهم في دربه، بعد السيدة خديجة، ورفيقة الدرب الأهم في هذه المرحلة الجديدة من سيرته.

***

بعيدًا عن آراء من جاء بعد أكثر من ألف سنة..

ماذا قالت صاحبة الشأن عن الأمر، وعن زواجها منه عليه الصلاة والسلام؟

(1) Hall, R. C., & Hall, R. C. (2007). A profile of pedophilia: Definition, characteristics of offenders, recidivism, treatment outcomes, and forensic issues. *Mayo Clinic Proceedings, 82*(4), 457–471. https://doi.org/10.4065/82.4.457

عويش[1] تتحدث عن نفسها

عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «تَزَوَّجَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ، فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ فَنَزَلْنَا فِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ خَزْرَجٍ، فَوُعِكْتُ فَتَمَرَّقَ[2] شَعَرِي، فَوَفَى[3] جُمَيْمَةً[4] فَأَتَتْنِي أُمِّي أُمُّ رُومَانَ، وَإِنِّي لَفِي أُرْجُوحَةٍ، وَمَعِي صَوَاحِبُ لِي، فَصَرَخَتْ بِي فَأَتَيْتُهَا، لاَ أَدْرِي مَا تُرِيدُ بِي فَأَخَذَتْ بِيَدِي حَتَّى أَوْقَفَتْنِي عَلَى بَابِ الدَّارِ، وَإِنِّي لَأُنْهِجُ حَتَّى سَكَنَ بَعْضُ نَفَسِي، ثُمَّ أَخَذَتْ شَيئًا مِنْ مَاءٍ فَمَسَحَتْ بِهِ وَجْهِي وَرَأْسِي، ثُمَّ أَدْخَلَتْنِي الدَّارَ، فَإِذَا نِسْوَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فِي البَيْتِ، فَقُلْنَ عَلَى الخَيْرِ وَالبَرَكَةِ، وَعَلَى خَيْرِ طَائِرٍ، فَأَسْلَمَتْنِي إِلَيْهِنَّ، فَأَصْلَحْنَ مِنْ شَأْنِي، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضُحًى، فَأَسْلَمَتْنِي إِلَيْهِ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ».[5]

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «... وَكُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ».[6]

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: لَمَّا تُوُفِّيَتْ خَدِيجَةُ قَالَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ الْأَوْقَصِ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ وَذَلِكَ بِمَكَّةَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا تَزَوَّجُ؟، قَالَ: «مَنْ؟» ، قَالَتْ: إِنْ شِئْتَ بِكْرًا، وَإِنْ شِئْتَ ثَيِّبًا، قَالَ: «فَمَنِ الْبِكْرُ؟» ، قَالَتْ: ابْنَةُ أَحَبِّ خَلْقِ اللهِ إِلَيْكَ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، قَالَ: «وَمَنِ الثَّيِّبُ؟» ، قَالَتْ: سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ آمَنَتْ بِكَ وَاتَّبَعَتْكَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، قَالَ: «فَاذْهَبِي فَاذْكُرِيهِمَا عَلَيَّ» فَجَاءَتْ فَدَخَلَتْ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ فَوَجَدَتْ أُمَّ رُومَانَ أُمَّ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: يَا أُمَّ رُومَانَ مَاذَا أَدْخَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ؟ أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَخْطِبُ عَلَيْهِ عَائِشَةَ، قَالَتْ: وَدِدْتُ انْتَظِرِي أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّهُ آتٍ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَاذَا أَدْخَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ؟ أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْطِبُ عَلَيْهِ عَائِشَةَ، قَالَ: هَلْ تَصْلُحُ لَهُ وَإِنَّمَا

(1) ورد في الأثر أنه عليه الصلاة والسلام كان يناديها يا عويش، عمل اليوم والليلة لابن السني: 455.

(2) تمرق: سقط وتمزق.

(3) فوفى: فكثر.

(4) (جميمة): مصغر الجمة وهي ما سقط على المنكبين من شعر الرأس، والجميمة مصغرة أي أنها أقل من ذلك.

(5) صحيح البخاري:3894.

(6) السنن الكبرى للنسائي: 5543.

هِيَ بِنْتُ أَخِيهِ، فَرَجَّعَنِي إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: « ارْجِعِي إِلَيْهِ فَقُولِي لَهُ: أَنْتَ أَخِي فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنَا أُخُوكَ وَابْنَتُكَ تَصْلُحُ لِي».[1]

عن عائشة «تَزَوَّجَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا بِنْتُ سَبْعٍ، أو سِتٍّ، وَبَنَى بِي وَأَنَا بِنْتُ تِسْعٍ وَكُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ فِي بَيْتِهِ وَهُنَّ اللُّعَبُ، وَكُنَّ جَوَارٍ يَخْتَلِفْنَ إِلَيَّ، فَكُنَّ يَنْقَمِعْنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ يُسَرِّبُهُنَّ، فَيَدْخُلْنَ عَلَيَّ، فَيَلْعَبْنَ مَعِي».[2]

السيدة عائشة في كل هذه الروايات، تتحدث عن تفاصيل دقيقة تتعلق بالفترة المبكرة لزواجها منه عليه الصلاة والسلام، بل وبيوم زفافها عليه، كانت على ما يبدو قد أصابتها نفس حمى المدينة التي أصابت والدها أبا بكر وبلال وغيرهم من الصحابة أول هجرتهم إلى المدينة، وكما يحدث مع بعض أنواع الحمى تساقط شعر عائشة، فلما تعافت، وعاد شعرها حتى وصل أذنيها، زفت إليه عليه الصلاة والسلام، كانت تلعب مع صاحباتها على أرجوحة عندما نادتها أمها، أم رومان، وأخذتها مع نسوة من الأنصار فأصلحن لها مظهرها وساعدن أمها في تزيينها.

وتذكر أيضًا أنها كانت -وهي عند الرسول عليه الصلاة والسلام- تلعب بالدمى[3]، وتكون معها صاحباتها، ولكنهن كن يخجلن منه عليه الصلاة والسلام فيخرجن عندما يدخل، وكان عندما يخرج يخبرهن أن يعدن إلى عائشة، فيرجعن إليها.

كل هذه الروايات التي وصلت عن السيدة عائشة تشير إلى اهتمامها الكبير بالتفاصيل، وهو جزء من ملاحظتها الدقيقة التي لا تكاد تغفل شيئًا عن التفاصيل، يمكن لسيدة أخرى أن تتحدث عن زواجها دون أن تذكر كل ذلك، ولن يعيبها أو ينقص منها ذلك شيئًا، لكن السيدة عائشة مختلفة، **ملكة التفاصيل الدقيقة، والفهم الأكثر دقة**، وهذا جزء مما جعلها مختلفة، ومما جعل فقهها لما نقلته عن النبي عليه الصلاة والسلام الأكثر عقلانية وقدرة على البقاء.

(1) المعجم الكبير للطبراني: 57، مسند أحمد: 25769.

(2) مستخرج أبي عوانة: 4270.

(3) قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري والذي يراد من الحديث: الرخصة في اللعب التي تلعب بها الجواري وهي البنات فجاءت فيها الرخصة وهي تماثيل، وليس وجه ذلك عندنا إلا من أجل أنها لهو الصبيان ولو كان في الكبار لكان مكروهًا كما جاء النهى في التماثيل كلها وفى الملاهي.

فلننتبه هنا إلى أن (السن) في روايات السيدة عائشة عن زواجها كان مجرد تفصيل ضمن تفاصيل أخرى كثيرة، التفاصيل متناسقة ومترابطة، لكن الخبر لا يقتصر على (السن) – وهو السن الذي يقف عنده بعض المعاصرين- بل هو ضمن صورة كبيرة كل تفاصيلها تنسجم مع أن عائشة كانت في السن الذي ذكرته صراحة.[1]

---

(1) بعض المعترضين على سن السيدة عائشة عند زواجها من الرسول عليه الصلاة والسلام يحاول أن يوهم أن خبر التسع سنوات اقتصر نقله على راوٍ واحد هو هشام بن عروة بن الزبير، ويزيدون ذلك أنه تغير عندما كبر في السن. بعبارة أخرى: أي أن ذاكرته ضعفت، وأنقص من عمر السيدة عائشة عشر سنوات مثلًا أو نحو ذلك، وبقي كل نقله الآخر صحيحًا. والحقيقة أن هذا أمر جدير بالبحث لو أن هذا الخبر اقتصر نقله على هشام بن عروة، وهذا ما يدعيه الأخوة.

ولكن هذا ليس صحيحًا: فهشام بن عروة روى عن أبيه عروة بن الزبير (ابن أسماء شقيقة عائشة، أي أنه روى عن خالته) وعروة بن الزبير نقل هذا أيضًا ليس لهشام فقط، بل لعبد الله بن ذكوان (أبي الزناد) الذي روى ذلك أيضًا لابنه عبد الرحمن بن أبي الزناد.

وعائشة نفسها لم ترو ما روته لعروة ابن شقيقتها فقط، بل روت سن زواجها ونفس التفاصيل أيضًا للأسود بن يزيد النخعي، وهو تابعي كوفي روى عن جمع من الصحابة من ضمنهم علي بن أبي طالب وبلال بن رباح ومعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود وغيرهم.

كذلك روت الرواية ذاتها للقاسم بن محمد، وهو ابن محمد بن أبي بكر الذي قتل في الفتنة، وربته عمته السيدة عائشة وروى عنها وعن جمع من الصحابة منهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن مسعود وأسماء بنت عميس وزينب بنت جحش.

إذن الرواية لم ينقلها فرد واحد، بل نقلها ثلاثة أشخاص من كبار التابعين وثقاتهم، اثنان منهم كانا مقربين جدًا لعائشة (ابن شقيقتها وابن شقيقها) وهذا يفسر أكثر لِم لَم ينقل الأمر عدد أكبر من التابعين. كان حديثها حديث العمة والخالة عن ذكريات شخصية لها، بينما أغلب من كان يروي عنها من بقية التابعين كان يسألها عن سنة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وتفاصيل حياته اليومية وما يمكن أن يبنى على ذلك من تشريعات فقهية، لم يكن (سن السيدة عائشة) أمرًا يثير أي تساؤلات عند التابعين، لأنه ببساطة كان معروفًا ومقبولًا دون أي إشكالات كجزء من الأعراف السائدة آنذاك، ولو أنهم عرفوا أن الأمر سيكون موضع نقاش بعد أكثر من 1400 سنة لجاءوا زرافات ووحدانا إلى بيت السيدة عائشة ليرووا عنها خبر أنها تزوجت وهي بنت تسع سنوات، ولأصبح الخبر متواترًا مثل حديث (من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار)، أو خبر أنه كان عليه الصلاة والسلام يرفع يديه في الدعاء أو غيرها من الأحاديث التي رواها عدد كبير من الصحابة ورواها عنهم عدد كبير في كل طبقة من طبقات الرواة بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب.

على أي حال لا أظن ذلك كان سيمنع أصحابنا من التشكيك به، لكن هذا موضوع آخر.

أثر السيدة عائشة الشخصي عليك

حجم ما روته السيدة عائشة من أحاديث ومواقف عن الرسول عليه الصلاة والسلام، جعلها تدخل كمكون رئيس في رؤيتنا له عليه الصلاة والسلام، ولو على نحو غير واعٍ وغير مدرك لوجودها ضمن هذه الرؤية.

كل راوٍ لحدث ما، يكون موجودًا فيه حتى لو لم يظهر، لأنه ينقله من زاويته هو، من نظرته للأمور وكيف فهم ما حدث ووعاه...

وأحيانًا يكون وجود الراوي مثريًا للمعنى، لأنه يراه ببصيرة وقادة متعددة الأبعاد.

لا أتحدث هنا عن الصحابة الذين رووا الأحاديث، بل بشكل عام، أي راوٍ أو ناقل لحدث أو حديث سيكون موجودًا فيما ينقله عبر فهمه ورؤيته وزاوية نظره، لكن بما أن الموضوع قد فتح، فلا بدَّ الإشارة إلى دور السيدة عائشة في هذا.

السيدة عائشة لم يكن أثرها بسبب عدد الأحاديث التي نقلتها فحسب...هذا تأثير كمي، له أهمية حتمًا، لكن أثرها الأكبر كان نوعيًّا، قرن بين نقل الحديث أو الواقعة، وذكائها في نقل التفاصيل وربطها ببعضها وبالصورة الكبيرة.

سأعطي هنا مثالًا نموذجيًّا يوضح أثر السيدة عائشة النوعي في نقلها لسنته عليه الصلاة والسلام.

كان خُلُقُه القرآن

عن سعد بن هشام (من حديث طويل): .... فَانْطَلَقْنَا إِلَى عَائِشَةَ، فَاسْتَأْذَنَّا عَلَيْهَا، فَأَذِنَتْ لَنَا، فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: «أَحَكِيمٌ؟» فَعَرَفَتْهُ،

فَقَالَ: نَعَمْ،

فَقَالَتْ: «مَنْ مَعَكَ؟»

قَالَ: سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ،

قَالَتْ: «مَنْ هِشَامٌ؟»

قَالَ: ابْنُ عَامِرٍ،

فَتَرَحَّمَتْ عَلَيْهِ، وَقَالَتْ خَيْرًا - قَالَ قَتَادَةُ: وَكَانَ أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ -

فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟»

قُلْتُ: بَلَى،

قَالَتْ: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ»

قَالَ: فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ وَلَا أَسْأَلَ أَحَدًا عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَمُوتَ[1]

سألها سعد بن هشام بن عامر، وهو من التابعين، عن خلقه عليه الصلاة والسلام.

كان يمكن أن تقول كان صادقًا، أمينًا، كريمًا، عادلًا...إلخ، مجموعة من الصفات التي كان عليه الصلاة والسلام نموذجًا لها، وكان بإمكانها أن تسهب في ذلك.

لكنها اختارت أن تقول وصفًا عبقريَّ الإيجاز يربط سلوكه عليه الصلاة والسلام في كلمة واحدة بالقرآن.

تعودنا الوصف من كثر اشتهاره وانتشاره سواء في كتب السلوكيات أو الشمائل النبوية القديمة أو المعاصرة. وهذا جعلنا نغفل عن عبقرية اللغة التي استخدمتها السيدة عائشة في جوابها عن هذا السؤال.

لقد دمجت عائشة كل أخلاق وسلوكيات النبي عليه الصلاة والسلام في عبارة واحدة، عبقرية ومكثفة وسهلة الحفظ وقابلة للفهم والانتشار.

هذه العبارة بينما تصف أخلاق الرسول الكريم فإنها أيضًا تعبر عن شخصية السيدة عائشة، تفتح لنا نافذة نطل منها على طريقة تفكيرها ورؤيتها للنبي عليه الصلاة والسلام، وبالتالي رؤيتها للعالم ككل.

هناك عبقرية لغوية مفاهيمية، فالسيدة عائشة استخدمت تعبيرًا مختصرًا لكنه ثري بالمعاني، لم تلجأ إلى تعداد صفاته الكريمة، بل إلى مفهوم جامع يغني عن الشرح الطويل، وهذا يدل على قدرة لغوية تحليلية وقدرة على التعبير الرمزي.

كما أنها تمتلك بوضوح رؤية وحدوية للمعني، فهي لا ترى فرقًا بين الدين والسلوك أو بين الوحي والتطبيق، الخلق والسلوك في نظرها ليس تصرفات معزولة عن بعضها، بل هي تجسيد القيم الدينية القرآنية في السلوك اليومي للرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام.

---

(1) صحيح مسلم: 746.

حكمها على الأمور كان داخليًّا وليس على السطح الظاهر، وصفت أخلاقه كما لو كانت تتعايش معه في داخله وليس كمن يراقب من الخارج.

وعيها الأخلاقي كان متكاملًا محكومًا بمعيار القرآن، ومن هذا المعيار دخلت لوصف أخلاقه عليه الصلاة والسلام. تجردت تمامًا عن مشاعر الزوجة وعاطفتها ونحت نفسها جانبًا وهي تصفه هذا الوصف البليغ.

كل هذا يمكن أن نفهمه عنها من هذه العبارة الموجزة التي اختارتها عائشة للجواب عن سؤال قد يبدو بسيطًا مباشرًا للوهلة الأولى، لكنها اختارت ما جعلنا نقترب منه عليه الصلاة والسلام، ومنها أيضًا.

***

فلننتبه هنا إلى ما قاله سعد بن هشام كرد فعل على جواب عائشة.

فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ وَلَا أَسْأَلَ أَحَدًا عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَمُوتَ.

قالت له جملة واحدة لا تتعدى بضع كلمات عن أول سؤال طرحه عليها، لكنه وجد في جملتها جوابًا يكفيه حتى موته. يعيش الباقي من حياته وهو ينهل منه.

هم بأن يقوم ولا يسألها ولا يسأل غيرها طيلة حياته، لكنه لم يفعل، كان من قد جاء المدينة خصيصًا ليبيع عقارًا له فيها فيجعله في السلاح لكي يجاهد الروم، ولعلها تكون فرصته الأخيرة في أن يسأل سيدة العلم والمعرفة...

الصورة الكبيرة بالغة الدقة في التفاصيل

فسألها عن قيامه عليه الصلاة والسلام.. فكان جوابها مثل جوابها الأول.

القرآن...

ثُمَّ بَدَا لِي، فَقُلْتُ: أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فَقَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ؟»

قُلْتُ: بَلَى،

قَالَتْ: «فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا، وَأَمْسَكَ اللهُ خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي

السَّمَاءِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ».

مرة أخرى، الإشارة إلى القرآن، المعيار والميزان عبر القرآن، ما دمت تسأل عن شيء ذكر في القرآن، فالجواب هناك، لقد كان خلقه القرآن، وكان سلوكه القرآن، وكان رضاه برضا القرآن وسخطه بسخط القرآن...

وكذلك قيامه، كما في القرآن.

لكن عندما سألها سعد عن تفصيل في قيام الليل، لا يمكن أن يكون هناك مرجعية قرآنية له، كان جوابها مفصلًا كما لو كانت تنقل مباشرة من ذاكرتها كل ما حدث..

قالَ: قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ وِتْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فَقَالَتْ: «كُنَّا نُعِدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ، فَيَبْعَثُهُ اللهُ مَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَتَسَوَّكُ، وَيَتَوَضَّأُ، وَيُصَلِّي تِسْعَ رَكَعَاتٍ لَا يَجْلِسُ فِيهَا إِلَّا فِي الثَّامِنَةِ، فَيَذْكُرُ اللهَ وَيَحْمَدُهُ وَيَدْعُوهُ، ثُمَّ يَنْهَضُ وَلَا يُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّ التَّاسِعَةَ، ثُمَّ يَقْعُدُ فَيَذْكُرُ اللهَ وَيَحْمَدُهُ وَيَدْعُوهُ، ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا يُسْمِعُنَا، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ مَا يُسَلِّمُ وَهُوَ قَاعِدٌ، فَتِلْكَ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً يَا بُنَيَّ، فَلَمَّا أَسَنَّ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخَذَهُ اللَّحْمُ أَوْتَرَ بِسَبْعٍ، وَصَنَعَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ مِثْلَ صَنِيعِهِ الْأَوَّلِ، فَتِلْكَ تِسْعٌ يَا بُنَيَّ،

تفاصيل دقيقة تتعلق بالوتر في كل مرحلة من مراحل حياتها معه عليه الصلاة والسلام. لكنها لا تكتفي بذلك، تخرج من التفاصيل المتعلقة بالوتر إلى الصورة الكبيرة فتكمل:

وَكَانَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَحَبَّ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهَا، وَكَانَ إِذَا غَلَبَهُ نَوْمٌ، أو وَجَعٌ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً، وَلَا أَعْلَمُ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ، وَلَا صَلَّى لَيْلَةً إِلَى الصُّبْحِ، وَلَا صَامَ شَهْرًا كَامِلًا غَيْرَ رَمَضَانَ.

خرجت من التفاصيل الدقيقة لتنظر من الأعلى إلى المشهد كاملًا، التفاصيل الدقيقة مهمة بلا شك، لكن الصورة الكبيرة الشاملة أهم، وفيها يصبح للتفاصيل نسبتها الحقيقية ومكانها ضمن السياق.

كانت السيدة عائشة ملكة الصورة الكبيرة الشاملة، الصورة التي يراها الطائر من الأعلى وهو يحلق فوق مكان ما.

ولكنها كانت أيضًا ملكة التفاصيل الدقيقة. ملكة الدقة العالية High Resolution Description

من النادر جدًّا أن تجتمع الملكتان في شخص واحد. وعندما يحدث ذلك فإن الناتج يكون عبقريًّا بلا شك.

ومع السيدة عائشة حدث ذلك، بلا شك.

لا أجنحة ولا ملائكة، بل بشر حقيقيون

النظرة التقليدية السائدة للشخصيات المؤثرة تاريخيًّا أو دينيًّا، تجعلهم أشخاصًا يشبهون الملائكة أكثر مما يشبهون البشر، لا يخطؤون، ولا تنتابهم مشاعر البشر الطبيعيين من الغيرة والتنافس وحب التملك.

أغلب الشخصيات المؤثرة تاريخيًّا لا علاقة لهذه بالنظرة النمطية السائدة، يعيشون حياتهم منسجمين مع قيمهم وحقيقتهم، لكنهم بشر. من يأتي خلفهم يضع إطار الصورة النمطية حولهم، ويخفي كل ما يمكن أن يجعلهم بشرًا مجتهدين، يعاملهم كملائكة بأجنحة، أو شخصيات خارقة للطبيعة، وهذا يقتل احتمالية الاقتداء الكامنة بالأجيال التالية. لا يمكنك أن تقتدي بملاك أو رجل خارق أو امرأة خارقة. بينما الإنسان الطبيعي الذي اجتهد ليكون أفضل، نجح أحيانًا وكان نجاحه أقل في أحيان أخرى، هذا الإنسان الطبيعي يمكن أن يكون قدوة لك لكي تكون مثله أو تسير على خطاه.

وأصحاب النظرة النمطية يؤمنون بها على نحو مرضي، يصدمون عندما يكتشفون جوانبًا بشرية لهذه الشخصية أو تلك، ويعتبرونها مثلبة في حقهم وحق أجنحة الملائكة التي لا وجود لها إلا في أذهانهم. بينما هذه المشاعر البشرية قد تكون ما يجعلنا نقترب منهم أكثر، نفهمهم أكثر، نفهم رحلة نضوجهم وسعيهم إلى ما هو أفضل، ويساعدنا هذا في فهم أنفسنا ونحن نحاول أن ننضج أيضًا.

السيدة عائشة كانت بشرًا حقيقيًّا، صادقًا، لها مشاعر (إنسانية) قد يعتبرها أصحاب النظرة النمطية غير مناسبة لمن هي في مكانتها كأم المؤمنين، لكنها كانت متصالحة مع ذلك كله، بل وهي من روته للتابعين ورواه التابعون لمن تبعهم، هي التي

أخبرتنا عن هذه المشاعر، بصدق وشفافية، بلا فخر ولا تعنت، بل بصدق، لقد حدث هذا فحسب. وروته بالتفاصيل بعد عقود من حدوثه. ولولا أنها روته لما عرفنا عنه شيئًا، وكنا وضعناها في ذلك الإطار الذي يظلمها ويظلمنا.

على سبيل المثال: السيدة عائشة كانت تغار من السيدة خديجة.

يتعامل البعض مع هذه الغيرة كما لو كان ذلك أمرًا يعيب السيدة عائشة، التي كانت دون الثامنة عشر عندما انتابتها تلك المشاعر.

لو أنها لم تملك تلك المشاعر لكان ثمة خطأ!

هل كان يمكن لفتاة تزوجت في هذه السن الصغيرة إلا أن تشعر بالغيرة من مكانة السيدة خديجة في نفسه عليه الصلاة والسلام؟

ليس هذا فقط.

الأهم من مشاعر الغيرة الطبيعية، هو أن عائشة نفسها هي التي أخبرتنا عن ذلك، عن غيرتها من السيدة خديجة.

هنا الأمر المتفوق الذي يعكس النضوج والتطور والعبقرية عند السيدة عائشة.

تخيلوا الأمر الآن، مع من نعرفهم ممن يغارون بوضوح مع منافسين لهم. نرى الغيرة كما لو كانت قد كتبت بأحرف ملونة على جباههم.

لكنهم ينكرون، لو سألتهم عما تعرفه تمامًا، تغارون؟ لأنكروا واستنكروا وغضبوا، نحن نغار من فلان الفلاني؟ على ماذا نغار؟ هل هذه نكتة؟ ماذا يملكه فلان ولا نملكه؟

نعم نعم، نعرف ذلك.

أما عائشة، فلم يسألها أحد، هي التي تبرعت بالحديث عن ذلك بشفافية صاعقة.

عَنْ هِشَامٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: **«مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، لِكَثْرَةِ ذِكْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهَا وَثَنَائِهِ عَلَيْهَا، وَقَدْ أُوحِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ لَهَا فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ».**[1]

(1) صحيح البخاري: 5229.

عنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ «إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ»[1]

عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ فَارْتَاحَ لِذَلِكَ[2] فَقَالَ: «اللهُمَّ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ» فَغِرْتُ فَقُلْتُ: وَمَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ فَأَبْدَلَكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا[3]

قَالَ: «مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ».[4]

كان يمكنها أن تسكت عن ذلك، لم تكن السيدة خديجة على قيد الحياة في أي فترة من فترات زواج السيدة عائشة منه عليه الصلاة والسلام، كان يمكنها أن تسكت فحسب، أن تترك الأمر حبيسًا في قلبها، لكنها كانت حقيقية وصادقة ومتصالحة مع ما مضى من مشاعر، حكت كلَّ شيء، هي من قالت عن غيرتها.

ليس هذا فحسب.

بل إن أغلب الأحاديث في فضائل أم المؤمنين السيدة خديجة روتها السيدة عائشة شخصيًّا بنفسها.

مشاعر الغيرة (الطبيعية) لم تمنعها من أن تذكر حبه عليه الصلاة والسلام لخديجة بل وحتى ذكر أنه بقي يفضل خديجة عليها. وروت في ذلك أحاديث كثيرة عن فضائل

(1) صحيح البخاري: 3818.

(2) ارتاح لذلك: أي هش لذلك وسر بها.

(3) صحيح مسلم: 2437.

(4) مسند الإمام أحمد: 24864.

خديجة، بل إن الفضل الأكبر لخديجة، موقفها العظيم المدهش يوم نزل الوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام، هذا الموقف لم يصلنا إلا عن طريق السيدة عائشة.

صورة السيدة خديجة في أذهاننا كسيدة نساء أهل الجنة جاءت عن طريق السيدة عائشة...

قَالَتْ عَائِشَةُ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا أُبَشِّرُكَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: سَيِّدَاتُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَرْبَعٌ: «مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ[1]

ابن عباس له رواية مشابهة[2]، لكن الصيغة الأكثر انتشارًا لها هي (أفضل نساء أهل الجنة)، وليس كما روتها السيدة عائشة: سيدات نساء أهل الجنة.

شجاعة الاعتراف بالخطأ وشجاعة الندم على الخطأ

كانت السيدة عائشة أيضًا تمتلك شجاعة الاعتراف بالخطأ.

وشجاعة التصريح بذلك.

وهي شجاعة نادرة.

لكن سيدة الصورة الكاملة والتفاصيل الدقيقة كانت تمتلك هذا أيضًا.

ولقد كان ثمة موقف ما في حياتها رضي الله عنه، ندمت عليه أشد الندم.

ولم تكتف بندمها بينها وبين نفسها، بل أعلنته وتحدثت به.

كان هذا الموقف هو خروجها مع الزبير وطلحة رضي الله عنهما بعد مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه والمواجهة العسكرية التي حدثت مع سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيما يعرف باسم موقعة الجمل.

اختارت السيدة عائشة موقفًا ندمت عليه بعد لاحقًا.

لم تكن هي من تسببت بالصراع، ولا كانت طرفًا لكن موقفها حسب لصالح أحد الطرفين.

---

(1) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل: 1331.

(2) مسند الإمام أحمد: 2901.

كان بإمكانها أن تبرر موقفها، أن تصر عليه، أن تلقي باللوم على الآخرين الذين شجعوها على الأمر، أو أن تسكت عن كل ذلك.

لكن لا، ليست السيدة عائشة من يفعل ذلك.

أعلنت ندمها بأشد العبارات، كان الكثيرون قد نصحوها بأن لا تدخل في الأمر، ومنهم حكيم بن أفلح الذي مر بنا في سياق رواية (كان خلقه القرآن)، وعندما طلب منه سعد بن هشام أن يأخذه إليها ليسألها، قال له حكيم: **(مَا أَنَا بِقَارِبِهَا، لِأَنِّي نَهَيْتُهَا أَنْ تَقُولَ فِي هَاتَيْنِ الشِّيعَتَيْنِ شيئًا، فَأَبَتْ فِيهِمَا إِلَّا مُضِيًّا)**[1] أي أنه كان قد قاطعها نتيجة موقفها من الصراع، ولكن سعد بن هشام أقسم عليه أن يذهب به، ففعل.

قالت السيدة عائشة عن ذلك: **«وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ ثَكِلْتُ عَشْرَةً مِثْلَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وَأَنِّي لَمْ أَسِرْ مَسِيرِي مَعَ ابْنِ الزُّبَيْرِ»**[2]

وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ غُصْنًا رَطْبًا وَلَمْ أَسِرْ مَسِيرِي هَذَا[3]

لَأَنْ أَكُونَ جَلَسْتُ عَنْ مَسِيرِي كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي عَشَرَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مِثْلُ وَلَدِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ[4]

والحارث بن هشام هو أحد سادات قريش وفرسانها، وكان عزيزًا في قومه، فعائشة تتمنى لو كانت قد أنجبت من الرسول عليه الصلاة والسلام عشرة أبناء مثل الحارث بن هشام، وتفقدهم جميعًا، على أن تخرج في خروجها الذي خرجته أيام الفتنة.

أي ندم صريح وإقرار بالخطأ أكثر من هذا؟

لماذا أخطأت؟ **لأنها بشر**، عبقرية نعم، تشربت بسنته عليه الصلاة والسلام نعم، فهمت وفقهت نعم، لكن كل هذا لا يمكن أن يغير من الطبيعة البشرية، نبقى معرضين للخطأ، وقد يكون الخطأ كبيرًا...المهم أن نكون قادرين على الاعتراف بأننا أخطأنا.

هذا الموقف الشجاع من السيدة عائشة هو نقطة إضافية في سجل منجزاتها، لقد أخطأت، ولكنها اعترفت بالخطأ وندمت عليه أشد الندم.

---

(1) صحيح مسلم: 746.

(2) المستدرك على الصحيحين: 4609.

(3) مصنف ابن أبي شيبة: 37818.

(4) مصنف ابن ابي شيبة: 37811.

لم تكن معصومة ولا ادعت ذلك يومًا ما.

وهذا كله يجب أن يزيدنا إعجابًا واقتداءً بها.

رضي الله عنها.

***

لأجل كل ما سبق، بسبب هذه الشخصية التي لن تفيها كلمة (عبقرية) حقها، جاءت عائشة إلى حياة النبي عليه الصلاة والسلام. اختارها هو لأنه أدرك كم ستكون مؤثرة بذكائها وفهمها وهي تنقل منه سنته وسيرته.

تزوجها عليه الصلاة والسلام في شوال من السنة الهجرية الأولى.

بعد نحو سبعة أشهر من دخوله المدينة.

دخلت عائشة[1] حياته عليه الصلاة والسلام..

ثم دخلت حياتنا جميعًا..

ولم تخرج منها.

(1) سيكون للسيدة عائشة مواقف مهمة في السيرة الحديث في هذا الفصل عن شخصيتها التي أعتقد أنها كانت سببًا في اختياره عليه الصلاة والسلام لها.

المنافقون: أقنعة ووجوه

كل من عاش في مرحلة يحدث فيها تغيير سريع في سلطة أو نظام حاكم لا بد أن يكون قد لاحظ وجود أشخاص يظهرون سريعًا التأييد المباشر والمتحمس لما حدث من تغيير، أو للسلطة الجديدة، رغم أنهم كانوا منتفعين من الوضع السابق، أو حتى جزءًا أساسيًّا من هذا الوضع.

لا أتحدث هنا عن تداول سلمي للسلطة عبر الانتخابات، بل عن تغيير سريع يأتي عبر ثورة شعبية، أو انقلاب عسكري، أو عبر غزو، أو عبر أي شيء يجمع بين ما سبق.

سنرى المهللين والمؤيدين لما حدث وهم متحمسون ويصفقون للتغيير وهم الذين كانوا قبل أيام قليلة -أو حتى يوم واحد فقط- يؤيدون الوضع السابق ويدافعون عنه ويؤكدون أن سيبقى، بل قد نلاحظ أنهم في حماسهم هذا يظهرون تأييدًا ربما أكثر من معارضي الوضع السابق وأولئك الذين سعوا للتغيير.

هذه الحالة تكون غالبًا صادمة للمراقبين، خاصة لأولئك الذين عاشوا الـ (ما قبل) والـ (ما بعد) وعرفوا مواقف هؤلاء وناقشوهم.

يمكن أن يحدث نموذج مصغر لهذا في تغييرات أقل حجمًا، مدير عام لمؤسسة كبيرة يصبح مديرًا سابقًا فجأة، فتقف بطانته السابقة مصفقة للمدير الجديد وهي تتحدث عن مساوئ المدير السابق وتحمد الله على خلاصهم منه، رغم أنهم كانوا يتحدثون عن فضائله ليل نهار.

لكن الصدمة من أولئك المنقلبين عند التغيير الكبير في النظام الحاكم أو المجتمع تكون أكبر حتمًا بسبب الفارق الذي يظهره هؤلاء بين موقفهم السابق وموقفهم اللاحق.

ولأن هذه التغييرات الكبيرة لا تحدث كثيرًا في حياة الفرد الواحد، وقد تمر عدة أجيال قبل أن يحدث تغييرًا مماثلًا، فإنها عندما تحدث تكون صادمة، ويعتقد المصدومون أنهم يشاهدون أمرًا نادرَ الحدوث.

والحقيقة أنها ظاهرة متكررة الحدوث تاريخيًّا، لا نتحدث هنا عن تقليد المهزوم للمنتصر، وهي ظاهرة أخرى لها أسباب مختلفة أكثر تعقيدًا، بل نتحدث عن إظهار أشخاص التأييد المبالغ به عكس ما كانوا يؤمنون به قبل أيام، ومع مرور الوقت يمكن ملاحظة سلوكيات تشير بوضوح إلى أنها لا تزال تبطن مشاعر مضادة لما تظهره.

حدث ذلك في كل التاريخ المكتوب الذي وصلنا للثورات الكبرى، الثورة الفرنسية، أيدها أولًا نبلاء كانوا مؤيدين للملك، ثم بعد فترة قصيرة أثبتوا أنهم لا يزالون منتمين في قلوبهم وعقولهم لما أظهروا أنهم فرحين بزواله، كذلك فعل بعض النبلاء أمام الثورة البلشفية التي أطاحت بحكم آل رومانوف في روسيا القيصرية، وكذلك فعل مؤيدو هتلر سواء في ألمانيا النازية أو الدول التي احتلتها ألمانيا، وأنصار موسوليني في إيطاليا، وتشاوشيسكو في رومانيا.

وليس بعيدًا عنا تكرار كل ذلك في العراق وسوريا وليبيا.

أنصار النظام القديم تحولوا إلى معارضين له بين ليلة وضحاها، بل البعض منهم تحول إلى ضحية للنظام، والبعض قال إنه كان (مجبورًا) على التأييد، وآخرون قالوا، ببراءة الأطفال: لم نكن نعرف.

كثيرون منهم، لو دققنا في سلوكهم لاحقًا، ولو حدث ما يتيح لهم الفرصة، لرأينا أنهم كانوا يضمرون غير ما أعلنوه من تأييد للتغيير. أظهروا التأييد لكنهم أبطنوا المعارضة..

لماذا يحدث كل ذلك؟

«مات الملك عاش الملك» منذ البداية

هذه الظاهرة المتكررة عبر التاريخ لها تفسيرات متعددة لكل مرحلة من مراحلها.

مرحلة إظهار التأييد المبالغ به، ومرحلة التصيد للوضع الجديد.

مرحلة مات الملك عاش الملك. **ومرحلة لم يمت حقًّا.**

تفسيرات نفسية (شخصية) متداخلة مع تفسيرات اجتماعية يمكن أن تعطينا فهما أوضح للظاهرة المتكررة عبر التاريخ.

هناك أولًا على المستوى النفسي ظاهرة إدارة الانطباع[1] Impression Management وهي ظاهرة معروفة في علم النفس، حيث يحاول بعض الأشخاص تصحيح انطباع الآخرين عنهم عبر إظهار تأييد مزيف لما يؤيده هؤلاء الأشخاص.

أحيانًا تكون هناك مبالغة في إظهار هذا التأييد لأن ثمة دافعًا آخرَ غير محاولة تحسين الصورة أو مجاراة الضغط الاجتماعي، وهو الخوف من العقاب في حالة كان هذا الشخص أو مجموعة الأشخاص لديهم ما يخافون منه إذا أظهروا حقيقة مشاعرهم.

اجتماعيًّا الأمر معروف بظاهرة ركوب الموجة أو السير مع الركب أو ما يعرف بـ (Bandwagon effect)[2] حيث يشعر هؤلاء الأفراد بأن الموجة الاجتماعية التي تؤيد (الوضع الجديد) أقوى من قدرتهم على مقاومتها والبقاء مستقلين عنها، وأنهم سيتعرضون للعزلة فيما لو لم يشاركوا بركوب الموجة أو السير في ركابها، أو أنهم سيتعرضون للوصمة بسبب موقفهم لذلك يعمدون إلى إظهار التأييد للموجة العاتية.

يزيد من ذلك، في البداية خصوصًا، اعتقادهم أنهم منفردون في موقفهم هذا، وأن من كان مثلهم في وضعهم السابق أصبح مقتنعا بالتغيير بالفعل، بسبب ما يظهره هو الآخر من مبالغة في التأييد، وهذه ظاهرة قريبة من ظاهرة معروفة بـ (تجاهل الأغلبية[3] أو Pluralistic ignorance)، حيث يعتقد البعض بسبب صمت الكثيرين أنهم موافقون على الرأي السائد، وأنهم وحدهم في موقفهم المختلف داخليًّا.

(1) American Psychological Association. (n.d.). Impression management. In *APA dictionary of psychology*. Retrieved July 24, 2025, from https://dictionary.apa.org/impression-management

(2) Schmitt-Beck, R. (2015). Bandwagon effect. In G. Mazzoleni (Ed.), *The international encyclopedia of political communication*. https://doi.org/10.1002/9781118541555.wbiepc015

(3) American Psychological Association. (n.d.). *Pluralistic ignorance*. In *APA dictionary of psychology*. Retrieved July 24, 2025, from https://dictionary.apa.org/pluralistic-ignorance

يؤدي كل هذا إلى حدوث تنافر معرفي (cognitive dissonance)[1] بسبب التناقض بين ما يؤمنون به وما يعلنونه أو ما يظهرونه سلوكيًّا، وهو ما يقود إلى توتر داخلي لا يستطيعون التحكم بنتائجه طوال الوقت مما يؤدي إلى حدوث رد فعل خارجي عدائي (psychological reactance) ضد ما يتظاهرون بتأييده، ويعتقدون أنه أصبح يمثل قيدًا يجبرهم على تأييده، فتفلت منهم بعض المواقف، أو يجدون تغيرًا في المزاج العام يتيح لهم أن يعبروا عن حقيقة دواخلهم.

***

لو راجعنا الكثير من المظاهر التي مرت أمامنا عند حدوث التغييرات الكبرى التي عاصرناها لوجدنا أن ما سبق من تفسيرات نفسية- اجتماعية يمكن أن تنطبق تمامًا على ما حدث.

يحدث تغيير كبير بعد صراع، يكون هؤلاء قد اصطفوا بوضوح مع الطرف الذي تعرض للخسارة في نهاية المطاف. يعلنون فرحهم وتأييدهم لما حدث كما لو أنهم ساهموا في إحداث التغيير، لكن مع أول مشكلة تحدث للوضع الجديد، يبدر منهم، أحيانًا دون وعي، ما يدل على أنهم لم يؤيدوا حقًّا ما أظهروا تأييده، وأنهم كانوا طيلة الوقت يبطنون غير ما يعلنون.

حدث في المدينة

شيء مشابه حدث في المدينة بعد الهجرة مع ظاهرة النفاق.

فلننتبه أن المنافقين كانوا غالبًا (قبل أن يكونوا منافقين) ضمن صنفين: كافرون رفضوا الإيمان وكذبوا رسالة النبي عليه الصلاة والسلام، أو غير مكترثين سمعوا بالدعوة والدين الجديد ولاحظوا زيادة عدد من آمن بالرسول ضمن عشائرهم، لكن الأمر بالنسبة لهم لم يكن مؤثرًا أو مهمًّا.

(1) Harmon-Jones, E., & Mills, J. (2019). *An introduction to cognitive dissonance theory and an overview of current perspectives on the theory* [PDF sample]. In *Cognitive dissonance: Re-examining a pivotal theory in psychology* (2nd ed.). American Psychological Association. Retrieved July 24, 2025, from https://www.apa.org/pubs/books/Cognitive-Dissonance-Intro-Sample.pdf

اللحظة الفاصلة، والتي جعلت بعضهم (يظهر غير ما يبطن) كانت لحظة استقبال النبي عليه الصلاة والسلام من قبل أهل المدينة. هذا الاستقبال الحافل لا بدَّ أنه كان صادمًا وغير متوقع بالنسبة إلى هؤلاء، ولا بدَّ أنه جعلهم يتصرفون على نحو مغاير لما يشعرون به، يظهرون الترحيب والفرحة بينما لا يشعرون بها حقًّا. حتى الآن نحن لا نزال ضمن الإطار الطبيعي لردود الأفعال، (الأغلبية) تمارس تأثيرًا مباشرًا على الأشخاص الذين لا يشعرون بنفس ما تشعر به هذه الأغلبية، لذلك فهم يظهرون (المشاعر نفسها) على نحو يكاد يكون تلقائيًّا ولا واعي[1].

الحديث هنا لا يزال عن إظهار الترحيب والفرحة لحظة استقبال الرسول عليه الصلاة والسلام.

النقطة الفارقة بين ما هو (رد فعل طبيعي) وما هو (نفاق) تكون لاحقًا، عندما يظهر الإيمان وشعائره على اللسان دون أن يكون هناك أي شيء منه في قلوبهم.

عندما يظهر الوجه علامات الإيمان والخشوع والتقوى والمبالغة في إظهار تحري الحلال والحرام، بينما القلب في وادٍ آخر تمامًا، يكتم ضحكته الساخرة بصعوبة وهو يقول: لقد خدعناهم.

ما دوافع هؤلاء لإظهار عكس ما يبطنون؟

في الغالب دوافع متعددة أولها الرغبة في الظهور بهيئة تنال احترام الناس وتقديرهم، وبما أن هؤلاء كانوا يرون أن غالبية الناس قد دخلت في الإسلام فيرى هؤلاء أن ركوب الموجة قد يساهم في تعزيز مكانتهم أو تكريسها إن كانت لديهم مكانةً سابقًا.

ثاني هذه الدوافع هو الرغبة في الحصول على مكاسب تتجاوز «المكانة والاحترام»، أي أنهم يرون فرصة للكسب المباشر (المادي) أو غير المباشر، ويرون أن هذه الفرصة تتطلب إظهار الإيمان والمبالغة في إظهاره بل وربما التشكيك في إيمان الآخرين لكيلا يشك الآخرون بإيمانهم هم.

فلننتبه هنا إلى أن مسألة أن يؤمن كل أهل المدينة فورًا أمر غير منطقي.

---

(1) Epley, N., & Gilovich, T. (1999). *Just going along: Nonconscious priming and conformity to social pressure* [PDF]. *Journal of Experimental Social Psychology, 35*(5), 578–589. https://doi.org/10.1006/jesp.1999.1394

من البديهي جدًّا ألا يكون كل أهل المدينة قد آمنوا بالرسول ودعوته فور وصول الدعوة والمهاجرين إلى المدينة. هذه طبيعة الأشياء، ومن لا يؤمن في مرحلة ما، قد يؤمن لاحقًا، وهذه أيضًا من طبيعة الأشياء، ومن لا يؤمن قد لا يكون معاديًا بالضرورة. كل هذا طبيعي.

الانحراف عن الطبيعة يبدأ عندما يظهر الشخص إيمانًا، ويبطن الكفر.

وهذا أمر لم يكن له وجود في المرحلة المكية، الناس عادة ثلاثة أصناف فيما يخص الإيمان. مؤمن، كافر، غير مهتم، لا يعنيه الأمر إلا عندما يمسه مباشرة. والصنف الثالث يدخل ضمن الكافر بطبيعة الحال.

اختلاف الظاهر عن الباطن أمر لم يكن له سبب في مكة، على العكس، كان اختلاف الظاهر عن الباطن يرتبط أكثر بالمؤمنين الذين يخفون الإيمان اتقاء لأذى الكافرين، أما العكس فلا يحدث ولا سبب لحدوثه.

بدأ الأمر في المدينة إذ ما كان يمكن لهذه الظاهرة أن تحدث في مكة قبل الهجرة، كل الأسباب الموضوعية التي أدت إلى بروز ظاهرة النفاق في المدينة لم تكن متوفرة في مكة.

النفاق والقوة: علاقة طردية

غالبًا، مرت ظاهرة النفاق في المدينة بمراحل.

هذه المراحل تناسقت وتناسبت طرديًّا مع زيادة القوة للمسلمين في مجتمع المدينة.

في البداية كانت القوة تتمثل بشعبية جارفة للإيمان بالإسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام، المؤمنون من الأنصار والمهاجرين كانوا يشكلون كتلة متحمسة تزداد بالحجم كل يوم. وكانت لهذه الكتلة خصائص مشتركة تجذب آخرين، وهكذا كانت هذه الشعبية تزداد يومًا بعد يوم، وجود النبي عليه الصلاة والسلام بخصائصه الشخصية التي جمعت توازنات عدة كان عاملًا حاسمًا في زيادة هذه الشعبية.

كانت هذه الشعبية ضاغطة بلا شك على من لم يؤمن بعد، لكنها لم تكن تشبه مرحلة تغيير النظام المفاجئ والسريع كما في الأمثلة التاريخية آنفة الذكر، لم تستبدل السلطة عبر ثورة شعبية أو انقلاب مسلح أو غزو عسكري، لم تكن هناك سلطة واحدة أساسًا في المدينة لكي يحدث شيء كهذا، كانت هناك زعامات قبلية من الأوس والخزرج

لها نفوذ تتشاركه مع القبائل اليهودية الكبيرة في المدينة عبر تحالفات معقدة، لكن لم تكن هناك سلطة واحدة بالمعنى المعاصر، ولا كانت هناك في مكة أيضًا لكن تحالفات قريش كانت أكثر استقرارًا.

كان هناك طموح شخصي لواحد من هذه الزعامات على الأقل. عبد الله بن أبي بن سلول. أحد زعماء الخزرج الذي كان يريد أن يكون زعيمًا مطلقًا على المدينة، أو على قومه من الخزرج على الأقل (حيث كان للخزرج بطون عديدة ولم يكن عبد الله بن أبي هو الزعيم الوحيد، لكن قومه كانوا يدفعون لذلك على ما يبدو كما سيأتي لاحقًا).

على كل حال، طموح عبد الله بن أبي لم يتحقق، وربما لم يكن سيتحقق حتى لو لم تحدث الهجرة.

وعندما وصل الرسول عليه الصلاة والسلام، اجتاحت المدينة قوة روحية هائلة لكنها لم تواجه بسلطة مضادة لعدم وجود سلطة كهذه.

هذه القوة الروحية وشعبيتها الهائلة- رغم أنها لم تعبر عن نفسها باعتبارها (السلطة الجديدة) بأي شكل من الأشكال- كانت لا بدَّ أن تجد من يتظاهر بتأييدها. ينافق لها.

مع الوقت، بدأت هذه القوة الروحية تتمدد إلى نواحي تدير فيه شؤون المدينة، أي أن قوتها كانت تتزايد، وهذا يعني أن ظاهرة النفاق كانت تصبح أكثر وضوحًا. كلما زادت القوة الجديدة، زاد المتظاهرون بتأييدها، قانون مؤسف من قوانين النفس البشرية، على الأقل النفس (المريضة).

مع ظهور وثيقة المدينة، وإقرار المكونات الرئيسة للمدينة بالطاعة للرسول عليه الصلاة والسلام، لا بد أن ظاهرة إعلان التأييد وإبطان الرفض، أي النفاق قد زادت إلى حد كبير.

ثم جاء الانتصار في بدر ليجعل ظاهرة النفاق في مستوى جديد، مختلف كليًّا عما سبق.

لكن النفاق بدأ منذ البداية المبكرة جدًّا. بالتأكيد قبل الوثيقة وقبل بدر.

كيف عرفنا؟

لأن سورة البقرة، أول ما نزل من القرآن في المدينة، تحدثت في بدايتها عن المنافقين. وبالتفصيل.

قسمت سورة البقرة الناس إلى ثلاثة أصناف.

مؤمنون.

وكافرون.

ومنافقون.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قبل ذلك، كانت الأمور أوضح، مؤمنون وكافرون. ناس سمعوا بالرسالة فآمنوا بها ولو سرًّا، وناس سمعوا بها لكنهم رفضوها.

مع الانتقال إلى المدينة، سيكون هناك صنف جديد، صنف يجمع بين الكفر والإيمان، ليس بمعنى الشك والتردد، اللاحسم، بل بمعنى إظهار الإيمان وإبطان الكفر.

هذا كان جديدًا، وأفرزته ظروف الوضع الجديد والقوة المتزايدة.

افتتحت سورة البقرة بحديثها عن الأصناف الثلاثة، وكان توزيع المساحات لكل صنف كما يلي:

ثلاث آيات عن المؤمنين.

اثنتان فقط عن الكافرين.

واثنتا عشرة عن المنافقين.

في البداية، يعني هذا أن المساحة التي خصصت للمنافقين تفوق -وبكثير- المساحة التي خصصت للمؤمنين وللكافرين.

لم يكن هذا لأن أهمية هؤلاء تفوق الصنفين الآخرين بالمطلق، فقد وصف هذان الصنفان بالتفصيل في آيات سابقة.

لكن سورة البقرة كانت تنبه الجميع في تلك الفترة إلى الصنف الجديد الذي دخل الساحة، ولم ولن يتركها منذ تلك اللحظة، بل سيزداد بالحجم (على حساب نقصان حجم فئة الكافرين) مع كل زيادة في القوة تضاف إلى صنف المؤمنين.

كان ذلك جديدًا تمامًا، الأمور قبل ذلك كانت واضحة، هنا أو هناك، قبول للإيمان أو رفض له، لكن هذا القبول الظاهري والرفض الداخلي كان جديدًا.

وكان خطيرًا أيضًا، لأنه يشبه أن تدخل ذئبًا متنكرًا بزي الحملان في قطيع الحملان، يشبه أن تدخل حصان طروادة إلى داخل أسوار المدينة.

والأخطر من هذا، أنك لا يمكن أن تعرف سرائرهم أبدًا، لا يعملها إلا الله العليم بذات الصدور، يمكنك في مرحلة ما أن تشك بسبب سلوكيات معينة، كلمات معينة تفلت منهم أو مواقف يتبنونها وقت الأزمات، لكن حتى مع هذه العلامات لا يمكنك أن تكون واثقًا من تشخيصك، على الأقل لا يجب أن تكون واثقًا من ذلك، ما دمت لا تعرف ما في سرائرهم حقًّا.

لذلك جاء التوصيف مفصلًا في سورة البقرة، لأن هؤلاء جاءوا ليبقوا. ليست هناك آلية يمكن أن تنهيهم تمامًا، هم جزء من إفرازات الطبيعة البشرية التي تتطلب من كل فرد أن يواجهها في نفسه لكي يتخلص منها.

الآيات، لم تكن تحذر المؤمنين فحسب من (الدخيل الجديد) بينهم فحسب، بل كانت لو نظرنا لها من زاوية أخرى، تواجه الجميع أيضًا بحقيقة أن هناك احتمالية كامنة في أن يكون أي شخص ممن يظهر الإيمان منتميًا في الحقيقة إلى الصنف الثالث.

بما في ذلك أنت شخصيًّا.

كل شخص مؤمن يقرأ صفات المنافقين سيعرضها تلقائيًّا على نفسه، سيقارن بين ما يقوله إيمانه وما يفعله في خلواته، أو ما يقوله لنفسه في سره، هل أنا هكذا؟ هل هذا الوصف يشبهني، ولو أحيانًا، بعض الأوقات؟

كبار الصحابة كانوا يخشون ذلك على أنفسهم.

من ضمنهم عمر بن الخطاب، العملاق نفسه.

الصحابة كانوا يخشون على أنفسهم، وهو أمر صحي

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دُعِيَ عُمَرُ، لِجِنَازَةٍ، فَخَرَجَ فِيهَا أو يُرِيدُهَا فَتَعَلَّقْتُ بِهِ فَقُلْتُ: اجْلِسْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، **فَإِنَّهُ مِنْ أُولَئِكَ**[1]، **فَقَالَ: «نَشَدْتُكَ اللَّهَ أَنَا مِنْهُمْ»، قَالَ: «لَا وَلَا أُبَرِّئُ أَحَدًا بَعْدَكَ».**[2]

(1) يعني المنافقين، فقد كان حذيفة صاحب سر رسول الله في أسماء المنافقين.

(2) مسند البزار: 2885.

أبو بكر الصديق أيضًا، ومعه في نفس الرواية حنظلة بن الربيع الأسيدي، أحد كتاب الوحي.

عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ، قَالَ: وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَافَسْنَا[1] الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[2]

قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: «أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ» وَيُذْكَرُ عَنِ الحَسَنِ: «مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلاَ أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ».[3]

هل هذا الموقف من عمر وأبي بكر وكل هؤلاء الصحابة غريب؟ أن يخافوا على أنفسهم النفاق؟ على العكس، هذا هو الصحي، أن يخافوا، هذا مؤشر عافية، دليل على مراقبة النفس، دليل على أن هذا الصحابي يتفاعل مع القرآن بحيث يعرضه على نفسه، لا ليقول هذا يخص فلان وعلان من خصومه أو ممن قرر أن يصنفهم ضمن (المنافقين) بعد أن منح لنفسه صك البراءة على بياض مطلق. وهو سلوك شائع للأسف، وغير صحي بالمرة، ومناقض تمامًا لسلوك الصحابة الذين كان بينهم من يعرف من ائتمنه

(1) عافسنا: حاولنا واشتغلنا.

(2) صحيح مسلم: 2750.

(3) صحيح البخاري: جزء 1 ص 18.

الرسول عليه الصلاة والسلام على أسماء المنافقين، ولم يكن الأمر يعني الصحابة بقدر تأكدهم أنهم ليسوا في القائمة.

أولئك الذين يشكّون بأنفسهم

خوف الصحابة على أنفسهم من النفاق قد يفسره جزئيًا ما نعرفه اليوم من ظاهرة نفسية تعرف بـ (متلازمة المحتال imposter syndrome)[1] حيث يعتقد الكثير من الموهوبين والمبدعين والناجحين في مجالاتهم أنهم مزيفون وتساورهم شكوك كثيرة عن حقيقة مواهبهم ومنجزاتهم ومصداقيتهم، ويعتقدون أن هناك ما سيفضح أمرهم للناس. الكثير من الدراسات تشير إلى أن من يعاني هذه الشكوك يكون أكثر مصداقية وأصالة وإبداعًا من أقرانهم الذين لا يعانون شكوكًا مماثلة[2].

ومثل متلازمة المحتال، لكن على الجانب الآخر، هناك ظاهرة معروفة بـ (تأثير داننغ -كروجر Dunning- Kruger effect)[3] والتي درسها العالمان داننغ وكروجر وتوصلا إلى أن الأشخاص الأقل مهارة وقدرة يميلون إلى المبالغة في تقدير قدراتهم على العكس من الأشخاص الأكثر مهارة الذين يميلون إلى التقليل من قابلياتهم.

ضمن هذا المنظور، يمكن أن نفهم أن آيات وصف المنافقين حثت حتى المؤمنين على النظر في دواخلهم ومراجعتها باستمرار خوفًا من أن يكون النفاق قد تسرب إليهم.

لكن الهدف الرئيس كان بلا شك: التنبيه إلى دخول الصنف الجديد.

---

(1) Weir, K. (2013, November). *Feel like a fraud? gradPSYCH Magazine.* American Psychological Association. Retrieved July 24, 2025, from https://www.apa.org/gradpsych/2013/11/fraud

(2) Clance, P. R., & Imes, S. A. (1978). The imposter phenomenon in high achieving women: Dynamics and therapeutic intervention. *Psychotherapy: Theory, Research & Practice, 15*(3), 241–247. https://doi.org/10.1037/h0086006

Young, V. (2011). *The secret thoughts of successful women: Why capable people suffer from the impostor syndrome and how to thrive in spite of it.* Crown Publishing Group.

(3) Kruger, J., & Dunning, D. (1999). Unskilled and unaware of it: How difficulties in recognizing one's own incompetence lead to inflated self-assessments. *Journal of Personality and Social Psychology, 77*(6), 1121–1134. https://doi.org/10.1037/0022-3514.77.6.1121

تخطيط لقلب المنافق

آيات سورة البقرة في وصف الكافرين قالت: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة/7)

ثمة قفل كبير على قلوب هؤلاء، ربما وضعوه بأنفسهم، ربما سمحوا ببقائه، ربما كان القفل هو معتقدات الآباء والأجداد التي أغلقت قلوبهم عن الإيمان، بكل الأحوال النتيجة واحدة: القلب مغلق، لم يدخل الإيمان.

مع المنافقين الأمر أعقد.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة/10)

القلوب ليست مغلقة. لقد سمعت ورأت.

لكنها في وضع أسوأ.

القلب المقفل قد يزال القفل عنه، فيسمع ويرى.

أما القلب المفتوح الذي فيه مرض، فمرضه يمكن أن يُحرِّف كل ما يراه ويسمعه.

وهذا هو جذر النفاق حسب توصيف الآيات.

ثمة مرض، وأي مرض لا يواجه بالعلاج، بل ينكر وجوده أصلًا، سيستفحل ويزيد.

ما هو هذا المرض؟

هناك أولًا، ضعف في شخصية هؤلاء. عجزهم عن التصريح بحقيقة موقفهم. الكافر كافر، ولكنه صاحب موقف واضح. أما هؤلاء فهم أجبن من أن يكونوا أصحاب مواقف، لذا فهم يسيرون مع التيار كيفما ذهب.

لا ننسى هنا أن التوصيف جاء مبكرًا، كانت قوة الدين الجديد في انتشاره بين الناس، ولكن لم تكن هناك شوكة أو سلطة تجعلهم يتزلفون لها بالتظاهر بالإيمان بالدين الجديد. كان منافقو هذه المرحلة أشخاص يتظاهرون بالإيمان فقط لأنه رائج، أسوأ ضعف شخصية يمكن تخيله، أن تتظاهر بالإيمان فقط لأن جارك أو ابن عمك أو شقيقك -أو كلهم معًا- قد آمنوا، كما لو أن الأمر محض صرعة يتبعونها ثم يدعونها لصرعة أخرى...

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة/20)

مع ضعفهم تجاه التيار الأقوى في الخارج، مرضهم يجعلهم يعتقدون أنهم **دومًا على صواب**، حتى ولو بلي الحقائق وقلبها

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة/11-12)

لا معيار ثابت للقيم عندهم إلا أن يكون ما يفعلونه، كل ما يفعلونه هو الصواب ولو غيروه ألف مرة. **الأنا عندهم هي المقياس** ولو تناقضت في داخلها عن خارجها.

وهذه الأنا المتكبرة المتعالية هي التي تجعلهم ينظرون إلى الآخرين باستعلاء

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/13)

يتعاملون مع كل شيء بسطحية واستهزاء وسخرية، لا شيء عندهم يستحق أن يؤخذ بجدية غير ما يتعلق بأناهم التي ترتدي أكثر من قناع حسب الحاجة وحسب اتجاه التيار السائد، كلما ناداهم البرق مشوا خلفه..

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (البقرة/14)

هذه كلها أعراض لذلك المرض الذي في قلوبهم، الأنا التي تبرر وتسوغ تغيير الأقنعة حسب الوضع، تنظر باستعلاء إلى الجميع وتستهزأ بهم.

إنها الأنا التي جعلها مرضها (تستعلي) فتكون مصدرًا لكل هذه الأعراض.

وهي الأنا التي يمكن أن يتسلل لها المرض عند الجميع، والتي يجب أن يدقق فيها الكل باستمرار، مثل فحص دوري لأمراض محتملة مع تجاوزك سن معين.

سنة أولى نفاق

فلنتذكر: كان المنافقون في هذه المرحلة في نسختهم الأولى، كانوا ينافقون التيار الغالب الذي لم يصل بعد للقوة والسلطة التي وصلها لاحقًا.

كانوا فرادى مشتتين، لم تجمعهم مصلحة واحدة، ولم يكن لهم قائد بعد.

ذلك أن من نعرفه كزعيم للمنافقين، عبد الله بن أبي بن سلول، لم يكن قد نافق بعد. كان لا يزال كافرًا، من الصنف الأول، ولن يعلن إسلامه إلا لاحقًا، بعد الانتصار الكبير الذي حصل في معركة بدر، والذي جعل قوة المسلمين تزداد على النحو الذي شعر معه عبد الله بن أبي بن سلول أن المحافظة على مكانته ستتطلب الانضمام إلى التيار الجارف.

تقريبًا لا نعرف اسمًا من أسماء منافقي المرحلة المبكرة التي أشارت لها آيات سورة البقرة، لكن موقفًا حدث في تلك الفترة، وكان عبد الله بن أبي بن سلول حاضرًا فيه يمكن أن يمنحنا لمحة عما كان يحدث.

عليه الصلاة والسلام كان ذاهبًا ليعود سعد بن عبادة في مرضه وهو راكب على حمار، مر في طريقه بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول ومعه فيه أخلاط من مسلمين وكافرين ويهود، تحرش عبد الله بن ابي فوضع رداءه على أنفه وقال للرسول عليه الصلاة والسلام ما معناه أن حمار الرسول قد أثار الغبار، فتوقف عليه الصلاة والسلام والتحق بالمجلس وأخذ يقرأ من آيات القرآن على الجالسين[1]، ولكن عبد الله بن أبيّ بن سلول قال له بوقاحة:

لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ فَلَا تَرِدْنَا فِي مَجَالِسِنَا، وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ

بعبارة أخرى: ما تقوله جيد، ولكن قله لمن جاءك يريد سماعه منك.

ثم تطور الأمر...إلى نهاية الحادثة.

عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَكِبَ يَوْمًا حِمَارًا بِإِكَافٍ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ يَرْدُفُهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، فِي بَنِي الْحَارِثِ

(1) في رواية أخرى كان هناك يهود أيضًا مسند الشاميين للطبراني: 268.

بْنِ الْخَزْرَجِ، وَذَلِكَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَمَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولٍ، قَبْلَ إِسْلَامِهِ وَفِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ فَلَمَّا غَشِيَ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ ابْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ ثُمَّ قَالَ: « لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا فَسَلَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَقَالَ لَهُ ابْنُ أُبَيٍّ: لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ فَلَا تَرْدَنَا فِي مَجَالِسِنَا، وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، اغْشَنَا فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ وَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ، حَتَّى كَادُوا يَقْتَتِلُونَ فَخَفَّضَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى سَكَتُوا وَسَارَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ: أَيْ سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو الْحُبَابِ؟ فَأَخْبَرَهُ مَا كَانَ فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَكَ اللهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ، وَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ وَيُعَصِّبُوهُ بِالْعُصَابَةِ فَرَدَّ اللهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ »[1]

لم يكن كل من جلس في ذلك المجلس مؤيدًا لعبد الله بن أبي بدليل أنهم كادوا (يقتتلون) لولا حرصه عليه الصلاة والسلام على تهدئة الأمور، لكن الأمر يدل أيضًا على وجود تجمعات (تضم أخلاطًا كما يقول النص) كانت تتكون على هامش ازدياد قوة الإسلام في المدينة.

لم تصبح هذه الظاهرة (اجتماعية/ سياسية) إلا لاحقًا، بعد بدر.

ولكنها في تلك المرحلة كانت لا تزال في طور دواخل النفس التي تتحين فرصة الأزمة لتظهر على السطح.

وسيكون هناك ما يظهرها ويبرز سكاكينها التي تطعن في الخاصرة.

كما يحدث دائمًا، في كل ظاهرة من الظواهر التاريخية المشابهة.

(1) السنن الكبرى للنسائي: 7460.

صحيفة المدينة تحت المجهر: وثيقة التحول الكبير

تذكر كتب السيرة أن صحيفة المدينة (أو الوثيقة) قد كتبت في السنة الأولى من الهجرة.

يذكر الأمر بهذا التسلسل دومًا: بناء المسجد، المؤاخاة، صحيفة المدينة.

وكل هذه الأحداث كانت واضحة بنتائج ملموسة واضحة للعيان.

بناء المسجد نتج عنه تأسيس واقعي مادي لأول مسجد في الإسلام، وقد وصلت لنا تفاصيل اختيار الأرض وشرائها وإعدادها للبناء، بل وصل لنا ما كان يقوله الأنصار والمهاجرون من شعر في أثناء بناء المسجد.

المؤاخاة نعرف أين وقعت، ومتى وقعت تقريبًا، ونعرف أسماء الذين آخى بينهم الرسول، ونتائج ذلك على صعيد الإرث.

الوثيقة وصلت ببنودها كاملة، وبسند يقترب من أن يكون صحيحًا[1]، لكننا لا نعرف شيئًا ثابتًا عن توقيت كتابتها أو مكان كتابتها أو من كان حاضرًا في أثناء كتابتها، أو من كتبها.

---

(1) وردت الوثيقة بأربع طرق لا يرقى أي منها لدرجة الأحاديث الصحيحة، لكن بعض بنودها وردت في أحاديث صحيحة، كما أن وجود الوثيقة -أو الكتاب- ثابت بأسانيد صحيحة، وهذا كله يقوي الوثيقة خاصة أن أسلوبها يشبه بقية مكاتبات الرسول عليه الصلاة والسلام بلغتها المختصرة الخالية من التكلف، وهذا كله يجعلها مقبولة كوثيقة تاريخية، من كتاب (السيرة النبوية الصحيحة - محاولة لتطبيق قواعد المحدثين لنقد روايات السيرة النبوية) ص 272-275 باختصار وتصرف.

المهم هو أنها وصلت.

الكثير من الباحثين يرى أنها لم تكتب مرة واحدة، بل كتبت على مراحل وأضيف لها فقرات خلال السنة الأولى من الهجرة، وهو رأي أراه واقعيًّا وينسجم مع ما يحدث من وثائق مشابهة في التجارب التاريخية، تحدث دومًا مستجدات تتطلب إضافة فقرة أو بند على ما سبق، دون أن يتعارض ما يضاف مع ما سبق الاتفاق عليه.

دستور أم عقد اجتماعي؟

ما الصحيفة في جوهرها؟

اليوم تقدم على أنها دستور.

لم يكن مفهوم الدستور -بالمعنى الذي نعرفه اليوم- موجودًا، الإمبراطورية الساسانية مثلًا لم يكن لها شيء مشابه للدستور، الإمبراطورية الرومانية لم يكن لها دستور مكتوب، الكثير من التجارب الحضارية التاريخية كان لها قوانين مكتوبة، لكن الدستور -في المفهوم المعاصر- ليس مجرد قوانين مكتوبة، بل هو أكثر من ذلك.

حسب التعريف الحالي: الدستور هو مجموع المبادئ الأساسية أو السوابق الراسخة التي تشكل الأساس القانوني لنظام سياسي أو منظمة أو أي نوع آخر من الكيانات، ويحدد عادة كيفية حكم هذا الكيان.[1]

والصحيفة تضم ذلك بالفعل، المعتاد عادة أن الدساتير تعلن عن طبيعة الحكم في دولة معينة، وهذا لم يذكر في الصحيفة بالفعل، حيث لا إشارة إلى دولة أو حكومة لكن التعريف المعاصر للدستور لا يقتصر على الدول والحكومات، بل يشمل الكيانات المجتمعية، وهو ما يتوفر في الصحيفة بوضوح.

الصحيفة تمثل أيضًا، وبطريقة أكثر وضوحًا **عقدًا اجتماعيًّا بالمعنى الدقيق للكلمة**. ولا أعرف حقيقة أن كانت هناك وثيقة مكتوبة لعقد اجتماعي أبكر من صحيفة المدينة، وبالتأكيد لا يوجد **وثيقة مكتوبة أبكر لعقد اجتماعي** تنظم مجتمعًا متعدد الأديان كما فعلت الصحيفة.

---

(1) *McKean, E. (Ed.). (2005). The New Oxford American Dictionary (2nd ed.). Oxford University Press.*

ما هو العقد الاجتماعي؟

العقد الاجتماعي هو اتفاق الأفراد في مجتمع ما مع من يحكم هذا المجتمع على تحديد الواجبات والحقوق لكل طرف[1]. نظرية العقد الاجتماعي حديثة نسبيًّا، حيث كتب عن فلسفتها أولًا توماس هوبز في القرن السابع عشر الميلادي، لكن أي باحث يتمعن في صحيفة المدينة لا يمكنه إلا أن يقر بأنها تعتبر عقدًا اجتماعيًّا بامتياز، وهذا ليس شيئًا جديدًا بحد ذاته، فالعقد الاجتماعي في جوهره قديم قدم المجتمعات البشرية نفسها، والبشر كانوا يشكلون عقودًا معينة غير مكتوبة لتنظيم علاقاتهم داخل المجموعة البشرية التي ينتمون لها. المميز جدًّا في صحيفة المدينة هو أنها عبرت كتابة وبدقة عن عقد اجتماعي ينظم شبكة معقدة من العلاقات المتداخلة بين مجموعة كبيرة من الكيانات المجتمعية المختلفة في طبيعتها عشائريًّا ودينيًّا، حيث كانت هناك عشائر مختلفة، عانت صراعًا طويلًا بين بعضها بعضًا لفترة طويلة، بالإضافة إلى مجموعة مهاجرة تنتمي أصلًا إلى مدينة مختلفة ومن عشائر مختلفة أيضًا، ويضاف إلى هذا كله وجود ثلاثة أنواع من العقائد أو الأديان.

عندما يكتب دستور ما، أو ينظم عقد اجتماعي لترتيب العلاقات في مجتمع متشعب، فإن ذلك يستغرق عادة وقتًا طويلًا نسبيًّا، وقت تحدث في كواليسه الكثير مما يؤثر على هذا الدستور.

لا نعرف الكثير مما حدث في المقدمات، لكننا نعرف أن هذه الصحيفة تمثل (على نحو غير مباشر) سجلًّا لتغيرات (صغيرة في حجمها كبيرة في أثرها) في الفترة بين هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وصولًا إلى يوم بدر، وهي 18 شهرًا كانت حافلة بأحداث قد لا تجد لها عنوانًا مستقلًّا بارزا في محطات السيرة مثل بدر أو أحد أو الخندق...لكنها كانت مثل مفترقات طرق متتابعة قادت إلى تلك المحطات البارزة، وأميل شخصيًّا إلى أن أبرز وأهم بنودها كتبت بعد ليس أكثر من ستة أشهر من الهجرة، لأسباب سأوضحها في سياقها.

(1) Cambridge University Press. (n.d.). *Social contract*. In *Cambridge Dictionary*. Retrieved July 25, 2025, from https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/social-contract

أما ما مثلته الصحيفة على نحو مباشر فقد كان نموذجًا مرتفع المعايير عن تنظيم العلاقات بين الكيانات.

فلننتبه هنا أن بعض أهم دارسي السيرة النبوية من المعاصرين[1] يعتبرون أن هذه الوثيقة هي في الحقيقة وثيقتان، واحدة تخص المهاجرين والأنصار ومن لحقهم، والأخرى تخص العلاقة مع اليهود، وأن الجزء المتعلق باليهود سبق الجزء الآخر من الناحية الزمنية، رغم أن الترتيب المنتشر حاليًا يعكس الأمر، وهو رأي وجيه ولكنه لا يؤثر كثيرًا على جوهر محتوى الوثيقة ككل؛ لذا فسأتعامل هنا مع الوثيقة على أنها كتبت في المرحلة الزمنية نفسها، حتى لو كان هناك فرق بسيط في توقيت كتابة البنود المتعلقة باليهود.

في كل الأحوال، أجزاء مهمة وأساسية من هذه الوثيقة كتبت وأقرَّت قبل معركة بدر بالتأكيد، ومعركة بدر وقعت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، والهجرة وقعت في ربيع الأول.

أي أن هناك سنةً ونصف تفصل بين الحدثين، وأميل إلى أن ذلك حدث أبكر من ذلك.

مدة زمنية بسيطة في عمر المجتمعات والحضارات.

لكنها كانت حافلة مزدحمة، بأحداث (غير مرئية).

وبعض ما لا يرى بالعين المجردة، قد يكون أكبر تأثيرًا من كل ما يرى..

نص الوثيقة:

بسم الله الرحمن الرحيم[2]

(1) هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله] بين المؤمنين والمسلمين من قريش و [أهل] **يثرب** ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

(2) **أنهم أمّة واحدة من دون الناس.**

(1) العمري، أ. ض. (1994). السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (الطبعة السادسة، مجلدان). المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم.

(2) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة/ محمد حميد الله.

(3) المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم[1] وهم يفدون عانيهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(4) **وبنو عوف**[3] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(5) **وبنو الحارث**[4] [بن الخزرج] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(6) **وبنو ساعدة**[5] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(7) **وبنو جشم**[6] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(8) **وبنو النّجّار**[7] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(9) **وبنو عمرو بن عوف**[8] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(10) **وبنو النّبيت**[9] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(1) أي على وضعهم الأصلي يدفعون دياتهم مع بعضهم بعضًا.

(2) عانيهم: أسيرهم.

(3) من الخزرج.

(4) من الخزرج.

(5) من الخزرج.

(6) من الخزرج.

(7) من الخزرج.

(8) من الأوس.

(9) هو عمرو بن مالك من الأوس.

(11) **وبنو الأوس** على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى؛ وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(12) وأنَّ المؤمنين لا يتركون مفرحًا[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء[2] أو عقل[3].

(12 ب) وألَّا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

(13) وأن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة[4] ظلمًا، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

(14) ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

(15) وأنّ ذمّة الله واحدة يجبر عليهم أدناهم[5]، وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

(16) وأنه من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

(17) وأنَّ سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

(18) وأنّ كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا[6].

(19) وأن المؤمنين يبيء[7] بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

(20) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

---

(1) مثقلاً بالدين.

(2) فدية.

(3) دية

(4) دسيعة: عطية، أي طلب أكثر مما يستحق.

(5) معنى ذمة الله عهد الله الذي يعطيه أحد المسلمين، فهو لازم لجميع المسلمين إن كان المعطي بالغًا. فأي مسلم أجار، أو أمن حربيًّا مضى ذلك على الجميع.

(6) يعني أن من غزا مع المسلمين، فإن ذلك يُحفظ لهم بحسب الترتيب الذي كانوا عليه في الغزو: أولاً بأول.

(7) يبيء: يمنع ويكف.

(20 ب) وأنه لا يجير مشرك[1] مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

(21) وأنه من اعتبط[2] مؤمنًا قتلًا عن بيِّنة[3] فإنه قود به[4]، إلا أن يرضى ولي المقتول [بالعقل] وأنّ المؤمنين عليه كافّة ولا يحلّ لهم إلا قيام عليه.

(22) وأنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يأويه[5]، وأن من نصره، أو آواه، فإنَّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

(23) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنَّ مرده الى الله وإلى محمد.

(24) وأنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

(25) وأنَّ يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يرتغ[6] إلا نفسه وأهل بيته.

(26) وأنَّ ليهود بني النَّجَّار مثل ما ليهود بني عوف.

(27) وأنَّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

(28) وأنَّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

(29) وأنَّ ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

(30) وأنَّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

(31) وأنَّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنّه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

(32) وأنَّ جفنة[7] بطن من ثعلبة كأنفسهم.

---

(1) أي ممن بقوا على شركهم من الأوس والخزرج.

(2) اعتبط: قتل.

(3) عن بينة: عن عمد.

(4) يقتص منه.

(5) من نصر جانيًا أو آواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يقتص منه.

(6) يرتغ: يهلك.

(7) جفنة: وعاء الطعام، والمعنى: المبالغة في شدة تحريم أموال المعاهدين وأعراضهم، بأنه من استحل مثل هذا الشيء البسيط الزهيد، وهي جفنة الطعام، من بطن من بطون القبيلة، فكأنما انتهك حرمة جميع

(33) وأنَّ لبني الشَّطيبة[1] مثل ما ليهود بني عوف، وأنَّ البرَّ دون الإثم.

(34) وأنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم[2].

(35) وأنَّ بطانة يهود كأنفسهم[3].

(36) وأنه لا يخرج منهم [4]أحد إلا بإذن محمد.

(36 ب) وأنه لا ينحجز على ثأر جرح[5]، وأنه من فتك[6] فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأنّ الله على أبرّ هذا.

(37) وأنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم.

(37 ب) وأنه لا يأثم امرأ بحليفه[7]، وأنّ النصر للمظلوم.

(38) وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

(39) وأنَّ يثرب حرام جوفها[8] لأهل هذه الصحيفة.

(40) وأنَّ الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم[9].

أشخاص القبيلة أنفسهم.

(1) أو الشطنة كما في ابن هشام ولعلهم بنو النبيت.

(2) فحرمة عبيدهم كحرمة أحرارهم.

(3) بطانة الرجل: صاحب سرِّه الذي يشاوره في أحواله.

(4) من اليهود من المدينة.

(5) أي لا تُحْجَز القبيلة من الخروج إذا كان خروجها للثأر ولو كان هذا الثأر جُرحٌ.

(6) الفتك: أن يقتل الرجل صاحبه على غفلة، فلا تظلم كل قبيلته بما فعل.

(7) إذا ارتكب قوم من حلفاء أصحاب تلك الصحيفة إثمًا، فالإثم علىٰ الحلفاء، لا يتحمل أصحاب هذه المعاهدة إثم غيرهم من حلفائهم.

(8) اعتبرت منطقة المدينة حرمًا بموجب هذا البند، والحرم هو مالا يحل انتهاكه، فلا يقتل صيده، ولا يقطع شجره، وحرم المدينة بين الحرَّة الشرقية والحرَّة الغربية وبين جبل ثور في الشمال وجبل عير في الجنوب، ويدخل وادي العقيق في الحرم، وبذلك أحلَّت هذه المادة الأمن داخل المدينة ومنعت الحروب الداخلية.

(9) أي من استجار بأحد من أصحاب هذه المعاهدة تكون حرمته كحرمتهم لا يضارُّ، ولكن لا يجار أحد ارتكب إثمًا أو ظلما لأحد.

(41) وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها[1].

(42) وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإنَّ مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وأنَّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

(43) وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

(44) وأنّ بينهم النصر على من دهم يثرب.

(45) وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين[2].

(45 ب) على كل أناس حصّتهم من جانبهم الذي قبلهم.

(46) وأنّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأنّ البرّ دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأنَّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرَّه.

(47) وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأنّ الله جار لمن برَّ واتَّقى، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

الكتلة الفاعلة: أمة واحدة من دون الناس.

أول ما يلفت النظر في هذه الوثيقة هو هذا التمييز والتصنيف الذي لحق كل المسلمين من المهاجرين والأنصار في المدينة، فالوثيقة وصفتهم بأنهم (أمة واحدة من دون الناس)، وهو وصف حري بأن يجعلنا نفهم من جديد معنى مصطلح الأمة، فالأمة حسب البند رقم 2 من هذه الوثيقة لا تشمل كل المؤمنين والمسلمين بالمعنى المطلق بل تخصهم وتخص كل (من تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم).. ولا يمكن فهم

(1) أي إذا استجار أحدٌ فلا يُجارُ إلا بإذن أهله.

(2) امتدت المعاهدة بموجب هذا البند لتشمل حلفاء المسلمين وحلفاء اليهود من القبائل الأخرىٰ، إذ شرطت المادة علىٰ كل طرف مصالحة حلفاء الطرف الآخر لكن المسلمين استثنوا قريشًا (إلا من حارب في الدين) لأنهم كانوا في حالة حرب معهم.

معنى (تبعهم فلحق بهم) إلا بالمعنى المباشر الظاهر حصرًا، أي بمعنى من تبعهم ولحق بهم (في المدينة المنورة).

الأمة هنا إذن هي المجتمع الجديد من المسلمين على اختلاف عشائرهم وقبائلهم ممن (قصد) المدينة المنورة وهاجر إليها.

بعبارة أخرى: الأمة هنا، حسب الوثيقة التي نظمت علاقة الكيانات المجتمعية داخل المدينة هي **كيان اجتماعي جديد**، يضم المسلمين من قريش ومن المدينة المنورة، وكل من لحق بهم وسكن (= وجاهد) معهم والمدينة المنورة، في هذه الفترة الزمنية المحددة بوجوده عليه الصلاة والسلام.

الأمة هنا هي هذه الفئة التي تقوم بالتغيير، الطليعة القائدة الرائدة. كل تغيير له طليعة تقوده وتبذل الجهد من أجله وتسهل الطريق على من يسلكه خلفها فيجد الطريق مختلفًا معبدًا يقوده بسهولة إلى مقاصد كانت صعبة قبل تعبيد الطريق.

الأمة هي نواة المجتمع الجديد، الكتلة الفاعلة في الكيان الجديد قيد التشكيل، كتلة عابرة للعشائر والقبائل وعلاقات المصاهرة والأديان القديمة، قائمة على الإيمان بمنظومة فكرية جديدة تتجاوز كل ما سبق.

هذه الكتلة الفاعلة لا تشمل كما هو واضح كل سكان المدينة من الأوس والخزرج (إذ هناك إشارة في البند 20 ب إلى وجود مشركين بقوا على شركهم في المدينة) لكنها تتفاعل مع بقية الكيانات في المجتمع بطريقة تزيد من حجم الكتلة نفسها.

بعبارة أخرى، لو كان الحديث عن تفاعل كيميائي، لكانت هذه الكتلة هي (المذيب) الذي أخذت كل المكونات تذوب فيه بالتدريج.

هذا ما حدث، تقريبًا.

الكتلة الفاعلة، الأمة من دون الناس، كانت هي العنصر الذي دخل إلى التفاعل ليشعل سلسلة تفاعل جديدة لا يمكن إيقافها.

فلنقف هنا قليلًا، ونعود إلى الوراء بعض الخطوات، إلى الفترة المكية.

الفجوة الزمنية للتحول الكبير

ذكرت في كتابي (السيرة مستمرة)، في الحديث عن المرحلة التي سبقت (بيعة العقبة):

(يذكر مالكوم غلادويل في كتابه «نقطة التحول: كيف تحدث الأشياء الصغيرة تأثيرًا كبيرًا[1] ثلاثة قوانين أساسية ينبغي توفرها لحدوث نقطة التحول.

القانون الأول هو قانون القلة، ويتعلق بالأفراد الذين ينقلون «العدوى» إلى الآخرين، أو ينشرون الفكرة ويروجون لها، هؤلاء يجب أن تكون عندهم قدرات على إقناع الآخرين، والتواصل معهم، والقدرة على جمع المعلومات التي تخدم عملية الانتشار.

القانون الثاني هو قانون الالتصاق، ويتعلق بالمادة المروجة نفسها وطريقة عرضها، كيف يمكن لها أن تلتصق بالناس، كيف تتحول إلى جزء من حياتهم، كيف «يعتنقونها» بقوة.

القانون الثالث هو قانون قوة السياق ويتعلق بالظروف المحيطة بالقانونين الأولين، هل هي مناسبة لانتشار المادة المروج لها أم أنها ستكون صادة ومانعة لها.

يمكننا أن نأخذ هذه القوانين الثلاثة لفهم ما حدث في مكة، وما لم يحدث فيها أيضًا.

في مكة، تحقق القانون الأول والثاني، رأينا كيف أن القلة الذين آمنوا في البداية تمكنوا من توصيل ما آمنوا به لآخرين وعلى نحو منجز، رأينا أبا بكر وجعفر وخديجة، طبعًا هذا عدا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

رأينا أيضًا كيف أن «المحتوى» كان لا يلتصق بالناس فقط بل كان يخترقهم من النخاع ويغير حياتهم من الوريد إلى الوريد، يحقق انقلابًا تامًّا في حياتهم ويجعلهم ينقلبون على عشائرهم وأسرهم وكل حياتهم السابقة. عمر بن الخطاب ربما كان واحدًا من أهم الأمثلة على القانون الثاني.

لكن القانون الثالث لم يكن يحمل لصالح نقطة التحول في مكة.

كان السياق مضادًّا وصادًّا للتغيير الكبير، كان محاربًا له وبشدة تصاعدت أكثر فأكثر مع الوقت.

---

(1) The Tipping Point: How Little Things Can Make Big Difference, Malcolm Gladwell.

لعشر سنوات، كان السياق في مكة، الظروف المحيطة بالقانونين الأولين، تحاصر أي فرصة لحدوث نقطة التحول.

وكان لا بدَّ من البحث عن سياق آخر..)[1].

كانت طرق التفاعل قد وصلت إلى طرق مسدودة في شعاب مكة.

وكان لا بدَّ لها أن تذهب إلى مكان آخر، حيث يمكن للقانون الثالث أن يتحقق، ويقود إلى نقطة التحول الحاسمة.

سياقات القانون الثالث جاءت مع (المدينة)، المهيئة لتقبل الإيمان الجديد بسبب ظروف معقدة أشرنا لها في الفصول اللاحقة من الكتاب المذكور.

ومنذ بيعتي العقبة، اللتين مهدتا للهجرة، ومن ثم هجرة النبي عليه الصلاة والسلام، والمنطقة كلها، بل الفترة الزمنية كلها، هي (نقطة تحول) كبيرة جدًّا في تاريخ العالم، لا يمكن إدراك حجمها إلا بالنظر إليها من بعيد وتقييم حجم التحول الذي حدث.

فلنعد مجددًا إلى عتبة التحول، في الطريق المؤدي إلى العقبة الثانية.

«...حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعًا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلًا حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، علَامَ نُبَايِعُكَ، قَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ، لَا تَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي، فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَأَزْوَاجَكُمْ، وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ»[2]

حسب نص هذا الحديث، الذي رواه جابر بن عبد الله، الأنصار ساءهم أنه عليه الصلاة والسلام يطرد في جبال مكة، وبايعوه على نصرته، ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم.

نصرته في الدفاع عنه.

(1) كتابي السيرة مستمرة الصادر عن دار عصير الكتب، الطبعة الأولى ص 389-390.

(2) مسند أحمد: 14456.

هذه كانت بيعة العقبة الثانية.

بعد ثلاث أشهر فقط، يهاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

وخلال سنة تقريبًا، تبرز صحيفة المدينة التي تتضمن بنود كهذه:

(23) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنَّ مردَّه الى الله وإلى محمد.

(36) وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

(42) وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإنَّ مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وأنّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرَّه.

لقد تحول الوضع برمته، من (طلب النصرة والدفاع) في بيعة العقبة الثانية، إلى أن يصبح عليه الصلاة والسلام هو المرجع الذي ترتكز عليه المدينة وكياناتها الاجتماعية المختلفة، حتى غير المسلمة، وكل ذلك خلال مدة لا تتجاوز السنة والنصف في أبعد التقديرات.

والحديث هنا عنه عليه الصلاة والسلام، لكنه بطبيعة الحال يمثل الرسالة التي يحملها، والإيمان بالله الذي لا إله إلا هو...لقد تحول الأمر في مدة قصيرة جدًّا بكل المقاييس.

صحيفة المدينة: سجل التحولات

هذه الصحيفة تمثل مرحلة نقطة التحول كما لو أنها صورة نادرة التقطت للمجتمع وهو يتحول تحوله الكبير.

ما حدث في نقطة التحول هذه، أن الكتلة الحرجة[1]، وهي أقل عدد كافٍ لأحداث التغيير في المجتمع، -وهي هنا بمجموع المهاجرين وأنصار العقبة الأولى والثانية- قد

(1) الكتلة الحرجة في علم الاجتماع هو العدد الكافي من الأفراد المتبنين لفكرة جديدة لجعل هذه الفكرة تنتشر أكثر خارج هذه الكتلة وضمن المجتمع الذي يعيشون فيه. للمزيد:

Oliver, P. E., Marwell, G., & Teixeira, R. (1985). A theory of the critical mass. I. Interdependence, group heterogeneity, and the production of collective action. *American Journal of Sociology, 91*(3), 522–556. https://users.ssc.wisc.edu/~oliver/PROTESTS/ArticleCopies/OliverMarwellCritMassI.pdf

تحولت عبر تغير السياقات من **كتلة حرجة، إلى كتلة فاعلة** تقود التغيير الاجتماعي الكبير، وتتحول إلى (المذيب) الذي يحتوي كل الكيانات الأخرى ويذيبها في داخله.

فلنتذكر هنا إن الإسلام كان قد انتشر في المدينة لكن لم يذكر أحد أن الجميع قد أسلموا.

قال جابر بن عبد الله في حديثه قبل بيعة العقبة الثانية، أي قبل أشهر من الهجرة النبوية: **حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**، يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ [1]

(..وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَهِيَ أَخْلَاطٌ، مِنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ يَجْمَعُهُمْ دَعْوَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِيهِمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، وَمِنْهُمُ الْيَهُودُ، وَمِنْهُمْ أَهْلُ الْحَلْقَةِ وَالْحُصُونِ، وَهُمْ حُلَفَاءُ الْحَيَّيْنِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، فَأَرَادَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَدِمَ اسْتِصْلَاحَهُمْ وَمُوَادَعَتَهُمْ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَكُونُ مُسْلِمًا وَأَبُوهُ مُشْرِكًا، وَالرَّجُلُ يَكُونُ مُسْلِمًا وَأَخُوهُ مُشْرِكًا..).[2]

وهذا يدل على انتشار للإسلام في كل بيوت الأنصار، أي إنه أصبح ظاهرة اجتماعية واضحة معلنة، لكن لا يفهم منه أن كل أهل المدينة قد دخل في الإسلام.

بل إن ابن إسحاق يذكر عقب هجرة النبي عليه الصلاة والسلام: **فَلَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا أَسْلَمَ أَهْلُهَا، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خَطْمَةَ، وَوَاقِفٍ، وَوَائِلٍ، وَأُمَيَّةَ، وَتِلْكَ أَوْسُ اللَّهِ، وَهُمْ حَيٌّ مِنَ الْأَوْسِ، فَإِنَّهُمْ أَقَامُوا عَلَى شِرْكِهِمْ**[3].

أي أن هناك بطون كاملة كان الشرك لا يزال فيها هو الأغلب.

لا نعرف أسماء الكثيرين ممن لم يسلموا في البداية، لكننا نعرف أن هناك من الأنصار من تأخر إسلامه، مثل عويمر بن زيد بن قيس المعروف بكنيته (أبي الدرداء) الذي تأخر إسلامه إلى بعد بدر[4] وشهد أحدا، والأصيرم (عمرو بن ثابت بن وقش)[5]

(1) مسند الإمام أحمد: 14456.

(2) المعجم الكبير للطبراني: 124.

(3) سيرة ابن هشام: جزء 1 ص 500.

(4) المخلصيات: جزء 2 صفحة 15 رقم 902.

(5) جوامع السيرة العلمية: جزء 1 ص 57

الذي تأخر إسلامه إلى يوم أحد، وخبيب بن أساف الذي تأخر إسلامه إلى يوم بدر[1]. وغالبًا هناك أسماء أخرى لم يرتبط تاريخ إسلامها بواقعة محددة مثل يوم بدر، ولذلك لم يسجل تاريخ إسلامهم.

هؤلاء لم يكونوا قد أسلموا لكن كان أمر الوثيقة يعنيهم بالتأكيد، ويطرح عليهم بعض الأسئلة، خاصة أن عددهم كان يتناقص بالتدريج، وجاء في واقعة إسلام خبيب بن إساف عندما أراد وصاحبه الالتحاق بالجيش أن الرسول عليه الصلاة والسلام سأل خبيبًا ورجلًا كان معه: أَأَسْلَمْتُمَا؟ [2] فإن كان الجواب لا (وقد تكون رغبتهم في الغزو خجلًا من قومهم كما في حالة خبيب أو حمية لهم) فيرفض الرسول عليه الصلاة والسلام مشاركتهم. وبالتأكيد كان هناك فئة من المسكوت عنهم في الوثيقة، ولكن القرآن كان كثيرًا ما يوجه الخطاب لهم، وأعني بذلك المنافقين الذين أظهروا التخلي عن الشرك وأسلموا ظاهريًّا، لكن دواخلهم كانت تقول شيئًا آخر، كما مر ذلك في الفصل المتعلق بهم.

دخل عليه الصلاة والسلام إلى الأخلاط في المدينة. التفاعل كان قد بدأ بالفعل مع أوائل الأنصار بعد بيعة العقبة الأولى، ومن ثم تزايد باضطراد مع وصول مصعب بن عمير، لكن بعد الهجرة أخذ التفاعل منحًى آخر بالتأكيد. تفاعل وصل إلى تجاوز (نقطة التحول) والدخول في التحول الكبير من يثرب (بكل أخلاطها ومشكلاتها) إلى المدينة التي سيكون لها شأن مختلف في تاريخ العالم.

ماذا طرأ على التفاعل في السنة الأولى من الهجرة، كيف انتقل الأمر من (نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام) إلى أن يكون (المرجع) في المدينة؟

---

(1) المستدرك على الصحيحين: 2563.

(2) المستدرك على الصحيحين: 2563

كيف حدث التحول الكبير؟

خمسة عوامل أساسية بتصوري أسهمت برفع التفاعل إلى مديات مختلفة، بل بتغييره كليًّا، لأن هذه العوامل كانت بمنزلة عناصر إضافية رفدت التفاعل بمسارات جديدة.

العامل الأول: حضوره الشريف

أن تسمع عن الرسول عليه الصلاة والسلام شيئًا وأن تراه وتعرفه وتكون قريبًا منه بحيث أن تكون قادرًا على لمسه أو تحيته أو سؤاله شيئًا مختلفًا جدًّا، أقول هذا بناءً على معطيات التجربة الإنسانية طبعًا، لأني مع الأسف لم أنل هذا الشرف، رزقنا به الله وإياكم في الجنة.

كانت شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام تشمل على عناصر تجعل الناس ينجذبون إليه، صفات مثل الهدوء والحياء والقوة والحكمة والتواضع والصدق والاهتمام بالآخرين والشعور بهم، كلها عندما تجتمع في رجل واحد، يكون من الطبيعي جدًّا أن ترى انجذاب الناس له، لقد مثَّل عليه الصلاة والسلام كل ما يجعل الناس يتعلقون به عبر الأنماط الأولية التي برمجوا على التعلق بمن يرونها فيه، وقد ختمها كلها عليه الصلاة والسلام، وربما لم تكن الفترة المكية فيها فرصًا سانحة لتظهر كلها فيه.

لماذا لم يحدث ذلك بالسهولة نفسها في مكة بين قومه عليه الصلاة والسلامة؟

ربما لأن انقسام قريش إلى عشائر وبطون في تحالفين متنافسين جعل أي خطوة نحو الرسول عليه الصلاة والسلام تكون محسوبة بالنسبة إلى أغلب أهل مكة- إلا مَن تجاوز عقبات العشيرة والأنا من الصحابة الذين بقي عددهم محدودًا- بينما التفاعل مع النبي عليه الصلاة في المدينة ف كان خاليًا من هذه المشكلة، ولكن كانت هناك مشكلة مشابهة يعانيها أهل المدينة إلا وهي (التنافس والعداء القديم بين الأوس والخزرج)، ولما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مكيًّا قرشيًّا لن يحسب على أي من الطرفين فقد كان تفاعل الأنصار معه أقل تعقيدًا ونتائجه أسرع وأوضح.

هناك سبب مهم آخر في مكة: الناس في مكة قد تعودوا على هذه الصفات منه عليه الصلاة والسلام قبل نزول الوحي، لذلك كان لعامل نفسي يعرف بـ (تحيز الألفة أو الاعتياد Familiarity Bias) أثره في رفض فكرة أن ما تعودوا عليه له أبعاد أخرى

خارج نطاق ما ألفوه[1]، وهو الأمر الذي يلخصه المثل المعروف (لا كرامة لنبي في قومه)، هذا التحيز لم يكن له وجود في المدينة لأن أهلها لم يعرفوه عليه الصلاة والسلام فكانت النتيجة مختلفة وبشكل بيِّن، وكانت جزءًا بالغَ الأهمية في فهم التحول الكبير الذي حدث في سنة واحدة فقط.

العامل الثاني: المسجد

الحدث الذي مرَّ باعتباره أول ما فعله عليه الصلاة والسلام عند نزوله المدينة، سيكون له أهمية كبيرة في التحول الاجتماعي العميق الذي حدث في السنة الأولى للهجرة. في البداية، كان المسجد مكانًا لأداء الصلوات الخمسة، وكان هذا مهمًّا من الناحية الشعائرية بالتأكيد، لكن المسجد كان أيضًا مركزًا لولادة المجتمع الجديد قيد التكوين، لم يكن في المدينة قبل الهجرة، مكانًا يلتقي فيه رؤساء العشائر وسادة الأوس والخزرج، كما (دار الندوة) في مكة، بل كانت كل عشيرة تسكن حيًّا منعزلًا عن بقية الأحياء ولم يعرف وجود مكان محدد لتجمع لسادات العشائر ووجهائها أو لعامة الناس. جاء المسجد ليقلب ذلك الواقع رأسًا على عقب، أصبح هناك (مركزًا) للمدينة، الهدف الرئيس منه هو إقامة الصلاة بالتأكيد، لكن خلال ذلك تتشكل أواصر لمجتمع جديد، لا يمكن لأشخاص يلتقون في مكان واحد خمس مرات في اليوم، ويكون سبب اللقاء هو اجتماعهم على فكرة إيمانية توحدهم، دون أن تنشأ بينهم رابطة إنسانية عميقة لا أريد أن أشبهها بعضوية نادٍ مثلًا أو الانتماء إلى جمعية معينة، لكنها تشبه ذلك إلى حد بعيد بالفعل. لا أشك أن هذا التجمع المتكرر كان يدفع البعض من أهل المدينة، ممن لم يؤمنوا بعد، وكانوا يشهدون رواحَ ومجيء المؤمنين إلى المسجد، إلى أن يدخلوا ليشاهدوا ما يحدث، وشيئًا فشيئًا كانوا يصيرون جزءًا من عملية التكوين والذوبان التي تحدث في الكتلة الفاعلة.

(1) Youvan, D. C. (2024, August). *Prophets in Their Hometown: The Struggle for Acceptance and the Path to Authentic Voice* [Preprint]. ResearchGate. https://doi.org/10.13140/RG.2.2.12216.15369

الأذان رفع مدى تأثير هذه العملية من داخل المسجد إلى خارجها.

عن عبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ، قَالَ: لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاقُوسِ يُعْمَلُ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلنَّاسِ لِجَمْعِ الصَّلَاةِ طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ، فَقُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ؟ قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ فَقُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى، قَالَ: فَقَالَ: تَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ، قَالَ: وَتَقُولُ: إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ، اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ، أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرْتُهُ، بِمَا رَأَيْتُ فَقَالَ: «إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ، فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ، فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ»

للوهلة الأولى، كان الأذان وسيلة لتنبيه المؤمنين إلى وقت الصلاة، وهو أمر عملي ويراعي أن الناس عليها أن تمارس أعمالها وحياتها اليومية، لذلك رفع الأذان سيسهم في تسهيل إقبال المؤمنين على المسجد في أوقات الصلاة.

هذا بالنسبة للمؤمنين، لمن يريدون إقامة الصلاة.

ماذا عن الآخرين؟ ماذا عن أولئك الذين لم يحسموا أمرهم بعد. لقد كان المجتمع مخلطًا كما سبق، مجتمع (أخلاط) حرفيًّا، ماذا كان يعني الأذان لهؤلاء؟ كان صوت بلال الذي يحمل كلمات الأذان يقتحم عليهم أذانهم سواء أعجبهم ذلك أم لم يعجبهم. يمكنهم ألا يذهبوا إلى الصلاة ولا يستمعوا إلى القرآن الذي يُتلى في المسجد، ما داموا لم يؤمنوا بعد، لكن كلمات الأذان كانت تلاحقهم في بيوتهم. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح. كانوا يجدون أنفسهم بالتدريج منجذبين إلى المسجد والمشاركة. كان النداء يقول: هناك فرض يفوتكم، وكان ذلك يعني أيضًا، دون أن يقال، لكن بين السطور: هناك مجتمع جديد يتكون، وأنتم تفوتون ذلك.

ما كان يمكن إلا أن يؤثر ذلك على جعل التفاعل أكثر سرعة وأكثر جذبًا للناس، إلى الدخول إلى بوتقة التفاعل.

العامل الرابع: المؤاخاة

بينما كانت المؤاخاة تبدو كما لو أنها أمر يخص المتآخين من الأنصار والمهاجرين، إلا أنها من المؤكد كانت صادمة لأخلاط المجتمع ككل. في المؤاخاة قُدِّمت رابطة الإيمان على رابطة القرابة وإخوة الدم، تقديمها لدرجة (الإرث) بعيدًا عن إخوة الشعر والمجاز. كان هذا صادمًا بلا شك، كانوا تسعين رجلًا فقط لكن المدينة كلها نظرت لهم بعين تتراوح بين الإعجاب والصدمة. بالنسبة إلى من لم يؤمن بعد، لا بدَّ أن المؤاخاة كانت تجعلهم يتساءلون: ما هذا الذي يجعل الناس تتشارك أموالهم مع غرباء دم عنهم؟ ما هذا الذي يجعلهم إخوة أكثر من الإخوة الحقيقيين، إخوة النسب واللحم والدم؟ البعض من المتآخين كانوا من سادة القوم ومن عقلائهم، وما يحدث كان يبدو خارج العقل والحكمة، لكنه يحدث ومع تسعين رجلًا، كما لو كان ذلك يتحدى كل مكرسات القوم وبديهياتهم، ولا بدَّ أن ذلك جعلهم يتساءلون عن السبب الذي جعل هؤلاء يعبرون إلى تلك الضفة الأخرى، ضفة الإيمان الذي تبدو معاييره شديدة الاختلاف وبمنطق خاص، لا بدَّ أنهم فكروا أن ثمة شيئًا مغريًا جدًّا يجعل هؤلاء يذهبون إلى ذلك المدى. كان هذا الفضول حافزًا على الدخول، ومن ثمَّ على أن يصبحوا جزءًا من التفاعل، ومن ثم أصبحوا جزءًا من التحول.

العامل الخامس: الأثر القرآني

ربما كان هذا العامل هو الأعمق تأثيرًا، فربما للمرة الأولى منذ بدء نزول الوحي يتلى القرآن علانية في الصلاة وبصوت من أنزل عليه الوحي عليه الصلاة والسلام، ليس لدينا معلومات كثيرة عن السور التي كان عليه الصلاة والسلام يقرؤها في الصلوات الجهرية، لكن من المنطقي توقع أنه كان يقرأ بما كان يتنزل عليه تلك الفترة: سورة البقرة. وكانت سورة البقرة تحمل مواجهات كاشفة مع النفس البشرية بطريقة جعلت هذا التفاعل يحصر الكثيرين في زاوية حادة مع أنفسهم لكي يتخذوا قرار الانضمام أو البقاء حيث هم، كما سنرى في فصل لاحق.

الأسلوب القرآني كان له أثره الحاسم في عملية التحول ...القرآن كان المعجزة. ونتيجته هو ذلك التحول الذي حدث.

العشائرية: تغيير المسارات، لا تجفيف المنابع

صحيفة المدينة رغم أنها قدمت (رابطة الإيمان) على (رابطة العشيرة)، فإنها قدمت هذا الكيان الاجتماعي الجديد (الأمة) لا لكي تهدم كل شيء مما سبق وكيفما اتفق، المعول مهم للهدم من أجل البناء، لكن هدم كل شيء من أجل البناء من جديد ليس بالضرورة الخطة الناجحة في التغييرات الاجتماعية الكبرى، فربما (هدم كل شيء) سيدخل المشروع بأكمله في حرب استنزاف ومعارك جانبية تعرقل المواجهات الأهم وبالتالي تعرقل الأهداف والمقاصد الأكثر أهمية.

لم تقم الصحيفة بهدم الكيانات العشائرية الموجودة أساسًا، الكثير من النصوص الدينية هاجمت «العصبية العشائرية»، لكن الوثيقة «وظفتها» عند المشروع الجديد. رابطة الإيمان أهم وأولى وهي التي تذكر أولًا وهي التي تجمع الأمة، لكن الكيانات العشائرية ستكون لها وظائف محددة ومهمة داخل المشروع الجديد، ستسير أمور الديات وفداء الأسرى كما كان معمولًا به قبل الإسلام.

هل كان الأمر ملحًّا هكذا في هذه المرحلة؟ لم تكن أي معركة قد وقعت بعد.. ولا نعرف حصول حادثة توجب على أثرها دفع دية، لكن رغم ذلك يترك حيز مهم للأمر في الوثيقة.

لماذا؟

ربما لأن هذه الأمور ستحدث (ليس بالضرورة عند حدوث حرب)، وكان من الأفضل تنظيمها استباقيًّا قبل حدوثها...

وربما لأنه كان من المهم توجيه رسالة لبعث الطمأنينة في الكيانات العشائرية الموجودة في المدينة.

الإسلام لن يقضي عليكم.

من المؤكد أن بعض رؤساء العشائر كانوا متخوفين على مكانتهم مما كان يحدث، استقبال الرسول عليه الصلاة والسلام -وحتى الإقرار بنبوته- شيء مختلف عن أن يُنهي الدين الجديد مكاناتهم نهائيًّا، خاصة بالنسبة لمن لم يكن إيمانهم عميقًا أو على الأقل لمن يكن الإيمان جادًّا بالنسبة إليهم.

هنا أصبح للكيانات العشائرية مكانة ووظيفة يوكلها إليها الرسول شخصيًّا، كل عشيرة تقوم بوظائف المعاقل والديات كما كانت تفعل سابقًا، مفهوم العشائرية «بصفتها الرابطة الأهم بين أفراد العشيرة» نحا جانبًا لصالح «رابطة الإيمان»، ولكن العشائرية نفسها لم تنسف ولم تلغِ ولم تحل على التقاعد، لها وظيفتها، وهو أمر ينبغي فهمه في سياق أن التغيير الحقيقي لا يشترط أن ينسف كل شيء من أجل البناء من جديد على أرض خالية، فذلك سيقود لمقاومة وحروب جانبية حتمًا. الناس قد لا تدافع عن أوثانها بقدر ما تدافع عن مكانتها الاجتماعية ووضعها الاجتماعي، فإذا كان تجاوز المواجهة ممكنًا، فهذا أكثر حكمة على مدى التغيير البعيد، التغيير الحقيقي.

إعادة ترتيب العشائر

المدقق في هذه الوثيقة سيلاحظ أيضًا أن الكيانات العشائرية قد أعيد ترتيبها بحيث دمج الرسول عليه الصلاة والسلام بين أكثر من بطن من بطون العشيرة بنسبتهم إلى جد أعلى.

فبنو جشم مثلًا تمت تسميتهم بهذا الاسم لكن جشم هو الجد الأعلى للبطون: أدي، سراد، عبيد، حرام، بياضة، زريق، حبيب، وهي بطون لم تذكر بشكل مستقل.

وبنو النجار يضمون البطون (مغالة، جديلة، الحسحاس بن مالك، دينار، عدي بن مالك، عمرو بن مالك، عدي بن النجار، غنم بن مالك، مالك بن النجار، مبذول بن مالك، معاوية بن عمرو، بن عدي، مندول، النجار بن ثعلبة).

وبنو الحارث يضمون (خدرة، خدارة).

وهكذا سيتم توحيد أكثر من عشرين بطنًا من بطون الخزرج في خمس كيانات عشائرية جديدة، وكذلك الحال مع الأوس، حيث وحدت الوثيقة ثلاثة بطون (بضمنها البطن الأهم بنو عبد الأشهل) تحت مسمى الجد الأكبر (النبيت وهو عمرو بن مالك بن الأوس)، وأخذت البطون الأخرى اسم (عمرو بن عوف) وهو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.

لا شك أن إعادة ترتيب الكيانات العشائرية كان يصب في صالح تنظيم الوضع في المدينة ككل، فالبطون الأصغر ستستفيد عندما توضع في كيانات أكبر تحتويها وتحميها خاصة في أمر الديات والمعاقل.

لكن من الخطأ جدًّا اختزال هذا الأمر بظاهره.

فتغيير الرابطة العشائرية الأصغر برابطة عشائرية أكبر، كان يُسهم بالتأكيد في فتح الآفاق أمام العقول والنفوس للرابطة الأكبر.. لأفق رابطة تتجاوز رابطة الدم، رابطة الإيمان.

بالتأكيد لم يكن الكل بعد قد اعتنقوا الإسلام على هذا النحو الذي يجعل هذه الرابطة هي الأقوى والأولى، تغيرات جزئية متدرجة كهذه كانت تساعدهم في الدخول أكثر في رابطة الإيمان الجامع..

وتسهم في تكريسه أكثر في قلوب وعقول من آمنوا به..

اليهود في الوثيقة

الكثير من الدراسات (الغربية خصوصًا) ركزت على ما يتعلق باليهود في الصحيفة، لأسباب لا تخفى من الاهتمام بدراسة تاريخ اليهود.

احتلت العلاقة مع اليهود مكانة مميزة في الصحيفة حيث تم ذكرهم صراحة في 15 بندًا من أصل 47 بندًا، عدا عن ارتباطهم غير المباشر بما لا يقل عن 15 بندًا آخر، بضمنها البنود التي تؤكد المرجعية عند الخلاف إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

يهود بني فلان وعلان

يأتي ذكر اليهود في الصحيفة عبر صيغتين.

الصيغة الأولى: صيغة عامة (اليهود، يهود) كما في البنود 16، 24، 35، 37، 38.

الصيغة الثانية: صيغة مخصصة تذكر اليهود باعتبارهم منسوبين إلى بطن من بطون القبائل أو العشائر كما في يهود بني (عوف، النجار، الحارث، ساعدة، جشم، الأوس، ثعلبة، الشطيبة).

فلننتبه هنا إلى الصحيفة لا تذكر أسماء القبائل اليهودية الثلاثة التي سكنت في المدينة (بنو النضير، بنو قينقاع، بنو قريظة)، وهي القبائل التي كان لها أثرٌ كبيرٌ لاحقًا في أحداث السيرة.

بينما هناك ذكر تفصيلي ليهود بني عوف وبني النجار...إلخ.

فمن هم يهود بني فلان وفلان؟

هناك عدة تفسيرات محتملة لذلك.

التفسير الأول: أن بعض نساء الأنصار ممن لا يعشن لهن أولاد، ينذرن أن يهودن أولادهن إن عاشوا، فأصبح هؤلاء (يهودا)، ينتمون نسبًا إلى بطون الأنصار، ولكنهم يهود دينًا ومعيشةً.

عن ابن عباسٍ، قال: كانت المرأةُ تكونُ مِقْلاتاً[1]، فتجعلُ على نفسِها إن عاشَ لها ولدٌ أن تُهَوِّدهُ، فلما أُجلِيتْ بنو النَّضيرِ كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندَع أبناءنا، فأنزل اللهُ عزَّ وجل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256][2]

التفسير الثاني: أن يكون هناك من تهوَّد من الأوس والخزرج، أي اعتنق اليهودية وبقي بين قومه وأهله، وصار يهوديًّا من بني عوف أو بني الحارث... إلخ.

وكانت السيدة عَائِشَةَ قد ذكرت عن **يَهُودِيٌّ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ** (وهم من بطون الأنصار، بني جشم) يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ[3]..

وكما مر في حديث سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ، قَالَ: كَانَ لَنَا **جَارٌ مِنْ يَهُودٍ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ** قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ...[4]

ويمكن أن يكون التفسيران صحيحين دون أي مشكلة، هناك من تهوَّد عن قناعة من عرب الأوس والخزرج، وهناك من نذرته أمه ليعيش بين اليهود.

وإذا كان التفسيران السابقان صحيحين فلنتنبه هنا إلى أن الصحيفة التي قدمت رابطة الإيمان على العشائرية فيما يتعلق بالمهاجرين ومن أتبعهم في الإيمان من الأنصار، قد أرجعت (يهود الأوس والخزرج) إلى بطونهم الأصلية نسبًا، وتركتهم يحافظون على دينهم (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم)، بل وجعلتهم (أمة)، داخل المجتمع الجديد، لكن كل منهم ضمن قبيلته الأصلية. أي أن هؤلاء جمعوا بين نسبهم الأصلي ودينهم الذي لم يكن الدين نفسه الذي يدين به آباؤهم أو عشائرهم.

(1) امرأة لا يعيش لها أولاد.

(2) سنن أبي داود: 2682.

(3) صحيح ابن حبان: 6583.

(4) المستدرك على الصحيحين: 5764، مسند الإمام أحمد: 15841.

التفسير الثالث: إن يهود فلان وفلان يشيرون إلى تحالفات اليهود (ضمن قبائلهم الأساسية الكبيرة) مع قبائل العرب، أي أن الإشارة إلى هي إلى قبائل بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع، ولكن من خلال تحالفاتهم مع بطون الأوس والخزرج، وهي التحالفات التي لا نعلم الكثير عن تفاصيل بطونها ولكن من المعروف أن اليهود من بني النضير وقريظة كانوا يتحالفون تقليديًّا مع الأوس، وبنو قينقاع كانوا يتحالفون مع الخزرج[1].

لكن لماذا لم تذكر القبائل اليهودية الكبرى بالاسم؟

ربما فضل عليه الصلاة والسلام التعامل معهم ككتلة واحدة تنتظم علاقتهم بالمسلمين عبر الوثيقة يتعاملون فيها كطرف واحد، وينظمون علاقاتهم الداخلية فيما بينهم بما يشاؤون ويرغبون ما دامت لا تتعارض مع شروط معاهداتهم مع المسلمين، خاصة أنه قد أتاح لهم بوضوح المحافظة على دينهم، وأن بنود الرجوع إليه عليه الصلاة والسلام كانت تخص فيما يختلف فيه من بنود الصحيفة وفي علاقاتهم مع المسلمين وليس فيما يشجر بينهم من خلافات داخلية.

حرب ما على الأبواب

الكثير من البنود في الصحيفة لا تؤكد الانطباع بأن ثمة (حرب قادمة) فحسب، بل بعضها يشير ضمنًا إلى وجود (تحركات من قريش)، وكانت الصحيفة تعلن: نحن نعلم بما يدور.

هناك إشارات واضحة ومباشرة، ولكن كلها ممكن أن تفسر بأنها أمور استباقية كما في البندين 43 و44 (وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأنَّ بينهم النصر على من دهم يثرب)، ولكن هناك بندًا آخرَ من المستبعد أن يكون قد وضع استباقيًّا، ولا بدَّ أنه وضع لسبب محدد وواضح.

فالبند رقم 36 يحتم على أي يهودي الحصول على تصريح منه عليه الصلاة والسلام، قبل الخروج من المدينة.

وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

كل يهودي كان يحتاج إلى إذن مغادرة، تصريح خروج، إذا أراد الخروج من المدينة.

(1) سيرة ابن هشام: ج1 ص 540.

هل يعقل أن يفرض هذا أصلًا دون وجود ما يبرره؟ وهل هناك أي سبب لجعل اليهود يوافقون على طلب كهذا لولا أنهم يعرفون أن لديه عليه الصلاة والسلام لديه ما يمسكه عليهم في هذا الشأن؟ ... ربما كانت هناك محاولة من قريش لعقد تحالف مع اليهود ضده عليه الصلاة والسلام، وتأتي الوثيقة هنا لتجهض المحاولة، عقد معاهدة « تسبق» الحلف مع قريش وتكون محرجة لليهود من أي اتفاق لاحق مع قريش، وفي الوقت نفسه تلزمهم بشروط الاتفاق والجوار والنصرة ضد قريش.

اليهود غالبًا وافقوا على الصحيفة وشروطها **لأن رفضهم كان سيعني أنهم قد اتفقوا مع قريش** أو بصدد ذلك، وهذا سيجعل وضعهم في المدينة مهدِّدًا.

لو لم يكن هناك شيء ما، لربما كان وضع اليهود في الاتفاقية يكون أفضل، يطالبون بالحياد مثلًا، لا مع قريش ولا ضدها.

لكن ربما كان هناك شيء ما بينهم وبين قريش، أو على الأقل بين بعض قبائلهم وبين قريش.

وهذا جعلهم يدخلون الصحيفة وهم مستعدون للموافقة على أي شيء. عندما يقبض عليك «متلبسًا» بالجريمة، فإنك ستوافق على أي صفقة تتضمن ربحًا يعرضه عليك رجال القانون.

وفي الوثيقة ما يحفظ لليهود حقوقهم وكيانهم هذا لا شك فيه، لكن فيها أيضًا ما يفتح الباب للمتهودين من الأوس والخزرج بالخروج من (الكيان اليهودي) ليحسبوا مع عشائرهم الأصلية، كما أنها تلزمهم بالحرب ضد قريش لو فيما لو حدث هجوم مفاجئ ضد المدينة، ولقد تكرر هذا الأمر في أكثر من بند من الوثيقة كما لو كانت الوثيقة تؤكد على هذا الأمر: لا نصرة لقريش ولا حماية لها ولا حتى حياد معها. بل الحرب الحرب.

في خانة اليك

من المستبعد أن نكون قد وصلنا إلى هذه النقطة من العلاقة مع اليهود دون أن نمر بمراحل متدرجة وصولًا إلى هذه المعاهدة التي وضعتهم في الزاوية.

وثمة ما يؤكد أن قريش قد حاولت بالفعل تحريض (أو تهديد) بعض سكان المدينة على الرسول عليه الصلاة والسلام:

(أن كفارَ قريشٍ كتبُوا إلى ابن أُبَيٍّ ومَن كان معه يعبُد الأوثانَ من الأوسِ والخزرجِ، ورسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلم - يومئذٍ بالمدينة قبلَ وقعةِ بدرٍ: إنكم آوَيتُم صاحبَنا، وإنا نُقسِم بالله لَتُقاتِلُنَّهُ أو لَتُخرِجُنَّهُ أو لنَسِيرَنَّ إليكم بأجمَعِنا حتى نقتلَ مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغَ ذلك عبدَ الله بن أبيّ ومَن كان معه من عَبَدةِ الأوثانِ، اجتمعوا لقتالِ النبيِّ -صلَّى الله عليه وسلم -، فلما بلغ ذلك النبيَّ -صلَّى الله عليه وسلم- لقيهم فقال: «لَقدْ بَلَغَ وعيدُ قُريشٍ منكم المبَالغ، ما كانت تكِيدُكم بأكْثرَ مِمَّا تريدُون أن تكيدُوا بِهِ أنفُسَكم، تريدُون أن تُقاتلوا أبنَاءَكم وإخوانَكم» فلما سمعُوا ذلك من النبيِّ -صلَّى الله عليه وسلم- تفرَّقوا، فبلغ ذلك كفارَ قريشٍ[1]،....).

تلك كانت أشبه بمحاولة انقلابية يقودها عبد الله بن أبي ومن معه ممن بقوا على شركهم وبتحريض مباشر من قريش.

ما كان يمكن لرسالة كهذه من قريش إلى «كفار المدينة» أن تمر دون أن يتسرب أمرها ويصل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ويكون منه هذا الموقف.

لكن لو كان هناك «كتاب» مماثل وُجِّه من قريش إلى اليهود-لتحريضهم أو تهديدهم- فتسربه سيكون أصعب. التداخل الموجود في المدينة بين عشائر الأوس والخزرج يجعل أمر التسرب محتملًا أكثر، وهو أقل احتمالًا مع اليهود.

من المنطقي أكثر أن قريشًا قد فاتحت اليهود بالأمر، بل ربما ابتدأت بهم، لكن لا دليل تاريخي يدعم ذلك.

ولعل الإشكالية الناتجة عن وجود بنود تشير إلى «إمكانية مشاركة اليهود في الغزو مع الرسول» عليه الصلاة والسلام يمكن أن تفهم في سياق أن الوثيقة كان لا بدَّ لها أن تضعهم في موضوع «التحالف العسكري» مع الرسول عليه الصلاة والسلام لكي يمنع هذا من أي تحالف آخر مع قريش أو حتى حياد تجاهها. أي أن نصوص المعاهدة كانت كسرًا استباقيًّا لتحالف محتمل بين قريش واليهود ربما كان ما يزال في خطوات إعداده الأولى، لولا أن جاءت الصحيفة ووضعت اليهود في زاوية ضيقة، وضيقت بشروطها أي احتمالية لحصول تعاون مع قريش.

***

(1) سنن أبي داود: 3004.

الموقف العدائي المبكر جدًّا من اليهود (الذي سنتعرف عليه بعد قليل) ومراسلات قريش مع عبد الله بن أبي، لا بدَّ أنها كانت جزءًا من الكواليس التي أدت إلى تفاصيل صحيفة المدينة.

لا نعرف الأمر بدقة، لكن من المنطقي أن تكون هذه كلها مؤشرات وإرهاصات أسهمت في تشكيل الواقع الذي انبثقت عنه الصحيفة.

الصحيفة التي وثقت التحول الكبير الذي حدث بعد الهجرة، وحول يثرب إلى المدينة.

هل كانت الصحيفة دستورًا بالفعل؟

من ناحية تعريفية، الصحيفة تستوفي أهم شروط الدستور حتى بالمعنى المعاصر.

لكن من ناحية إجرائية، الأمر ليس كذلك.

طبيعة المرحلة وتحولاتها السريعة ما كانت تحتمل دستورًا دائمًا.

كانت معاهدة تعايش أو دستورا لمرحلة انتقالية إن جاز التعبير.

كانت هناك ظروف معينة جعلت من الضروري سن معاهدة (أو كتابة صحيفة) يلتزم بها جميع الأطراف بشروط معينة.

لكن بعد فترة قصيرة من كتابة الصحيفة بدأ واقع جديد مختلف بالنشوء، وذلك بعد أول نقض للعهد من قبل اليهود. وبعدها توالت التغيرات التي جعلت الكثير من بنود الصحيفة لا معنى لها في السياق الجديد، وبعد سنوات قليلة قريش نفسها أصبحت خاضعة لحكم النبي عليه الصلاة والسلام.

***

أمر غائب في الصحيفة لكن غيابه يدل على أمر مهم.

لا ذكر للأصنام.

هناك ذكر لمرة واحدة للمشركين فقط، لكن الصحيفة لا تذكر الأصنام بتاتًا.

الأصنام التي أصرت قريش على عبادتها وحاربته عليه الصلاة والسلام لأكثر من عشر سنوات تحت شعار دين الآباء الذين تعبدوا لها.

لا ذكر لها هنا، كما لو أن أمرها أتفه من أن يذكر.

هل كانت قريش أكثر إيمانًا بأصنامها من سائر العرب؟

أم أن الأمر لم يكن له علاقة بالأصنام، بل بقوافل الحجاج الذين يأتون وإلى مكة ويتقربون إلى الأصنام المصفوفة فيها وتنتفع تجارة قريش خلال ذلك؟

لم يكونوا يتخيلون ولو للحظة، أن حجاج الدين الجديد الذي حاربوه سيأتون لا من نجد أو اليمن فحسب، بل من الصين والهند وأبعد.

طوت الصحيفة تلك الصفحة.

لفد بدأ فصل جديد.

***

وهذا الفصل الجديد سنرى فيه جانبًا لم نكن قد انتبهنا له في سيرته عليه الصلاة والسلام.

هذه الوثيقة تحمل بصمات (**نمط الحاكم**) من الأنماط الأولية التي برمجت الطبيعة البشرية على التعلق بها. الحاكم الذي يرسخ القانون والنظام ويجعل العلاقات بين الناس محكومة بأطر واضحة وعادلة. الحاكم القريب من الناس، الذي يسري القانون عليه وعلى أهل بيته كما يسري عليهم. الحاكم الراعي الذي يرعى الجميع.

لكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن حاكمًا؛ فسلطته الروحية تتجاوز ذلك بكثير ولا يمكن أن تقارن به.

لكننا كبشر لا يمكن لنا إلا أن نرى نمط الحاكم عندما نرى هذه الوثيقة وهي تبني المجتمع من جديد ويعيد توزيع العلاقات فيه على أسس منتظمة تحفظ الحقوق وتكرس الواجبات.

هذا النظام في الوثيقة يحمل نمطًا برمجنا على أن نتوق له.

ربما لأننا لولاه سنكون في غابة.

صلى الله عليه وسلم، النبي الخاتم الذي مكانته لا تدانيها حاكم أو قائد.

لماذا الدولة؟

صحيفة المدينة تشير إلى تكون شكل من أشكال الدولة أو الحكم في المدينة على يد الرسول عليه الصلاة والسلام، ربما ليس دولة بالمعنى الحديث المتعارف عليه، لكن الشكل الذي طرحته الصحيفة فيه ما يكفي لتشكيل نواة لدولة على الأقل.

لا يمكن تجاهل هذه الحقيقة.

كانت هناك دولة في طور النشوء، وقد نشأت بالفعل لاحقًا.

ولكن لا يمكن تجاهل سؤال آخر ونحن نرى هذه النواة.

أين كان ذلك قبل هذا؟

أين كان مشروع الدولة قبل الصحيفة؟

لا توجد أي إشارة لهذا فيما سبق.

لا توجد أي إشارة قرآنية واضحة تدل على ذلك.

وفجأة: ها هو عليه الصلاة والسلام يقوم بتأسيس دولة.

بالتأكيد نتعامل مع الأمر اليوم على أنه بديهي وطبيعي جدًّا، تحصيل حاصل، لأن رؤيتنا للأمر تشكلت بناءً على معطيات ما حدث.

لكن فلنحاول أن ننظر إلى الأمر من ناحية مختلفة.

ماذا لو لم يحدث ما حدث؟

ماذا لو لم تتشكل (نواة الدولة) في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وتشهد انتصاراتها الكبيرة وتوسعها لتشمل كل أنحاء جزيرة العرب في حياته عليه الصلاة والسلام؟

ما الذي سيحدث للإسلام بشكل عام، ولمكوناته الأهم، لو لم يقم الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه ببناء هذا البناء الذي أشرف عليه وشهد انتصاراته وفتوحاته؟

كجواب مختصر: كان سيحدث للإسلام ما حدث لبقية الأديان.

ماذا يعني هذا؟

يعني أن علينا أن نفهم أولًا ماذا حدث لبقية الأديان، كي نعرف بِمَ اختلف الإسلام عنها.

فهم ما حدث لبقية الأديان لن يكون له علاقة بمحتواها، بل بالفترة الزمنية الممتدة بين **ظهورها الأول، على يد الأنبياء (أو الآباء المؤسسين للأديان غير النبوية) وبين تبنيها من قبل أنظمة حكم أو دول**. والأهم هو تأثير هذه المدة الزمنية على (النصوص المؤسسة) لهذه الأديان.

بعبارة أخرى: سأتفحص الفترة الفاصلة بين نشوء الدين، وقيام الدولة التي تبنت هذا الدين.

وكيف أثرت هذه الفترة على النصوص المؤسسة لهذا الدين؟

نشوء الأديان وانتشارها وتأثير الزمن على النصوص الأصلية

كل الأديان الكبرى عبر التاريخ تلقت دعما من دول أو حكام في مرحلة ما من مراحل انتشارها إما بتبنيها وجعلها ديانة رسمية للدولة وإمَّا بتقديم الدعم لها على حساب بقية الأديان وساهم هذا في زيادة انتشارها.

هناك أديان لم يعد لها وجود، ورصدي سيقتصر على الأديان التي لا يزال لها معتنقون بنسبة إحصائية واضحة بين سكان العالم.

1. **الهندوسية** (نحو1500 ق.م)

- ظهرت الهندوسية من التقاليد الفيدية في الهند، وكانت تعتمد على النقل الشفوي للنصوص الدينية (الفيدا) لمدة ألف سنة تقريبًا[1] قبل بدء التدوين نحو 500 ق. م.
- خلال حكم إمبراطوريتي الموريا (321-185 ق.م) والغوبتا (320-550 م)، حصلت الهندوسية على دعم الدولة وانتشرت في جنوب آسيا[2].
- تأثير الزمن على النصوص: استمرت النصوص الهندوسية بالتغير عبر إضافة نصوص مثل المهابهاراتا والرامايانا، مما أدى إلى اختلافات بين المذاهب والمدارس المنتمية للهندوسية.

2. **الزرادشتية** (نحو 1200 - 600 ق.م)

- أسسها زرادشت في فارس، وركزت على عبادة إله واحد «أهورا مزدا[3]».
- تبنت الإمبراطورية الأخمينية (550-330 ق.م) الزرادشتية كديانة رسمية، أي بعد 650-270 سنة.

(1) Flood, G. D. (1996). *An introduction to Hinduism.* Cambridge University Press.

(2) Hindutone. (2025, July 2). *Hinduism during the Maurya and Gupta Empires: Evolution of philosophy, art, and temples.* Hindutone – The Voice of Hindus Worldwide. https://hindutone.com/hinduism/hinduism-during-the-maurya-and-gupta-empires/

(3) BBC - Religions - Zoroastrian: At a Glance. (n.d.). *BBC.* https://www.bbc.co.uk/religion/religions/zoroastrian/ataglance/glance.shtml

- تأثير الزمن على النصوص: كان الكتاب المقدس «الأفستا» يعتمد على الحفظ الشفهي لمدة ألف سنة[1] حتى فُقدت أجزاء كبيرة منه بعد غزو الإسكندر الأكبر، وتمت إعادة تجميعه في العهد الساساني (224–651 م).

3. اليهودية (نحو 1400ق.م)

- ظهرت مع دعوة نبي الله موسى لخروج بني إسرائيل من مصر نحو 1400 ق.م[2].
- نشأت مملكة إسرائيل ويهوذا نحو 1025 ق. م.
- في عهد الملك سليمان (نحو 960 ق.م)، تم بناء الهيكل في القدس ليصبح مركز العبادة الرسمية.
- تأثير الزمن على النصوص: كتبت التوراة بالتدريج بين 1200–500 ق.م، لكن الدراسات الأخيرة تميل إلى أن فترة ما بعد السبي البابلي (586 ق.م) هي الأكثر ترجيحًا لوقت كتابة التوراة[3].

4. البوذية (500 ق.م)

- أسسها سيدهارتا غوتاما (بوذا) في الهند.
- انتشرت بفضل دعم الإمبراطور أشوكا (268–232 ق.م)[4]، الذي أرسل البعثات لنشرها في جنوب وشرق آسيا، أقدم النصوص البوذية تعود إلى عصر الإمبراطور أشوكا وليس أبعد من ذلك[5].

---

(1) Avestan. (n.d.). *Faculty of Asian and Middle Eastern Studies.* University of Oxford. https://www.ames.ox.ac.uk/avestan

(2) Pines, S., *et al.* (2025, July 19). *Judaism: Definition, origin, history, beliefs, & facts.* Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/Judaism

(3) The Editors of Encyclopaedia Britannica. (n.d.). *When was the Bible written? Encyclopedia Britannica.* https://www.britannica.com/question/When-was-the-Bible-written

(4) Sen, S., & Chandra, A. (2025, June 17). Ashoka | Biography, history, religion, India, & Buddhism. *Encyclopedia Britannica.* https://www.britannica.com/biography/Ashoka

(5) Nakamura, H., et al. (2025, July 17). Buddhism | Definition, beliefs, origin, systems, & practice. *Encyclopedia Britannica.* https://www.britannica.com/topic/Buddhism/Historical-development

- تأثير الزمن على النصوص: كانت التعاليم تُنقل شفويًّا، حتى تم تجميعها في «الكانون البالي»[1] بعد نحو 400 عام من وفاة بوذا، مما أدى إلى اختلافات بين الفرق البوذية.[2]

5. المسيحية (القرن الميلادي الأول)

- بدأت مع دعوة السيد المسيح في فلسطين في الثلث الأول من القرن الميلادي الأول.
- الاعتراف بها رسميًّا بعد أن أصدر الإمبراطور قسطنطين مرسوم ميلانو (313 م)، ثم أصبحت دين الدولة في الإمبراطورية الرومانية عام 380 م.
- تأثير الزمن على النصوص: كانت الأناجيل تُنقل شفويًّا قبل تدوينها بين 70-100 م، وظهرت أناجيل كثيرة منسوبة إلى عدد من حواريي السيد المسيح إلى أن تمت مراجعتها خلال المجامع الكنسية في القرن الرابع، مما أدى إلى تشكيل العهد الجديد المؤلف من 27 كتابًا واعتماد أربعة أناجيل فقط من أصل أكثر من خمسين إنجيلًا متداولًا آنذاك[3] [4].

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) Wynne, A. (2004). The oral transmission of early Buddhist literature. Journal of the International Association of Buddhist Studies, 27(1), 97–128.

(2) The Editors of Encyclopaedia Britannica. (1998, July 20). *Pali canon | Definition, contents, & facts. Encyclopedia Britannica.* https://www.britannica.com/topic/Tipitaka

(3) Flusser, D., Stendahl, K., Sander, T. E., Sarna, M. N., Cain, S., *et al.* (1998, October 19). *Biblical literature | Definition, types, significance, survey, & development. Encyclopedia Britannica.* https://www.britannica.com/topic/biblical-literature/New-Testament-Apocrypha

(4) opusdei.org. (2006, May 13). *What are the canonical and the apocryphal gospels? How many are there?* Opus Dei. https://opusdei.org/en/article/what-are-the-canonical-and-the-apocryphal-gospels-how-many-are-there/

كيف أثرت المدة الزمنية بين ظهور الدين وانتشاره الرسمي على النصوص الدينية؟

1. **التحول من الشفوي إلى المكتوب:** كانت معظم الأديان تعتمد في البداية على النقل الشفوي، مما جعل النصوص عرضة للتغير حتى دُوِّنت، وكلما زادت المدة بين النقل الشفوي والتدوين زادت احتمالية التغيير سواء عن قصد وتعمد أو نتيجة سوء الفهم أو لأسباب أخرى، خاصة أنها كثيرًا ما ترجمت من لغة إلى أخرى.
2. **التحريف والتعديل:** من الصعب تخيل عدم حدوث تحريفات أو تعديلات على النصوص خاصة في ظل ظروف سياسية واجتماعية مضادة أو غير داعمة لأصحاب الدين أو تعرضهم للاضطهاد خاصة عندما تكون النصوص لا تزال في مرحلة النقل الشفوي.
3. **الاختلافات بين الطوائف:** ظهرت اختلافات داخل الدين الواحد نتيجة لاختلاف النصوص المؤسسة، مثل الفرق بين الأناجيل المسيحية واليهودية والبوذية[1].
4. **فقدان بعض النصوص الأصلية:** كما حدث في الزرادشتية حيث ضاعت أجزاء كبيرة من الأفستا بعد غزو الإسكندر والكثير من الأحكام الإسلامية أدخلت إلى النصوص الزرادشتية لاحقًا، كما ضاعت الكثير من الأناجيل التي رفضتها المجامع الكنسية في القرن الرابع الميلادي.

كلمة السر: الاضطهاد

عندما يتأخر تبني دولة ما رسميًّا لدين ما، تكون هناك فترة من الاضطهاد والإقصاء لأتباع هذا الدين، بالتأكيد يتفاوت هذا الاضطهاد من دولة إلى أخرى، وبالتالي فإن تأثيراته ستتفاوت، ولكن على نحو عام، الاضطهاد يجعل أتباع هذا الدين يعملون بشكل سري، وقد تتعرض النصوص الدينية معهم إلى الإخفاء والتلف والضياع، ويكون الأمر أسوأ عندما تكون هذه النصوص شفوية ولم تدون، إذ يتم استدعاؤها لاحقًا من الذاكرة مما يسهل الأخطاء والتعبير بالمعنى الذي فهمه من حفظ الكلام، وأحيانًا يكون هناك تأثير مباشر لهذا الاضطهاد على طريقة التعامل مع النصوص وإعادة صياغتها

(1) تنشأ طوائف جديدة بسبب وجود نصوص مختلفة لكنها تبقى مهمشة ومن ثم تذوب في المحيط العام.

وتحريرها بما ينسجم مع هذه الظروف، وقد حدث ذلك على سبيل المثال مع النصوص اليهودية تحت أثر السبي البابلي حيث يعتبر الباحثون أن هذه الفترة أعادت تركيب اليهودية ونصوصها من جديد[1]، كذلك رؤية اليهود لأنفسهم كمجموعة عرقية نبعت من فترة السبي البابلي[2].كذلك كان من المنطقي أن يحدث شيء مماثل -وإن كان أخف وطأة وعلى نحو مختلف- مع النصوص المسيحية في فترة الاضطهاد الروماني[3].

خلاصات ونتائج:

إذا كان الدين بلا دولة تحميه وتتبناه، فإنه من الأغلب أن نصوصه الأصلية ستتعرض للضياع أو التغيير أو كليهما معًا. حديث التغيير هنا لا يعني بالضرورة التغيير المتعمد المسيء للنص، بل التغيير الصادر عن الطبيعة البشرية التي قد تتعرض للسهو والنسيان أو للتأثر بالظروف، خاصة لو كانت هذه النصوص لا تزال تتناقل بصورة شفوية.

كلما زادت المدة الزمنية بين (النصوص الشفوية) و(مرحلة تدوينها) فإن **احتمالية حدوث التغيير أكثر وأكبر، خاصة لو كان هناك ترجمة من لغة إلى أخرى.**

وكلما زادت **المدة الزمنية بين (التدوين) وبين تحول هذا الدين إلى دين رسمي من قبل دولة** ما، أو على الأقل دين مقبول من قبل دولة ما، فإن احتمالية حدوث (تغيير) في نصوص هذا الدين أكبر.

بعبارة أخرى: لو أن الدولة -أو نواتها، أو شكل مبكر من أشكالها- لم تنشأ في وقت مبكر من الإسلام، فإنه كان سيتعرض لما تعرضت له بقية الأديان من (تغيير) في نصوصها التأسيسية.

---

(1) Barton, G. A. (1911). Influence of the Babylonian exile on the religion of Israel. *The Biblical World, 37*(6), 369–378. https://www.jstor.org/stable/3141403

(2) Pasachoff, N. E., & Littman, R. J. (2005). *A concise history of the Jewish people* (p. 43). Rowman & Littlefield.

(3) he Editors of Encyclopaedia Britannica. (n.d.). Christianity: Relations between Christianity and the Roman government and the Hellenistic culture. *Encyclopedia Britannica*. https://www.britannica.com/topic/Christianity/Relations-between-Christianity-and-the-Roman-government-and-the-Hellenistic-culture

ماذا لو ـ لا دولة؟

فلنتخيل فقط سيناريو افتراضي عن عدم نشوء الكيان السياسي الذي أسسه عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة إلى المدينة.

أفضل سيناريو نتخيله في ظل عدم نشوء الدولة هو أن قريش لن تحارب المسلمين وستحاول التعايش معهم بطريقة ما، وكذلك سيفعل بقية العرب، وهذا سيجعل المدينة في سلام وأمن من التهديد المباشر، قد يدخل البعض من القبائل المجاورة أو أفراد منها في الدين الجديد، وقد يتوسع الإسلام في جزيرة العرب بهذه الطريقة، لكنه سيبقى دينًا محليًّا بالعرب في هذا الجزء من الجزيرة.

أكثر من هذا، ولأن جمع القرآن تاريخيًّا حدث بسبب مقتل عدد كبير من الحفاظ في حروب الردة، فإنه على الأكثر لن تنشأ ضرورة لتدوين القرآن، وسيبقى ينتقل شفويًّا لفترة من الزمن، ربما لقرون، إلى أن تأتي حادثة ما تجعل التدوين ضروريًّا، ولكن بعد أن يكون قد حدث ما حدث لبقية الأديان.

سياسيًّا، كان العرب سيبقون قوة هامشية داخل الصراع بين الفرس والروم، وربما سيقعون تحت قبضة هذه الجهة أو تلك، بكل ما يمكن أن يحمله ذلك من أخطار على النصوص الأصلية.

وربما كان سينشأ قائد من داخل المسلمين يغير هذا الوضع ويقوم بما يسرع قيام دولة، ولكن القائد الذي تفرزه الظروف ليس مثل النبي صاحب الرسالة المؤتمن عليها، لذا فالنصوص كانت ستتأثر أيضًا بهذا التغير. الشيء نفسه كان سيحدث لو أن الروم أو الفرس (أو جهة ثالثة) اعتنقت الإسلام بعد مرور عقود أو قرون على هذا السيناريو الذي نطرحه افتراضًا فقط لغرض فهم لماذا حدث ما حدث ولماذا كان يجب أن يحدث كي لا تتكرر السُّنَّة التي حدثت مع بقية الأديان..

السيناريو الذي حدث: سنن الله في أفعال البشر

لكن الله عز وجل تكفل كتابه بالحفظ، وقد شاء أن يحدث ذلك عبر أفعال واعية للبشر الذين كانوا في موقع المسؤولية

«...أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الوَحْيَ - قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ:

إِنَّ القَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ[1] يَوْمَ اليَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِالقُرَّاءِ فِي المَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ القُرْآنَ»،

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: «كَيْفَ أَفْعَلُ شيئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟»

فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ،

فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ،

قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لاَ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلاَ نَتَّهِمُكَ، «كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ،

قُلْتُ: «كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شيئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟»

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ،

فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ، وَالعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ[2]...

***

متى حدث ذلك؟

بعد عامين فقط من وفاته عليه الصلاة والسلام.

استغرق الأمر قرونًا في بقية الأديان، بل وصل مع بعضها إلى ألف سنة.

لكن مع الإسلام ونصه التأسيسي: القرآن، عامان فقط.

هل يمكن لذلك أن يحدث لولا نشوء الدولة؟ طبعًا لا.

ليس هذا فقط، بل حدث الجمع عبر لجنة معلنة مكلفة بالأمر، تجمع كل ما كتب، وليس سرًّا في الأقبية وبعيدًا عن أعين السلطات خوفًا منها.

---

(1) استحر: زاد.

(2) صحيح البخاري: 4679.

اختلف المسلمون فيما بينهم وتحاربوا حتى سالت الدماء أنهارًا، **لكن لم تدع أي فرقة أن القرآن الذي عند الفرقة الأخرى مختلف بحرف واحد.**

لو أن هذا الجمع حدث بعد قرون، لكان لكل فرقة قرآنها الذي تدعي أنه القرآن الأصلي.

لكنه عز وجل تكفل بالحفظ. إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.

والسنن الإلهية تعمل أحيانا عبر أفعال البشر وقراراتهم الحكيمة وبصيرتهم التي ترى الخطر من بعيد...

***

بعبارة أخرى...

كانت الدولة التي أنشأها الرسول ضرورية لحفظ النصوص المؤسسة للدين، دون وجود دولة لها سلطة كان سيحدث ما حدث للنصوص السابقة.

لا أتحدث هنا عن الحفاظ على الدين وإيمان الناس به. بل عن حفظ النصوص المؤسسة للدين، يستطيع الناس أن يتدبروا أمورهم ما دام النص لم يمس.

كانت الدولة وسيلة لأجل ذلك.

ولم تكن هدفًا بحد ذاته.

المسألة اليهودية، وأشياء أخرى

تبدأ بعض العلاقات بداية مختلفة تمامًا عما تنتهي إليه.

تذهب إلى العلاقة بنية طيبة، بأمل أن يكون الطرف الآخر سندًا ودعمًا، لأنك ترى أنه أقرب إلى أفكارك من الآخرين.

ثم تصدم به، ما رأيته من قرب لم يقربك منه، على العكس، عندما اقتربت أكثر، رأيت بصورة أدق، رأيت فيه كل ما يجب عليك أن تتجنب حدوثه معك.

كان هذا هو باختصار ما حدث مع اليهود.

***

مثل كل نبي وصاحب رسالة يريد أن ينقذ الجميع. كان عليه الصلاة والسلام يرغب أن يؤمن به اليهود، فهم أهل كتاب، وكان عليه الصلاة والسلام يعرف أن ما أنزل على موسى هو من المشكاة نفسها التي نزل عليه منها الوحي، وأنه جاء متممًا وخاتمًا لرسالات من سبقه من الأنبياء.

كان عليه الصلاة والسلام يعرف حتمًا أن تجربة بني إسرائيل كانت بعيدة عن المثالية سواء مع أنبيائهم أو لاحقًا في طريقة تعاملهم مع النصوص الدينية، لكنه كان يطمح بالتأكيد إلى أن يصحح اليهود مسارهم بالإيمان بالنبي الجديد الذي كان مذكورًا في كتبهم.

كانت هناك بشارة تجعله مستبشرًا في ذلك.

وكان يرجو أيضًا، أن يكون ذلك نقطة تحول كبيرة في مسيرة دعوته وطريق رسالته.

لو آمن اليهود به، أو أغلبهم، فإن ذلك سيجعل العالم مختلفا جدًّا آنذاك، وغالبًا ستتراكم تأثيرات ذلك الاختلاف بحيث تغير العالم الذي نعرفه اليوم.

كان المجتمع المدني سيكون موحدًا أكثر، بإمكاناتٍ اقتصادية أقوى، مما قد يجعل قريش نفسها تعيد النظر في موقفها من الإسلام، خاصة أن إيمان أهل الرسالات السابقة بالرسول عليه الصلاة والسلام سيعطي المزيد من المصداقية للرسالة الخاتمة في أعين كفار العرب.

تأثير ذلك كان يمكن أن ينسحب إلى اليهود في أماكن أخرى، خاصة في اليمن وبلاد الشام، وكان دخولهم في الإسلام سيجعل بقية أهل الكتاب ينظرون إلى الرسول الجديد ورسالته الجديدة -كما هو فعلًا- كامتداد للرسالة الإبراهيمية في نسختها الخاتمة المصححة لما سبق، حتى لو رفضوا الإيمان التام بها، فإن النظرة لن تكون إلى الإسلام كما لو كان دخيلًا على الرسالة الإبراهيمية. وهي النظرة التي بقيت سائدة عندهم لقرون تلت، بل حتى اليوم.

هل يعني ذلك أن الأمر كان سيكون سهلًا تمامًا دونما صراعات وتحديات ومواجهات وحروب؟

بالطبع لا، الحياة أكثر تعقيدًا من ذلك، والمصالح تتحكم في كثير من جوانبها.

لكن استغلال الخلافات الدينية سيكون أقل، النظرة إلى المسلمين ستكون أقل حدة.

لو أن ذلك حدث، في تلك البداية المبكرة في المدينة، في الأعوام الأولى للهجرة، لكان كل شيء تغير، حتى عالمنا المعاصر، الذي يحمل تركة التاريخ كله، كان سيكون مختلفًا.

قطعة دومينو واحدة بعينها، كان يمكنها أن تغير مسار قطع الدومينو الباقية.

لكن يهود المدينة -لأسباب كثيرة- لم يختاروا هذه القطعة، بل اختاروا، مرة تلو الأخرى، قطعًا أخرى، وقادت تلك القطع إلى مسار مختلف تمامًا.

كان يمكن ألا يحدث.

تاريخ اليهود في الجزيرة العربية

وجود القبائل اليهودية في المدينة قديم وسابق بالتأكيد على وجود الأوس والخزرج فيها. أما متى بالضبط بدأ هذا الوجود سواء في الجزيرة العربية عمومًا أو في المدينة

تحديدًا فهذا أمر مختلف عليه بدرجة كبيرة. المصادر التراثية تورد أخبارًا عن وجودهم في المدينة منذ عهد النبي موسى[1]، برغم العثور على نقوش أثبتت وجودًا لليهود في تيماء في القرن الخامس قبل الميلاد فإن المصادر المعاصرة ترجح أن الوجود اليهودي في الجزيرة مرتبط بتدمير الرومان للهيكل في القرن الأول الميلادي، ومن ثم قمع تمرُّد بار كوخبا ضد الرومان في القرن الميلادي الثاني حيث هاجر الكثير من اليهود إلى شمال الجزيرة العربية واليمن والحجاز[2]. هجرات لاحقة قد تكون ارتبطت بإعلان اليهودية دينًا رسميًّا في مملكة حمير في اليمن مع تهود الملك (ذو نواس) في القرن السادس الميلادي[3].

لا يمكن الجزم أن كل اليهود في الجزيرة العربية بحلول القرن السابع الميلادي كانوا من نسل القبائل اليهودية الأولى التي جاءت للجزيرة، إذ تبقى احتمالات التهود واردة، خاصة مع حدوث حالات تهود جماعية وقت الملك (ذو نواس)[4]، وأخبار عن تهود بطون من بعض القبائل العربية[5].

وبحلول القرن السابع الميلادي، قرن البعثة النبوية. كانت هناك تجمعات سكانية يهودية مهمة في كل من المدينة، فدك، خيبر، تيماء، وكان لهذه التجمعات أثرها الاقتصادي والثقافي المهم بلا شك.

من الآثار الثقافية المهمة، خاصة في المدينة، أن هذا الوجود كان له أثر غير مباشر في تقبل أهل المدينة لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، من حيث تقبلهم لفكرة التوحيد والرسالات، باعتبار أن اليهود موحدون ويؤمنون برسالة، ومن حيث إن اليهود

(1) المختصر في أخبار البشر: (1/98).

(2) Graetz, H. (2013, July 28). *History of the Jews, Vol. 3 (of 6)*. Project Gutenberg. https://www.gutenberg.org/ebooks/43337

(3) Josephus. (n.d.). *Antiquities of the Jews: Book I*. University of Chicago. Retrieved July 24, 2025, from https://penelope.uchicago.edu/josephus/ant-1.html

(4) Robin, C. J., & Harris, J. (2021). Judaism in pre-Islamic Arabia. In P. I. Lieberman (Ed.), *The Cambridge history of Judaism* (pp. 294–331). Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/9781139017832.011

(5) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (12/90-116).

أنفسهم كانوا يخبرون أهل المدينة أن هناك نبيًّا جديدًا قد حل زمان ظهوره، بل وكانوا يتوعدون العرب أنهم سيتبعون هذا النبي ويقتلون العرب.

قتل عاد وإرم

عنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ، قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودٍ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ حَتَّى وَقَفَ عَلَى بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: «وَأَنَا يَوْمَئِذٍ حَدَثٌ عَلَيَّ بُرْدَةٌ لِي مُضْطَجِعٌ فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْقِيَامَةَ وَالْبَعْثَ وَالْحِسَابَ وَالْمِيزَانَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ».

قَالَ: فَقَالَ ذَلِكَ فِي أَهْلِ يَثْرِبَ، وَالْقَوْمُ أَصْحَابُ أَوْثَانٍ لَا يَرَوْنَ بَعْثًا كَائِنًا عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ، أَتَرَى هَذَا كَائِنًا يَا فُلَانُ؟ إِنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى جُنَّةٍ وَنَارٍ وَيُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ، قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ. قَالُوا: يَا فُلَانُ، وَيْحَكَ مَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى مَكَّةَ، قَالُوا: وَمَتَى نَرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا أَصْغَرُهُمْ سِنًّا فَقَالَ: أَنْ يَسْتَنْفِدَ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ، قَالَ سَلَمَةُ: «فَوَاللَّهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنَّا بِهِ، وَكَفَرَ بَغْيًا وَحَسَدًا»، فَقُلْنَا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فُلَانُ، أَلَسْتَ الَّذِي قُلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِهِ[1].

وقال ابن إسحاق: (وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا:

إن مما دعانا إلى الإسلام -مع رحمة الله تعالى وهداه لنا- لما كنا نسمع من رجال يهود كنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم

فلما بعث الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به ففينا وفيهم نزلت هذه الآية ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 89])[2]

(1) المستدرك على الصحيحين: 5764، مسند الإمام أحمد: 15841.

(2) صحيح السيرة النبوية: (1/57).

لكن الأثر الإيجابي، غير المباشر وغير المقصود، الذي جعل أهل المدينة مهيئين لقبول الرسول اصطدم لاحقًا بموقف متعنت من اليهود في قبول النبي الجديد وفي الاعتراف بنبوته، وبدلًا من أن يحدث الاقبال المنطقي على الإيمان بالنبي الجديد من قبل اليهود، فإن المشركين من الأوس والخزرج هم الذين أقبلوا على الإيمان بالدين الجديد، وعارضه أغلب اليهود في المدينة. النفس البشرية أعقد بكثير من أن يحكمها منطق، ولعل إدراك أحبار اليهود أن هذا النبي الجديد لن يكون تابعًا لهم، وأنه قد جاء برسالة ناسخة لما سبق مما لحقه تحريف قد أسهم في موقفهم المتعنت.

فلننتبه إلى أن هناك من سادات اليهود وكبارهم من دخل في الإسلام في هذه الفترة، لكن طبيعة الصراع لاحقًا جعلت التركيز ينصب أكثر على عداواتهم وغدرهم، من هؤلاء الذين أسلموا وحسن إسلامهم بل وأصبحوا من كبار الصحابة عبد الله بن سلام وولداه محمد ويوسف، وشقيقه ثعلبة بن سلام، وقد عد بعض الباحثين أكثر من ثلاثين صحابيًّا كانوا يهودًا وأسلموا في حياته عليه الصلاة والسلام[1]، وربما كانت هناك أسماء أخرى لم توثق لعدم وجود حادثة تربط اسمها بها.

***

جاء الرسول المدينة وهو يدرك بطبيعة الحال أهمية الوجود اليهودي وأهمية إيمان اليهود برسالته أو على الأقل تقبلهم لها.

ولعل وجود أخبار تذكر (نبي آخر الزمان) وأوصافه التي تنطبق على النبي عليه الصلاة والسلام كانت كفيلة بجعل بعض هذه الآمال، تبدو واقعية وعلى أبواب أن تحدث...

لكن كان ثمة موقف مختلف جدًّا ومبكر جدًّا.

بل ربما في أول يوم وصل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

(1) يهود أسلموا في حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، علاء بكر، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية.

عبد الله بن سلام: أنت خيرنا، إلى أن تقول شيئًا لا نوافق عليه

تذكرون عبد الله بن سلام، الذي أسلم بعد أن رأى النبي عليه الصلاة والسلام وقال: وجهه ليس بوجه كذَّاب؟

تفاصيل إسلامه في ذلك اليوم تروي لنا الكثير.

وبين سطور هذا الكثير هناك أكثر.

عبد الله بن سلام كان من أحبار اليهود ومن أشرافهم، وما حدث معه في أول يوم إسلام، أول يوم في المدينة يخبرنا في حادثة واحدة عن الموقف المبكر لليهود، الموقف الذي لن يشهد لاحقًا تغييرا كبيرا، بل سيتدهور للأسف.

(...فَرَكِبَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ، وَحَفُّوا دُونَهُمَا بِالسِّلَاحِ، فَقِيلَ فِي المَدِينَةِ: جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ، جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَشْرَفُوا يَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ، جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ، فَأَقْبَلَ يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَ جَانِبَ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ، فَإِنَّهُ لَيُحَدِّثُ أَهْلَهُ[1] إِذْ سَمِعَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، وَهُوَ فِي نَخْلٍ لِأَهْلِهِ، يَخْتَرِفُ لَهُمْ، فَعَجِلَ أَنْ يَضَعَ الَّذِي يَخْتَرِفُ لَهُمْ فِيهَا، فَجَاءَ وَهِيَ مَعَهُ، فَسَمِعَ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ....).[2]

(فَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَأَنَا فَوْقَ فِي نَخْلَةٍ لِي أَجُدُّهَا، فَسَمِعْتُ رَجَّةً فِي الْمَدِينَةِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟، قَالُوا: رَسُولُ اللهِ قَدْ قَدِمَ، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ نَفْسِي مِنْ أَعْلَى النَّخْلَةِ ثُمَّ جِئْتُ أَحْضُرُ حَتَّى أَتَيْتُهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ، فَقَالَتْ أُمِّي: لِلَّهِ أَنْتَ، وَاللهِ لَوْ كَانَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ بِذَلِكَ تُلْقِي نَفْسَكَ مِنْ أَعْلَى النَّخْلَةِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَنَا أَسَرُّ بِقُدُومِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ إِذْ بُعِثَ)[3]

---

(1) الضمير يعود على النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه نزل عند أخواله من بني النجار، أي بينما كان يحدث أخواله.

(2) صحيح البخاري: 3911.

(3) المعجم الكبير للطبراني: 372.

عبد الله بن سلام كان يعمل في بستان له عندما وصل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، كان يخترف لأهله؛ أي يجمع ويجني لهم الثمار، وبينما هو يفعل ذلك سمع بالخبر، الناس يتناقلونه وينادي بعضهم بعضًا، جاء نبي الله، جاء نبي الله...

ألقى عبد الله بن سلام بنفسه من النخلة لكي يرى النبي، حتى هذه اللحظة لم يكن قد آمن بعد به، لكنه أسرع ليراه، كان من أحبار اليهود، وكان يعرف صفات النبي كما وردت في كتبهم. عندما وصل إليه كان ما يزال يحمل سلته التي يجمع فيها الثمار... لكنه لم يكن قد قطف بعد ثمرته الأهم والأثمن، ثمرته التي لن تكفيها سلال الدنيا كلها...

قالت له أمه عندما عاد، وكانت شاهدت كيف ألقى بنفسه من النخلة، لو كان موسى بن عمران هو الذي جاء المدينة ما كنت فعلت ذلك...

فقال لها، وكان قد عاد وهو يحمل لا الثمار فقط، بل اليقين أيضًا، والله أنا أكثر سرورًا مني لو أن موسى بن عمران هو الذي جاء..

(بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلاَمٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ؟ ...فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الوَلَدِ: فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ المَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا « قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ..).[1]

عرف أنه ليس بكذاب من وجهه، لكن كان عليه أن يسأله، قلبه يخبر بأنه هو، هو الذي كانوا ينتظرون، لكن عقله يريد امتحان قلبه.

سأله ما يعرف أن الجواب لا يكون إلا عند رسول الله.

ورد عليه الصلاة والسلام ما جعل لسانه ينطق ما كان قلبه يقوله منذ أن رأى أن وجهه ليس بوجه كذاب....

(1) صحيح البخاري: 3329.

لكن عبد الله بن سلام الذي خبر قومه (والنفس البشرية عمومًا)، كان يتوقع ما سيحدث عندما يعلم قومه بخبر إسلامه...

قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ[1]

فَأَخْبِئْنِي عِنْدَكَ، وَابْعَثْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي[2]

أراد عبد الله بن سلام أن يقول اليهود شهادتهم فيه قبل أن يعلموا إسلامه كي لا يبهتونه، أي يكذبون ويفترون عليه انتقاصًا منه ومن أهمية شهادته..

فَجَاءَتِ اليَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ البَيْتَ،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ»**

قَالُوا أَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ»**

قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ،

فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،

فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ[3]

فَقَالَ: **«هَذَا كُنْتُ أَخَافُهُ يَا رَسُولَ اللهِ»**[4]

هذا ما كان يخافه ويتوقعه، وقد حدث.

في موقف بسيط واحد سيظهر تناقضهم.

أولًا: مَن هو عبد الله بن سلام فيكم؟

الجواب أعلمنا وابن أعلمنا وخيرنا وابن خيرنا.

الأعلم والأخير.

وفي ثوانٍ معدوداتٍ تغيَّر الموقف.

---

(1) صحيح البخاري: 3299.

(2) مسند أحمد: 13868.

(3) صحيح البخاري: 3329.

(4) سنن النسائي الكبرى: 8197.

بمجرد أن شهد عبد الله بن سلام شهادة الإسلام تغير موقفهم منه.

حدث تناقض فوري بين شهادتهم لهم بالعلم والخيرية وبين موقفهم المسبق من رفض الدخول في الدين الجديد أو تقبله على الأقل.

مجرد أن قال شهادته صار هو الأشر بينهم، أبوه أيضًا أصبح الأشر.

موقف متكرر في حياتنا اليومية، ندين بالولاء لأشخاص ونكيل لهم الثناء والمديح، هذا كاتبي المفضل الذي تربيت على كتبه. هذا هو المفكر الذي صنع رؤيتي للعالم. إلخ.. إلخ، ثم يأتي هذا الكاتب أو المفكر أو العالم بموقف مخالف لما نعتقد أنه الصواب. قد يكون موقفه صائبًا أو لا يكون، لكننا ننسف كل ما قلناه في ثوان. أغلب السلوكيات التي تورط بها اليهود ليست قاصرة عليهم ولا يورثونها في جيناتهم، بل هي سلوكيات بشرية يمكن أن تصبح جزءًا من أسلوبنا في التعامل دون أن ننتبه، ينسحب ذلك على كل نقد جاء به القرآن لسلوكيات بني إسرائيل مع نصوصهم الدينية، هذا يمكن أن يحدث معنا أيضًا. يمكن للبعض أن ينحرف فيفعل مع نصوصنا الدينية ما فعله بنو إسرائيل.

***

هذه الحادثة كانت مبكرة جدًّا.

جزء منها حدث بالتأكيد في أول يوم لوصوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

لا نعرف أن كان ما حدث لاحقًا كان في اليوم نفسه، أعني لقاء اليهود بالرسول عليه الصلاة والسلام واختباء عبد الله بن سلام لحين أن ظهر عليهم وهو يقول الشهادة.

لكن من المؤكد أنها كانت مبكرة، في أوائل الفترة المدنية.

وكان هذا الموقف المبكر يشي بموقف متعنت من اليهود تجاه الإسلام، موقف مختلف تمامًا عما كان عليه الصلاة والسلام يطمح له.

ولكي نفهم هذا الموقف علينا أن نتفحص الفروق المهمة بين دخول المشركين في الإسلام، وبين دخول اليهود، أو أهل الكتاب في الإسلام.

إسلام أهل الكتاب: الأمر معقد

قد يبدو للوهلة الأولى أن دخول المشركين إلى الإسلام أصعب من تحول أهل الكتاب إليه، وذلك بسبب أن الاختلاف بين الوثنية وأديان التوحيد أكثر بكثير من الاختلافات ضمن الأديان التوحيدية.

على العكس، فإن ما يبدو سببًا في جعل الانتقال من الوثنية إلى الإسلام صعبًا، هو بالتحديد ما جعل الأمر مع مشركي قريش أيسر على المدى البعيد من يهود المدينة.

كان مشركو قريش -وأكثر مشركي العرب- يتعبدون للأوثان ويتقربون لها، وكان هذا (دينهم) بحسب نص القرآن، لكن هذا الدين، وإن اشتمل على الشعائر، فإنه في الوقت نفسه لم يقدم رؤية للحياة أو العالم، ولا اقترح دورًا للإنسان في هذا العالم، كما أن هذا الدين الوثني لم يرتبط بأي منظومة أخلاقية كانت سائدة عند العرب، ولا بقانون ينظم حياتهم، ولم يقدم هذه الوثنية أي سردية لقصة خلق العالم، ومن ثم لم تسهم في الإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى.

هذا كله أسهم في **خلق فراغ روحي عند عرب الجاهلية**. العائق الحقيقي أمام اعتناقهم الإسلام لم يكن دينهم الوثني بحد ذاته، بل تمسكًا بما عبده الآباء والأجداد وما عبدته القبيلة التي كانت محور وجودهم والإطار الذي يرون كل شيء من خلاله. هناك كانت العقبة الحقيقية.

مع أهل الكتاب، كان الأمر مختلفًا، دينهم كان مرتبطًا برؤية للعالم، وثمة منظومة أخلاقية قانونية واضحة، وسردية متماسكة عن قصة الخلق وحس مميز بالهوية والهدف من الوجود.

هذا كله كان يقترب بدرجات مختلفة مع ما جاء به الإسلام، وهذا طبيعي ما دام المصدر واحد، الاختلافات كانت بشكل أساسي بسبب حدوث تغييرات في النصوص الدينية السابقة (بعضها طبيعي بسبب مرورها بظروف تاريخية صعبة، أو حدوث تغيير في أثناء النقل الشفوي قبل التدوين، أو بسبب الترجمات من لغة إلى أخرى، وبعضها كان متعمدًا بسبب سيطرة رجال الدين واحتكارهم للنصوص الدينية)، ولكن مهما كانت الاختلافات بين الكتب السابقة والقرآن، فإن المشتركات والتشابهات كانت لا تزال قائمة وبوضوح.

للوهلة الأولى سنعتقد أن وجود المشتركات والتشابهات ستسهل الانتقال والتحول من دين إلى آخر.

لكن هذا غير صحيح، بالمرة.

الانتقال بين ما هو متشابه من العقائد يكون أصعب من الانتقال بين المختلف جذريًا منها.

***

ظاهرة صعوبة الانتقال بين المعتقدات المتشابهة مقارنة باعتناق معتقد مختلف جذريًّا ظاهرة معروفة تاريخيًّا وقد وجدت من يهتم بدراستها ومعرفة أسبابها. الحديث هنا عن معتقدات دينية متقاربة مثل أن تكون طوائف مختلفة داخل الدين الواحد (الكاثوليكية مقابل البروتستانتية مثلًا)، أو معتقدات سياسية تنتمي إلى نفس المعسكر الشيوعي (الماركسية اللينينيَّة مقابل التروتسكية). على الجانب الآخر، تجد المعتقدات المختلفة جذريًا انتقالًا أيسر (الانتقال إلى البوذية من المسيحية أو إلى الليبرالية من الشيوعية)[1].

هناك عدة تفسيرات نفسية اجتماعية لهذه الظاهرة:

أولًا: تشابك الهوية Identity Entanglement

عندما تكون منظومتان فكريتان متشابهتين جدًّا، فإن التحول من أحدهما إلى الأخرى يشعر المرء وكأنه يرتكب خيانة تجاه ذاته أو هويته الأصلية. الكثير من المعتقدات تصبح مع الوقت جزءًا من الهوية وليست مجرد معتقدات. الاعتراف بوجود خطأ في تفاصيل كانت لصيقة بهويتك يسبب توترًا نفسيًّا وتنافرًا معرفيًّا فعندما تصبح العقيدة جزءًا من هوية الشخص، فإن التشكيك فيها أو التخلي عنها يُشعره وكأنه يفقد جزءًا من ذاته. لا يقتصر الأمر على الاختلاف مع الآراء الأخرى، بل يتم الشعور بها كهجوم شخصي متعمد؛ لذلك يكون التحول بين منظومات فكرية متشابهة أصعب، لأنه يُسلط الضوء على فروق دقيقة، ولكنها متجذِّرة بعمق في الهوية.[2]

(1) نتحدث هنا عن الظاهرة، لكن بالتأكيد هناك حالات فردية كثيرة انتقلت بين معتقدات متشابهة.

(2) Brewer, M. B. (1991). The social self: On being the same and different at the same time. *Personality and Social Psychology Bulletin, 17*(5), 475–482.

ثانيًا: نرجسية الفروق الصغيرة Narcissism of small differences

لاحظ فرويد وجود نزاعات وعداوات بين مجموعات تمتلك الكثير من الصفات المشتركة والمتشابهة، تتدرج هذه العداوات من تسخيف واستصغار كل طرف للآخر، وصولًا إلى حدوث نزاعات دموية بين الطرفين، يمكن ملاحظة هذه الظاهرة في الكثير من المدن المتجاورة التي تمتلك الكثير من المشتركات، ولكن العلاقة بين السكان تكون فيها نوع من المنافسة والاستعلاء المتبادل. الشيء ذاته يمكن ملاحظته في الطوائف الدينية أو فرق كرة القدم أو حتى العوائل التي تتصاهر فيما بينها. من بعيد يبدون متشابهين جدًّا، لكنهم لا يرون أنفسهم كذلك على الإطلاق.

فسَّر فرويد الأمر في الرغبة الفطرية بتكوين هوية متمايزة تضطر إلى التركيز على الفروق الصغيرة لإبراز هذه الهوية وتأطيرها، وهكذا ينتهي الأمر إلى جعل الفروق الصغيرة أهم من المشتركات الكبيرة[1].

ثالثًا: الكلفة الاجتماعية والقبلية:

التحول إلى المعتقد القريب الذي يمتلك مشتركات وتشابهات يعتبر (في العقل الجمعي القبلي) بمنزلة خيانة، بينما الذهاب إلى معتقد مختلف جذريًّا يعتبر مغامرة فردية ينظر لها اجتماعيًّا على أنها أقل تهديدًا من التحول إلى المعتقد القريب، الأخطر لأنه الأقرب حسب هذه النظرة، بينما المعتقد المختلف جذريًّا لا يعامل هكذا. يشبه الأمر زواج ابن العائلة من ابنة العائلة الجارة التي تنتمي إلى مذهب آخر من الدين نفسه،

Tajfel, H., & Turner, J. C. (2004). The Social Identity Theory of Intergroup Behavior. In J. T. Jost & J. Sidanius (Eds.), *Political psychology: Key readings* (pp. 276–293).

(1) Blok, A. (1998). The Narcissism of Minor Differences. *European Journal of Social Theory, 1*(1), 33-56. https://doi.org/10.1177/136843198001001004 (Original work published 1998)

Nagle, J., Clancy, MA.C. (2010). Conclusion: The Narcissism of Minor Differences?. In: Shared Society or Benign Apartheid?. Palgrave Macmillan, London. https://doi.org/10.1057/9780230290631_9

McKay, B., & McKay, K. (2021, September 26). *The narcissism of minor differences.* The Art of Manliness. https://www.artofmanliness.com/character/behavior/the-narcissism-of-minor-differences/

بينما لو تزوج من أجنبية من دين مختلف تمامًا أو بلا دين فأن العائلة ستكون (في الكثير من الأحيان) أكثر تقبلًا. [1]

رابعًا: الولادة من جديد عبر اعتناق معتقد مختلف جذريًا

Rebirth through contrast

المعتقدات المختلفة جذريًا تمنح الشخص الذي يعتنقها قطيعة معرفية وروحية تامة مع المنظومة الاعتقادية السابقة، ويكون بذلك بمنزلة ولادة جديدة بالنسبة إلى الشخص المتحول، حيث يؤمن أن حياته قد بدأت منذ لحظة دخوله المعتقد الجديد الذي مثل له الولادة والخلاص، كل ما يتعلق بالمنظومة الاعتقادية السابقة بكل ما فيها يصبح جزءًا من الماضي المتعلق بشخص آخر.

هذا النوع من التحول يكون في بعض النواحي أسهل من الانتقال من منظومة إلى منظومة تمتلك الكثير من نقاط التشابه، لأن هذا الانتقال يحتم استمرار المقارنات بين المنظومتين وهذه المقارنات تنتج توترًا معرفيًا ونفسيًا عكس ما يحدث مع حالات القطيعة التامة.[2]

يشبه الأمر دراستك للغة أجنبية تمتلك جذورا مشتركة مع لغتك الأم (مثل العربية والعبرية- أو الإنجليزية والألمانية والهولندية) أو لغات تبادلت التأثير عبر الزمن (مثل العربية والتركية والفارسية) و(الإنجليزية والفرنسية)، في هذه الحالة ستكون المقارنة قائمة ومستمرة تلقائيًا، لن تترك تمامًا اللغة الأصل بل ستكون حاضرة في ذهنك بالمقارنة، حتى لو لم تكن ترغب بذلك.

---

(1) Berger, P. L., & Luckmann, T. (1991). *The social construction of reality*.pp144, Penguin Books.

(2) Iyadurai, J. (2020). Religious conversion and personal transformation. In D. A. Leeming (Ed.), *Encyclopedia of psychology and religion* (pp. [if available]). Springer. https://doi.org/10.1007/978-3-030-24348-7_9244

Sandage, S. J., & Moe, S. P. (2013). Spiritual experience: Conversion and transformation. In K. I. Pargament, J. J. Exline, & J. W. Jones (Eds.), *APA handbook of psychology, religion, and spirituality (Vol. 1): Context, theory, and research* (pp. 407–422). American Psychological Association. https://doi.org/10.1037/14045-022

على العكس من ذلك، لو درست لغة بعيدة تمامًا عن لغتك الأم، مثل اللغة الصينية، لن تكون هناك مقارنات أو استحضار لما سبق.

***

هذه العوامل النفسية الاجتماعية تفسر لنا جزئيًّا لماذا كان انتقال أهل الكتاب إلى الإسلام بطيئًا في هذه المرحلة على الأقل. في تلك الفترة، كانت التشابهات بين أديان أهل الكتاب والإسلام أكثر مما نراها اليوم، لأن المحيط العام كان وثنيًّا.

لكن هذه العوامل لم تكن وحدها هي التي جعلت اليهود يتصرفون على النحو الذي فعلوه.

كان هناك ما هو أكثر من ذلك. وهذا الأكثر هو الذي قاد إلى ما وصلت له الأمور.

يهود المدينة: عقلية الأقلية

كان اليهود في المدينة محكومين بعقلية ونمط تفكير محدد، يمكن تسميته بـ (عقلية الأقلية).

وعقلية الأقلية عمومًا، وهذا لا يخص اليهود فقط، تفكر بطريقة مختلفة عن طريقة الأكثريات في غالبية المجتمعات التي تكون فيها أقليات وأكثرية.

ما عقلية الأقلية؟

عقلية الأقلية هي الأنماط المعرفية والعاطفية والسلوكية التي تتطور بين أفراد ينتمون لأقلية (عرقية أو دينية أو ثقافية) ويرون أنفسهم مستهدفين أو متضررين مقارنة بالأغلبية السائدة، وتحفز هذه العقلية زيادة الوعي بالذات، والحفاظ على الثقافة، وتتضمن آليات للدفاع عن الهوية والمحافظة عليها.

عقلية الأقلية تفكر دومًا بأنها مستهدفة، وأن كل من حولها ينوي القضاء عليها، وأن عليها النجاة عبر أي وسيلة.

هناك مكونات أساسية تشكل عقلية الأقلية وأسلوب تعاطيها مع الواقع المحيط:

أولًا: الوعي بالهوية (المغايرة): تمتلك الأقلية إحساسًا عاليًا بهويتها الاجتماعية المغايرة للأغلبية المحيطة بها، أو لأي أقليات أخرى قريبة منها، هناك تمايز واضح لديهم بين (نحن) مقابل (هم)[1].

(1) Simply Psychology. (2023, October 5). *Social identity theory in psychology (Tajfel & Turner, 1979).* https://www.simplypsychology.org/social-identity-theory.html

ثانيًا: الوعي المزدوج: تتعايش الأقلية مع هويتين؛ واحدة التي تمثلها وتعرف نفسها بها داخل الأقلية، والأخرى التي تفرض عليها من خلال واقع معيشتها مع الأغلبية[1].

ثالثًا: استراتيجية البقاء survival strategy: استخدام لغة بديلة ضمن الأقلية، أو اللغة نفسها، ولكن بلهجة وطريقة مختلفة، مع استخدام إشارات لغوية متبادلة فقط ضمن الأقلية، والسرية، والتضامن بين أفراد الأقلية للتكيف مع الأزمات التي يعتقدون أنها ستهددهم[2].

رابعًا: الحساسية للوصمة stigma sensitivity: تميل الأغلبية إلى وضع صور نمطية للأقليات، وغالبًا ما تكون هذه الصور تحقيرية، بينما تملك الأقلية حساسية مفرطة تجاه تنميطها وغالبًا ما يكون سلوكها دفاعيًّا ضد هذا التنميط وضد تثبيت هذه الصور النمطية[3].

خامسًا: الحفاظ على الهوية: اللغة لا تصبح وسيلة للتواصل بل جزءًا من هوية يجب الحفاظ عليها، كذلك التقاليد والشعائر الدينية، حتى لو لم يكن هناك إيمان حقيقي بها، لكنها جزء من الهوية التي يجب المحافظة عليها خصوصًا عند الشعور بالضغط أو التهديد[4].

سادسًا: الذاكرة الجماعية مؤسسة على الصدمات والاضطهاد: السرد التاريخي لذاكرة الأقلية مؤسس على ما تعرضت له هذه الأقلية من مصاعب واضطهادات ربما مرت به الأغلبية أيضًا في تاريخها، لكن الأمر لم يتحول ليصبح محور التاريخ كما يحدث مع الأقلية[5].

(1) Du Bois, W. E. B. (n.d.). *The souls of Black folk.* Project Gutenberg. https://www.gutenberg.org/files/408/408-h/408-h.htm

(2) Allport, G. W. (1954). *The nature of prejudice.* Addison-Wesley.

(3) Steele, C. M. (1997). A threat in the air: How stereotypes shape intellectual identity and performance. *American Psychologist, 52*(6), 613–629. https://doi.org/10.1037/0003-066X.52.6.613

(4) Phinney, J. S. (1990). Ethnic identity in adolescents and adults: Review of research. *Psychological Bulletin, 108*(3), 499–514. https://doi.org/10.1037/0033-2909.108.3.499

(5) Assmann, Jan. (2003). Cultural Memory: Script, Recollection, and Political Identity in Early Civilizations. Historiography East and West. 1. 154-177. 10.1163/157018603774004485.

هذه مكونات عقلية الأقليات تاريخيًّا، لا يتعلق الأمر بأقلية بعينها.

كم منها ينطبق على اليهود في المدينة؟

يهود المدينة: عقل أقلية نموذجي

مبدئيًّا، السبي البابلي لليهود دخل ليكون جزءًا أساسيًّا من ذاكرتهم الجمعية لأنه ببساطة دخل ليكون ضمن نصوصهم الدينية، بعض الأسفار المهمة في العهد القديم أعيد كتابتها في فترة السبي البابلي (مثل أسفار التكوين، التثنية، الخروج، اللاويين، الأعداد) وأخرى كتبت في أثناء السبي (حزقيال وإشعياء)، وأخرى كنتاج لمرحلة ما بعد السبي (سفر دانيال) أو وثقت للسبي (عزرا ونحميا)[1]. وهكذا تحول السبي من حدث تاريخي (في القرن السادس قبل الميلاد)، إلى عقيدة تتوارثها الأجيال بعد قرون طويلة. كرست هذه النصوص الدينية الشعور بالحصار والاضطهاد بحيث أصبح الجزء الأهم من الهوية الثقافية لليهود.

لاحقًا، وبعد تدمير الهيكل للمرة الثانية على يد الرومان وخروج اليهود إلى مناطق مختلفة في مجموعات قبلية صغيرة تضاعف شعورهم كأقلية معرضة لخطر الفناء.

ولأن اليهودية كانت ديانة عرقية (خاصة بقبيلة واحدة)، ولم تحمل رسالة عالمية (مثل المسيحية والإسلام) فإنها بقيت محدودة الانتشار، ضمن مجموعات قبلية متفرقة تعتقد أنها تنتسب إلى قبيلة واحدة، وتعتقد أيضًا أنها (شعب الله المختار)، لذا فلا معنى أصلًا في أن تتهود كل الشعوب لأن هذا معاكس لإيمانها بتفردها وتمايزها (على العكس من الرسالة العالمية للمسيحية والإسلام التي تستهدف كل البشر)، ولهذا فقد بقي عدد اليهود محدودًا ويزداد ببطء بالتكاثر الطبيعي وليس بدخول أفراد جدد إليه، بالتأكيد حدث تهود عبر الزمن، لكنه بقي محدودًا ومعقدًا، والأصل أن اليهود بقوا فئة محدودة العدد، أي أنهم (أقلية) بالتعريف، وهم أيضًا أقلية تعتقد أنها شعب الله المختار.

Alexander, Jeffrey & Alexander, J & Eyerman, Ronald & Giesen, B & Smelser, N & Sztompka, P. (2004). Toward a Theory of Cultural Trauma.

(1) Friedman, R. E. (1997). *Who wrote the Bible?* HarperOne.

Carr, D. M. (2011). *The formation of the Hebrew Bible: A new reconstruction.* Oxford University Press.

هذا كله، ومع وجودهم داخل المدينة أو في الحجاز عموما ضمن محيط وثني، شديد التمايز عنهم، منحهم نوعًا من الحصانة من الذوبان في المجتمع الجاهلي. هؤلاء عبدة أوثان، وأقل رقيًّا منهم حسب معايير اليهود، لذا فالذوبان صعب.

لكن عندما يأتي دين توحيدي، دين يحمل رسالة جديدة تصدح بأنها تتمة لرسالة موسى، فالأمر أصبح مختلفًا جدًّا.

لم يعد الأمر أمرَ حق وباطل، صواب أو خطأ.

لم يعد الأمر أمر نبيٍّ ذُكِر في كتبهم وبشروا به، بل أسهموا في وعيد العرب به.

لقد أصبح أمر هوية.

عقل الأقلية الذي شكل عبر ألف سنة من الشتات ما كان سيقبل أن يتعرض لخطر الاقتراب من دين جديد يمتلك الكثير من أوجه التشابه معهم.

هنا دقت أجراس الخطر.

اللاوعي الجمعي هو الذي استيقظ، نحن أمام خطر أكبر من السبي البابلي، السبي اضطهاد يوقظ الهوية ويشعل جذوتها، تحدي يفعّل الاستجابة.

أما الدين التوحيدي الجديد، بفورة المؤمنين به وحماسهم، بشخصية النبي الآسرة، فهذا خطر يهدد بالذوبان.

وأمام عقل الأقلية: كل شيء أهون من الذوبان.

***

وعندما خرج عبد الله بن سلام ليشهر إسلامه، برز عقل الأقلية - أو لا وعيها الذي يتحكم بها، ليسقط في التناقض الفاضح للتحيزات المسبقة.

لا مشكلة أن يسقط المنطق أو يظهر الكذب.

المهم أن تحافظ الأقلية على هويتها بوجه خطر الذوبان.

ولو قاد ذلك إلى التهديد بالقتل.

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ، قَالَ: قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ فَقَالَ صَاحِبُهُ: لاَ تَقُلْ نَبِيٌّ، إِنَّهُ لَوْ سَمِعَكَ كَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ، فَأَتَيَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلاَهُ عَنْ تِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ. فَقَالَ لَهُمْ: لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شيئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ

تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ، وَلاَ تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلاَ تَسْحَرُوا، وَلاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلاَ تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً، وَلاَ تُوَلُّوا الفِرَارَ يَوْمَ الزَّحْفِ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً اليَهُودَ أَنْ لاَ تَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ، قَالَ: فَقَبَّلُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. فَقَالاَ: نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ. قَالَ: فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَتَّبِعُونِي؟ قَالُوا: إِنَّ دَاوُدَ دَعَا رَبَّهُ أَنْ لاَ يَزَالَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَإِنَّا نَخَافُ إِنْ تَبِعْنَاكَ أَنْ تَقْتُلَنَا اليَهُودُ.[1]

مجلس حراس الأقلية

لكل أقلية حراسها.

حراس هويتها وعقليتها.

قادة يقفون على بواباتها ويزيدون -غالبًا- من سماكة جدرانها، وتحصين أبوابها.

أحيانًا يمكن لهؤلاء القادة أن يتوازنوا، بطريقة تحافظ على الأقلية دون صدام مع محيط الأغلبية.

وأحيانًا يبالغون في ذلك، يحولون الجدران إلى سجن محكم.

وكان عليه الصلاة والسلم يدرك بحكمة النبوة أن مفاتيح الأمر مع هؤلاء الحراس.

الأحبار.

لذلك قال عليه الصلاة والسلام «لَوْ آمَنَ بِي عَشْرَةٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، لَآمَنَ بِي كُلُّ يَهُودِيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ»[2].

لو....

ولكنهم لم يؤمنوا، بل تعاونوا على ألا يعلن أحد إيمانه كي لا يحدث ما قاله عليه الصلاة والسلام.

لم نعرف غير ابن سلام وحبر آخر هو مخيريق[3].

وآخر هو زيد بن سنعة لم يثبت بحديث صحيح.

---

(1) سنن الترمذي: 2733.

(2) مسند الإمام أحمد: 8555.

(3) تاريخ المدينة لابن شبة: (1/173).

وربما هناك منهم مَن آمن ولكن لم يعلن عن ذلك.

عنَّ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَهُ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي»، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ،

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟»

قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ،

فَنَكَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُودٍ مَعَهُ، فَقَالَ: «سَلْ»

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ (إلى آخر الأسئلة التي أجابها عليه الصلاة والسلام).

قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَذَهَبَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى أَتَانِيَ اللهُ بِهِ»[1]

قال إنك لنبي، ثم انصرف فذهب.

إما أن يكون هذا الحبر هو عبد الله بن سلام نفسه، لتشابه الأسئلة التي سألها.

وإمَّا أن يكون حبرًا آخر فضل ألا يعرف قومه بما حدث.

ربما لأنه خاف أن يقتل.

لكن مجلس الحراس بأغلبيته لم يؤمن.

كان بإمكانهم ألا يؤمنوا، ويبقوا كما هم، كما بقي المسيحيون مثلًا.

لكن عقلية الأقلية عندهم قادت الأمر باتجاه آخر تمامًا.

***

بقيت اليد ممدودة، هذا الموقف المبكر لم يمنع اليد الكريمة من أن تبقى ممدودة.

لم يعتبر هذا الموقف المبكر عدائيًّا حاسمًا، رغم أنه كشف الكثير من المكنونات.

---

(1) صحيح مسلم: 315.

بقي عليه الصلاة والسلام يرسل إشارات التقارب إلى منظومة أهل الكتاب بشكل عام، واليهود بشكل خاص بسبب وجودهم الكثيف في المدينة.

وإشارات التقارب هذه (والتي تركت آثارها الواضحة في الفقه لاحقًا) لم تكن رسائل برغماتية تهدف إلى استمالة اليهود، رغم أن لا شيء في ذلك أصلًا لو حدث، لكنها كانت تعبر بالأساس عن حقيقة القرب بين رسالته عليه الصلاة والسلام، والرسالات السماوية السابقة، عن حقيقة أن مصدر هذه الرسالات واحد، وأن الدين الجديد جاء على خطى الأنبياء والرسل السابقين، بل وأنه أقر بأن كثير مما جاء به كان في كتب أهل الكتاب، إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى، لا إنكار ولا تزييف بل على العكس إثبات للصلة المشتركة والمنبع الواحد.

الموافقات مع أهل الكتاب: مخالفة المشركين

في البداية على الأقل، كان عليه الصلاة والسلام حريصًا على جعل المسلمين (يشبهون) أهل الكتاب.

كان هناك معسكران قبل أن يأتي المسلمون إلى الساحة.

معسكر الشرك والوثنية، ومعسكر أهل الكتاب.

وكان الوثنيون أغلبية في جزيرة العرب.

في البداية فضل عليه الصلاة والسلام أن يكون مظهر المسلمين يجعلهم أقرب إلى أهل الكتاب منهم إلى المشركين.

من الناحية العقائدية كانوا أقرب إلى أهل الكتاب بالتأكيد، رغم كل الأخطاء والتحريفات التي حدثت للمنظومة بشكل عام.

لكنه حرص أن يكون المظهر الخارجي للمسلمين أقرب إلى أهل الكتاب كذلك.

نتحدث هنا عن البداية.

«كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ، وَكَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يَسْدِلُونَ أَشْعَارَهُمْ، وَكَانَ المُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُءُوسَهُمْ، فَسَدَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاصِيَتَهُ، ثُمَّ فَرَقَ بَعْدُ»[1]

(1) صحيح البخاري: 5917.

يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه.

ويبدو أن العرب عمومًا كان يفرقون شعورهم، ولم يكن ذلك له صلة بشركهم أو أصنامهم أو حتى قبائلهم، فقط كان هذا هو السائد عندهم.

وكان أهل الكتاب، ربما لأنهم كانوا يريدون تمييز أنفسهم، كأقلية تريد التمايز عن المحيط الغالب، يسدلون شعورهم دون فرق.

اختار النبي أن يسدل المسلمين شعورهم، مثل أهل الكتاب.

كانت تلك خطوة ضمن خطوات **تشكيل الهوية المتمايزة للمسلمين عن المشركين**. خطوة لفصل مظاهرهم عن مظهر المشركين، الخطوة بحد ذاتها كانت مهمة، تشعر المسلمين أن ما تغير في قلوبهم وعقولهم ينسحب أيضًا إلى مظاهرهم.

ما قاله ابن عباس كان أعم وأشمل، كان عليه الصلاة والسلام **يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه**، أي ما لم ينه عنه أو يؤمر بغيره.

الأمر هنا أكبر من تفصيل فرق الشعر أو إسداله، وإن كان هذا هو المثال الذي قدمه ابن عباس عن (حبه عليه الصلاة والسلام لموافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به)، لكن هذا موقف نبوي واضح لتفضيل موافقة أهل الكتاب وإبراز التشابه معهم في هذه المرحلة.

القبلة الأولى: نحو الشمال الغربي

الموقف الأكبر والأهم كان قد سبق مرحلة المدينة، وكان قد بدأ في مكة، تحديدًا في جعل (بيت المقدس) القبلة التي اتجه إليها عليه الصلاة والسلام في صلاته.

الرسول عليه الصلاة والسلام، في أثناء فترة البعثة المكية، كان يصلي باتجاه بيت المقدس.

هو في مكة، ويتجه إلى الشمال الغربي، نحو بيت المقدس، يجعلها قبلة لصلاته.

هذه كانت إشارة شديدة الوضوح والأهمية إلى أن مرجعية هذا الدين وهذه الرسالة هي نفسها مرجعية أهل الكتاب. فلننتبه هنا: المرجعية هي ذاتها مرجعية أهل الكتاب، برمزية بيت المقدس والأنبياء والرسل المرتبطين به، لكن أهل الكتاب ليسوا المرجعية.

هناك فرق كبير بين الأمرين.

أهل الكتاب كانوا قد انحرفوا عن الصواب في مسائل كثيرة، أهمها تعاملهم أصلًا مع نصوص كتبهم.

هم ليسوا المرجعية.

لكن مرجعيتهم الرمزية الأصلية هي بيت المقدس، وهي ذاتها المرجعية التي كانت القبلة تتجه لها.

مرجعية المصدر الواحد لكل الكتب، مهما حدث للكتب السابقة من تغيير لاحق، سواء كان تغيير غير مقصود أو متعمد.

هذه نقطة مهمة. لم تكن القبلة تجاه بيت المقدس تماهيًا مع منظومة أهل الكتاب، الكثير من آيات القرآن الكريم المكية كانت تشير إلى سلبيات في سلوك أهل الكتاب مع أنبيائهم، لم تكن هناك مجاملة إطلاقًا، ولم يتأخر هذا العرض إلى ما بعد تبين موقفهم منه عليه الصلاة والسلام لاحقًا، زادت الوتيرة بالتأكيد مع وجود اليهود في المشهد المدني، لكن القرآن المكي كان يشير بوضوح إلى مفارقات مع أهل الكتاب[1]، رغم وجود نقاط مشتركة معهم.

(1) ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ (الأعراف/137)

﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ (يونس/93)

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ (الإسراء/4)

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ (النحل/118)

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (العنكبوت/46)

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ (الكهف/4)

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (مريم/88-92)

رمزية الاتجاه إلى بيت المقدس لم تكن تعني الذوبان أو التماهي في الدينين السابقين، بل كانت تعني أن الاتجاه هو إلى المصدر بغض النظر عن كل الانحرافات اللاحقة.

الشيء الآخر الجدير بالذكر والمهم جدًّا في هذا السياق هو أنه عليه الصلاة والسلام بينما كان يتجه إلى بيت المقدس، فإنه كان **يقف بين يدي الكعبة**.

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي وَهُوَ بِمَكَّةَ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَالْكَعْبَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَبَعْدَ مَا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ صُرِفَ إِلَى الْكَعْبَةِ»[1]

بعبارة أخرى، كان يجمع بين الوقوف باتجاه الكعبة واتجاه بيت المقدس في الوقت ذاته. اتجاه بيت المقدس كان في الشمال الغربي من مكة، ولكي يقف بهذا الاتجاه كان عليه أن يقف خلف الجدار الجنوبي للكعبة، المتجه لليمن.

كان الاتجاه إلى بيت المقدس يمثل صدمة مستفزة للمشركين ولمفاهيمهم، الكعبة كانت لها مكانتها لا الدينية فحسب، بل التجارية أيضًا، وهذا هو دين قريش الحقيقي الذي كانت تستقتل للدفاع عنه، وكان لا بدَّ من إحداث قطيعة حاسمة مع هذا المفهوم الذي يدنس الكعبة لا بالأوثان فحسب، بل باعتبارها مركزًا تجاريًّا يجذب القبائل من الجزيرة بحيث تتربح قريش من أموالهم.

المؤمنون في مكة، وأغلبهم قريشيون سبق أن تشربوا بهذه المفاهيم قبل إسلامهم، كانوا عندما يتجهون إلى بيت المقدس يتخلون عن أهم مقدسات قومهم: مكانة مكة الاقتصادية وأرباحها من الحج.

في الوقت ذاته كانت الصلاة باتجاه بيت المقدس **بين يدي الكعبة** إبقاء على قبلة إبراهيم أبي الأنبياء، مجموعة توازنات دقيقة، قطيعة تامة مع المنظومة الجاهلية مع الإبقاء على الإرث الإبراهيمي الحقيقي الذي لم يدنس لا بأوثان الأصنام ولا أوثان المال والمكانة.

وبسبب هذه التوازنات الدقيقة، كان عليه الصلاة حريصًا على التمسك بالاتجاه إلى بيت المقدس، لم يكن بإمكان المسلمين في مكة دومًا أن يجمعوا بين الكعبة وبيت

(1) مسند أحمد 2991

المقدس، وكان الأمر مستحيلًا من الناحية الجغرافية في المدينة بالنسبة إلى الأنصار الذين صلوا ثلاث سنوات قبل مجيء النبي عليه الصلاة والسلام؛ إذ كانت المدينة تقع شمال مكة، أي أن الاتجاه إلى بيت المقدس معاكس للاتجاه إلى الكعبة.

لكنه عليه الصلاة والسلام كان حاسمًا في توجيه الأنصار نحو بيت المقدس، لا الكعبة.

قال ابن جريج: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أَوَّلَ ما صلى إلى الكعبة، ثم صُرف إلى بَيت المقدس. فصلَّت الأنصارُ نحو بيت المقدس قبلَ قُدومه ثلاث حِجَجٍ[1]

البراء بن معرور: كان قلبه في الكعبة

ويذكر أن البراء بن معرور كان له موقف من اتجاه القبلة.

والبراء هو أحد النقباء الاثني عشر من الأنصار وكَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2] في بيعة العقبة الثانية.

ما هو موقف البراء؟

عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، أَنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: خَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا وَمَعَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا، فَلَمَّا تَوَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا وَخَرَجْنَا مِنَ المدينةِ (يعني مكة)، قَالَ الْبَرَاءُ لَنَا: يَا هَؤُلَاءِ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ وَاللَّهِ رَأْيًا، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي تُوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لَا،

قَالَ: قُلْنَا لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لَا أَدَعَ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ مِنِّي بِظَهْرٍ، يَعْنِي الْكَعْبَةَ، وَأَنْ أُصَلِّيَ إِلَيْهَا،

قَالَ: فَقُلْنَا: وَاللَّهِ مَا بَلَغَنَا أَنَّ نَبِيَّنَا يُصَلِّي إِلَّا إِلَى الشَّامِ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ،

فَقَالَ: إِنِّي أُصَلِّي إِلَيْهَا،

قَالَ: فَقُلْنَا لَهُ: لَكِنَّا لَا نَفْعَلُ، فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ وَصَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ،

(1) تفسير الطبري: جزء 2 ص 623 طبعة هجلا.

(2) مسند أحمد: 15798.

حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ، قَالَ أَخِي: وَقَدْ كُنَّا عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ، وَأَبَى إِلَّا الْإِقَامَةَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْأَلْهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ لَمَّا رَأَيْتُ مِنْ خِلَافِكُمْ إِيَّايَ فِيهِ، قَالَ: فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ..**فَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، وَهَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ، فَرَأَيْتُ أَنْ لَا أَجْعَلَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ، فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا، وَقَدْ خَالَفَنِي أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟**

قَالَ: «لَقَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا»

قَالَ: فَرَجَعَ الْبَرَاءُ إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ[1]

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَالْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ أَوَّلُ مَنِ اسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ حَيًّا وَمَيِّتًا، كَانَ يُصَلِّي إِلَى الْكَعْبَةِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ يُصَلِّي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأُخْبِرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَنْ يُصَلِّيَ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ»، فَأَطَاعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِأَهْلِهِ: «اسْتَقْبِلُوا بِيَ الْكَعْبَةَ»**.[2]

مات البراء قبل هجرته عليه الصلاة والسلام بشهر، أي أنه لم يلحق تحول القبلة إلى الكعبة، لكن موقفه كان يمثل استشرافًا قويًّا لما سيحدث لاحقًا -رضي الله عنه- والالتزام بأمره المباشر عليه الصلاة والسلام هو الأكمل والأفضل بالتأكيد.

لكن ما قاله عليه الصلاة والسلام له، عندما سأله البراء عن الأمر، رغم وضوحه، فإنه كان يحمل دلالات عميقة يمكن التأمل فيها.

قال له عليه الصلاة والسلام: ...لو صبرت عليها.

قال له بوضوح أن يتجه إلى بيت المقدس، لكنه قال له أيضًا أن يصبر عليها.

كما لو أنه يقول إن ثمة شيئًا ما قد يتغير لاحقًا.

كان يدرك بحكمته النبوية أن القطيعة مع المنظومة الجاهلية والتواصل مع منظومة أهل الكتاب ستصل إلى مرحلة ما تحقق أهدافها فيها، وأن التمايز بعدها سيكون حتميًّا... مسألة وقت.

(1) مسند أحمد: 15798.

(2) جامع معمر بن راشد: جزء 11 ص 338.

بكل الأحوال، ولسبعة عشر شهرًا تقريبًا في المدينة، ولسنوات قبلها، كان الرسول عليه الصلاة والسلام يصلي نحو بيت المقدس.

كان اتجاه صلاة المسلمين إلى بيت المقدس مرحلة أظهروا فيها توافقهم مع مرجعية أهل الكتاب، وأكدوا فيها أنهم جزء منها.

هل أثر ذلك على أهل الكتاب؟ على اليهود في المدينة تحديدًا؟

لا، على الأقل ليس على أحبارهم وساداتهم الذين تحكموا في كياناتهم القبلية الكبيرة الثلاثة في المدينة.

كان هناك أفراد منهم، يؤمنون ويدخلون في الإسلام، لكن الكيانات الكبيرة بقيت متمنعة، ليس بمعنى عدم الدخول في الإسلام فحسب، بل بمعنى التشكيك المستمر في رسالته عليه الصلاة والسلام.

بكل الأحوال، كان عليه الصلاة والسلام ثابتًا في موقفه: يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه.

كانت تلك مرحلة مهمة من تشكيل الهوية المتمايزة عن المشركين.

الرحلة من (يحب الموافقة) إلى (خالفوهم)..

في مرحلة أخرى سيكون هناك موقف مختلف منه عليه الصلاة والسلام.

سيكون هناك: خالفوا...

«خَالِفُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فَإِنَّهُمْ لَا يُصَلُّونَ فِي خِفَافِهِمْ وَلَا فِي نِعَالِهِمْ»[1].

«إِنَّ اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى لاَ يَصْبُغُونَ، فَخَالِفُوهُمْ»[2]

هل من تناقض بين الموقفين؟

على الإطلاق.

هذا هو التطور الطبيعي الذي يقرأ تغير السياقات والظروف ويتعامل مع تغيرها فينتج موقفًا آخر، تأخذ موقفًا معينًا في ظرف محدد، ويسهم موقفك هذا، ضمن عوامل عديدة أخرى، في تغيير الواقع والظرف المحدد، لا معنى في البقاء والجمود على ذات

(1) صحيح ابن حبان: 2186.

(2) صحيح البخاري: 3462.

الموقف، بعد أن تغيرت مسبباته وحيثياته. هذه هي السنة النبوية في جوهرها عندما نراها بمنظور الصورة الكبيرة.

قال ابن حجر عن حَدِيث ابن عَبَّاسٍ:

قَوْلُهُ وَكَانَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ أَيْ حَيْثُ كَانَ عُبَّادُ الْأَوْثَانِ كَثِيرِينَ قَوْلُهُ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ بِشَيْءٍ أَيْ فِيمَا لَمْ يُخَالِفْ شَرْعَهُ لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي زَمَانِهِ كَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِبَقَايَا مِنْ شَرَائِعِ الرُّسُلِ فَكَانَتْ مُوَافَقَتُهُمْ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مُوَافَقَةِ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ فَلَمَّا أَسْلَمَ غَالِبُ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ أَحَبَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَئِذٍ مُخَالَفَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا مَا لم يَجِيء فِي شَرْعِنَا مَا يُخَالِفُهُ وَتُعُقِّبَ[1]

حديث ابن عباس عن حب موافقة الرسول عليه الصلاة والسلام لأهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه كان من ضمن الأسباب التي قادت إلى المبحث الشرعي المعروف بـ (شرع من قبلنا) حيث اختلف علماء أصول الفقه في كون شرع من قبلنا شرع لنا أم لا، ورأي الجمهور أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد نسخ له، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن يكون (شرع من قبلنا) قد وصل لنا عن طريق القرآن والسنة الصحيحة.

الرحلة من (أمتهوكون أنتم؟) إلى (حدثوا ولا حرج)

في نفس إطار تغير الموقف بحسب تغير السياق يمكن فهم تغير موقفه عليه الصلاة والسلام من الرواية عن كتب اليهود في البداية من موقفه عليه أفضل الصلاة والسلام لاحقًا.

وَعَنْ جَابِرٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَتَاهُ عُمَرُ فَقَالَ إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنْ يَهُودَ تُعْجِبُنَا أَفَتَرَى أَنْ نَكْتُبَ بَعْضَهَا؟ فَقَالَ: «أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»[2]

كان هذا في البداية، الحدود يجب أن تبقى موجودة بحيث لا تختلط الأمور، التمايز ضروري وجزء مهم من تشكيل الهوية حتى لو كانت هناك (موافقات لأهل الكتاب) وحتى لو كانت قبلة المسلمين في صلاتهم تتجه إلى بيت المقدس. تلك الموافقات كانت ضرورية لجعل أهل الكتاب يتقبلون المسلمين. أما المسلمون فكانوا أصلًا يتقبلون أهل

(1) فتح الباري: (6/754).

(2) مشكاة المصابيح: 177.

الكتاب وليسوا بحاجة إلى الموافقات لإظهار ذلك لأن نصوص كتابهم كانت واضحة في ذلك. الباب مفتوح باتجاه واحد فقط في هذه المرحلة، عدم إيجاد حدود فاصلة واضحة وخطوط حمراء قد يقود إلى التهوك. والتهوك هو الحيرة والتردد. لذا فقد كان هناك هذا النهي النبوي الواضح شديد اللهجة.

لكن رغم هذا النهي، يمكن أن نفهم وجود حوار بين اليهود والمسلمين في هذه المرحلة، بحيث أن اليهود أخذوا يعرضون نصوصهم (غالبًا بعد تعريبها إن لم تكن قد عربت قبل ذلك)، وربما أخذ التعريب صيغة تحاول إثارة إعجاب العرب بحيث يكون لها تأثير عليهم.

يؤيد ذلك ما جاء نقلًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: **كَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الإِسْلاَمِ**، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ (البقرة/136) الآيَةَ[1]

لاحقًا، مع الانحسار التدريجي للكتل اليهودية الكبيرة في المدينة، ونمو الهوية الجديدة بشكل أقوى وأكثر بروزًا، تغير الموقف النبوي لتغير أسبابه ومعطياته.

«بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[2]

(.. قَوْله:(وَحَدثُوا عَن بني إِسْرَائِيل) يَعْنِي: مِمَّا وَقع لَهُم من الْأُمُور العجيبة والغريبة، وَقَالَ مَالك: المُرَاد جَوَاز التحديث عَنْهُم بِمَا كَانَ من أمرٍ حسن، وَأما مَا علم كذبه فَلَا. قَوْله: (وَلَا حرج) أَي: وَلَا ضيق عَلَيْكُم فِي الحَدِيث عَنْهُم، وَإِنَّمَا قَالَ: وَلَا حرج، لِأَنَّهُ كَانَ قد تقدم مِنْهُ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم الزّجر عَن الْأَخْذ عَنْهُم وَالنَّظَر فِي كتبهمْ، ثمَّ حصل التَّوَسُّع فِي ذَلِك، وَكَانَ النَّهْي قبل اسْتِقْرَار الْأَحْكَام الشَّرْعِيَّة وَالْقَوَاعِد الدِّينِيَّة خشيَة الْفِتْنَة، ثمَّ لما زَالَ الْمَحْذُور وَقع الْإِذْن فِي ذَلِك لما فِي ذَلِك من الِاعْتِبَار عِنْد سَماع الْأَخْبَار

(1) صحيح البخاري: 4485.

(2) صحيح البخاري: 3461

الَّتِي وَقعت فِي زمانهم. وَقيل: لَا حرج أَي: لَا تضيق صدوركم بِمَا سمعتموه عَنْهُم من الْأَعَاجِيب..)[1]

مرة أخرى، الموافقة والمخالفة أمران محكومان بمعطيات متغيرة. جوهر السنة النبوية هو التعامل مع المتغيرات بمرونة ودون جمود على موقف سابق فقط لأننا اتخذناه سابقًا.

حدث ذات عاشوراء

في السنة الثانية من الهجرة، بعد عشرة أشهر من وصول النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، التقى يومان كان كل من قريش واليهود تعظمانه.

في العاشر من محرم، حسب التقويم القمري[2].

نقلت السيدة عائشة وابن عمر رضي الله عنهما أن قريشًا كانت تصوم عاشوراء وتعظمه.

عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: **«كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ يَوْمًا تَصُومُهُ قُرَيْشٌ، فِي الجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُهُ، فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ صَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا نُزِلَ رَمَضَانُ كَانَ مَنْ شَاءَ صَامَهُ، وَمَنْ شَاءَ لاَ يَصُومُهُ»**[3]

وعنها أيضًا قَالَتْ: **كَانُوا يَصُومُونَ عَاشُورَاءَ قَبْلَ أَنْ يُفْرَضَ رَمَضَانُ، وَكَانَ يَوْمًا تُسْتَرُ فِيهِ الكَعْبَةُ، فَلَمَّا فَرَضَ اللَّهُ رَمَضَانَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَاءَ أَنْ يَصُومَهُ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَتْرُكَهُ فَلْيَتْرُكْهُ»**[4]

وفي الباب عن ابنِ عُمَرَ أيضًا.[5]

لكن لماذا كانت قريش تصوم عاشوراء قبل البعثة؟

---

(1) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: (16/45).

(2) كان العرب يعتمدون على التقويم القمري بينما جمع التقويم العبري بين القمري لتحديد بداية الشهر والشمسي لبداية السنة مع إضافة شهر ثالث عشر في السنوات الكبيسة، أي أن التقويم العبري والعربي لم يكونا موحدين وبالتالي فأن مناسباتهم كانت مختلفة وإن توافقت في سنة فهذا لا يعني أنها ستتكرر

(3) صحيح البخاري: 3831.

(4) صحيح البخاري: 1592.

(5) سنن أبي داود: 2443.

لا شيء واضح أو ثابت عن السبب.

من المستبعد أن يكون تعظيم قريش لعاشوراء له علاقة باليهود، إذ لو كان ذلك لعرفه الرسول عليه الصلاة والسلام ولما سأل اليهود، ولكن هذا التعظيم لا علاقة له أيضًا بأوثان الجاهلية وشركها، بدليل أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يصومه أيضًا.

هناك من يفسر ذلك بذنب أذنبته قريش وحاولت التبرؤ منه بصوم عاشوراء...لكن هذا أيضًا لا يفسر لماذا اختير يوم العاشر من محرم ليكون يوم الصيام.

سَأَلْتُ عِكْرِمَةَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ: **مَا أَمْرُهُ؟ قَالَ: أَذْنَبَتْ قُرَيْشٌ ذَنْبًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَعَظَّمَ فِي صُدُورِهِمْ، فَسَأَلُوا مَا يُبَرِّئُهُمْ مِنْهُ فَقَالُوا: صَوْمُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، يَوْمُ عَشْرٍ مِنَ الْمُحَرَّمِ، فَقُلْتُ لِعِكْرِمَةَ: فَحُقَّ صَوْمُهُ عَلَى النَّاسِ؟، فَقَالَ: لَا؛ مَحَا رَمَضَانُ كُلَّ صَوْمٍ كَانَ قَبْلَهُ»**[1]

نقل عِكْرِمَةَ أيضًا: «**هُوَ يَوْمٌ تَابَ اللَّهُ عَلَى آدَمَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ**»[2]

لكن كل هذه التفسيرات غير مثبتة، الثابت فقط أن قريشًا كانت تعظم يوم عاشوراء... أسباب ذلك غير واضحة.

ذكر أيضًا أن قريش كانت تحتفل في عاشوراء بانتهاء موسم الحج وخروج آخر الحجاج من مكة، بسبب أن محرم يلي شهر الحج: ذي الحجة.

عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: «كَانَتِ الْكَعْبَةُ فِيمَا مَضَى إِنَّمَا تُكْسَى يَوْمَ عَاشُورَاءَ إِذَا ذَهَبَ آخِرُ الْحَاجِّ، حَتَّى كَانَتْ بَنُو هَاشِمٍ، فَكَانُوا يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا الْقُمُصَ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ مِنَ الدِّيبَاجِ؛ لِأَنْ يَرَى النَّاسُ ذَلِكَ عَلَيْهَا بَهَاءً وَجَمَالًا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ عَلَّقُوا عَلَيْهَا الْإِزَارَ»[3]

ولا يتعارض ذلك بحال مع الأسباب الأخرى التي ذكرت، لكن لا شيء ثابت منها.

---

(1) أمالي بن بشران: (199/1).

(2) مصنف عبد الرزاق الصنعاني: 7852.

(3) أخبار مكة للأزرقي: (252/1).

لكننا أحق بموسى

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ فَرَأَى اليَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟»، قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ: «فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ»، فَصَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ[1]

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ -رضي الله عنه-: **أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- بَعَثَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ رَجُلاً مِنْ أَسْلَمَ: «إِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ، فَمَنْ كَانَ أَكَلَ أو شَرِبَ فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَكَلَ أو شَرِبَ فَلْيَصُمْهُ»**[2]

عن الرُّبَيِّعِ بنت مُعَوِّذ قالت: **أرسل رسول اللَّه -صلى اللَّه عليه وسلم- غَدَاةَ عاشوراء إلى قرى الأنصار: «من أصبح مفطرًا فلْيُتِمَّ بقيةَ يومِهِ، ومن أصبح صائمًا فليصم».**[3]

بعد عشرة أشهر من الوصول إلى المدينة كان عليه الصلاة والسلام يظهر موافقة أخرى لأنبياء ورسل أهل الكتاب للتأكيد على أن رسالته تصدر من مشكاة واحدة. عندما يقال له هذا يوم نجى فيه موسى من فرعون، وهم يصومون فيه، فهو يقول ببساطة: نحن أحق به منهم. ويصوم، بل ويرسل إلى القرى ليأمر بصوم اليوم في اليوم ذاته، أي حتى من أكل يكمل اليوم صائمًا.

فرض رمضان حدث في السنة الثانية للهجرة، تحديدًا في شعبان من السنة الثانية للهجرة. أي أن الأمر بصوم عاشوراء كان لسنة واحدة فقط، وإلى أن فُرض رمضان لم يكن هناك أمر بصيام يوم آخر غير هذا العاشوراء. الحديث هنا عن أمره عليه الصلاة والسلام لسائر المسلمين بالصيام، ولكنه هو شخصيًّا عليه الصلاة والسلام كان يصوم أيامًا كثيرة..

---

(1) صحيح البخاري: 2004.

(2) مسند الدارمي:1784.

(3) صحيح البخاري: 1960.

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُنَا بِصِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، وَيَحُثُّنَا عَلَيْهِ، وَيَتَعَاهَدُنَا عِنْدَهُ، فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ، لَمْ يَأْمُرْنَا، وَلَمْ يَنْهَنَا وَلَمْ يَتَعَاهَدْنَا عِنْدَهُ**»[1]

أمر عليه الصلاة والسلام بصيام عاشوراء لكل المسلمين، وأرسل إلى القرى يأمرهم بذلك، أي أنه كان أقرب ما يكون إلى (الفرض) بمفهومنا الفقهي، لكن هذا لم يكن إلا لسنة واحدة فقط، حيث نزل الأمر بصيام فرض رمضان بعد أشهر وعاد صيام عاشوراء ليكون (سُنّة) حرص عليها عليه الصلاة والسلام حتى قبل قدومه إلى المدينة.

ولكن لماذا أمر عليه الصلاة والسلام بصيام التاسع من محرم؟

كان ذلك لاحقًا حسب حديث ابن عباس، بعد الفتح وقبل وفاته عليه الصلاة والسلام.

عن ابن عباس قَالَ: **قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صُومُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَخَالِفُوا فِيهِ الْيَهُودَ، صُومُوا قَبْلَهُ يَوْمًا، أو بَعْدَهُ يَوْمًا».** [2]

في المرحلة التي قال فيها عليه الصلاة والسلام ذلك، بعد الفتح وقبل وفاته بسنة، تغيرت المعطيات كثيرًا، وأصبح تمايز الهوية عن أهل الكتاب مقدمًا على تمايز هوية المسلمين عن المشركين لأن الشرك قد هزم رسميًّا ولم يعد له مكان في جزيرة العرب.

عَنِ ابن عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ **لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ**[3]

فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَصُومُ الْعَاشِرَ وَهَمَّ بِصَوْمِ التَّاسِعِ فَمَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ ثُمَّ مَا هَمَّ بِهِ مِنْ صَوْمِ التَّاسِعِ يَحْتَمِلُ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَيْهِ بَلْ يُضِيفُهُ إِلَى الْيَوْمِ الْعَاشِرِ إِمَّا احْتِيَاطًا لَهُ وَإِمَّا مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَهُوَ الْأَرْجَحُ ...وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِيمَا يُخَالِفُ فِيهِ أَهْلَ الْأَوْثَانِ فَلَمَّا فُتِحَتْ مَكَّةُ وَاشْتُهِرَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ أَحَبَّ مُخَالَفَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ[4]

(1) صحيح مسلم: 1128.

(2) مسند أحمد: 2154.

(3) صحيح مسلم: 1134.

(4) فتح الباري: (4/245-264).

تطور الموقف من عاشوراء من (الموافقة) في بداية الهجرة، إلى (المخالفة) لاحقًا بصيام يوم قبل أو بعد.

وهو تطور يعكس ما حدث من تغير كبير في الواقع الاجتماعي في هذه الفترة وتفاعله عليه الصلاة والسلام دون جمود على موقف معين.

موقف (الموافقة ولكن مع المخالفة) أصبح جزءًا من الهوية، نحن نصوم لأننا أحق بموسى منهم، نحن الجزء الصحيح من الكتاب الذي ينتمون له. المخالفة في جوهرها كانت تثبت التوافق مع أهل الكتاب ولكن تضع إشارة أخرى، للتمايز وعدم الذوبان.

الشعائر خارج التقويم

بالنسبة إلينا، على الرغم من كثرة الأحداث المهمة في سيرته عليه الصلاة والسلام، فلا يوجد حدث واحد تحول ليكون يومًا من شعائر الصوم أو أي شعيرة أخرى.

أقصد لا يوجد هناك نص ديني صحيح يحول هذه المناسبات إلى يوم رسمي للتعبد أو لأي نوع من أنواع الأعياد.

لا مولده عليه الصلاة والسلام، ولا يوم نزول الوحي عليه، ولا يوم هجرته، ولا يوم انتصاره في بدر أو في فتح مكة، ولا يوم وفاته، عليه أفضل الصلاة والسلام.

نعم هي مناسبات يمكن استحضارها واستذكار عبرها ودروسها، لكنها لم تدخل في صلب العقيدة، لا تواريخها ولا منجزاتها أو مآلاتها، وإن كان الاحتفال ببعضها أصبح جزءًا من التدين الشعبي.

لكن رسميًّا، بالحديث عن نصوص مؤسسة للدين وشعائره، لا يوجد شيء كهذا.

الشيء ذاته مع عاشوراء: المهم هو معناه المرتبط به، لا بالحدث التاريخي المحدد حسب تقويم كان يتعرض باستمرار للتغيير: نحن أحق بموسى منهم.

وبكل الأنبياء والرسل.

حالات فردية؟

كل ما سبق يمكن فهمه في إطار تطور العلاقة مع اليهود في المدينة.

مع إقرار وثيقة (صحيفة المدينة) -التي يحتمل أن تكون موادها المتعلقة باليهود قد أضيفت بالتدريج على امتداد السنة الأولى من الهجرة والأشهر التي تليها- أصبح

واضحًا أنه عليه الصلاة والسلام يرغب في أن تقبل الكيانات اليهودية الكبيرة (التعايش) مع المسلمين في المدينة، لم يعد الرسول عليه الصلاة والسلام يتوقع أن تدخل هذه الكيانات -التي تسيطر عليها عقلية الأقلية ويقودها أحبارها وزعماؤها- الإسلام، لكن عدم الدخول في الإسلام ليس مشكلة بحد ذاته، فهؤلاء أهل كتاب وليسوا مشركين، التعايش معهم ممكن بشرط أن يقبلوا به هم.

وخلال تلك الفترة، على الأقل إلى ما بعد معركة بدر، كان سلوك اليهود معقولًا ومقبولًا إلى حد ما، إذ لم يبدر منهم موقف صريح ومباشر يمكن اعتباره انتهاكًا لشروط الصحيفة، على الأقل تلك الفترة.

كانت هناك مواقف عدائية بالتأكيد، لكنها لم تصل إلى درجة كسر الوثيقة والإخلال بإمكانية التعايش، ولعله عليه الصلاة والسلام كان يعتبرها (حالات فردية) يمكن الصبر عليها.

ولعل كعب بن الأشرف كان في تلك المرحلة من أهم من كان يقود هذه المواقف، وكعب هو أحد سادات بني النضير الذي كانت تربطه علاقات قوية بقريش وكان شاعرًا يعرض بالرسول عليه الصلاة والسلام ويهجوه ويحرض عليه في شعرهن وسيكون هناك موقف لاحق معه، بعد بدر، وكعب بن الأشرف هو نفسه الذي قطع أطناب الخيمة التي وضعها عليه الصلاة والسلام في موضع النبيط لتكون سوقًا للمسلمين.

عن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ الْيَهُودِيَّ، كَانَ شَاعِرًا وَكَانَ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ وَيُحَرِّضُ عَلَيْهِمْ كُفَّارَ قُرَيْشٍ فِي شَعْرِهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَهِيَ أَخْلَاطٌ، مِنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ يَجْمَعُهُمْ دَعْوَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِيهِمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، وَمِنْهُمُ الْيَهُودُ، وَمِنْهُمْ أَهْلُ الْحَلْقَةِ وَالْحُصُونِ، وَهُمْ حُلَفَاءُ الْحَيَّيْنِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، فَأَرَادَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَدِمَ اسْتِصْلَاحَهُمْ وَمُوَادَعَتَهُمْ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَكُونُ مُسْلِمًا وَأَبُوهُ مُشْرِكًا، وَالرَّجُلُ يَكُونُ مُسْلِمًا وَأَخُوهُ مُشْرِكًا، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ حِينَ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ أَشَدَّ الْأَذَى، وَأَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ وَالْعَفْوِ عَنْهُمْ[1]

موقف آخر مشابه كان من شاس بن قيس أحد كبار بني قينقاع، ورغم أن الموقف قد نزلت فيه آيات من سورة آل عمران التي نزلت عموم آياتها بعد غزوة أحد، فإن الموقف يوحي بأن سياقه كان أبكر من ذلك وربما سبق غزوة بدر.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَمَرَّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَسَا[2] ، عَظِيمَ الْكُفْرِ شَدِيدَ الضَّغَنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، شَدِيدَ الْحَسَدِ لَهُمْ، عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ. فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ، يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ، فَغَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ أُلْفَتِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْعَدَاوَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَيْلَةَ[3] بِهَذِهِ الْبِلَادِ، لاَ وَاَللَّهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إذَا اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ. فَأَمَرَ فَتًى شَابًّا مِنْ يَهُودَ كَانَ مَعَهُمْ، فَقَالَ: اعْمِدْ إلَيْهِمْ، فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، ثُمَّ اُذْكُرْ يَوْمَ بُعَاثَ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنْ الْأَشْعَارِ.

(وَكَانَ يَوْمُ بُعَاثَ يَوْمًا اقْتَتَلَتْ فِيهِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، وَكَانَ الظَّفْرُ فِيهِ يَوْمئِذٍ لِلْأَوْسِ عَلَى الْخَزْرَجِ، ...)

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَفَعَلَ (الفتى الشاب ما أمره به شاس بن قيس). فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ وَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا حَتَّى تَوَاثَبَ رَجُلَانِ مِنْ الْحَيَّيْنِ عَلَى الرُّكْبِ، أَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ، أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ، مِنْ الْأَوْسِ، وَجَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ، أَحَدُ بَنِي سَلِمَةَ مِنْ الْخَزْرَجِ، فَتَقَاوَلَا ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إنْ شِئْتُمْ رَدَدْنَاهَا الْآنَ جَذَعَةً ، فَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا، وَقَالُوا: قَدْ فَعَلْنَا، مَوْعِدُكُمْ الظَّاهِرَةُ- وَالظَّاهِرَةُ: الْحرَّةُ- السِّلَاحَ السِّلَاحَ.

فَخَرَجُوا إلَيْهَا. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَرَجَ إلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى جَاءَهُمْ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهَ اللَّهَ، أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمْ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ، وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ

(1) المعجم الكبير للطبراني: 154.

(2) عسا: أسن وأولى.

(3) بنو قيلة، الأوس والخزرج، وقيلة هي جدة مشتركة لهم.

أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنْ الْكُفْرِ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْغَةٌ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَكَيْدٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَبَكَوْا وَعَانَقَ الرِّجَالُ مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، قَدْ أَطْفَأَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَيْدَ عَدُوِّ اللَّهِ شَاسِ بْنِ قَيْسٍ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَاسِ بْنِ قَيْسٍ وَمَا صَنَعَ[1].

هذه المواقف (موقف كعب من السوق الجديد وهجاؤه للنبي، وموقف شاس في الوقيعة بين الأوس والخزرج) قوبلت بالصبر الحكيم من قبله عليه الصلاة والسلام.

لماذا؟ ليس فقط لكرم أخلاقه عليه الصلاة والسلام ودفعه بالتي هي أحسن فحسب، وإن كان ذلك مؤكدًا.

لكن كل هذه المواقف وما يشبهها لم تخرق شروط الصحيفة، لم يكن هناك حتى الآن ما يدل على حدوث تآمر مع قريش ضد النبي عليه الصلاة والسلام.

هناك تنافس اقتصادي ورغبة في احتكار السوق، هناك حسد وغيرة مما يحدث، لكن كل هذه تعامل معها الرسول عليه الصلاة والسلام على أنها أمور طبيعية يمكن أن تحدث ويمكن التغاضي عنها والصبر عليها، ما دامت لم تصل لحد التآمر مع قريش.

التعايش كان ممكنا جدًّا.

وأحبار اليهود رفضوا الإسلام، لكنهم في تلك المرحلة لم يكن واضحا أنهم رفضوا حتى التعايش.

التعايش الممكن

في ذات الوقت، وبينما كان الأحبار يتحكمون بالكيانات اليهودية الكبيرة، كانت هناك مواقف إنسانية بينه عليه الصلاة والسلام وبين أفراد من اليهود، مواقف تؤكد أن التعايش ممكن وواقعي.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ، **فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ**

(1) سيرة ابن هشام: (1/555-557).

إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ».[1]

غلام يهودي يخدم النبي؟ يمرض فيعوده النبي عليه الصلاة والسلام.

في عقليتنا المعاصرة: هذا الغلام كان بالتأكيد جاسوسًا على النبي، أو ربما كان يريد اغتياله عليه الصلاة والسلام.

لكن حكمة النبوة كانت ترى الصورة الكبيرة للطبيعة البشرية. نعم، كان هناك حذر طبيعي من أحبار اليهود وكبار ساداتهم، ولكن كانت هناك أيضًا الطبيعة البشرية التي تحب الخير وتبحث عن الوفاء وتقدر الاحترام. هذه الطبيعة تكون أحيانًا عند البعض عابرة للتحيزات المسبقة التي تتحكم بالبعض الآخر.

كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالاَ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، **فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا».**[2]

«قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ لِجَنَازَةِ يَهُودِيٍّ حَتَّى تَوَارَتْ».[3]

قام لجنازة يهودي.

فقال له أصحابه: هذا يهودي!

فسألهم: أليست نفسًا؟

فكر اليوم أن تظهر احترامًا لشخص من دين آخر، لم يؤذك بشخصه، ولم يعرف عنه أنه آذى أحدًا أو دعم من آذى أحدًا... وانتظر التعليقات من أشخاص يعتقدون أنهم حصلوا على معلوماتهم من استعلامات الآخرة. أما عليه الصلاة والسلام فيقول ببساطة: أليست نفسًا؟

---

(1) صحيح البخاري: 1356.

(2) صحيح البخاري: 1312، صحيح مسلم 961.

(3) صحيح مسلم: 960.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّهُ ذَبَحَ شَاةً فَقَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِجَارِي الْيَهُودِيِّ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**».[1]

عنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «اذْهَبُوا بِنَا نَعُودُ جَارَنَا الْيَهُودِيَّ» قَالَ: فَأَتَيْنَاهُ، فَقَالَ: «كَيْفَ أَنْتَ يَا فُلَانُ؟» فَسَأَلَهُ، ثُمَّ قَالَ: «يَا فُلَانُ، اشْهَدْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ». فَنَظَرَ الرَّجُلُ إِلَى أَبِيهِ، فَلَمْ يُكَلِّمْهُ، ثُمَّ سَكَتَ ثُمَّ قَالَ: وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَلَمْ يُكَلِّمْهُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ، اشْهَدْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ». فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: اشْهَدْ لَهُ يَا بُنَيَّ. فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْتَقَ رَقَبَةً مِنَ النَّارِ».[2]

ربما كان هو نفسه الغلام الذي كان يخدم النبي عليه الصلاة والسلام، ربما كان جاره أيضًا، وربما كان شخصًا يهوديًّا آخر.. ولا يعني هذا أنه جاره الجنب، ربما كان قريبًا فحسب، لكن كونه يهوديًّا لم يمنعه عليه الصلاة والسلام أن يعوده في مرضه[3]..

«رَهَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِرْعًا لَهُ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، وَأَخَذَ مِنْهُ شَعِيرًا لِأَهْلِهِ».[4]

هذه القصة الصحيحة الثابتة التي يرفضها البعض، ولكن لأنها حدثت في فترة لاحقة فلن أبحث فيها الآن، هذه القصة تدل أن التعامل اليومي الاقتصادي، تعامل التعايش، بقي قائمًا (على الأقل مع أفراد من اليهود) حتى مرحلة متأخرة جدًّا، لأنه عليه الصلاة والسلام توفي ودرعه مرهونة عند اليهودي.

(1) سنن أبي داود: 5152.

(2) عمل اليوم والليلة: 554.

(3) وعلى هامش هذا، القصة المنتشرة عن جار يهودي للنبي عليه الصلاة والسلام، يؤذيه برمي القاذورات والقمامة عند بيت النبي، وعندما مرض اليهودي وانقطع عن ذلك، زاره النبي للاطمئنان عليه، فتفاجأ اليهودي وأسلم، هذه القصة المنتشرة لا أصل لها، ليست ضعيفة ولا موضوعة ليمكن محاكمة سندها والوصول إلى بطلانها، هي ببساطة غير موجودة، ألفها حكاؤون وقصاصون لا علاقة لهم بالسنة النبوية.

(4) صحيح البخاري: 2069.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «**تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ**».[1]

***

لكن هناك أحاديث أخرى، لا تعطي المعنى المتعايش نفسه الذي برز في الأحاديث السابقة.

نعم، بالتأكيد، لكنها كلها ضمن سياقات لاحقة مختلفة، وما نطرحه الآن هو الفترة الأولى وصولًا إلى بدر، الفترة التي كان فيها التوافق والتعايش هو الأساس.

لاحقًا برزت معطيات أخرى.

لكن هذه ليست آيات تنسخ آيات سابقة.

بل استجابات لمتغيرات الواقع الذي لا يتغير دوما باتجاه واحد.

بل في أحيانٍ كثيرة يرتد ليكون في الوضع الأول...

أو في وضع مختلف تمامًا.

وجوهر السنة النبوية كان في فهم هذه التغيرات والاستجابة بما يناسبها.

أما الجمود على موقف ما، خارج سياقه، فهو المخالفة الحقيقية للسنة.

---

(1) صحيح البخاري: 2916.

الباب الثالث

الطريق إلى البدر التمام

الخروج من المُحاق: سرايا وغزوات

لو أنَّ رجلًا عاش في مكة قبل البعثة، وعرف النبي عليه الصلاة والسلام كما عرفته كل قريش، ثم سافر في رحلة طويلة يجوب فيها العالم، وعاد بعد ثلاثة عشر عامًا، في موسم الحج، ورأى الأنصار وهم يبايعونه عليه الصلاة والسلام سرًّا بيعة الحرب لصدم جدًّا بحجم الأحداث التي جرت في غيابه.

سيكون متفاجئًا جدًّا من هذه الجوانب التي يراها في شخصيته عليه الصلاة والسلام، والتي لم يكن أحد قد رآها فيه.

قريش عرفته عليه الصلاة والسلام بالصادق الأمين.

والصدق والأمانة صفتان محمودتان بلا شك، لا يمكن أن نحكم بندرتهما عند البشر، لكن لهما، كما لكل الصفات، درجات، وكلما زادت درجة الصدق أو الأمانة، قلَّ عدد البشر الذين يتصفون بهما.

وكان عليه الصلاة والسلام قد وصل إلى الدرجة العليا من الصفتين.

لكن الصدق والأمانة، على أهميتهما البالغة لا يمكن أن تشكل عدَّة كافية لتفسير ما حدث وصولًا إلى بيعة الحرب تلك.

سيقولون للرجل المفترض ليشرحوا له ما حدث، أن الوحي قد نزل عليه من السماء.

لكن هذا لن يكفي لجعله يستوعب ما حدث.

الوحي رسالة نزلت على محمد عليه الصلاة والسلام.

لكن ما يحدث هنا كشف عن جوانب أخرى مختلفة جدًّا لم يكن أحد قد رآها في شخصيته عليه الصلاة والسلام.

الصدق والأمانة، حتى لو حملا الوحي إلى الناس، لا يكفيان لتفسير ما حدث في مكة.

كانت هناك صفات أخرى كثيرة، كبيرة، مثل جبل عملاق.

لم يبدُ منه أولًا إلا صفتان على قمة رأس الجبل.

كما لو أن باقي الجبل كان غاطسًا في نفسه الكريمة.

وبالتدريج سنرى هذا الجبل يتجلَّى أكثر وأكثر، لنرى جوانبًا أخرى من الشخصية، اجتمعت كلها في شخصية أكمل إنسان مشي على الأرض.

كلها كانت فيه، لكننا لم نَرَهَا.

عندما يكون القمر في المحاق[1]، لا نرى منه شيئًا.

لكن هذا لا يعني أنه ليس موجودًا هناك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

أتحدث عن نمط شخصية (البطل/ المحارب) في شخصه عليه الصلاة والسلام.

هذه الشخصية لم يكن من الممكن رؤيتها بوضوح في مكة، على الأقل لم تكن الظروف والسياقات قد سمحت لنا برؤيتها.

ولأن البشر العاديين، أو حتى البارزين، لا يمكن لهم أن يعبروا عن العديد من الأنماط النفسية المختلفة إلا في حالات نادرة، فإننا حتى هذه المرحلة كنا رأينا فيه عليه الصلاة والسلام أنماطًا متعددة، مثل (المتمرد/ الثائر) و(المُحوّلِ) و(المحب)، (الحكيم) و(الحاكم).

وهذا كثير، أغلب الشخصيات التي أثَّرت في التاريخ لم يبرز منها هذا العدد.

كلما زادت الأنماط الأولية التي يراها الناس من شخص، تزيد قدراته ويتسع تأثيره ويزداد اقترابه من الكمال الممتنع على البشر.

(1) المحاق: مبتدأ أطوار القمر ومنتهاها، وهو يحدث عندما يقع القمر بين الأرض وأمام الشمس مما يسبب انعدام وجود جزء منعكس يمكن رؤيته من الأرض ويكون القمر في هذه الحالة في حالة ظلام تام، وسمي محاقًا لانمحاق نوره واختفائه.

أزعم أننا قد رأينا منه عليه الصلاة والسلام أكبر عدد ممكن من هذه الأنماط، تجلَّت فيها الأسباب التي جعلت تأثيره الكريم يقتحم ملايين، مئات الملايين من الأشخاص عبر التاريخ.

بعض هذه الأنماط تبدو مختلفة عن بعضها الآخر، ليس من السهولة أن تجتمع كلها وتكون في الوقت نفسه مليئة بصفات العابد المتعبد الروحاني.

لكننا رأيناها كلها فيه.

ورأيناها بالتدريج، كما نرى أطوار القمر في طريقها إلى الاكتمال.

وفي منعطف تاريخي بالغ الأهمية، برزت إرهاصات ومقدمات لنمط (البطل/ المحارب)، لم نكن قد رأيناها قبل ذلك في شخصه عليه أفضل الصلاة والسلام.

سرية حمزة بن عبد المطلب: سيف البحر

في رمضان من السنة الهجرية الأولى، أي بعد سبعة أشهر من وصوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أرسل الرسول أول سرية عسكرية لاعتراض قافلة لقريش قادمة من الشام.

كانت هذه السرية مكونة من 30 رجلًا، كلهم من المهاجرين حسب ابن هشام[1] وفيهم أنصار حسب الواقدي[2]، وكانت بقيادة حمزة بن عبد المطلب، عم النبي عليه الصلاة والسلام.

فلنتذكر: هذه السرية كانت قبل سنة كاملة من موقعة بدر، التي حدثت بالمعطيات نفسها: اعتراض قافلة لقريش قادمة من الشام.

عرفت السرية باسم سرية (سيف البحر) وهي جزء من منطقة العيس الواقعة على بعد قرابة 200 كيلومترًا غرب المدينة.

قافلة قريش كانت مكونة من 300 راكبٍ على رأسها أبو جهل عمرو بن هشام.

(... فَالْتَقَوْا حَتّى اصْطَفُّوا لِلْقِتَالِ، فَمَشَى بَيْنَهُمْ مَجْدِي بْنُ عَمْرٍو، وَكَانَ حَلِيفًا للفريقين جميعًا، فلم يزل يمشي إلى هؤلاء وَإِلَى هَؤُلَاءِ حَتّى انْصَرَفَ الْقَوْمُ وَانْصَرَفَ

(1) تحقيق السقا سيرة ابن هشام: (595/1).

(2) مغازي الواقدي: (9/1).

حَمْزَةُ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ فِي أَصْحَابِهِ، وَتَوَجَّهَ أَبُو جَهْلٍ فِي عِيرِهِ وَأَصْحَابِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ. فَلَمَّا رَجَعَ حَمْزَةُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَهُ بِمَا حَجَزَ بَيْنَهُمْ مَجْدِي، وَأَنَّهُمْ رَأَوْا مِنْهُ نَصَفَةً لَهُمْ، فَقَدِمَ رَهْطُ مَجْدِي عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَسَاهُمْ وَصَنَعَ إِلَيْهِمْ خَيْرًا، وَذَكَرَ مَجْدِي بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: إِنَّهُ مَا عَلِمْت مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ مُبَارَكُ الْأَمْرِ. أَوْ قَالَ: رَشِيدُ الْأَمْرِ).[1]

لم يحدث قتال.

وقف بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني، أو المجدي بن عمرو، ويوصف بأنه كان حليفًا للطرفين، واستطاع أن يفض الأمر، وأثنى عليه الصلاة والسلام بسبب ذلك، وسيكون لمجدي هذا ذكر آخر في سرايا وغزوات أخرى.

فلنتأمل فيما حدث: ثلاثون مسلحًا في سرية سيف البحر، مقابل ثلاثمائة راكب في قافلة قريش.

بالتأكيد ركاب القافلة لم يكونوا كلهم مستعدين للقتال بذات السوية، لكن عددهم مؤثر حتمًا.

من الواضح أن السرية لم تكن تهدف إلى الاستيلاء على القافلة. الرسول عليه الصلاة والسلام كان يعرف حتمًا حجم قوافل قريش المتجهة أو العائدة من الشام، فهو ابن مكة الذي خبر تجارتها وحجم قوافلها؛ لذا فمن المستبعد أن تكون هناك خطة أو نية لمصادرة ما في القافلة أو حتى التعرض لها.

كان الهدف هو إرسال رسالة لقريش، نحن هنا، على الطريق بينكم وبين تجارتكم مع الشام، نستطيع أن نوقف ذلك، نسد هذا الشريان الذي تتنفسون من خلاله، فما أنتم فاعلون؟

لكنهم اصطفوا للقتال.

نعم، كل هذا كان يجب أن يحدث لكي تصل الرسالة.

نحن جادون، جادون لدرجة القتال.

ماذا لو كان حدث القتال؟

---

(1) مغازي الواقدي: (1/9-10).

كان هناك المجدي بن عمرو، الذي يقودنا السياق أنه تم إكرام (رهطه)، والثناء عليه.

كان وسيطًا بين الطرفين.

تراه كان جزءًا من الخطة منذ البداية؟

لا دليل على ذلك، لكن بناءً على الكثير من المواقف المشابهة التي حدثت في مواقف من السيرة، مثل إرساله عليه الصلاة والسلام مبعوثًا من خزاعة (القبيلة التي تحالف معها جده عبد المطلب ضد قريش) لطلب الجوار من المطعم بن عدي بعد عودته من الطائف، ومواقف التعمية على قريش في أثناء خروجه من مكة في خط هجرته الذي كان معاكسًا للطريق المعتاد.

مرة أخرى، لا دليل على أن المجدي كان جزءًا من الخطة، أو أنه وضع فيها دون علمه، وفعل ما سيفعله أي حليف مشترك لطرفين على وشك المواجهة.

لكن الرسالة وصلت واضحة لقريش.

***

على مدى سنة كاملة لاحقة، بين الرمضان الأول في المدينة، والرمضان الثاني فيها، أرسل عليه الصلاة والسلام عدة سرايا (وخرج في بعضها، وهذا يجعل تسميتها تتحول إلى غزوة) وفي كل مرة كانت الرسالة إلى قريش، بل إلى الجميع، تصل وبوضوح، نحن هنا، ونحن جادون، ويمكننا أن نخنق قريشًا لو أردنا.

لم يكن هذا هدف السرايا الوحيد بالتأكيد.

كانت هناك أهداف مباشرة واضحة: حماية المدينة من أي أطماع من الأعراب المحيطين بالمدينة، فرض هيبة وقوة الكيان المدني الجديد تفاديًا لأي خطر يهدد قوافل المدينة التجارية، استطلاع الطرق التي يمكن أن تستخدم لاحقًا عند الحاجة.

علينا أن ننتبه إلى كون كل أفراد السرايا الأولى كانوا من المهاجرين حصرًا.

عَنْ ابْنِ الْمُسَيّبِ وَعَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ يَرْبُوعٍ، قَالَا: لَمْ يَبْعَثْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدًا مِنْ الْأَنْصَارِ مَبْعَثًا حَتّى غَزَا بِنَفْسِهِ إلَى بَدْرٍ، وَذَلِك أَنّهُ ظَنّ أَنّهُمْ لَا يَنْصُرُونَهُ إلّا فِي الدّارِ، وَهُوَ الْمُثْبَتُ[1]

(1) مغازي الواقدي(1/10):.

كانت بيعة الحرب مع الأنصار تنص على (الدفاع) عن الرسول عليه الصلاة ونصرته في المدينة، وهذه السرايا كانت خارج المدينة، بطابع أقرب إلى الهجوم منها إلى الدفاع.

وكان عليه الصلاة والسلام يعرف بالتأكيد أن عموم الأنصار مستعدون للمشاركة مع المهاجرين في هذه السرايا.

لكنه التزم بما بايعوه عليه، ولمدة سنة كاملة سيبقى ملتزمًا بذلك.

لن يطالبهم بشيء خارج ما بايعوه عليه.

ولو نظرنا إلى الأمر بتعمق، لرأينا أن الحكمة في ذلك تتجاوز مجرد الالتزام بشروط البيعة.

لو حدث قتال في هذه السرايا، فإن قريش ستعتبر مشاركة الأنصار حربًا عليها من قبل الأوس والخزرج وستسعى إلى الانتقام منهم أو حربهم، ربما يكون ذلك زجًّا مبكرًا للأنصار في الصراع.

أما عندما تكون السرية مكونة من مهاجرين فقط، فالأمر لا يزال داخليًّا ضمن قريش، ويمكن لبعد الأنصار عن الأمر في هذه المرحلة أن يكون وسيلة ضغط مساعدة. لم أستخدم بعد كل ما يمكنني استخدامه.

الشيء الآخر الذي يجب أن ننتبه له هنا أيضًا أن هذه السرية كانت تحمل لواءً.

أَوَّلُ لِوَاءٍ عَقَدَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أَنْ قَدِمَ الْمَدِينَةَ لِحَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، بَعَثَهُ فِي ثَلَاثِينَ رَاكِبًا[1]

واللواء هو العلم وهو الراية أيضًا إلا في حالة وجود الراية واللواء معًا في ساحة مواجهة، فيكون اللواء منصوبًا، والراية محمولة، واللواء يعبر عن مركز القيادة والتنظيم حيث لا يمسكها إلا صاحب الجيش وموضعها مكان الرئيس[2]،ويكون ملويًّا على رمح، بينما الراية تكون محمولة من قبل أصحاب الحرب بحيث تخفق فيها الريح وتعبر عن

(1) مغازي الواقدي: (1/9).

(2) لسان العرب: مادة لواء.

التشجيع على القتال ويميل لها المقاتلون، واللواء يكون أكبر من الراية[1]، وهذا التمييز يكون عندما يجتمع اللواء والراية في موضع مواجهة واحد.

وجود لواء في هذه السرية فيه دلالة رمزية كبيرة.

في الجاهلية كان لكل قبيلة لواؤها ورايتها، واللواء يمثل شرف القبيلة ومكانتها.

على العكس من ذلك، كانت غارات الأعراب على القوافل وقطع طريقها لا تحمل لواء ولا راية، لأنها لم تكن تريد أن تنسب ما تفعله من قطع للطريق إلى قبيلتها.

الآن، السرية تحمل لواءً وهي متجهة إلى قافلة قريش.

نحن لسنا قبيلة، ولسنا قُطَّاع طريق أيضًا، نحمل اللواء الذي يعبر عن هذا الكيان الجديد الذي لا يشبه أي شيء عرفه العرب في جزيرتهم.

وكان لون اللواء أبيضَ[2].

وهذا اللون لم يكن مستخدمًا في الألوية والرايات عند عرب الجاهلية. بعبارة أخرى، كل ما جاء في الشعر الجاهلي وأخبار العرب كان يذكر رايات سوداء وحمراء ولم يأتِ ذكر راية بيضاء.

ثم جاءت أول سرية في الإسلام.

وكان اللواء أبيضَ اللون.

كان هذا الاختيار بالتأكيد مبنيًّا على قرار منه عليه الصلاة والسلام. اللون الأبيض كان له رمزيته عند العرب، شعرهم وأمثالهم كثيرًا ما استخدمت اللون الأبيض كدلالة على طهارة العرض، رفعة المنزلة، شرف السيرة، ووضوح النية. [3]

الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يبرز الجزء المحارب منه استخدم هذا اللون ليكون نموذجًا للمحارب الجديد، لحرب مختلفة عن حروب الجاهلية التي كثيرًا ما كانت

---

(1) العلم النبوي الشريف -عبد الله بن محمد بن سعد الحجيلي، مجلة الدار، العدد 3 السنة 23 1418- هجرية.

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد: (2/4).

(3) علمًا أن استخدام الراية البيضاء كدليل على الاستسلام لم ينتشر إلا لاحقًا في العصور الوسطى الأوروبية تحديدًا في القرن الثاني عشر الميلادي.

حروبًا عبثية انتقامية، من هذه اللحظة سيكون للحرب معنى مختلف، معنى يسهم في بناء ما بدأ عليه الصلاة والسلام ببنائه منذ مكة، ثم وضع حجر أساسه في المدينة.

عطفًا على صحيفة المدينة

علينا أن ننتبه أن فترة السنة هذه كانت أيضًا اختبارًا لالتزام اليهود بما وافقوا عليه في صحيفة المدينة.

ولا شك أن الفقرة التي اشترطت عدم مغادرة أي يهودي المدينة دون أخذ موافقة الرسول عليه الصلاة والسلام كانت مرتبطة بهذه السرايا. كان عليه الصلاة والسلام يرغب في منع أي تسريب معلومات عن هذه السرايا إلى قريش، ولهذا أميل إلى اعتبار أن تاريخ صحيفة المدينة (أو على الأقل بعض فقراتها الخاصة بالتزام اليهود) كانت خلال هذه الفترة التي بدأت فيها السرايا، أول رمضان بعد الهجرة، بعد سبعة أشهر من وصوله عليه الصلاة السلام إلى المدينة.

سرية عبيدة بن الحارث: بطن رابغ

السرية الثانية كانت بعد شهر، في شوال من السنة الهجرية الأولى وكان لواؤها بيد عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف[1]، واتجهت إلى رابغ على مقربة من ساحل البحر الأحمر، على بعد 180 كيلومترًا جنوب غرب المدينة لاعتراض قافلة قريش التي كان عليها أبو سفيان بن حرب، والتقى الفريقان في وادٍ يقال له بطن رابغ.

كان عدد من في السرية ستين، كلهم من المهاجرين.

وكان هناك مئتان مع أبي سفيان.

وفي هذه السرية رُمِيَ أول سهم في الإسلام.

فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي الْإِسْلَامِ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقّاصٍ، نَثَرَ كِنَانَتَهُ وَتَقَدّمَ أَمَامَ أَصْحَابِهِ وَتَرّسَ أَصْحَابُهُ عَنْهُ.

قَالَ: فَرَمَى بِمَا فِي كِنَانَتِهِ حَتّى أَفْنَاهَا....

(1) المطلب هو عم عبد المطلب جد النبي عليه الصلاة والسلام.

لَمْ يَسُلّوا السّيُوفَ وَلَمْ يَصْطَفّوا لِلْقِتَالِ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا الرّمْيِ وَالْمُنَاوَشَةِ، ثُمّ انْصَرَفَ هَؤُلَاءِ عَلَى حَامِيَتِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ عَلَى حَامِيَتِهِمْ. قال سعد: فَقُلْت لِعُبَيْدَةَ: لَوْ اتّبَعْنَاهُمْ لَأَصَبْنَاهُمْ، فَإِنّهُمْ قَدْ وَلّوْا مَرْعُوبِينَ. قَالَ: فَلَمْ يُتَابِعْنِي عَلَى ذَلِكَ، فَانْصَرَفْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ[1].

هذه المرة عدد أفراد السرية كان الضعف، ستون رجلًا.

وبالاعتماد على عدد المهاجرين في هذه المرحلة (70 - 90) مهاجرًا، فقد شملت السرية نسبة كبيرة جدًّا منهم.

وهذه المرة كانت هناك مناوشات بالسهام.

أبو سفيان بطبيعته الشخصية ليس مثل أبي جهل.

تطلب الأمر وجود وساطة لكي ينتهي الأمر في سرية حمزة.

أما مع هذه السرية، ومع العدد الأكبر في سرية المسلمين، فقد فضل أبو سفيان أن يترك المواجهة وينصرف.

سعد أراد أن يطاردهم، لكن صاحب اللواء عبيدة بن الحارث رفض، وكان لديه غالبًا أوامر منه عليه الصلاة والسلام بعدم ملاحقة القافلة.

الرسالة وصلت، عددنا أكبر مما سبق ونحن جاهزون للقتال، وجادون في ذلك.

***

وفي نفس هذا الشهر الذي أرسلت فيه هذه السرية، تزوج عليه الصلاة والسلام من عائشة.

لقد جاءت على قدر، في منعطف بالغ الأهمية، وكانت شاهدة عليه، وناقلة له...

سرية سعد بن أبي وقاص: الخرار

في الشهر التالي، ذي القعدة من السنة الهجرية الأولى، أرسل عليه الصلاة والسلام سعد بن أبي وقاص في سرية من عشرين راجلًا إلى الخرار، من الجحفة، على بعد 200 كيلومترًا جنوب غرب المدينة باتجاه مكة.

عن عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: **قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اُخْرُجْ يَا سَعْدُ حَتّى تَبْلُغَ الْخَرّارَ، فَإِنّ عِيرًا لِقُرَيْشٍ سَتَمُرّ بِهِ.**

(1) المغازي للواقدي: (1/10-11).

فَخَرَجْت فِي عِشْرِينَ رجلًا أَوْ أَحَدٍ وَعِشْرِينَ عَلَى أَقْدَامِنَا، فَكُنّا نَكْمُنُ النّهَارَ وَنَسِيرُ اللّيْلَ حَتّى صَبّحْنَاهَا صُبْحَ خَمْسٍ، فَنَجِدُ الْعِيرَ قَدْ مَرّتْ بِالْأَمْسِ. وَقَدْ كَانَ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهِدَ إلَيّ أَلّا أُجَاوِزَ الْخَرّارَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَجَوْت أَنْ أُدْرِكَهُمْ[1].

وقيل كانوا ثمانية.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَقَدْ كَانَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ غَزْوَةِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، فِي ثَمَانِيَةِ رَهْطٍ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ حَتَّى بَلَغَ الْخَرّارَ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ، ثُمَّ رَجَعَ وَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا[2].

هذه المرة، كان العدد أقل، ثمانية إلى عشرين.

وكانوا راجلين على أقدامهم، لا راكبين كما في السريتين السابقتين.

ربما لأن هذه السرية خرجت في ذي القعدة، أول شهر من الأشهر الحرم.

لذلك فقلة العدد، والسير على الأقدام، كانت تعني أيضًا، ضمنيًّا، أننا لسنا هناك للقتال.

القتال هو المحرم في الأشهر الحرم، لا الاستطلاع ولا المراقبة ولا حتى إزعاج القوافل.

الخروج على الأقدام أيضًا، وبعدد أقل، كان يمكن أن يكون لدواعٍ السرية.

الحديث هنا ليس عن تسرب الخبر من المدينة بالضرورة، سواء من المنافقين أم اليهود، بل من الطريق أيضًا.

العدد والعدة في هذه السرية لم يكونا مثيرين للشك بحيث يصل الخبر إلى قريش أو قافلتها.

فلننتبه هنا إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يعرف تمامًا أين ستكون قافلة قريش بعد خمسة أيام.

وهذا يعني أنه كان قد وضع عيونًا له على طريق الساحل.

---

(1) مغازي الواقدي: (1/11).

(2) سيرة ابن هشام: (1/600)/ تحقيق السقا.

وكانت عيونه تنقل له أخبارًا دقيقة، صحيح أن قافلة قريش مرَّت قبل وصول السرية، لكن كان هذا قبل أقل من يوم من وصولها، نسبة الخطأ كانت مقبولة للغاية، لم يكن هناك بث مباشر للموقع (live location) آنذاك.

ويبدو أنه عليه الصلاة والسلام كان قد توقع هامش الخطأ هذا، فأخبر سعدًا ألا يجاوز الخرار.

وهكذا كان.

المحارب، الحكيم، الحاكم.

هذا الجانب من شخصيته عليه الصلاة والسلام، شخصية المحارب، لم يظهر كشخص يريد أن يحارب كيفما كان، بل ظهر بتؤدة وهدوء، بتخطيط وحساب لكل خطوة وكل تفصيل. عيون ينقلون أخبار القوافل سرًّا، سرًّا لدرجة أننا لم نعرف حتى اليوم كل أسماء هؤلاء العيون وكيف كانوا ينقلون الأخبار وهل كانوا مسلمين أم حلفاء بقوا على شركهم في تلك الفترة. كل تفصيل كان مدروسًا بعناية، اللواء، اللون، عدد أفراد كل سرية، حرصه على ألا تتسرب الأخبار إلى قريش.

كانت لديه رؤية واضحة لكل شيء، وكان في منتهى الانضباط وهو يتعامل مع ما يراه.

عندما تنتهي الأشهر الحرم، ستتحول السرايا إلى غزوة.

أول غزوة قادها بنفسه، عليه الصلاة والسلام.

غزوة الأبواء[1]: منتصف الطريق إلى مكة

في صفر، بعد اثني عشر شهرًا من وصوله إلى المدينة، وعقب انتهاء الأشهر الحرم، قاد الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه أول غزوة إلى منطقة الأبواء على بعد قرابة 160 كيلومترًا جنوب المدينة، و200 كيلومترًا شمال مكة، أي في منتصف الطريق بين مكة والمدينة، وهو المكان الذي دفنت فيه والدته السيدة آمنة بنت وهب.

حمل اللواء يومها حمزة بن عبد المطلب، وترك على المدينة سعد بن عبادة[2].

---

(1) تسمى أيضًا غزوة ودان.

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد: (2/5).

هذه المرة، كنا في الطريق إلى مكة، وليس باتجاه الساحل.

أقل من المنتصف بقليل

أول غزوة قادها بنفسه عليه الصلاة والسلام كانت باتجاه مكة، ليس مصادفة بالتأكيد.

لم يحدث قتال في هذه الغزوة، لكن حدث ما هو أهم.

وَفِي هَذِهِ الْغَزَاةِ وَادَعَ بَنِي ضَمْرَةَ مِنْ كِنَانَةَ عَلَى أَلَّا يُكْثِرُوا عَلَيْهِ، وَلَا يُعِينُوا عَلَيْهِ أَحَدًا. ثُمَّ كَتَبَ بَيْنَهُمْ كِتَابًا، ثُمَّ رَجَعَ، وَكَانَتْ غَيْبَتُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً[1].

وَفِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ وَادَعَ مَخْشِيَّ بْنَ عَمْرٍو الضَّمْرِيَّ، وَكَانَ سَيِّدَهُمْ فِي زَمَانِهِ عَلَى أَنْ لَا يَغْزُو بَنِي ضَمْرَةَ وَلَا يَغْزُوهُ وَلَا يُكْثِرُوا عَلَيْهِ جَمْعًا وَلَا يُعِينُوا عَدُوًّا وَكَتَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ كِتَابًا، وَضَمْرَةُ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ.

لقد رجع من الغزوة بمعاهدة سلام مع قبيلة تسكن وتسيطر على منتصف الطريق إلى مكة.

لو أن قافلة لقريش كانت وقعت في يده لربما كان ذلك أهون على قريش من ذلك.

بالنسبة إليهم: سقوط قافلة في يد محمد خسارة مادية كبيرة، لكنها بلغتنا المعاصرة: خسارة تكتيكية.

أما معاهدة تعاون مع قبيلة تسكن في منتصف الطريق بينهم وبين محمد، فهذه خسارة استراتيجية.

الخسارة المادية خسارة قصيرة المدى، ويمكن تعويضها.

أما معاهدة السلام مع قبيلة بني ضمرة فهي تشير إلى تغير في قواعد الصراع. محمد يتوسع ويعقد المعاهدات مع قبائل قريبة من مكة، بعد سنة من خروجه متخفيًا من مكة.

لا شك أن ملأ قريش فهموا الأمر وأدركوا خطورة ما حدث.

***

وبعد سنوات، ليست كثيرة جدًّا، سيمر بالموضع نفسه...

(1) المغازي للواقدي: (1/12).

ولكنه هذه المرة ذهب ليجلس إلى قبر أمه آمنة بنت وهب.

عنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزَا غَزْوَةَ الْفَتْحِ، فَخَرَجَ يَمْشِي إِلَى الْقُبُورِ حَتَّى إِذَا أَتَى أَدْنَاهَا جَلَسَ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ يُكَلِّمُ إِنْسَانًا جَالِسًا يَبْكِي[1].

يذكرنا هذا بنمط (اليتيم)

نعم، اليتيم الذي تعلم من الفقد أن كل شخص مهم.

أن يفهم مشاعر الآخرين لأنه مر بإصعبها.

الذي لم يدخل دور الضحية قطُّ.

والذي لم يمنعه كل ما حققه من انتصارات ورفعة أن يبكي عند قبر أمه.

غزوة بواط: الغرب وجنوب الغرب

في شهر ربيع الأول، بعد سنة من وصوله إلى المدينة، خرج عليه الصلاة والسلام إلى بواط ليعترض قافلة لقريش[2]، وبواط تقع على بعد قرابة 50 كيلومترًا غرب المدينة، أي أنه هذه المرة يسلك اتجاهًا مختلفًا عن (الجنوب الغربي) الذي سلكته أغلب السرايا السابقة.

بواط هي أقصى نقطة في شمال غرب المدينة وصلها عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة إلى بدر. لماذا؟ لأن قبائل شمال وشمال غرب المدينة (المطلة أيضًا على طريق تجارة قريش) كانت تربطها بقريش علاقات وثيقة (بنو سليم، بنو مرة من غطفان، وبنو ليث من كنانة)، وستثبت هذه القبائل لاحقًا موقفها المؤيد لقريش.

وحمل لواءه سعد بْن أَبِي وقاص، وكان لواءً أبيضَ، واستخلف عَلَى المدينة سعد بْن معاذ، وخرج فِي **مائتين مِن أصحابه يعترض لعير قريش**[3] فيها أمية بن خلف الجمحي ومائة رَجُل مِن قريش وألفين وخمسمائة بعير[4].

---

(1) مصنف ابن أبي شيبه: 11808، مسند الإمام أحمد: 23038.

(2) مغازي الواقدي: (1/12).

(3) الرقم الذي نقله ابن سعد هنا عن عدد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة لا يبدو متناسقًا مع ما نعرفه عن عدد المهاجرين في تلك الفترة، وعن كون الأنصار لم يخرجوا قبل بدر، وهذا الرقم لم يذكره غير ابن سعد.

(4) الطبقات الكبرى لابن سعد: (2/6).

لم يحدث قتال، لكن الرسالة وصلت، لسنا في الجنوب الغربي فقط، نحن أيضًا في الغرب. ويمكن أن نكون في شمال الغرب أيضًا عما قريب، في كل ساحل البحر، طريقكم إلى ومن الشام.

من ترك عليه الصلاة والسلام على المدينة هذه المرة؟

سعد بن معاذ[1].

في غزوة الأبواء ترك سعد بن عبادة.

مرة سيد الخزرج، ومرة سيد الأوس.

عليه الصلاة والسلام يجرب توازنًا آخر ضمن التوازنات الصعبة التي مهدت الطريق إلى بدر.

الرؤية الواضحة مثل اللواء الأبيض الذي حمله هذه المرة سعد بن أبي وقاص.

غزوة سفوان - بدر الأولى: قريش تتحرش؟

في الشهر نفسه، ربيع الأول من السنة الهجرية الثانية، حدث ما يمكن اعتباره أول رد فعل من قريش على كل ما سبق، رغم أن هذا نادرٌ ما يذكر بهذه الصورة.

ثُمّ غَزَا فِي رَبِيعٍ الْأَوّلِ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ شَهْرًا فِي طَلَبِ كُرْزِ بْنِ جَابِرٍ الْفِهْرِيّ، أَغَارَ عَلَى سَرْحِ[2] الْمَدِينَةِ، وَكَانَ يَرْعَى بِالْجَمّاءِ[3] وَنَوَاحِيهَا، حَتّى بَلَغَ بَدْرًا وَلَمْ يُدْرِكْهُ.

حَمَلَ لِوَاءَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَكَانَ لِوَاءً أَبْيَضَ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ[4]

غار كرز بن جابر الفهري، وهو من مشركي قريش على أبل ومواشي من رعي المدينة ترعى قرب جبل على ثلاثة أميال من المدينة.

وكرز هذا من بني فهر وهم من قريش الظواهر لا من قريش البطاح، ولم يدخلوا في حلف المطيبين أو حلف الأحلاف.

---

(1) ذكر ابن هشام أنه ترك عليها السائب بن عثمان بن مظعون.

(2) السرح الأبل والمواشي.

(3) جبل ناحية العقيق يبعد عن المدينة ثلاثة أميال.

(4) الطبقات الكبرى لابن سعد: (2/9).

المسافة بين مكة والمدينة كبيرة، هل سيأتي كرز بن جابر كل هذه المسافة فقط ليغير على مواشي تسرح على بعد خمس كيلومترات من المدينة؟

هل هذه مجرد مغامرة فردية، قرار شخصي من كرز بن جابر؟

أم كان هذا تحرشًا من قريش لاستدراج رد فعل إلى حيث تريد؟

لا نعرف طبعًا، ولم يقل أحد شيئًا كهذا، لكن كون كرز الذي قام بالغارة من قريش، يثير الشك بأن الأمر على الأقل يمكن أن يكون جسًّا للنبض.

لحق الرسول عليه الصلاة والسلام بكرز حتى بدر، ثم عاد.

أما كرز بن جابر فقد أسلم بعد فترة.

واستشهد يوم فتح مكة.

غزوة ذي العشيرة: الموعد الأول

خرج عليه الصلاة والسلام بين جمادي الأولى وأوائل جمادي الآخرة ليعترض قافلة قريش إلى الشام، ترك أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي[1] على المدينة (وهو من المهاجرين) ، بعد أن ترك زيد بن حارثة (المهاجر أيضًا) في غزوة بدر الأولى، وربما يشير هذا إلى أنه عليه الصلاة والسلام قد رأى أن تولية (مهاجر) على المدينة أحفظ للتوازن من تولية أي من الأوس والخزرج على المدينة، ربما تخوفًا من بقايا حساسيات بشرية طبيعية، حيث إنه في أغلب غزواته اللاحقة يولي المهاجرين (عبد الله بن أم مكتوم هو أكثر من تولى ذلك)، ولم يحدث تولية لأنصاري على المدينة لاحقًا إلا في مرتين (أبو لبابة ومحمد بن مسلمة)، ربما رأى أن المهاجرين سيكونون مقبولين من الأوس والخزرج بالدرجة نفسها، وهذا يعكس تغيرًا مستمرًّا في حكمة تعامله عليه الصلاة والسلام مع الواقع من حوله حسب المعطيات المتحركة.

ثُمّ غَزَا فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ عَلَى رَأْسِ سِتّةَ عَشَرَ شَهْرًا، يَعْتَرِضُ لِعِيرَاتِ قُرَيْشٍ حِينَ أَبْدَأَتْ إلَى الشّامِ، فَنَدَبَ أَصْحَابَهُ فَخَرَجَ فِي خَمْسِينَ وَمِائَةٍ- وَيُقَالُ فِي مِائَتَيْنِ[2]- وَكَانَ قَدْ جَاءهُ الْخَبَرُ بِفُصُولِ العير من مكّة تريد الشّامَ، قَدْ جَمَعَتْ

(1) سيرة ابن هشام: (1/598)، تحقيق السقا.

(2) لا يزال العدد إشكاليًا ولا تفسير عندي غير مشاركة الأنصار في الغزوة، ولعلهم كانوا يشاركون في الغزوات خروجًا معه دون السرايا التي كان يبعثها دون أن يخرج بنفسه.

قُرَيْشٌ أَمْوَالَهَا فَهِيَ فِي تِلْكَ الْعِيرِ، فَسَلَكَ عَلَى نَقْبٍ مِنْ بَنِي دِينَارٍ بُيُوتَ السُّقْيَا [1] وَهِيَ غَزْوَةُ ذِي الْعَشِيرَةِ.[2]

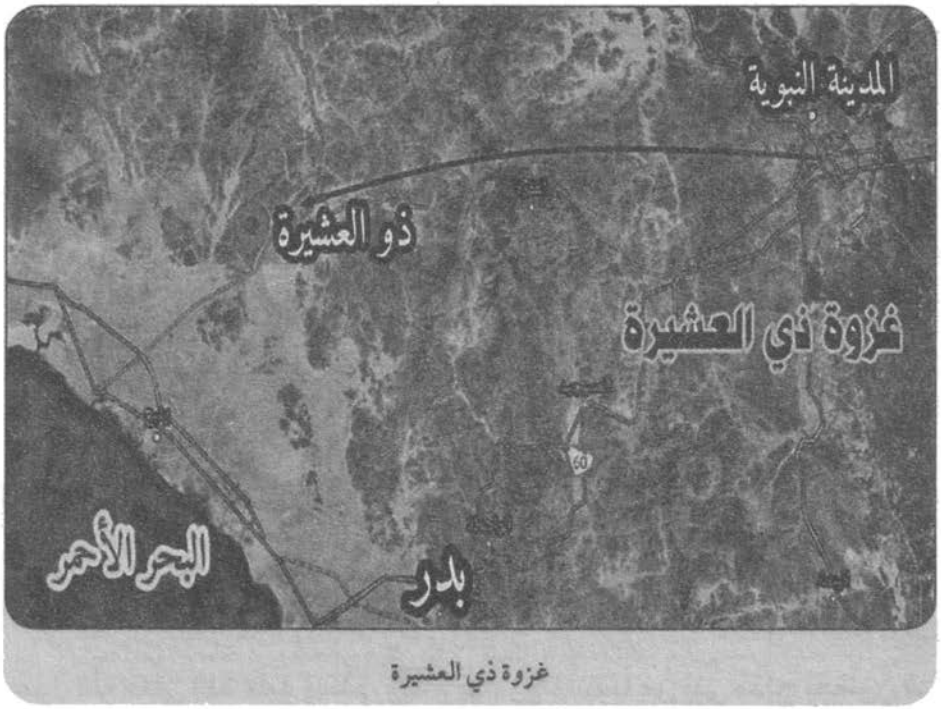

الخريطة من كتاب (غزوة بدر كأنك تراها) د. منصور بن ناصر الخالدي

أخذت القافلة طريقًا مختلفًا عن طريق القرى، وأكملت طريقها إلى الشام مبتعدة عن الطريق المعتاد.

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد:

.. اعْتَدَلَ بِهِ الطَّرِيقُ، حَتَّى نَزَلَ الْعُشَيْرَةَ مِنْ بَطْنِ يَنْبُعَ. فَأَقَامَ بِهَا جُمَادَى الْأُولَى وَلَيَالِيَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ، وادع فِيهَا بَنِي مُدْلِجٍ وَحُلَفَاءَهُمْ مِنْ بَنِي ضَمْرَةَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا[3].

(1) قرية جامعة من عمل الفرع بينها مما يلي الجحفة تسعة عشر ميلاً.

(2) مغازي الواقدي: (1/12-13).

(3) سيرة ابن هشام: (1/599)، تحقيق السقا.

غزوة القلوب والعقول

قافلة قريش ذهبت، لكنه بقي أيامًا في العُشيرة في وادي ينبع تعامل مع القبيلة التي نزل فيها، وأقام معهم معاهدة، بني مدلج، وأكد معاهدته مع حلفائهم بني ضمرة الذين سبق له أن عقد معهم معاهدة في غزوة الأبواء، أولى غزواته عليه الصلاة والسلام.

أن تغزو لتلحق قافلة شيء مختلف تمامًا عما فعله عليه الصلاة والسلام، لم يطارد القافلة، بل نزل أيامًا حيث تسكن القبيلة، بسط سيطرة الكيان المدني الجديد على المكان، وكسب قلوبًا وعقولًا في الطريق الذي تمر منه قوافل قريش إلى الشام.

نمط المحارب الذي نراه فيه عليه الصلاة والسلام مختلف جدًّا عن كل ما نتوقعه من هذا النمط، إنه نمط يجمع المحارب بالقائد بالحكيم بالمحب...

عليه الصلاة والسلام..

أول مرة: أبو تراب_عليه رضوان الله

وسينقل لنا عمار بن ياسر رضي الله عنه موقفًا إنسانيًّا من تلك الغزوة...

عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، قَالَ: **كُنْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ رَفِيقَيْنِ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الْعُشَيْرَةِ، فَلَمَّا نَزَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَقَامَ بِهَا، رَأَيْنَا أُنَاسًا مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ يَعْمَلُونَ فِي عَيْنٍ لَهُمْ فِي نَخْلٍ، فَقَالَ لِي عَلِيٌّ: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ، هَلْ لَكَ أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ، فَنَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلُونَ؟ فَجِئْنَاهُمْ، فَنَظَرْنَا إِلَى عَمَلِهِمْ سَاعَةً، ثُمَّ غَشِيَنَا النَّوْمُ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ فَاضْطَجَعْنَا فِي صَوْرٍ مِنَ النَّخْلِ فِي دَقْعَاءَ مِنَ التُّرَابِ، فَنِمْنَا.**

كانت غزوة.

لكنهم لم يكونوا غزاة بالمعنى الذي نفهمه من الكلمة، كانوا جالسين يراقبون بينما بنو مدلج يعملون في نخيلهم بأمان، كما لو كان الغزاة ضيوفًا عندهم.

يمكننا طبعًا أن نفهم رغبة الرفيقين المهاجرين في مراقبة العمل في النخيل، فهما قرشيان، لا معرفة مسبقة لديهما بهذا النوع من العمل، وهما يدركان أيضًا أن هذه المعرفة ستكون مفيدة لهما في المدينة..

غلبهما النعاس، فناما.

كانا بأمان من بني مدلج، كما كان بنو مدلج في أمان.

ثم..

فَوَاللَّهِ مَا أَهَبَّنَا إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَرِّكُنَا بِرِجْلِهِ، وَقَدْ تَتَرَّبْنَا مِنْ تِلْكَ الدَّقْعَاءِ، فَيَوْمَئِذٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ: «يَا أَبَا تُرَابٍ» لِمَا يُرَى عَلَيْهِ مِنَ التُّرَابِ[1].

اقترب منهما، عليه الصلاة والسلام، يوقظهما بحركة خفيفة من رجله، حركة لا يفعلها إلا من هو قريب محب. ولا نحتاج إلى دليل على محبته لعلي، ابن عمه وربيبه وزوج حبيبته فاطمة..

ثم قال له تلك الكنية المحببة...**أبا تراب.**

تلك الكنية التي التصقت بعلي بن أبي طالب، مثل وسام قلده إياه عليه الصلاة والسلام، وسام يعبر عن القرب منه، وعن التواضع والزهد الذي عاشه طيلة حياته...

أبو تراب، اللقب، قيل على ما يبدو أول مرة في تلك الغزوة، ثم استخدمه عليه الصلاة والسلام مرارًا بعد ذلك...

وحصل طلحة بن عبيد الله أيضًا على لقب آخر في تلك الغزوة... سَمَّانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ طَلْحَةَ الْخَيْرِ، وَفِي غَزْوَةِ الْعَشِيرَةِ طَلْحَةَ الْفَيَّاضَ.[2]

كل هذا حدث في غزوة لم تحدث فيها مواجهة.

***

أما القافلة التي أفلتت وأكملت طريقها إلى الشام..

فسيكون هناك موعد آخر معها، في طريق العودة.

ستغير طريقها أيضًا، لتفلت من الموعد.

لكن بعد منعطف التغيير هذا، سيكون هناك موعد مع التاريخ.

---

(1) مسند الإمام أحمد: 18321.

(2) المستدرك على الصحيحين: 5605.

سرية كنانة: جهينة تسأل عن الخبر اليقين

هذه السرية فيها أكثر من موقف، وقد قادت بدورها إلى سرية أخرى فيها أكثر من موقف أيضًا، وفي السريتين كانت هناك أخطاء بشرية استوعبها التعامل النبوي بحكمته الأبوية التي لا تتناقض مع شخصية المحارب فيه.

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ **جَاءَتْهُ جُهَيْنَةُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ قَدْ نَزَلْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَأَوْثِقْ لَنَا حَتَّى نَأْتِيَكَ وَتُؤْمِنَّا، فَأَوْثَقَ لَهُمْ فَأَسْلَمُوا**[1]..

جهينة قبيلة تسكن إلى الغرب والجنوب الغربي (بين المدينة وينبع)، كان لإسلامهم والمعاهدة معهم أهمية استراتيجية كبيرة بسبب قربهم من طريق القوافل إلى الشام بمحاذاة ساحل البحر الأحمر.

قَالَ: فَبَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَجَبٍ، وَلا نَكُونُ مِائَةً، وَأَمَرَنَا أَنْ نُغِيرَ عَلَى حَيٍّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ إِلَى جَنْبِ جُهَيْنَةَ، فَأَغَرْنَا عَلَيْهِمْ وَكَانُوا كثيرًا[2]..

في رجب من السنة الثانية الهجرية جهز عليه الصلاة والسلام سرية (فيها أقل من مائة ورجل ومن ضمنهم سعد بن أبي وقاص الذي روى ما حدث) للغارة على جزء من بني كنانة الذين يسكنون قرب جهينة.

لكن عندما وصلت السرية وجدت أن بني كنانة عددهم أكبر بكثير ...

فَلَجَأْنَا إِلَى جُهَيْنَةَ فَمَنَعُونَا[3].

لجأوا إلى جهينة باعتبار إسلامهم ومعاهدتهم عليه الصلاة والسلام، لكنهم امتنعوا عن مساعدتهم، وسألوهم سؤالًا منطقيًّا جدًّا في تلك الظروف.

وَقَالُوا: لِمَ تُقَاتِلُونَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ[4]؟

رجب شهر حرام، وهو الشهر الحرام المفرد الوحيد بين الأشهر الحرم الأربعة بينما بقية الأشهر متتالية.

---

(1) مسند أحمد: 1539.

(2) مسند أحمد/ السابق.

(3) مسند أحمد/ السابق.

(4) مسند أحمد/ السابق.

والشهر الحرام القتال فيه محرم.

لذا كان سؤال جهينة منطقيًّا.

فَقُلْنَا: إِنَّمَا نُقَاتِلُ مَنِ أَخْرَجَنَا مِنَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ[1]،

وكان الجواب منطقيًّا أيضًا، هؤلاء أخرجونا من البلد الحرام، فنحن لا نقاتل أحدًا لم يعتدِ علينا.

لكن قريش هي التي أخرجتهم من البلد الحرام، وهذه الغارة لم تكن على قريش بل على بني كنانة، تحديدًا على حي من كنانة.. أي على جزء منها..

لماذا كنانة؟

كنانة كانت جزءًا من الحلف الذي عقدته قريش لحصار بني هاشم وبني المطلب بهدف تسليم النبي عليه الصلاة والسلام إلى كفار قريش في حصار شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنوات، بل إن صحيفة المقاطعة قد حررت في خيف بني كنانة[2]، وكان لديهم تحالف تاريخي مع قريش وهي أيضًا القبيلة الأم لقريش[3] وسيكون لهم دور مماثل لاحقًا في غزوة أحد.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الغَدِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَهُوَ بِمِنًى: «**نَحْنُ نَازِلُونَ غَدًا بِخَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ، حَيْثُ تَقَاسَمُوا عَلَى الكُفْرِ**» **يَعْنِي ذَلِكَ المُحَصَّبَ، وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا وَكِنَانَةَ، تَحَالَفَتْ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، أَوْ بَنِي المُطَّلِبِ: أَنْ لاَ يُنَاكِحُوهُمْ وَلاَ يُبَايِعُوهُمْ، حَتَّى يُسْلِمُوا إِلَيْهِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.**[4]

إذن، بنو كنانة هم حلفاء قريش، ونزولهم قرب طريق الساحل يشكل خطرًا دائمًا أمام خطط الرسول عليه الصلاة والسلام للضغط على قوافل قريش وشريانها التجاري.

مشاركتهم في حصار شعب بني طالب أولًا، وقربهم من طريق الساحل ثانيًا، هما السببان في الغارة التي أمر بها الرسول عليه الصلاة والسلام.

(1) مسند أحمد/ السابق.

(2) خيف: وادي.

(3) للمزيد عن دور كنانة في إحكام الحصار على شعب طالب، السيرة مستمرة، للمؤلف.

(4) صحيح البخاري: 1590.

ما غاية الغارة على هذا الحي من كنانة؟

غالبًا لدفعهم عن المكان بحيث تكون خطة الرسول عليه الصلاة في مأمن من عيونهم أو تعاونهم مع قريش، وهم قبيلة من الرحل بالأساس، يمكن دفعهم باتجاه الشمال بعيدًا عن المنطقة التي ركزت عليها خطته عليه الصلاة والسلام.

فلنتذكر هنا أنه عليه الصلاة والسلام كان قد عاهد بني ضمرة، وهم جزء من بني كنانة، وربما كان هذا الجزء الآخر من كنانة- الذي تشن عليه الغارة، كان قد رفض المعاهدة وأصر أن يبقى حليفًا لقريش، وهذا يمكن، لو صح، ولا دليل عندي على صحته، أن يكون سببًا إضافيًّا للغارة.

قتال في الشهر الحرام؟

لكن هناك سؤالَ جهينة، لماذا تقاتلونهم في الشهر الحرام؟

حتى هذا الوقت، رجب من السنة الثانية الهجرية، لم يكن واضحًا -بالنسبة إلى من في هذه السرية على الأقل- إن كان القتال محرمًا في الأشهر الحرم.

لذا كان جوابهم منطقيًّا، هم يقاتلون من أسهم في إخراجهم من بلدهم، والرسول عليه الصلاة والسلام هو من أمرهم بالغارة في هذا الشهر.

لكن السؤال الذي يجب أن يطرح هنا: إذا كانت جهينة تتساءل عن القتال في الأشهر الحرم، فهل هذا يعني أن القتال في الأشهر غير الحرم قد أُذن به؟

هذا ما يشير له سؤال جهينة، وما يشير له سعد في بقية السياق كما سنرى.

لكن، نحن في رجب، قبل شهرين من بدر...

فمتى جاء الإذن بالقتال؟

الإذن غير الأمر

يبدو أن إذن القتال نزل قبل ذلك بفترة.

بل وربما قبل ذلك بفترة طويلة.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «**لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ لَيَهْلِكُنَّ « فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ

بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39] **الآيَةَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ»**[1].

السياق يشير إلى أن الآية نزلت في بداية الهجرة، في أثنائها أو في أوائل أيام وصوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

أبو بكر الصديق كان يستقرأ قصص الأنبياء السابقين من القرآن.

كل الأقوام التي أخرجت نبيها عوقبت بعقوبة أهلكتهم.

لذلك توقع ما ستتعرض له قريش بناءً على ما سبق من قصص الأقوام السابقة.

وقال: أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ لَيَهْلِكُنَّ.

فنزلت الآيات لتقول إن ثمة مصيرًا آخر، وطريقًا مختلفًا هذه المرة.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج/39)

هناك إذن بالقتال. ويبدو من هذا السياق أنه كان مبكرًا جدًّا.

لكن الإذن بالقتال لا يعني الأمر بالقتال.

الأمران مختلفان تمامًا.

عندما يكون هناك إذن بأمر ما، فهذا يعني وجود (موافقة) عليه، إنه مباح، لكن لا يعني هذا أن عليك أن تقوم به فورًا.

الأمر متروك لظروفك وتقديرك واستعداداتك.

لذا فمن المنطقي أن تكون الآية قد نزلت مبكرًا في بداية الهجرة، حتى لو كانت وضعت في سورة الحج التي نزلت لاحقًا، لأن الإذن لا يعني القتال مباشرة، بل يعني أن تضعه في حساباتك، وتبني عدتك واستعداداتك على أساس هذا الإذن.

اللافت للنظر أن الجواب الذي رد به أهل السرية على سؤال جهينة كان متوافقًا تمامًا مع الآية التالية لآية الإذن

(1) سنن الترمذي: 3171.

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج/40)

آية الإذن قالت إن من أخرجهم من ديارهم كان يقاتلهم، ما دام الإخراج قائمًا فهم (يقاتَلون)، لذلك فهم يقاتلون من قاتلهم أولًا، بإخراجهم من البلد الحرام، وهذا يرجح أن الآية كانت قد نزلت بالفعل في مرحلة مبكرة من الهجرة.

نعود لسعد بن أبي وقاص ومن معه وهم أمام جهينة.

خلاف وتفرق في السرية

فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: مَا تَرَوْنَ؟ فَقَالَ بَعْضُنَا: نَأْتِي نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنُخْبِرُهُ، وَقَالَ قَوْمٌ: لَا بَلْ نُقِيمُ هَاهُنَا، وَقُلْتُ أَنَا فِي أُنَاسٍ مَعِي: لَا بَلْ نَأْتِي عِيرَ قُرَيْشٍ فَنَقْتَطِعُهَا، فَانْطَلَقْنَا إِلَى الْعِيرِ وَكَانَ الْفَيْءُ إِذْ ذَاكَ: مَنِ أَخَذَ شيئًا فَهُوَ لَهُ، فَانْطَلَقْنَا إِلَى الْعِيرِ وَانْطَلَقَ أَصْحَابُنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ[1]

اختلف من كان في السرية، مَن يريد أن يبقى في مكانه، ومَن يريد أن يرجع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وبين من يريد أن يلحق قافلة لقريش فيغنم منها.

وعندما وصل الرسول عليه الصلاة والسلام خبر ما حدث وما تفرق عليه أهل السرية:

فَقَامَ غَضْبَانَ مُحْمَرَّ الْوَجْهِ فَقَالَ: «أَذَهَبْتُمْ مِنْ عِنْدِي جميعًا وَجِئْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمِ الْفُرْقَةُ، لأبْعَثَنَّ عَلَيْكُمْ رجلًا لَيْسَ بِخَيْرِكُمْ، أَصْبَرُكُمْ عَلَى الْجُوعِ وَالْعَطَشِ» فَبَعَثَ عَلَيْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ الْأَسَدِيَّ فَكَانَ أَوَّلَ أَمِيرٍ أُمِّرَ فِي الْإِسْلامِ[2]

الفرقة كانت ناتجة عن عدم وجود قيادة واضحة.

لم يكن عبد الله بن جحش الأسدي أول أمير حرفيًّا.

لكننا سنرى ما المقصود بالضبط من ذلك عندما ندخل في سريته.

لكن ما حدث في هذه السرية كان درسًا للجميع.

---

(1) مسند أحمد: 1539.

(2) مسند أحمد/ السابق.

(ليس بخيركم، لكن أصبركم على الجوع والعطش..)

لن يكون خيركم بالضرورة، لكنه سيكون الأفضل لهذه المهمة.

الصبر على الجوع والعطش؟ ما علاقة هذا بالأمر.

(أصبركم): مجموعة صفات قيادية

هذا الوصف يشبه ما نقوله اليوم عن (تحمل العمل في ظروف عمل ضاغطة).

الأشخاص الذين لديهم القدرة على تحمل الظروف الصعبة تكون لديهم مواصفات شخصية معينة.. الصبر على تحمل الظروف الصعبة لا يأتي منفردًا بمعزل عن هذه الصفات.

دراسات علمية كثيرة بحثت في هذا الأمر، من ضمنها دراسة ركزت على العاملين في مجال الإسعاف الطبي وكانت نتائجها تشير إلى أن الأشخاص الذين لديهم القدرة على تحمل ظروف صعبة (مثل ضغط العمل أو الجوع والعطش) يتميزون بقدر عالٍ من الصلابة النفسية مع القدرة على التعافي (Resilience) تمكنهم من التكيف مع الظروف بالغة الصعوبة أو المواقف الاستثنائية[1].

دراسة أخرى بحثت عن العلاقة بين الصبر وما يعرف بالسمات الخمس الكبيرة للشخصية (Big Five Personality Traits)[2] ووجدت علاقة طردية مع الـ

(1) Hebel, K., Jałtuszewska, S., Steliga, A., Kłosiewicz, T., Ślęzak, D., & Głowiński, S. (2025). Resilience as a personality trait and stress coping styles: A cross-sectional analysis of a paramedic student cohort. *Journal of Clinical Medicine, 14*(6), 1878. https://doi.org/10.3390/jcm14061878

(2) السمات الخمس الكبرى للشخصية (Big Five Personality Traits) تُعد من أكثر النماذج العلمية اعتمادًا لفهم أنماط البشر وسلوكهم. أولى هذه السمات هي **الانفتاح على الخبرة (Openness to Experience)**، وهي تعكس مدى ميل الشخص لتقبّل الأفكار الجديدة وخوض التجارب غير المألوفة. وتشمل هذه السمة حب الخيال، الاهتمام بالفنون، الفضول الفكري، والانفتاح على التنوع الثقافي والمعرفي.

السمة الثانية فهي **الضمير (Conscientiousness)**، ويُقصد بها الانضباط الذاتي، التنظيم، الإحساس بالمسؤولية، والقدرة على الالتزام بالأهداف. الأفراد الذين يسجلون درجات مرتفعة في هذه السمة يميلون إلى أن يكونوا دقيقين، مجتهدين، يمكن الاعتماد عليهم، ويهتمون بالتفاصيل ونتائج أفعالهم.

السمة الثالثة هي **الانبساطية (Extraversion)**، وهي تصف مدى ميل الشخص إلى التفاعل الاجتماعي والانخراط مع الناس. الأشخاص الانبساطيون يتميزون بالحيوية، الحماس، الجرأة، ويشعرون بالراحة في البيئات الاجتماعية، بينما يُفضّل الانطوائيون (من يسجلون درجات منخفضة في هذه السمة) الهدوء والعزلة والتأمل الذاتي.

(Conscientiousness)- وهي السمة التي تترجم أحيانًا بالضمير أو الضمير الحي أو الانضباط الذاتي، وعكسية مع الـ (Neuroticism) - وهي السمة التي تترجم أحيانًا بالتقلب الانفعالي أو عدم الاستقرار العاطفي أو الترجمة الأكثر رواجًا: العصابية. أي أن الصبر والقدرة على التحمل تكون عند الأشخاص الذين لديهم معدل ضمير أو انضباط ذاتي عالي، وتقلب انفعالي أو عصابي منخفض[1].

دراسة ثالثة شبهت عدة القدرة على تحمل الصعاب الجسدية والنفسية **بالبطارية النفسية** التي تتكون من ثلاثة أركان: الإصرار طويل الأمد (Grit)، الصلابة النفسية مع القدرة على التعافي (Resilience)، التحكم بالذات (Self -Control.)[2]

صلابة نفسية وقدرة على التعافي، انضباط ذاتي، استقرار وعدم تقلب عاطفي، إصرار طويل الأمد.

هذه هي المواصفات التي تجعل شخص يكون أكثر قدرةً على تحمل الظروف الصعبة.

وتجعله مؤهلًا ليكون أميرًا في مهمة عسكرية.

اختصر عليه الصلاة والسلام كل ذلك بجملة واحدة: **أصبركم على الجوع والعطش**.

***

ثم تأتي سمة **القبول أو الطيبة (Agreeableness)**، وتشير إلى مدى ميل الشخص نحو التعاطف، التعاون، الثقة بالآخرين، وتجنّب الصراعات. الأفراد ذوو درجات عالية في هذه السمة غالبًا ما يكونون محبوبين، عطوفين، يميلون إلى التسامح والرحمة، بينما قد يظهر من يسجلون درجات منخفضة شيئًا من التنافسية أو الشك بالآخرين.

وأخيرًا، هناك **العُصابية أو عدم الاستقرار العاطفي (Neuroticism)**، وهي السمة التي تقيّم مدى قابلية الشخص للتأثر بالمشاعر السلبية مثل القلق، الغضب، الحزن، والخجل. من يسجلون درجات مرتفعة في هذه السمة يكونون أكثر عرضة للتوتر والانفعالات السلبية، بينما من يسجلون درجات منخفضة يُظهرون ثباتًا انفعاليًا ومرونة نفسية أكبر.

(1) Nilsen, F. A., Bang, H., & Røysamb, E. (2024). Personality traits and self-control: The moderating role of neuroticism. *PLOS ONE, 19*(8), e0307871. https://doi.org/10.1371/journal.pone.0307871

(2) Biggs, A., Seech, T., Johnston, S., & Russell, D. (2023). Psychological endurance: How grit, resilience, and related factors contribute to sustained effort despite adversity. *The Journal of General Psychology, 151*(1), 1–43. https://doi.org/10.1080/00221309.2023.2253955

أريد أن أقف سريعًا على ما قد يحتاج إلى وقفة مطولة.

قال لهم: **ليس بخيركم، ولكن أصبركم على الجوع والعطش.**

لم يشأ -رغم غضبه- أن يفاضل بينهم في الخيرية، فيمن هو الأفضل بالمطلق.

بل حدد صفة واحدة تجعل عبد الله بن جحش هو الأفضل في هذا السياق تحديدًا.

لم يجرح أيًّا منهم، لم يحرجهم.

المحب. الذي يفهم الآخرين، الحكيم، القائد.

سرية نخلة: على مرمى حجر من بدر

هذه السرية حدثت في رجب أو أواخر رجب من السنة الثانية للهجرة، في الشهر السابع عشر لوصوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة. تفاصيلها ونتائجها معقدة، وبشكل ما قادت إلى ما حدث بعدها بشهرين، الذي أسهم بدوره في إدخال المدينة والصراع مع قريش في مرحلة مختلفة تمامًا.

أَمِيرُهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ إِلَى نَخْلَةَ[1]...، فِي رَجَبٍ عَلَى رَأْسِ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا.

(1) نخلة: موضع بين مكة والطائف على بعد 480 كيلومترًا جنوب شرق المدينة

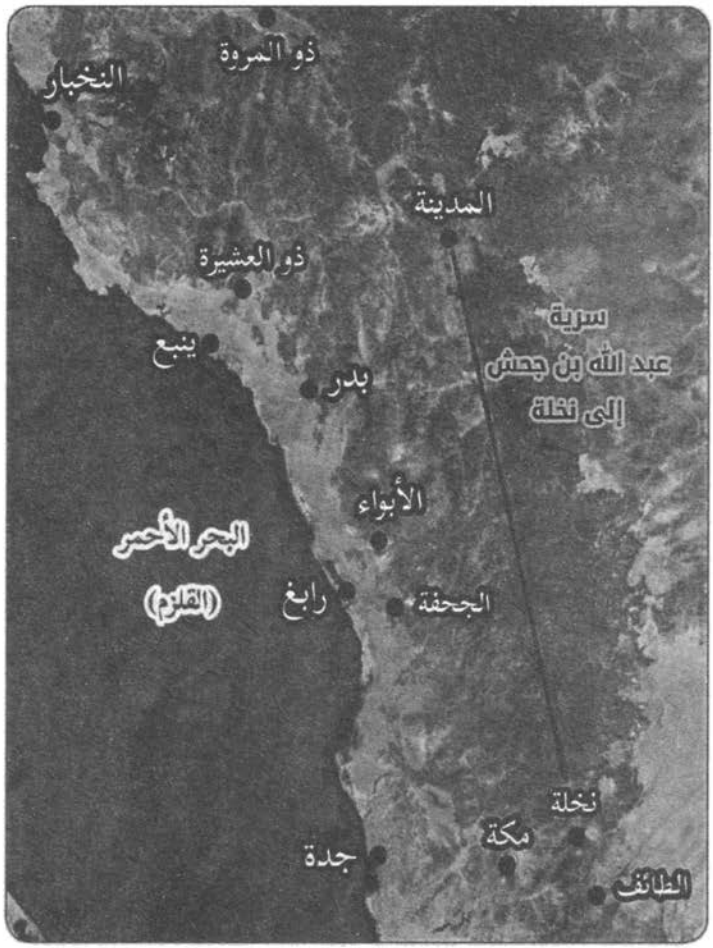

سرية عبد الله بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى نخلة

الخريطة من كتاب (غزوة بدر كأنك تراها) د. منصور بن ناصر الخالدي

قَالُوا:

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ: دَعَانِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ صَلّى الْعِشَاءَ فَقَالَ: وَافِ مَعَ الصّبْحِ، مَعَك سِلَاحُك، أَبْعَثُك وَجْهًا!

قَالَ: فَوَافَيْت الصّبْحَ وَعَلَيّ سَيْفِي وَقَوْسِي وَجَعْبَتِي وَمَعِي دَرَقَتِي، فَصَلّى النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنّاسِ الصّبْحَ ثُمّ انْصَرَفَ، فَيَجِدُنِي قَدْ سَبَقْته وَاقِفًا عِنْدَ بَابِهِ،

وَأَجِدُ نَفَرًا مَعِي مِنْ قُرَيْشٍ. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أُبَيّ بْنَ كَعْبٍ فَدَخَلَ عَلَيْهِ،

فَأَمّرهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَتَبَ كِتَابًا. ثُمّ دَعَانِي فَأَعْطَانِي صَحِيفَةً مِنْ أَدِيمٍ ...

فَقَالَ: قَدْ اسْتَعْمَلْتُك عَلَى هَؤُلَاءِ النّفَرِ، فَامْضِ حَتّى إذَا سِرْت لَيْلَتَيْنِ فَانْشُرْ كِتَابِي، ثُمّ امْضِ لِمَا فِيهِ.

قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيّ نَاحِيَةٍ؟

فَقَالَ: أُسْلُكْ النّجْدِيّةَ، تَؤُمّ رَكِيّةَ[1]

قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتّى إذَا كَانَ بِبِئْرِ ابْنِ ضُمَيْرَةَ نَشَرَ الْكِتَابَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ: سِرْ حَتّى تَأْتِيَ بَطْنَ نَخْلَةَ عَلَى اسْمِ اللهِ وَبَرَكَاتِهِ، وَلَا تُكْرِهَن أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِك عَلَى الْمَسِيرِ مَعَك، وَامْضِ لِأَمْرِي فِيمَنْ تَبِعَك حَتّى تأتى بطن نخلة فَتَرَصّدْ بِهَا عِيرَ قُرَيْشٍ[2].

قام الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه السرية بأمرين لم يفعلهما في السرايا السابقة.

الأول أنه كتب كتابًا لأمير السرية وطلب منه ألا يفتح الكتاب إلا بعد يومين.

والثاني أن اتجاه هذه السرية كان مختلفًا تمامًا عن أغلب السرايا السابقة، التي كان اتجاهها دومًا إلى الغرب وجنوب الغرب، باتجاه ساحل البحر الأحمر.

أما هذه السرية فاتجاهها يتحدى احتياطات قريش.

لأنها هذه المرة تتجه إلى الجنوب، باتجاه مكة، تحديدًا إلى الطريق بين مكة والطائف.

الغرب والجنوب الغربي كان قد تأمن إلى حد بعيد بالنسبة إلى المسلمين عبر المعاهدات مع بني ضمرة وبني مدلج، بينما الأمر مع القبائل بين مكة والطائف مختلف تمامًا.

لذا فاتجاه السرية يجب أن يكون سريًّا تمامًا.

---

(1) توءم ركية: طريق جبلي عرف باسم بئر موجودة فيه.

(2) مغازي الواقدي: (13-14/1).

ولذلك ربما كان عدد من في السرية قليلًا، ثمانية، يتناوبون على أربعة دواب. هذا العدد لن يثير ريبة أحد من المدينة (إذا كان هناك من يتراسل مع قريش من المنافقين أو المشركين أو اليهود)، ولا حتى في الطريق.

حتى عبد الله بن جحش لم يكن يعرف أين هو ذاهب.

بعد مسيرة يومين، فتح الكتاب، وقرأ ما فيه.

الرسول عليه الصلاة والسلام يطلب منه أن يخيّر بقية أفراد السرية بين المضي في الطريق أو العودة.

لماذا؟

لأن هذه منطقة خطرة، بعيدة عن المدينة جدًّا، وخطرة، ليست ضمن المنطقة التي تشكل فيها نفوذ للمسلمين في هذه الفترة.

فَلَمّا قَرَأَ عَلَيْهِمْ الْكِتَابَ قَالَ: لَسْت مُسْتَكْرِهًا مِنْكُمْ أَحَدًا، فَمَنْ كَانَ يُرِيدُ الشّهَادَةَ فَلْيَمْضِ لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ أَرَادَ الرّجْعَةَ فَمِنْ الْآنِ! فَقَالُوا أَجْمَعُونَ: نَحْنُ سَامِعُونَ وَمُطِيعُونَ لِلّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلَك، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ حَيْثُ شِئْت.

فَسَارَ حَتّى جَاءَ نَخْلَةَ فَوَجَدَ عِيرًا لِقُرَيْشٍ فِيهَا عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيّ، وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ الْمَخْزُومِيّ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيّ، وَنَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْمَخْزُومِيّ[1].

لم يتخلف أحد منهم عن الأمر، وكانوا ثمانية وفيهم سعد بن أبي وقاص.

وصلوا نخلة ووجدوا قافلة قريش محملة بالبضاعة كما قال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام.

قافلة صغيرة من أربعة أشخاص تحمل بضاعة من الطائف في طريقها إلى مكة.

كان مطلوبًا منهم رصد القافلة فقط.

لكن لماذا كل هذه المسيرة والتعرض للخطر فقط من أجل رصد قافلة؟

(1) مغازي الواقدي: (1/14).

ربما كان عليه الصلاة والسلام يختبر عيونًا له أخبرته عن هذه القافلة، عيونًا جديدة في اتجاه جديد، ربما من مكة، وأراد عليه الصلاة والسلام أن يتأكد من موثوقية أخبارها، فأرسل السرية للتأكد.

وقد كان.

ولكن الأمور خرجت عن السيطرة، إذ لم تلتزم السرية بمهمتها الأصلية.

كانوا لا يزالوا يتعلمون كيف تكون الحرب في هذا العالم الجديد قيد البناء.

ولذلك فقد ارتكبوا أخطاءً مبنية على ما سبق من حروب العرب وغزواتهم.

قبل أن يسبقنا بها عكاشة

فَلَمّا رآهم أَصْحَابُ الْعِيرِ هَابُوهُمْ وَأَنْكَرُوا أَمْرَهُمْ، فَحَلَقَ عُكّاشَةُ رَأْسَهُ مِنْ سَاعَتِهِ، ثُمّ أوفى لِيُطَمْئِنَ الْقَوْمَ.

قَالَ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ: فَحَلَقْت رأس عكّاشة بيدي- وكان رأى واقد ابن عَبْدِ اللهِ وَعُكّاشَةَ أَنْ يُغِيرُوا عَلَيْهِمْ- فَيَقُولُ لَهُمْ: عُمّارٌ! [1]نَحْنُ فِي شَهْرٍ حَرَامٍ! فَأَشْرَفَ عُكّاشَةُ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا بَأْسَ، قَوْمٌ عُمّارٌ! فَأَمِنُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، وَقَيّدُوا رِكَابَهُمْ وَسَرّحُوهَا، وَاصْطَنَعُوا طَعَامًا[2].

انتبهت القافلة لاقتراب السرية منهم ويبدو أنهم أظهروا الحذر.

ويبدو أن قلة عدد من في القافلة قد شجعت بعض مَن في السرية على التفكير في الغارة عليها.

على الأقل هذا كان موقف كلٍّ من عكاشة بن محصن الأسدي وواقد بن عبد الله، علمًا أن عددًا من كان في السرية قد قل لأن البعير الذي كان يتناوب على ركوبه سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان فر فذهبا خلفه وضلا طريقهما ولم يحضرا الواقعة كلها.

تحرَّك عكاشة (وهو الصحابي المعروف بقوله عليه الصلاة والسلام: سبقك بها عكاشة[3]) بحركة تمويهية ليوهم مشركي القافلة أنهم في أمان.

---

(1) عُمّار: أي معتمرون.

(2) مغازي الواقدي/ السابق.

(3) صحيح البخاري: 6541.

طلب من واقد أن يحلق له رأسه لكي يبدو كما لو أنهم قد كانوا معتمرين في مكة، وتحللوا من عمرتهم بحلق رؤوسهم كما هي الشعائر، وبذلك يطمئن من في قافلة قريش.

أظهر عكاشة نفسه للقافلة من دون بقية الصحابة، وقال لهم: نحن معتمرون، في شهر حرام، كي يؤكد لهم أنهم في أمان.

وبالفعل، اطمأن من في القافلة، وقيدوا دوابهم، وجلسوا يستريحون لتناول الطعام.

فلنتذكر: المهمة كانت الرصد فقط.

تَشَاوَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرِهِمْ- وَكَانَ آخِرَ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ، وَيُقَالُ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ- فَقَالُوا: إِنْ أَخَّرْتُمْ عَنْهُمْ هَذَا الْيَوْمَ دَخَلُوا الْحَرَمَ فَامْتَنَعُوا، وَإِنْ أَصَبْتُمُوهُمْ فَفِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ. وَقَالَ قَائِلٌ:

لَا نَدْرِي أَمِنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ هَذَا الْيَوْمُ أَمْ لَا. وَقَالَ قَائِلٌ: لَا نَعْلَمُ هَذَا الْيَوْمَ إِلَّا مِنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَلَا نَرَى أَنْ تَسْتَحِلُّوهُ لِطَمَعٍ أَشْفَيْتُمْ عَلَيْهِ. فَغَلَبَ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا، فَشَجَّعَ الْقَوْمَ فَقَاتَلُوهُمْ. فَخَرَجَ وَاقِدُ بن عبد الله يَقْدُمُ الْقَوْمَ، قَدْ أَنْبَضَ قَوْسَهُ وَفَوَّقَ بِسَهْمِهِ، فَرَمَى عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيِّ- وَكَانَ لَا يُخْطِئُ رَمْيَتَهُ- بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ. وَشَدَّ الْقَوْمُ عَلَيْهِمْ، فَاسْتَأْسَرَ عُثْمَانَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَحَكَمَ بن كيسان، وأعجزهم نوفل ابن عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَاسْتَاقُوا الْعِيرَ.[1]

مسألة القتال في الأشهر الحرم كانت تشغل أذهان صحابة السرية. سألوا سؤالًا يشبه سؤال جهينة في سرية كنانة. كانت السرية في أواخر رجب، إمَّا آخر يوم من رجب وإمَّا أول يوم من شعبان، لكن على الأغلب كان آخر يوم من رجب.

بالنسبة إلى مَن كان يرى القتال، عكاشة وواقد على الأقل، إن تركوهم حتى اليوم الثاني، اقتربوا أكثر من مكة، وبذلك يكونون قد أفلتوا.

آخرون في السرية، كانوا يرون أنه شهر حرام لا قتال فيه، وقالوا بوضوح للآخرين: **لَا نَرَى أَنْ تَسْتَحِلُّوهُ لِطَمَعٍ أَشْفَيْتُمْ عَلَيْهِ.**

أشفيتم عليه: أي أوشكتم على الوقوع فيه.

طمع أوشكتم على الوقوع فيه.

(1) مغازي الواقدي: (14-15/1)).

يكمل الراوي: فغلب على الأمر الذين يريدون عرض الدنيا...

رمى واقد بن عبد الله سهمه على عمرو بن الحضرمي فقتله. وأُسِر الحكم بن كيسان[1] وعثمان بن عبد الله بن المغيرة بينما تمكن شقيقه نوفل من الهرب.

وأخذوا العير: أي الإبل وما تحمله من بضائع، معهم إلى المدينة.

وهناك ...لم تكن الأمور في استقبالهم كما كانوا يتمنون.

غضب شريفٌ في المدينة

قَالُوا: وَاسْتَاقُوا الْعِيرَ، وَكَانَتْ الْعِيرُ فِيهَا خَمْرٌ وَأَدَمٌ وَزَبِيبٌ جَاءُوا بِهِ مِنْ الطَّائِفِ، فَقَدِمُوا بِهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: قَدْ اسْتَحَلّ مُحَمّدٌ الشّهْرَ الْحَرَامَ، فَقَدْ أَصَابَ الدّمَ وَالْمَالَ، وَقَدْ كَانَ يُحَرّمُ ذَلِكَ وَيُعَظّمُهُ.

فَقَالَ مَنْ يَرُدّ عَلَيْهِمْ: إنّمَا أَصَبْتُمْ فِي لَيْلَةٍ مِنْ شَعْبَانَ.

وَأَقْبَلَ الْقَوْمُ بِالْعِيرِ، فَلَمّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقّفَ الْعِيرَ فَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا شيئًا، وَحَبَسَ الْأَسِيرَيْنِ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: مَا أَمَرْتُكُمْ بِالْقِتَالِ فِي الشّهْرِ الْحَرَامِ.

فَحَدّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ سُحَيْمٍ قَالَ: مَا أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقِتَالِ فِي الشّهْرِ الْحَرَامِ وَلَا غَيْرِ الشّهْرِ الْحَرَامِ، إنّمَا أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَحَسّسُوا أَخْبَارَ قُرَيْشٍ.

قَالُوا: وَسُقِطَ فِي أَيْدِي الْقَوْمِ، وَظَنُّوا أَنْ قَدْ هَلَكُوا، وَأَعْظَمَ ذَلِكَ مَنْ قَدِمُوا عَلَيْهِ، فَعَنّفُوهُمْ وَلَامُوهُمْ، وَالْمَدِينَةُ تَفُورُ فَوْرَ الْمِرْجَلِ[2].

عندما وصلوا المدينة، ومعهم الأسيران والغنائم، وأخبروه عليه الصلاة والسلام بما حدث مع عمرو بن الحضرمي، غضب عليه الصلاة والسلام لما حدث، كان ذلك مخالفة صريحة لأوامر واضحة، السرية كان هدفها الترصد فقط.

قريش اعتبرت ما حدث ليس اعتداءً عليها فحسب، بل على أعراف العرب في احترام الأشهر الحرم، ووجدتها فرصة في الدعاية ضد المسلمين.

(1) أسلم في أثناء أسره وبقي مسلمًا أن استشهد في بئر معونة.

(2) مغازي الواقدي: (1/16).

حاول البعض أن يرد ذلك بأن الحادثة وقعت في شعبان، لكن من الواضح من موقفه عليه الصلاة والسلام أن حادثة قتل عمرو بن الحضرمي كانت في رجب، الشهر الحرام.

أبقى الرسول عليه الصلاة والسلام على الأسيرين، ولم يأخذ شيئًا من الغنائم أو يأمر بتوزيعها.

كان الوضع متوترًا في المدينة، تفور فور المرجل، وظن أصحاب السرية أنهم هلكوا، وتوجه الجميع إليهم باللوم على الوضع الخطير.

قتيل من قريش في الشهر الحرام في سرية كان غايتها الرصد فقط.

حملة الحطب

وَقَالَتْ الْيَهُودُ:

عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيّ قَتَلَهُ وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التّمِيمِيِّ، عَمْرٌو عَمُرَتْ الْحَرْبُ، وَالْحَضْرَمِيِّ حَضَرَتْ الْحَرْبُ، وَوَاقِدٌ وَقَدَتْ الْحَرْبُ!

قَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: قَدْ تَفَاءَلُوا بِذَلِكَ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ اللهِ عَلَى يَهُودَ.

اليهوَد من جهتهم كانوا فرحين بما حدث، واستخدموا أسلوب السخرية من الأسماء وتوظيفها لصالح التفاؤل بحرب قادمة بين قريش والمسلمين. فقالوا: عمرو عَمُرَت الحرب. والحضرمي حضرت الحرب وواقد وقدت الحرب[1].

يمكن اعتبار موقفهم هنا وتفاؤلهم بأن مقتل عمرو بن الحضرمي سيقود إلى الحرب بين قريش والرسول عليه الصلاة والسلام هو واحدة من ملامح مرحلة جديدة في العلاقة بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام. في كل هذه الأشهر السابقة لم تبدر منهم أعمالًا صريحة العداوة، أو على الأقل لم يبدر منهم ما يخرق اتفاقيات الصحيفة، لكنهم هنا يبدون كما لو أنهم يراهنون على قريش لكي تقضي على قوة الدولة الجديدة أو تقلص قوتها.

ما تفاءلوا به سيحدث بالفعل، لكن نتائجه ستكون وبالًا عليهم.

وقبل أن يحدث ذلك، سيكون اليهود على موعد ما سيزعجهم جدًّا، بعد أيام قد لا تتجاوز العشرة.

(1) مغازي الواقدي: (1/16).

سعد وعتبة أولًا

قَالُوا: وَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي فِدَاءِ أَصْحَابِهِمْ، فَقَالَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَنْ نَفْدِيَهُمَا حَتّى يَقْدُمَ صَاحِبَانَا! يَعْنِي سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقّاصٍ وَعُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ[1].

قريش تريد أن تدفع فدية للأسيرين.

ولكنه عليه الصلاة والسلام يريد عودة سعد وعتبة أولًا، خشية أن تكون قريش قد أسرتهما.

سعد وعتبة لم يكونا قد أسرا، بل ذهبا في أثر بعيرهما الذي كانا يتناوبان على ركوبه فأخطآ الطريق ولم يحضرا الواقعة كلها، ثم عادا للمدينة بعد عودة السرية إليها[2].

ولما عادا قبل عليه الصلاة والسلام فداء الأسيرين، ولكنه لم يوزع الغنائم إلا لاحقًا، بعد بدر.

ورغم ورود بعض الأخبار أنه عليه الصلاة والسلام دفع دية عمرو بن الحضرمي، فإن الروايات الأكثر صحةً تقول إن هذا لم يحدث، وهناك معطيات لاحقة تؤكد أنه لم يحدث.

عمرو بن الحضرمي: حجة لقتال لاحق

كَانَ ابْنُ الْحَضْرَمِيِّ أَوَّلَ قَتِيلٍ قُتِلَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، فَرَكِبَ وَفْدٌ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ حَتَّى قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالُوا: أَتُحِلُّ الْقِتَالَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ (البقرة/ 217) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ[3].

فَقَتَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَاقِدٍ اللَّيْثِيُّ عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيِّ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ، وَأَسَرُوا رَجُلَيْنِ وَاسْتَاقُوا الْعِيرَ، فَوَقَفَ عَلَى ذَلِكَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَالَ: «لَمْ آمُرْكُمْ بِالْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ»، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ الشَّهْرَ الْحَرَامَ فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أَيْ قَدْ كَانُوا يَفْتِنُونَكُمْ وَأَنْتُمْ فِي

(1) مغازي الواقدي/ السابق.

(2) مغازي الواقدي: (1/17).

(3) أسباب النزول: (1/68).

حَرَمِ اللَّهِ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، وَهَذَا أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ تَقْتُلُوهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ مَعَ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: لَمَّا نَزَلَ هَذَا قَبَضَ رَسُولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- العير، ونادى الْأَسِيرَيْنِ وَلَمَّا فَرَّجَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ تِلْكَ السَّرِيَّةِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ غَمٍّ طَمِعُوا فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ثَوَابِهِ[1]

نزلت الآية لتوضح الموقف أكثر وتزيل ما أصاب أصحاب السرية من هم وتخفف عنهم اللوم.

نعم *لقد أخطأتم، لكن ما فعله ويفعله* مشركو مكة *خطأ أكبر* بكثير.

***

أمَّا ما ذكر من وفد مشركي قريش الذي سأله عليه الصلاة والسلام عن الأمر، فلا أظنه وفدًا من كبار رجالات قريش كما توحي الكلمة- لأن هذا لو حدث لذكرت تفاصيله-، بل غالبًا هو مَن جاء من قريش لغرض فداء الأسيرين والتفاوض على إطلاق سراحيهما.

مواصفات القائد وحدها لا تكفي

عودة إلى سرية نخلة، لقد وصف الرسول عليه الصلاة والسلام عبد الله بن جحش بما وصفه (أصبركم..) وسمي بأول أمير، رغم أنه عليه الصلاة والسلام قد أمر قبله عددًا من الصحابة، لكنه كان أول مَن حمل أمرًا تنفيذيًّا واضحًا.

السؤال: عبد الله بن جحش كان بهذه المواصفات، فلماذا لم تنفذ السرية ما أمر به عليه الصلاة والسلام وتجاوزت ذلك؟

ببساطة، لأن مواصفات القائد لا تكفي وحدها لقيادة السرية. يجب أن يكون مبدأ الطاعة والتنفيذ عند بقية أفراد السرية واضحًا. ولهذا قرر اثنان من السرية أن يفعلا ما تصورا أنه الأفضل.

كانوا لا يزالون يتعلمون مما يحدث، من أخطائهم ومن أخطاء غيرهم.

وكانت نتائج ما فعلاه، وما جعل المدينة تفور كالمرجل، درسًا للجميع.

لا تحاول أن تجتهد بأكثر مما أمرت به.

لأن لذلك ثمنًا باهظًا، أحيانًا على الأقل.

(1) أسباب النزول: (1/69).

الأوضاع في عنق الزجاجة

بكل الأحوال، كانت الأمور في المدينة قد وصلت إلى عنق الزجاجة.

تراكمت التفاصيل بحيث صار يجب أن يحدث شيء كبير.

لعشرة أشهر، بين أول سرية في رمضان من السنة الهجرية الأولى، إلى آخر سرية في رجب من السنة الهجرية الثانية، كان عليه الصلاة والسلام يوطد بناء دولة المدينة، ويبعث برسائل ضمنا إلى قريش.

الرسائل كانت رسائل تهديد واضحة، سنوقف تجارتكم...إذا لم...

إذا لم ماذا؟

ماذا كان يمكن أن تفعله قريش لكي تتجنب الوصول إلى قطع شريان تجارتها مع الشام؟

كان هناك خياران لا أرى ثالثًا لهما.

أولها أن تحاول أن تعقد هدنة معه عليه الصلاة والسلام، هدنة تتضمن إرجاع ما صادرته قريش من أموال المسلمين، والسماح لهم بدخول مكة المكرمة.

لكن قريش كانت تعرف أنها لو فعلت ذلك، لكانت تعترف به عليه الصلاة والسلام - لا كنبي بالضرورة، بل كقائد لكيان جديد ند- وهذا بالذات يعني أنه عليه الصلاة والسلام قد حقق انتصارًا كبيرًا عليها، وسيجعل الإسلام ينتشر، هذه المرة دون أن تستطيع أن تحاربه وتحاصره كما كانت تفعل في مكة، لأنها ستكون ملتزمة معه بهدنة.

لو أن قريشًا فعلت ذلك، لتجنبت ما سيحدث من دم، ولكنها كانت ستذوب بالتدريج بينما يزداد عدد المسلمين بين القبائل وبين أهل مكة أنفسهم.

قريش كانت تعي ذلك، على الأقل صقور قريش الأشد عداءً له عليه الصلاة والسلام كانوا يعون ذلك، وكانوا يعرفون **أن المواجهة حتمية.**

بل وكانوا يهددون أهل المدينة بأنهم إن لم يفعلوا ذلك بأنفسهم فإن قريشًا ستأتي بنفسها....

عن عبدِ الرحمن بن كعب بن مالكٍ عن رجل من أصحابِ النبيِّ -صلَّى الله عليه وسلم- : أن كفارَ قريشٍ كتبُوا إلى ابن أُبَيٍّ ومَن كان معه يعبُد الأوثانَ من الأوسِ

والخزرجِ، ورسولُ الله -صلَّى الله عليه وسلم- يومئذٍ بالمدينة قبلَ وقعةِ بدرٍ: إنكم آوَيتُم صاحبَنا، وإنا نُقسِم بالله لَتُقاتِلُنَّهُ أو لَتُخرِجُنَّهُ أو لنَسِيرَنَّ إليكم بأجمَعِنا حتى نقتلَ مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغَ ذلك عبدَ الله بن أبيّ ومَن كان معه من عَبَدةِ الأوثانِ، اجتمعوا لقتالِ النبيِّ -صلَّى الله عليه وسلم-، فلما بلغ ذلك النبيَّ- صلَّى الله عليه وسلم- لقيهم فقال: «لَقدْ بَلغَ وعيدُ قُريشٍ منكم المبَالغ، ما كانت تكِيدُكم بأكْثرَ مِمَّا تريدُون أن تكيدُوا بِهِ أنفُسَكم، تريدُون أن تُقاتلوا أبنَاءَكم وإخوانَكم» فلما سمعُوا ذلك من النبيِّ -صلَّى الله عليه وسلم- تفرَّقوا، فبلغ ذلك كفارَ قريشٍ[1]

كان هذا قبل بدر.

قبل أول السرايا؟ أم في أثنائها؟ لا نعرف.

وكان هذا هو ثاني الخيارات أمام قريش.

وكان واضحًا أنها قد راهنت على المواجهة، وجد فريق الصقور في قريش أن فرصتهم في الانتصار في المواجهة أفضل من فرص الهدنة التي ستذيبهم بالتدريج.

كان ذلك خيارَ قريش.

وكانت الأمور حتى الآن في عنق الزجاجة، كل شيء يتراكم في نقطة واحدة منذ أن بدأت أول سرية، بحيث أصبح التحرك بأي اتجاه صعبًا.

إلا إذا حدث شيء مهم عند عنق الزجاجة.

حتميات تاريخية لا مفرَّ منها

ما يجب أن نعترف به هنا، هو أن المواجهة كانت ستحدث حتمًا، حتى لو لم تكن قريش قد صادرت أموال المسلمين.

نعم كانت هناك أموال مصادرة، وكان هناك إخراج ظالم، وإجبار على ترك الإسلام.

لكن، بكل الأحوال، لا يمكن تخيل أن يقوم كيان مدني، دولة جديدة صاعدة، دون أن تكون هناك مواجهات عسكرية وحروب.

أدرك أن الأمر ليس (لطيفًا) جدًّا، لكن مَن يعتقد أن التاريخ كان لطيفًا لم يقرأ سطرًا واحدًا فيه.

---

(1) سنن أبي داود: 3004 .

لا يوجد دولة قامت دون حروب ومواجهات عسكرية، سواء لكي تدافع عن وجودها أو لكي تتوسع.

ولا يمكن أن نتخيل أن تقوم دولة في ذلك العصر دون أن تتوسع.

مقومات الدولة تاريخيًّا كانت تقوم على التوسع العسكري، هذه بديهة تاريخية لا أجد نفسي مضطرًّا إلى إيجاد براهين عليها، لا توجد دولة واحدة عبر التاريخ استمرت أكثر من قرن دون أن تحتاج إلى المواجهات العسكرية التي تثبت دعائمها[1].

مقاييس اليوم مختلفة وقد عوض الاقتصاد عن جزء كبير من الحاجة إلى التوسع العسكري المباشر، رغم ذلك لا تزال الدول الحديثة حتى اليوم تنفق على تسلحها ودفاعها جزءًا كبيرًا من كل ميزانيتها.

وكان عليه الصلاة والسلام يبني دولة بمقاييس عصره، يبينها لأن الدولة هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تحفظ النص الديني من التحريف والتغيير، يحفظ الرسالة التي أنزلت عليه، بناء هذه الدولة التي تحافظ على النص الذي أوحي إليه كان جزءًا من متطلبات التبليغ، بناء الدولة لم يكن ركنًا من أركان الإسلام والإيمان أو عددَ الصلوات المفروضة وركعاتها، كان وسيلة لحفظ الأركان والنصوص من التغيير والتحريف الذي مس بقية الأديان السماوية في مرحلة مبكرة من نشوئها بسبب عدم وجود دولة تحتضنها، كما مر في فصل سابق بالتفصيل.

الصورة النموذجية التي يرسمها البعض عن حروب الرسول عليه الصلاة والسلام، وأنها كانت حروبًا للدفاع والدعوة فقط، هي صورة خيالية بعيدة ليس فقط عن سيرته عليه الصلاة والسلام، بل بعيدة عن واقع البشرية وتاريخها منذ أن كان هناك بشر.

لسنا بحاجة إلى الاعتذار عن شيء، هذه هي قوانين العالم وطبيعة المجتمعات البشرية، للأسف. كل ما يمكن فعله هو محاولة العمل على جعل هذه القوانين أكثر عدالةً، وأقل عنفًا، وجعل البناء الذي ينتج عن هذه الصراعات بناءً أكثر إنسانية.

***

أين كنا؟

كنا في عنق الزجاجة.

على وشك الخروج منها...

(1) مع استثناءات محدودة ومختلف عليها مثل جمهورية سان مارينو/ بوتان/ وأيسلندا.

تحويل القبلة: القطيعة والانتماء

لستة عشر أو سبعة عشر شهرًا بقي عليه الصلاة والسلام يصلي باتجاه بيت المقدس، والمسلمون معه كذلك.

قبلها، عندما كان عليه الصلاة في مكة، كان يصلي أيضًا باتجاه بيت المقدس، لكنه كان يجمع بينها وبين الكعبة كلما كان ذلك ممكنًا، أي يقف خلف الكعبة باتجاه بيت المقدس كما مر ذلك تفصيلًا في فصل سابق.

لكن في المدينة، ولأن كل من الكعبة وبيت المقدس يقعان عكس بعضهما بالنسبة إلى المدينة، كان من المستحيل الجمع بينهما. صلى الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون نحو بيت المقدس.

كان لذلك معانيه ورمزيته بلا شك، كما سبق ومررنا به، تأكيد الانتماء إلى القبلة الأصلية لأهل الكتاب (وليس لما كانوا عليه في أيامه عليه الصلاة والسلام)، أي تثبيت مرجعية الكتاب باعتبارها الأصل الذي أنزلت منه كل الكتب السماوية، وكان هذا التوجه إلى بيت المقدس أصيلًا متسقًا مع نصوص القرآن التي أكدت على أن مصدر الوحي واحد.

وكان ذلك يشكل أيضًا انسلاخًا وقطيعةً مع مفاهيم الجاهلية التي تعظم الكعبة، ولكن تدنسها في الوقت ذاته بالأوثان والأصنام وتستخدمها كوسيلة للربح التجاري.

في الوقت ذاته، *كان يمكن لهذا أن يعتبر (إشارة إيجابية) من قبل اليهود*، يشعرهم بالقرب من الدين الجديد وربما يفتح الباب أمام دخولهم فيه، أو على الأقل التعايش معه.

لم يكن الهدف من اتجاه القبلة نحو بيت المقدس استرضاء اليهود لأن الاتجاه تحدد قبل الهجرة أصلًا، لكن الأمر حتمًا وظف، مثل غيره من الموافقات، لفتح الباب لليهود وأهل الكتاب عمومًا للدخول إلى الإسلام.

كيف تحددت القبلة نحو بيت المقدس؟

هل كان تحديد القبلة نحو بيت المقدس أمرًا إلهيًّا للرسول عليه الصلاة والسلام أم إنه كان اجتهادًا منه؟

وقبل أن يصدم بعض القراء من استخدام كلمة اجتهاد وهي تنسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وتبدأ حفلة الرجم، أحب أن أوضح أن هذا الاجتهاد بمعناه الشرعي لا علاقة له بما يفهمه البعض اليوم من الكلمة، التي تستخدم أحيانًا لتبرير الخيارات واضحة الخطأ ومآلاتها الكارثية، ثم يقال: (اجتهد وأخطأ وله أجر).

هذا الاستخدام الحديث الذي يستند إلى حديث صحيح لا علاقة له بما يسود اليوم، حيث إن الحديث «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»[1] يتحدث عن الحاكم، القاضي، الذي يفصل في مسألة ما بعد أن يستمع لكل حيثياتها، وليس عن كل من هب ودب تحت شعار (اجتهد وأخطأ).

الاجتهاد النبوي صحيح ما دام لم يصحح من الوحي

الاجتهاد النبوي مختلف تمامًا عن هذا، فهو حكم منه عليه الصلاة والسلام فيما لم ينزل فيه وحي ومبني على الحكمة النبوية في التدبر والاعتبار، ولأنه عليه الصلاة والسلام معصوم من الله، فاجتهاده في أمور الدين يكون صوابًا لأنه لو لم يكن كذلك لنزل الوحي لتصويبه كما حدث في أمور متعددة[2].

بعبارة أخرى: ما يفعله النبي في أمور الدين يمكن أن يكون عبر وحي مباشر، أو عبر حكمته النبوية فيما لم يأتِ به وحي، ولكن سكوت الوحي عن ذلك كان يعني أنه مصيب فيما توصلت له حكمته، وهذا يضعها في موضع الوحي أيضًا.

---

(1) صحيح البخاري: 7352.

(2) مثل أسرى بدر، عبس وتولى، الزواج من زينب بنت جحش...إلخ.

نقل الشوكاني عن جمهور العلماء قولهم بجواز الاجتهاد للنبي عليه الصلاة والسلام[1].

ونقل القرطبي في تفسيره اختلاف العلماء على ثلاثة أقوال، الأول وهو قول الجمهور أن استقبال بيت المقدس كان بأمر الله ووحي، والقول الثاني أنه كان برأيه واجتهاده عليه الصلاة والسلام وقاله الحسن البصري وعكرمة وأبو العالية، والقول الثالث كان أنه خُيِّر بين الكعبة وبيت المقدس فاختار بيت المقدس[2].

إذن الجمهور على أن اختيار بيت المقدس كان بناءً على أمر مباشر منه وعز وجل للرسول عليه الصلاة والسلام.

---

(1) قال الشوكاني في (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم الأصول) - (2/220-218)

إنَّهُ (الاجتهاد) يَجُوزُ لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْجُمْهُورُ.

وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَاطَبَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا خَاطَبَ عِبَادَهُ، وَضَرَبَ لَهُ الْأَمْثَالَ، وأمره بِالتَّدَبُّرِ وَالِاعْتِبَارِ، وَهُوَ أَجَلُّ الْمُتَفَكِّرِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَأَعْظَمُ الْمُعْتَبِرِينَ «بِهَا».

وَأَمَّا قَوْلُهُ (المعترضين): ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فَالْمُرَادُ بِهِ الْقُرْآنُ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ 1؛ وَلَوْ سُلِّمَ لَمْ يَدُلَّ عَلَى نَفْيِ اجْتِهَادِهِ؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ مُتَعَبَّدًا بِالِاجْتِهَادِ بِالْوَحْيِ، لَمْ يَكُنْ نُطْقًا عَنِ الْهَوَى، بَلْ عَنِ الْوَحْيِ، وَإِذَا جَازَ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأُمَّةِ أَنْ يَجْتَهِدَ بِالْإِجْمَاعِ، مَعَ كَوْنِهِ مُعَرَّضًا لِلْخَطَأِ، فَلِأَنْ يَجُوزَ لِمَنْ هُوَ مَعْصُومٌ عَنِ الْخَطَأِ بِالْأَوْلَى..

وَأَيْضًا قَدْ وَقَعَ «ذلك» كثيرًا مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَأَمَّا مِنْهُ فَمِثْلُ قَوْلِهِ: «أَرَأَيْتَ لَوْ تَمَضْمَضْتَ» 2 «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ»، وَقَوْلِهِ لِلْعَبَّاسِ: «إِلَّا الأذخر» لم يَنْتَظِرِ الْوَحْيَ فِي هَذَا، وَلَا فِي كَثِيرٍ مِمَّا سُئِلَ عَنْهُ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ».

وَأَمَّا مَا احْتَجَّ بِهِ الْمَانِعُونَ، مِنْ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ جَازَ لَهُ الِاجْتِهَادُ؛ لَجَازَتْ مُخَالَفَتُهُ، وَاللَّازِمُ بَاطِلٌ.

وَبَيَانُ الْمُلَازَمَةِ: أَنَّ ذَلِكَ الَّذِي قَالَهُ بِالِاجْتِهَادِ هُوَ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ الِاجْتِهَادِ، وَمِنْ لَوَازِمِ أَحْكَامِ الِاجْتِهَادِ جَوَازُ الْمُخَالَفَةِ؛ إِذْ لَا قَطْعَ بِأَنَّهُ حُكْمُ اللَّهِ، لِكَوْنِهِ مُحْتَمِلًا لِلْإِصَابَةِ، وَمُحْتَمِلًا لِلْخَطَأِ، فَقَدْ أُجِيبَ عَنْهُ بِمَنْعِ كَوْنِ اجْتِهَادِهِ يَكُونُ لَهُ حُكْمُ اجْتِهَادِ غَيْرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ لَازِمًا لِاجْتِهَادِ غَيْرِهِ، لِعَدَمِ اقْتِرَانِهِ بِمَا اقْتَرَنَ بِهِ اجْتِهَادُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِهِ.

وَأَمَّا مَا احْتَجُّوا بِهِ مِنْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مُتَعَبَّدًا بِالِاجْتِهَادِ لما تأخر فِي جَوَابِ سُؤَالِ سَائِلٍ، فَقَدْ أُجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ إِنَّمَا تَأَخَّرَ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ، لِجَوَازِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ فِيهِ الْوَحْيُ الَّذِي عَدَمُهُ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ اجْتِهَادِهِ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَتَأَخَّرُ الْجَوَابُ لِمُجَرَّدِ الِاسْتِثْبَاتِ فِي الْجَوَابِ، وَالنَّظَرِ فيما ينبغي النظر فِيهِ فِي الْحَادِثَةِ، كَمَا يَقَعُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ.

(2) تفسير القرطبي: (2/150).

لماذا هذا مهم الآن؟

لأنه لو كان الأمر مبنيًّا على رأي واجتهاد منه عليه الصلاة والسلام لما تطلب تحويل القبلة وحي مباشر منه عز وجل.

ليس هذا فقط، بل لأنه كان يعجبه أن تتحول القبلة إلى الكعبة، لكنه لم يفعل، إلى أن جاءه الوحي بذلك...

أقول (يعجبه) لأن هذا ما قاله البراء بن عازب وهو يتحدث عن تحويل القبلة.

بوصلة القلب تريد..

صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ **يُعْجِبُهُ** أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ[1]..

فلنتذكر ما قاله عليه الصلاة والسلام لبراء آخر. البراء بن معرور الذي أسلم قبل الهجرة وكان من أهل المدينة، ولكنه كان يصلي اتجاه الكعبة دون عن كل المسلمين في المدينة، البراء أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام باستقباله الكعبة، فقال له عليه الصلاة والسلام: لَقَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا»[2]

رغم أمره عليه الصلاة والسلام للبراء باستقبال بيت المقدس، فإن ثمة شيئًا ما في جملته هذه، هناك تفهم عميق لما فعله البراء، اصبر على القبلة (الحالية)، كما لو أنه يقول: ولعل يجعل الله بعد ذلك أمرًا.

مات البراء قبل الهجرة.

وعندما وصل عليه الصلاة والسلام المدينة، كانوا يتجهون في صلاتهم شمالًا.

ولكن بالتدريج، أخذ عليه الصلاة والسلام (يعجبه) أن تكون القبلة جنوبًا، إلى مكة، حيث الكعبة، البيت الحرام، البيت الذي بناه إبراهيم، أبو الأنبياء.

في الصلاة كان يستقبل بيت المقدس. بقلبه، بعقله، بجسده.

لكن ربما قلبه عليه الصلاة والسلام خارج أوقات الصلاة كان يحلق جنوبًا باتجاه مكة..

---

(1) صحيح البخاري: 40.

(2) مسند أحمد: 15798.

الأمر أعقد وأعمق بكثير من حبه لبلده الأم.

الأمر كان يتعلق بما قبل بيت المقدس، بمن وضع اللبنة الأساس التي أكملت الطريق إلى بيت المقدس.

بمن بنى الكعبة، ثم جاء مَن حمل الرسالة بعده من ذريته، وبنوا بيت المقدس.

كانت الكعبة بذلك تحتوي بيت المقدس، تحتوي معانيه ورمزيته ومكانته بالإضافة إلى مكانتها ورمزيتها ومعانيها، لأنها الأصل. حجر الأساس الأول الذي بُني عليه كل شيء، وانطلقت منه الرسل من بعد إبراهيم.

وكان وجهه الكريم عليه الصلاة والسلام يتقلب في السماء، بحثًا عن الاتجاه.

لم يكن بلا بوصلة، حاشاه.

كانت هناك آيات نزلت في غضون تلك الفترة، قبلها أو بعدها لا نعرف، ولكن على مقربة منها، في الفترة الأولى في المدينة، وكانت تحرك إبرة البوصلة بالتدريج من بيت المقدس إلى البيت الحرام..

القرآن يحرك البوصلة بالتدريج

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أنت ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أنت ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أنت ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (البقرة/ 124-130)

البيت مثابة للناس؟

مثابة تعني مكانًا يثوبون إليه مرة بعد أخرى.

مرجعًا.

وعندما تريد أن ترجع لمكان، تتوجه إليه..

أم إن هذا كان سابقًا فقط، وقت إبراهيم عليه السلام؟

وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت...

الآيات الكريمة أخذته إلى لحظة رفع القواعد من البيت المحرم، الآية تنقل المشهد بالصيغة المضارعة كما لو أنه فعل مستمر مفتوح ويقبل دومًا الداخلين إليه، المشاركين في رفع القواعد...كما لو أنها تنادي الجميع..

وأرنا مناسكنا...

بالضبط، وهذا الاتجاه، المقصد، في لب هذه المناسك..

وابعث فيهم رسولًا منهم...

هذه الآية تتحدث عنه عليه الصلاة والسلام على لسان إبراهيم الأب. أبو الأنبياء..

وكان هو- عليه الصلاة والسلام- استجابة دعاء إبراهيم الذي (يرفع القواعد من البيت) ...

ربما كانت هذه الآيات تمهد له الأمر، أمر التحويل القادم، وربما كانت ترد على أسئلته وتؤكد له ما كان قلبه يهفو إليه. جنوبًا، نحو مكة...

ليس هذا فقط، فعلى مبعدة أربع آيات فقط من هذه الآيات، وربما في فترة نزولها نفسها... كانت هناك آية مفتاحية أخرى لهذا الأمر...

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة/120)

آن الأوان أن يتغير الأمر.

لن يرضى عنك أهل الكتاب إلا إذا فقدت تميزك عنهم وتماهيت معهم، لن يكتفوا بوجود المشتركات، عليك أن تتنازل عن ثوابتك لتحصل على الرضى. هذه طبيعة بشرية للأسف، لا تختص بأهل الكتاب فقط، وإن كان سياق الآيات يتحدث عنهم. لكن كل صاحب معتقد (ديني أو فكري أو أيديولوجي) يؤمن أن معتقده هو الأفضل ولن يرضى تمام الرضى عن أصحاب المعتقدات المختلفة إلا لو تحولوا إلى معتقده.

دعك من الرضى إذن.

لن يرضوا، يكفيك أن تعيش معهم بسلام، وربما هذا سيجعل البعض منهم أكثر تقبلًا وانفتاحًا، لكن كمجموعات بشرية، لن يحدث، التحيزات المسبقة ستشوش ذلك.

هل نزلت هذه الآية في ذات سياق تغيير القبلة؟

قال ابْنُ عَبَّاسٍ: **هَذَا فِي الْقِبْلَةِ وَذَلِكَ أَنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ وَنَصَارَى نَجْرَانَ كَانُوا يَرْجُونَ أَنْ يُصَلِّيَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى قِبْلَتِهِمْ فَلَمَّا صَرَفَ اللَّهُ الْقِبْلَةَ إِلَى الْكَعْبَةِ شَقَّ ذلك عليهم، فيئسوا مِنْهُ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ**[1].

لكنه صلى الله عليه وسلم صلى -فعلًا- إلى قبلتهم، دون أن (يرضوا) عنه، فتكون الآية قد نزلت قبل صرف القبلة إلى الكعبة، لا بعدها.

بكل الأحوال، سبب النزول هنا مرتبط بذات السياق. سياق تغيير القبلة.

ما الذي كان يحدث في المدينة في هذه الفترة...على الأقل قبل نزول آيات تحويل القبلة..

مكتبة
t.me/soramnqraa

فوران المرجل والتنور

كانت المدينة تفور كالمرجل كما سبق.

سرية جهينة خرجت عن مهمتها التي أرسلها لها عليه الصلاة والسلام وقتل واحد من المشركين عمرو الحضرمي في شهر حرام. اللوم موجه إلى أفراد السرية وسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان لم يعودا إلى المدينة مع بقية من كان في السرية، ويسود الظن أن قريش ربما أسرتهما.

واليهود متفائلون بأن كل ذلك قد يؤدي إلى حرب مع قريش، حرب تخلصها من الدين الجديد أو تكسر من سطوته على المدينة.

المدينة تفور بالفعل..

ثم...

---

(1) أسباب النزول: (1/40).

فتحة في سماوات القلب الشريف

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (البقرة/144)

هذه الآية تأخذنا لا إلى وجهه الشريف فحسب، بينما هو يقلبه في اتجاهات السماء الأربعة...بل تفتح لنا نافذة على روحه الشريفة، نراه من الداخل، وهو يذهب إلى البعد الأهم من كل الاتجاهات: العمق..

في خضم كل ما يحدث في واقع المدينة من (فوران المرجل)، نجده عليه الصلاة والسلام يحمل خلوته مع ربه، ربما حتى وهو بين الناس، يناجيه، يطلب منه جوابًا، يتعبد له بتقلب وجهه، إنه نقي الروح، الباحث عن الجواب بالتعبد والعبادة، القائد الذي يعرف أن الجواب سيغير اتجاه كل المسلمين في عصره، وسيحدد اتجاه مئات الملايين من بعده...الحكيم الذي يعرف أن كل شيء بأوان...

عن ابن عباس: ...**وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يُحِبُّ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَانَ يَدْعُو اللهَ وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ** ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: 144] **إِلَى قَوْلِهِ** ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [1]

يدعو الله وينظر إلى السماء...

هذه الآية تنقلنا إلى علاقته الخاصة -عليه الصلاة والسلام- بربه، هناك نوع من الحياء الذي يجعله مترددًا في الطلب المباشر لتغيير أمر سبق أن أنزله الله...

عليه الصلاة والسلام، حتى بعد أن أخذ منزلته في الإسراء وارتقى بالمعراج، وعرف أي مكانة تبوأها، لا يزال حييًا. يدعو الله بقلق وهو يقلب وجهه في السماء، كما لو أنه يخاف أن يكون دعاؤه بتغيير أمر ما فيه تجاوز...

يذكرني الأمر بحديث السيدة عائشة الذي نقله أيضًا المغيرة بن شعبة، وربما حدث لاحقًا لكنه يعبر عن علاقته عليه الصلاة والسلام بالله عز وجل...

(1) السنن الكبرى للبيهقي: 2246

كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[1]

المكانة لم تزده إلا تذللًا وخضوعًا وتعبدًا لربه، لم يعتبرها امتيازًا، بل مدخلًا إلى المزيد من الشكر بالتعبد.

كذلك في وصفه عز وجل لتقلب وجهه عليه الصلاة والسلام..

كما لو أن حياءه عليه الصلاة والسلام يمنعه من الطلب المباشر..

وهو يدرك أنه عز وجل يعرف ما في قلبه..

وكانت الآيات تمهد له الأمر...

لأنه سيكون هناك ردود أفعال...

سفهاء من هنا وهناك

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (البقرة/142)

أغلب المفسرين يقولون إن المقصود بالسفهاء هم اليهود، لكن ينقل أيضًا عن بعضهم قوله إن المقصود هم المشركون.

(الْمُرَادُ بِالسُّفَهَاءِ هُنَا الْيَهُودُ الَّذِينَ بِالْمَدِينَةِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. السُّدِّيُّ: الْمُنَافِقُونَ. الزَّجَّاجُ: كُفَّارُ قُرَيْشٍ لَمَّا أَنْكَرُوا تَحْوِيلَ الْقِبْلَةِ قَالُوا: قَدِ اشْتَاقَ مُحَمَّدٌ إِلَى مَوْلِدِهِ وَعَنْ قَرِيبٍ يَرْجِعُ إِلَى دِينِكُمْ، وَقَالَتِ الْيَهُودُ: قَدِ الْتَبَسَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَتَحَيَّرَ. وَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: ما ولاهم عن قبلتهم! واستهزءوا بالمسلمين)[2].

يهود، مشركون، منافقون.

سفهاء من كل الألوان.

سيكون هؤلاء دومًا هناك، يتذمرون ويشمتون ويسخرون ويشككون، ويبحثون عن تفاصيل هنا وهناك للطعن والتشويش.

---

(1) صحيح مسلم: 2820.

(2) تفسير القرطبي: (2/148).

اليهود صدموا واعتبروا الأمر ضربة لهم، فقالوا إنه عليه الصلاة والسلام قد تحيَّر.

المشركون قالوا سيعود إلى ملتنا.

المنافقون، أولئك الذين أسلموا على مضض وركوبًا للموجة، والموجة تواجه أخطارًا من قريش الآن، قالوا: ماذا يحدث مع هؤلاء؟ لماذا غيروا قبلتهم؟ فبان أنهم لم يكونوا حقًّا معهم بالأساس.

سفهاء من كل الأنواع، سيكونون دومًا هناك، رضا الناس غاية لا تدرك، لكن رضا السفهاء من الناس تحديدًا أمر لا داعي للسعي إلى الحصول عليه.

ثم جاءت الآية: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ...﴾.

أول صلاة تتجه جنوبًا

اختلفت الروايات في أول صلاة صلاها عليه الصلاة والسلام تجاه الكعبة، فقد قال البراء بن عازب أنها كانت صلاة العصر..

(عن البراء بن عازب: أَنَّهُ صَلَّى **أَوَّلَ صَلاَةٍ صَلَّاهَا صَلاَةَ العَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ» فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ**[1])

لكن هناك روايات أخرى تقول إنها كانت صلاة الظهر، وأن الوحي جاء في أثناء الصلاة...

(وَجَعَلَ إِذَا صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ. فَنَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: 144]. فَوُجِّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ إِلَى الْمِيزَابِ[2]. وَيُقَالُ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَكْعَتَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ فِي مَسْجِدِهِ بِالْمُسْلِمِينَ ثُمَّ أُمِرَ أَنْ يُوَجِّهَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَاسْتَدَارَ إِلَيْهِ وَدَارَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ.

وَيُقَالُ: بَلْ زَارَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّ بِشْرِ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ فِي بَنِي سَلِمَةَ فَصَنَعَتْ لَهُ طَعَامًا. وَحَانَتِ الظُّهْرُ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

(1) صحيح البخاري: 40.

(2) ميزاب الكعبة: وهو أنبوب في سقف الكعبة من الجهة الشمالية.

بِأَصْحَابِهِ رَكْعَتَيْنِ. ثُمَّ أُمِرَ أَنْ يُوَجِّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ فَاسْتَدَارَ إِلَى الْكَعْبَةِ وَاسْتَقْبَلَ الْمِيزَابَ. فَسُمِّيَ الْمَسْجِدُ مَسْجِدُ الْقِبْلَتَيْنِ[1])

(زار رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أم بشير بن الْبَراء ابْن معْرور، فتغدى وَأَصْحَابه وَجَاءَت الظّهْر، **فصلى بِأَصْحَابِهِ فِي مَسْجِد الْقبْلَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ من الظّهْر إِلَى الشَّام وَأمر أَن يسْتَقْبل الْكَعْبَة وَهُوَ رَاكِع فِي الرَّكْعَة الثَّانِيَة، فَاسْتَدَارَ إِلَى الْكَعْبَة** واستدارت الصُّفُوف خَلفه ثمَّ أتم الصَّلَاة، فَسُمي مَسْجِد الْقبْلَتَيْنِ لهَذَا[2]).

ويبدو أن الجمع بين الروايات ليس صعبًا.

فقد كان عليه الصلاة والسلام في بني سلمة، يزور أم بشر (وقيل أم بشير)، وهي بنت البراء بن معرور الذي صلى باتجاه الكعبة منذ البداية، والذي مر ذكره قبل قليل، وحضر وقت صلاة الظهر، فصلى الرسول عليه الصلاة والسلام بأصحابه ركعتين، ثم جاء الوحي في أثناء ذلك، فتوجه عليه الصلاة والسلام إلى الكعبة في الركعتين الأخيرتين. أي دار ودار معه الصحابة في أثناء الصلاة. ولذلك سمي مسجد بني سلمة مسجد القبلتين.

وعندما حان وقت صلاة العصر، كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد وصل مسجده في المدينة، فكانت صلاة العصر أول صلاة يصليها كاملة مستقبلًا الكعبة، وهو في مسجده.

الخبر لم يصل قباء إلا فجر اليوم التالي...

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه بَيْنَمَا النَّاسُ فِي الصُّبْحِ بِقُبَاءٍ، جَاءَهُمْ رَجُلٌ فَقَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ، وَأُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الكَعْبَةَ، أَلاَ فَاسْتَقْبِلُوهَا، وَكَانَ وَجْهُ النَّاسِ إِلَى الشَّأْمِ، فَاسْتَدَارُوا بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الكَعْبَةِ»[3]

بارادايم آخر يتغير

ما نقرأه اليوم في سطر كان حدثًا كبيرًا يومها، ضمن كل ما كان يحدث في المدينة..

(1) الطبقات الكبرى: (1/186).

(2) كشف المشكل من حديث الصحيحين: (2/722).

(3) صحيح البخاري: 4490.

أن تغير اتجاهك وأنت تصلي، كان يعني تغييرًا كبيرًا في كل شيء...يشبه، دون تشبيه، أن تستيقظ صباحًا لتجد أن أحرف الأبجدية قد تغيرت..

يشبه -دون تشبيه أيضًا- أن يعلن الاستقلال..

كنت تتجه شمالًا نحو بيت المقدس، نفس قبلة أهل الكتاب..

ثم أصبحت مستقلًّا، منتميًا إلى الأصل الأول، قبل أن يكون هناك بيت المقدس.

الكعبة التي اتجه لها المسلمون لم تكن ذاتها في مفاهيم الجاهلية..

تلك الأشهر التي قضاها المسلمون وهم يصلون إلى بيت المقدس كانت تعيد تشكيل الكعبة في أذهانهم من جديد.

بالتدريج، ومع آيات القرآن، كانت الكعبة تعود إلى قواعدها، إلى أساساتها، إلى إبراهيم وابنه يرفعان القواعد، قبل أن تنصب الأوثان..

الكعبة التي يتوجهون اليوم إليها، كانت الكعبة بعد أن أنجزوا قطيعتهم التامة مع مفاهيم الجاهلية عن الكعبة..

عادت الكعبة إلى أصولها..

وعادوا هم إليها..

كان ذلك في رجب[1] أو منتصف شعبان في السنة الثانية للهجرة[2].

بعد سبعة عشر شهرًا من وصوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

وفي شعبان، فرض صيام رمضان[3].

وكان رمضان هو الشهر القادم.

وكان التنور على وشك أن يفور..

---

(1) المعجم الكبير للطبراني: 12498، وبهذا قال الجمهور ونقله ابن رجب في فتح الباري: (1/181).

(2) صحيح ابن حبان: 1716.

(3) السيرة النبوية لابن كثير: (10/254) تحقيق طه رؤوف عمدة القاري، شرح صحيح البخاري (2/377).

بدر: التاريخ ينتظر عند البئر

هناك لحظات تاريخية مهمة، كانت لها آثارها الكبيرة على المجتمع الذي حدثت فيه، وربما على العالم بأسره، ولكن آثارها لم تكن بحيث تغير مسار تاريخ هذا المجتمع.

هناك أيضًا لحظات تاريخية مختلفة، كلمة مهمة ستكون قاصرة بحقها، لأن التاريخ كان سيتخذ مسارًا مختلفًا تمامًا لو أن هذه اللحظات لم تحدث.

هذه اللحظات تعريفية، مفصلية. نقاط تغيير[1]. تعيد تعريف لا الأحداث فقط، بل تعيد تعريف الوعي الجمعي والهوية الجمعية، تغييرها لمسار التاريخ يكون بشكل انعطافة حادة، لا تغيير بعدة درجات على اتجاه المسار نفسه.

الفرق بين هذين النوعين من اللحظات دقيق، ولكنه مهم كي نفهم تأثير بعض اللحظات التعريفية الفاصلة التي مرت بالتاريخ القديم أو حتى المعاصر.

على سبيل المثال، من التاريخ الروماني، حروب قرطاج وتمرد العبيد بقيادة سبارتاكوس كانت أحداثًا مهمة، لكنها لم تؤدِ إلى تغيير جوهري كالذي أحدثه اغتيال يوليوس قيصر ونهاية عصر الجمهورية وبداية عصر الإمبراطورية الرومانية، أو تبني المسيحية رسميًّا على عهد قسطنطين، أو سقوط روما لاحقًا بيد القوط، لأن هذه الأحداث أثرت على بنية المجتمع ومن ثم الحضارة الغربية بأسرها.

(1) **Wang, Q. E., & Iggers, G. G.** (2002). Introduction. In Q. E. Wang & G. G. Iggers (Eds.), *Turning points in historiography: A cross-cultural perspective* (NED–New edition, pp. 1–16). Boydell & Brewer. http://www.jstor.org/stable/10.7722/j.ctt14brs81.4

ضمن التاريخ الأوروبي كانت الحملات الصليبية مهمة، لكنها لم تكن مفصلية لأنها لم تؤدِ إلى تغيير كبير في الخرائط السياسية أو البنية الاجتماعية ففي نهاية المطاف الممالك التي نتجت عن هذه الحروب سرعان ما انتهت بلا أثر.

اغتيال كينيدي، أزمة الصواريخ الكوبية، وصول الإنسان إلى القمر، كلها كانت أحداثًا مهمة في سياقها ولها تأثيراتها الكبيرة حتى على الثقافة الشعبية، لكنها لم تكن مفصلية.

بينما كانت حركة الإصلاح البروتستانتي بقيادة لوثر لحظة مفصلية لأنها أحدثت تغييرًا كبيرًا في عقيدة المنتمين للمسيحية، ونتج عن ذلك تغييرات كبيرة في الهوية الاجتماعية والخرائط السياسية.

من الأحداث المفصلية الأخرى في أوروبا التي أثرت على العالم بأسره: الثورة الفرنسية، والثورة الصناعية، والثورة البلشفية، صعود النازية والحرب العالمية الثانية، والقنبلة النووية، وسقوط جدار برلين وتفكك الاتحاد السوفيتي.

بعض الأحداث المهمة تؤدي بدورها إلى أحداث مفصلية، وقد يفصل بين المهم والمفصلي عقود، وبعض الأحداث تكون مفصلية في الإقليم الذي حدثت فيه، وأقل أهمية بالنسبة إلى العالم. وبعضها يتعدى حدود الإقليم ويؤثر على العالم بأسره.

في تاريخنا المعاصر: اتفاقية سايكس بيكو كانت مفصلية الأثر والتأثير على المشرق العربي لأنها أنتجت دولًا جديدةً وأعادت رسم الخرائط. وعد بلفور كان حدثًا مهمًّا لكنه لم يكن مفصليًّا بحد ذاته إلا عندما أدى لاحقًا إلى حدث مفصلي كبير هو نكبة فلسطين.

وفق النظرة نفسها، هناك في تاريخنا الإسلامي، وفي السيرة النبوية الشريفة، أحداث مهمة، وأخرى فارقة، مفصلية، أعادت تعريف الواقع وغيرت مسار التاريخ. كانت نقطة تغيير كبير في مسار التاريخ.

الهجرة إلى الحبشة، رحلة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الطائف، حصار قريش لبني هاشم في شعب أبي طالب، الإسراء والمعراج، كلها كانت أحداثًا مهمةً وكبيرةً جدًّا، لكنها لم تكن مفصلية لأنها لم تغير الواقع الذي بدأ منذ أن بدأت البعثة.

بيعتا العقبة كانتا حدثين مهمين حتمًا، لكن أهميتهما الكبرى تتحدد في أنهما مهدتا الطريق لحدث مفصلي كبير. **الهجرة.**

كانت الهجرة إلى المدينة، تحديدًا منذ وصوله عليه الصلاة والسلام إليها، حدثًا مفصليًّا غيَّر مسار الأحداث وأرسى هوية مجتمع جديد مختلف عن كل ما شهدته الجزيرة العربية سابقًا، ولمدة ثمانية عشر شهرًا بعد الهجرة، كانت هناك أحداثًا كبيرةً ومهمةً (المسجد، المؤاخاة، الصحيفة، السرايا) لكنها كلها كانت ضمن ما حدث منذ الهجرة، ترسيخ ما بدأته الهجرة.

بعد ثمانية عشر شهرًا كنا على موعد مع لحظة مفصلية فارقة، مع حدث لن يجعل ما بعده يشبه ما قبله.

بدر.

وكان عليه الصلاة والسلام مدركًا بحكمته النبوية أهمية ما يقف أمامه في بدر.

كان يدرك أن التاريخ يقف على مفترق الطريق.

ولذلك وقف، قبيل اللحظات الحاسمة، والمواجهة على وشك أن تبدأ، ليقول لربه ما لن يقوله في أي معركة أخرى.

«اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»[1]

اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ

وفي رواية أخرى: **اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلامِ فَلا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبدًا**[2]

لا تعبد في الأرض أبدًا.

أبدًا.

كان التاريخ قد أطل برأسه من بئر بدر، حابسًا أنفاسه، ينتظر ما سيحدث.

---

(1) صحيح مسلم: 1763.

(2) مسند أحمد: 221.

عيون مبشرة بالجنة، على القافلة

(وَلَمّا تَحَيّنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْصِرَافَ الْعِيرِ مِنْ الشّامِ، نَدَبَ أَصْحَابَهُ لِلْعِيرِ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ وَسَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ، قَبْلَ خُرُوجِهِ مِنْ الْمَدِينَةِ بِعَشْرِ لَيَالٍ، يَتَحَسّسَ انِخَبَرَ الْعِيرِ، حَتّى نَزَلَا عَلَى كَشَدٍ الْجُهَنِيّ بِالنَّخْبَارِ[1] مِنْ الْحَوْرَاءِ- وَالنَّخْبَارُ مِنْ وَرَاءِ ذِي الْمَرْوَةِ[2] عَلَى السّاحِلِ- فَأَجَارَهُمَا، وَأَنْزَلَهُمَا، وَلَمْ يَزَالَا مُقِيمَيْنِ عِنْدَهُ فِي خِبَاءٍ[3] حَتّى مَرّتْ الْعِيرُ، فَرَفَعَ طَلْحَةُ وَسَعِيدٌ عَلَى نَشَزٍ[4] مِنْ الْأَرْضِ، **فَنَظَرَا إلَى الْقَوْمِ، وَإلَى مَا تَحْمِلُ الْعِيرُ، وَجَعَلَ أَهْلُ الْعِيرِ يَقُولُونَ: يَا كَشَدُ، هَلْ رَأَيْت أَحَدًا مِنْ عُيُونِ مُحَمّدٍ؟**

فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِاَللهِ، وَأَنّى عُيُونُ مُحَمّدٍ بِالنّخْبَارِ؟

فَلَمّا رَاحَتْ الْعِيرُ بَاتَا حَتّى أَصْبَحَا ثُمّ خَرَجَا، وَخَرَجَ مَعَهُمَا كَشَدٌ خَفِيرًا، حَتّى أَوْرَدَهُمَا ذَا الْمَرْوَةِ.

وَسَاحَلَتْ الْعِيرُ فَأَسْرَعَتْ، وَسَارُوا اللّيْلَ وَالنّهَارَ فَرَقًا مِنْ الطّلَبِ، فَقَدِمَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ وَسَعِيدٌ الْمَدِينَةَ الْيَوْمَ الّذِي لَاقَاهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَدْرٍ، فَخَرَجَا يَعْتَرِضَانِ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَقِيَاهُ بِتُرْبَانَ[5]-وَتُرْبَانُ بَيْنَ مَلَلٍ وَالسّيَالَةِ عَلَى الْمَحَجّةِ، وَكَانَتْ مَنْزِلَ ابْنِ أُذَيْنَةَ الشّاعِرِ. وَقَدِمَ كَشَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ،

فَأَخْبَرَ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَعِيدٌ وَطَلْحَةُ إجَارَتَهُ إيّاهُمَا، فَحَيّاهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَكْرَمَهُ وَقَالَ: أَلَا أَقْطَعُ لَك يَنْبُعَ؟[6]فَقَالَ: إنّي كَبِيرٌ وَقَدْ نَفِدَ عُمْرِي، وَلَكِنْ أَقْطِعْهَا لِابْنِ أَخِي. فَقَطَعَهَا لَهُ.)[7]

---

(1) النخبار: موضع ساحلي قريب من ميناء الحوراء على البحر الأحمر، شمال ينبع.

(2) ذو المروة: موضع غرب المدينة.

(3) خباء: خيمة من وبر.

(4) نشز: مرتفع.

(5) تربان: موضع بين المدينة وبدر.

(6) ينبع: عن يمين رضوى لمن كان منحدرًا من المدينة إلى البحر.

(7) مغازي الواقدي: (19-20/1).

إنها ذات قافلة قريش المتجهة إلى الشام التي أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ملاقاتها في غزوة ذي العشيرة، قبل أربعة أشهر.

أفلتت القافلة يومها وأكملت طريقها إلى الشام.

وحان موعد عودتها من الشام إلى مكة.

وكان المهاجرون يعرفون بشكل تقريبي موعد عودة القوافل من الشام، لأنها غالبًا تتكرر في مواسم معينة.

فبعث عليه الصلاة والسلام الصحابيان طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد، ليعرفا أخبار القافلة.

طلحة وسعيد؟ الاثنان من العشرة المبشرة بالجنة.

طلحة لا يحتاج إلى تعريف.

وسعيد بن زيد كان والده ممن ترك عبادة الأصنام في الجاهلية، وهو من السابقين إلى الإسلام حيث أسلم قبل الدخول إلى دار الأرقم وهو في الوقت ذاته زوج فاطمة بنت الخطاب أخت عمر التي كانت من أسباب إسلامه في الواقعة المشهورة.

بعبارة أخرى: أرسل عليه الصلاة والسلام مبعوثين بارزين موثوقين تمامًا لكي يتجسسا على أخبار القافلة، وكانا من قريش، يمكنهما معرفة (قيمة) القافلة بمجرد النظرة من بعيد.

أخذا موضعًا يتوقعان أن تمر القافلة فيه، عند كشد بن مالك الجهني الذي أجارهما ووفر لهما مكان المراقبة.

فلنتذكر: قبيلة جهينة أسلمت وكتب لها الرسول عليه الصلاة والسلام معاهدة.

هذه المعاهدات كانت لها أهميتها، كانت حدثًا مهمًّا عندما وقعت، ولكنها ها هي تسهم في الوصول إلى حدث مفصلي.

قريش حذرة أيضًا، عندما تمر القافلة من أمام النخبار، حيث كشد، يصيح واحد من القافلة مناديًا إياه: هل رأيت عيونًا لمحمد على الطريق.

يرد كشد: محمد! أعوذ بالله.

طلحة وسعيد عرفا قيمة القافلة وما تحمله، هرعًا إلى المدينة ولم يتوقفا ليلًا ولا نهارًا، لكنهما وصلا في اليوم الذي وقعت فيه المعركة بالفعل والتقيا بالرسول عليه الصلاة والسلام لاحقًا في تربان -بين المدينة وبدر- وجاء معهما كشد.

عرض الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقطعه أرض ينبع.

لكنه قال إنه بلغ من العمر ما بلغه، واقترح أن يقطعها لأبن أخيه.

وكان ذلك.

لنا طلبة

كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أرسل عينًا أخرى، غير طلحة وسعيد بن زيد.

بُسيسة بن عمرو الجهني[1].

وهو الذي أوصل الخبر أولًا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي، وَغَيْرُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ، قَالَ: فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ: «إِنَّ لَنَا طَلِبَةً، فَمَنْ كَانَ ظَهْرهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا»، فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «لَا، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرهُ حَاضِرًا»،[2]

قَالُوا: وَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ: وَهَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، لَعَلّ اللهَ يُغْنِمكُمُوهَا. فَأَسْرَعَ مَنْ أَسْرَعَ، حَتّى إنْ كَانَ الرّجُلُ لَيُسَاهِمُ أَبَاهُ فِي الْخُرُوجِ، فَكَانَ مِمّنْ سَاهَمَ سَعْدُ بْنُ خَيْثَمَةَ وَأَبُوهُ فِي الْخُرُوجِ إلَى بَدْرٍ، فَقَالَ سَعْدٌ لِأَبِيهِ: إنّهُ لَوْ كَانَ غَيْرَ الْجَنّةِ آثَرْتُك بِهِ، إنّي لَأَرْجُو الشّهَادَةَ فِي وَجْهِي هَذَا! فَقَالَ خَيْثَمَةُ: آثِرْنِي، وَقِرْ مَعَ نِسَائِك! فَأَبَى سَعْدٌ، فَقَالَ خَيْثَمَةُ: إنّهُ لَا بُدَّ لِأَحَدِنَا مِنْ أَنْ يُقِيمَ. فَاسْتَهَمَا، فَخَرَجَ سهم سعد قتل بِبَدْرٍ[3].

(1) وفي رواية أخرى بسبس بن عمرو.

(2) صحيح مسلم: 1901.

(3) مغازي الواقدي: (1/20).

بسيسة ينقل الخبر وليس عنده عليه الصلاة والسلام غير خادمه أنس.

والرسول عليه الصلاة يخرج ليقول للناس: إن لنا طلبة! أي لدينا ما نخرج لنسعى وراءه ونطلبه، قافلة قريش وما تحمل. فمن كان ظهره حاضرًا، أي من كانت دابته جاهزة يأتي معنا. وكان هناك رجال لديهم دواب خارج المدينة فاستأذنوا في إحضارها، لكنه عليه الصلاة والسلام رأى أن الوقت لا يحتمل التأخير.

سعد بن خيثمة وأبوه يقترعان على الخروج، أيٌّ منهما يخرج.

وسعد هو صاحب بيت الأعزاب الذي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يجلس فيه مع الصحابة عندما كان في قباء. فاز بالقرعة، ثم فاز في بدر، استشهد.

الجديد هنا مشاركة الأنصار.

هذه المرة كانت مختلفة، شارك الأنصار بوضوح.

فيما سبق من السرايا، ثبت أن بعضها كانت حصرًا على المهاجرين، ولم يثبت ذلك في أخرى وإن كان لم يثبت أيضًا فيها وجود أنصار، أي لم يذكر فيها اسم من الأنصار في وقائعها.

هذه المرة، هناك دعوة واضحة عامة للمشاركة.

لكن الدعوة لم تكن على القتال.

كانت قافلة قريش ومعها بين الثلاثين أو الأربعين رجلًا[1].

أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام: إن أموال قريش في هذه القافلة قد تكون غنائم للمسلمين إذا كتب الله أن يظفروا بها.

دعوة المسلمين (مهاجرين وأنصارًا) كانت للحصول على الغنائم.

نتحدث هنا عن الخروج لملاحقة القافلة، لم يكن هناك جيش من قريش قد خرج بعد، بل إن قريشًا لم تكن قد علمت أصلًا أن المسلمين ينوون الخروج لملاقاة القافلة.

نعم، الغنائم، لم لا؟

نعم كانت الغنائم هي السبب الأول في خروج المسلمين من المدينة في هذه المرحلة.

ولا يجب أن نشعر بأي خجل من هذا ولا داعي لأي تبرير.

(1) الدرر في اختصار المغازي والسير: (1/102).

هذه هي وسائل بناء الدولة وتوسعها آنذاك[1].

والسعي إلى الحصول على المنافع المادية أمر طبيعي عند البشر، ولا يعيبهم ولا يقلل من إيمانهم أو تقواهم. المهم أن توظف هذه (الطبيعة البشرية) في السياق الصحيح الذي يبني الدولة أو المجتمع دون أن يتعارض ذلك مع ما أقره أو نهى عنه الشرع.

عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ، حَدَّثَهُ أَنَّهُ، سَمِعَ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ: «إِنِّي أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَةٌ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نُخْرِجَ قِبَلَ هَذَا الْعِيرِ؟ لَعَلَّ اللهُ يُغْنِمُنَاهَا»، فَقُلْنَا: نَعَمْ، فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا[2]

الكلام واضح وصريح. أبو أيوب الأنصاري ينقل ما حدث في بداية الأمر.

الرسول عليه الصلاة والسلام يسألهم: هل تخرجون معي إلى هذه القافلة؟

لعل الله يغنمنا إياها.

فخرج وخرجنا.

سيكون هناك -لاحقًا، مع تطور الأحداث- موقف مختلف.

لكن النية ابتداء كانت غنيمة القافلة، بصراحة ووضوح ودون مواراة.

هل كان هناك من توقع أن يحدث بعض القتال في مواجهة القافلة؟ نعم، سعد قالها لأبيه، أرجو أن أكون شهيدًا، بينما كل منهما يقنع الآخر بالبقاء.

لكن النداء الذي وجهه الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة كان واضحًا: قافلة قريش وأموالها، الدوافع الاقتصادية الطبيعية اللازمة لا للأفراد فقط، بل للمجتمعات وللدول أيضًا. خاصة في مراحل تأسيسها الأولية، كانت هذه هي وسائل بناء الدولة وتوسعها في ذلك الوقت ولو كانت هناك وسيلة أخرى -كما حدث لاحقًا عبر تطور الاقتصاد العالمي- لاستخدمها عليه الصلاة والسلام دون شك.

(1) لا يتعارض هذا بالضرورة مع القول إن الهجوم على القافلة كان لاسترداد أموال المسلمين التي صادرتها قريش، فمظالم قريش كثيرة ومن ضمنها ما صادرته من أموال، ولكن هذا السبب إن برر الخروج من أجل القافلة فهو لا يفسر خروج الأنصار مع المهاجرين، والحقيقة أنها كانت طبيعة الدول عندما تؤسس وتتوسع، فلسنا بحاجة إلى التبرير في شيء.

(2) المعجم الكبير للطبراني: 4056.

وَأَبْطَأَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم بشر كثير من أصحابه، كرهوا خُرُوجَهُ، وَكَانَ فِيهِ كَلَامٌ كَثِيرٌ وَاخْتِلَافٌ. وَكَانَ مَنْ تَخَلَّفَ لَمْ يُلَمْ لِأَنَّهُمْ مَا خَرَجُوا عَلَى قِتَالٍ، وَإِنَّمَا خَرَجُوا لِلْعِيرِ. وَتَخَلَّفَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ نِيَّاتٍ وَبَصَائِرَ، لَوْ ظَنّوا أَنَّهُ يَكُونُ قِتَالٌ مَا تَخَلَّفُوا. وَكَانَ مِمَّنْ تَخَلَّفَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ... [1]

لم يخرج الجميع، بل هناك منهم من كره أن يخرج عليه الصلاة والسلام بالأساس، غالبًا خوفًا عليه، ربما بسبب قرب مقتل عمرو بن الحضرمي.

لكن لم يكن هناك لوم على من لم يخرج، لأن الخروج أصلًا كان من أجل القافلة.

***

اختلف المؤرخون في عدد مَن خرج في بدر بين ثلاثمائة (ستون منهم من المهاجرين ومئتان وأربعون من الأنصار)، وثلاثمئة وثلاثة عشر (منهم ستة وسبعون من المهاجرين ومئتان وسبع وثلاثون من الأنصار).

كَانَ المُهَاجِرُونَ يَوْمَ بَدْرٍ نَيِّفًا عَلَى سِتِّينَ، وَالأَنْصَارُ نَيِّفًا وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ[2]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ بَدْرٍ كَانُوا ثَلاثَ مِائَةٍ وَثَلاثَةَ عَشَرَ رجلًا، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ سِتَّةً وَسَبْعِينَ».[3]

هذا العدد من المهاجرين والأنصار الذي خرج إلى بدر كان معه سبعون بعيرًا فقط. يتعاقب على كل بعير ثلاثة أو أربعة رجال، يركب واحد، ويمشي الباقون.

خَرَجْنَا إِلَى بَدْرٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَنَا سَبْعُونَ بَعِيرًا، فَكَانُوا يَتَعَاقَبُونَ، الثَّلَاثَةُ، وَالْأَرْبَعَةُ، وَالِاثْنَانِ، عَلَى بَعِيرٍ[4].

الحفاظ على الموارد البشرية للمستقبل

وصل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى منطقة جنوب المدينة تعرف بمنطقة السقيا، فيها بئر أبي عنبة، وهي لا تبعد أكثر من ميل عن المدينة.

(1) المغازي للواقدي: (1/21-20).

(2) صحيح البخاري: 3956.

(3) مسند أحمد: 2232.

(4) مغازي الواقدي: (1/26).

...وَضَرَبَ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَسْكَرهُ بِبِئْرِ أَبِي عنبَةَ وَهِيَ عَلَى مِيلٍ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَعَرَضَ أصحابه ورد من استصغر[1]

...فَضَرَبَ عَسْكَرهُ هُنَاكَ، وَعَرَضَ الْمُقَاتِلَةَ، فَعَرَضَ عَبْدُ الله بن عمر، وأسامة ابن زَيْدٍ، وَرَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ، وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ، وَأُسَيْدُ بْنُ ظَهِيرٍ، وَزَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، فَرَدّهُمْ وَلَمْ يُجِزْهُمْ[2].

على أطراف المدينة، عد من سيخرج معه، ورد من اعتبره صغيرًا على الأمر، وفيهم عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت، لأنهم كانوا صغارًا.

وهذا يعني غالبًا أنه كان قد وضع احتمالية حدوث للقتال، ولم يشأ أن يعرض (صغار السن) للخطر.

للوهلة الأولى يمكن أن يكون سبب استبعادهم هو بسبب قلة خبرتهم أو حداثة سنهم، وهذا وارد بالتأكيد، لكنه ربما أيضًا كان يفكر بحكمته النبوية بعيدة النظر أن هذه الفئة العمرية من الشباب يجب أن تبقى بمنأى قدر الإمكان عن احتمالية الموت، لأنه كان يعدهم لمرحلة لاحقة، بعد عشر سنوات مثلًا، سيكون الكثير من الصحابة قد دخلوا في عقدهم السابع (فوق الستين من العمر)، بينما سيكون صغار السن هؤلاء في ريعان شبابهم وعطائهم: ابن عمر سيكون واحدًا من فقهاء المدينة وكبار محدثيها عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وزيد بن ثابت سيكون كاتبَ الوحي الذي يرأس لجنة جمع القرآن، وأسامة بن زيد سيقود آخر سرية جهزها النبي عليه الصلاة والسلام لمواجهة الروم والقبائل الموالية لهم.

فبكى عمير-

رغم أن الدعوة كانت لغنيمة القافلة، فإن احتمالية القتال كانت واردة، يحدثنا سعد بن أبي وقاص أن أخاه عمير يختبئ حتى لا يراه الرسول عليه الصلاة والسلام فيرده لصغر سنه، ورآه الرسول فرده بالفعل، فأخذ يبكي، يريد أن يستشهد في سبيل الله، فأجاز الرسول خروجه إلى بدر وكان سعد يربط له سيور السيف على كتفه وخصره.

---

(1) عيون الأثر: (1/286).

(2) مغازي الواقدي: (1/21).

قَالَ سعد: رَأَيْت أَخِي عُمَيْرَ بْنَ أَبِي وَقّاصٍ قَبْلَ أَنْ يَعْرِضَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَارَى، فَقُلْت: مَا لَك يَا أَخِي؟ قَالَ: إنّي أَخَافُ أَنْ يَرَانِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَسْتَصْغِرَنِي فَيَرُدّنِي، وَأَنَا أُحِبّ الْخُرُوجَ، لَعَلّ اللهَ يَرْزُقُنِي الشّهَادَةَ. قَالَ: فَعُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَصْغَرَهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ!

فَبَكَى عُمَيْرٌ، فَأَجَازَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: فَكَانَ سَعْدٌ يَقُولُ: كُنْت أَعْقِدُ لَهُ حَمَائِلَ سَيْفِهِ مِنْ صِغَرِهِ، فَقُتِلَ بِبَدْرٍ وَهُوَ ابْنُ سِتّ عَشْرَةَ سنة[1].

ما قاله عمير، والحديث السابق بين سعد بن خيثمة ووالده عن رغبتهما في الاستشهاد في سبيل الله، رغم أن لا دعوة للقتال، توحي أنه عليه الصلاة والسلام كان يتحدث عن الشهادة في سبيل الله وفضلها حتى قبل بدر، وربما منذ أن نزل الإذن الواضح بالقتال، وهذا مرة أخرى لا يتعارض مع رغبة الكثير من الصحابة الحصول على غنائم القافلة، لكن بعضهم كان يريد أجر الشهادة في سبيل الله.

اللهم إنهم حفاة، عراة، جياع..

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حِينَ فَصَلَ مِنْ بُيُوتِ السّقْيَا: اللهُمّ، إنّهُمْ حُفَاةٌ فَاحْمِلْهُمْ، وَعُرَاةٌ فَاكْسُهُمْ، وَجِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ، وَعَالَةٌ فَأَغْنِهِمْ مِنْ فَضْلِك![2]

دعا عليه الصلاة والسلام بينما هو يغادر المدينة بهذا الدعاء.

لا يقف هذا الدعاء عند معنى الخضوع والتذلل إلى الله فحسب، بل أيضًا يشير إلى أن الوضع المعيشي في دولة المدينة كان صعبًا وكان يحتاج ما سيحدث في بدر.

مرة أخرى، كانت هذه هي الوسائل آنذاك، والغايات تبقى ثابتة، بينما تتغير الوسائل من عصر إلى آخر.

***

قال ابن إسحق: وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مِنَ الْمَدِينَةِ فِي لَيَالٍ مَضَتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي أَصْحَابِهِ، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: لِثَمَانِ لَيَالٍ خَلَوْنَ مِنْهُ، وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ:

(1) مغازي الواقدي: (1/21).

(2) مغازي الواقدي: (1/26).

يَوْمَ الاثْنَيْنِ لاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْهُ **بَعْدَ مَا وَجَّهَ طَلْحَة بْن عُبَيْد اللَّهِ وَسَعِيد بْن زَيْدٍ بِعَشْرِ لَيَالٍ**،... وخلف على المدينة أبا لبابة بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ.[1]

إذن خرج الرسول عليه الصلاة والسلام مع جيشه لملاقاة قافلة قريش في أوائل رمضان من السنة الثانية للهجرة، إما في 8 رمضان وإمَّا 12 منه، وهناك بعض الأقوال إن ذلك بعد مضي ليلتين منه.

بكل الأحوال نحن في أول رمضان فرض على المسلمين، وكان قد فرض قبل ذلك بشهر.

هل كان المسلمون صائمين في المعركة؟

كانوا صائمين في المدينة قبل خروجهم، ثم عندما خرجوا لملاقاة القافلة فقد كانوا حرفيًّا في حالة سفر. بدر على مسافة 150 كيلومترًا جنوب غرب المدينة، تستغرق هذه المسافة خمسة إلى تسعة أيام على الأقدام أو على الإبل.

لذا، فقد أفطر المسلمون لأنهم -عمليًّا- على سفر.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَتَيْنِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ: يَوْمَ بَدْرٍ، وَيَوْمَ الْفَتْحِ، فَأَفْطَرْنَا فِيهِمَا[2] .

الكثير من الخطابات الدعوية اليوم في ترويجها لأثر الصيام تقول إن المسلمين كانوا صائمين في بدر وفي فتح مكة وأن الصيام مدهم بطاقة وقوة ساعدتهم في النصر...وتستخدم ذلك خاصة في المقارنة مع المتعبين من الصيام من الأجيال الجديد، ولكن ما حصل في واقع الأمر كان أبسط وأكثر إنسانية. هناك رخصة والجيل الأول من الصحابة استخدمها على نحو طبيعي جدًّا.

في حديث أبي سعيد الخدري تفاصيل أكثر..

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسِتَّ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ، فَمِنَّا مَنْ صَامَ وَمِنَّا مَنْ أَفْطَرَ، فَلَمْ يَعِبِ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ».[3]

(1) عيون الأثر: (1/286).

(2) مسند أحمد: 142.

(3) صحيح مسلم: 1116.

أبو سعيد الخدري هنا لم يكن يتحدث عن بدر لأنه لم يحضرها لصغر سنه آنذاك، بل هو يتحدث عن فتح مكة (الذي حدث في العشرين من رمضان وبالتالي فالتاريخ -ستة عشر من رمضان- يتناسب مع تفاصيل أكثر رواها في حديث آخر).

عن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: **سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَكَّةَ وَنَحْنُ صِيَامٌ، قَالَ: فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ قَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ» فَكَانَتْ رُخْصَةً، فَمِنَّا مَنْ صَامَ، وَمِنَّا مَنْ أَفْطَرَ،**

ثُمَّ نَزَلْنَا مَنْزِلًا آخَرَ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ مُصَبِّحُو عَدُوِّكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ، فَأَفْطِرُوا» وَكَانَتْ عَزْمَةً، فَأَفْطَرْنَا، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا نَصُومُ، مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ، فِي السَّفَرِ[1]

كانوا على سفر باتجاه مكة، هناك من أخذ بالرخصة وهناك من أفطر، ولم يقلل أحد على الآخر في ذلك.

ثم اقتربوا من العدو، فذكرهم عليه الصلاة والسلام أن **(الفطر أقوى لهم)**، لكن الأمر كان لا يزال ضمن الرخصة، لم يأمرهم بأن يفطروا.

ولكن عندما كانوا على وشك المواجهة، ليلة وصولهم على مشارف مكة، قال بوضوح **(الفطر أقوى لكم، افطروا)**، خرج الأمر من الرخصة إلى العزيمة[2]، فأفطر الجميع.

بل إنه في رواية أخرى، رفض إصرار البعض على الاستمرار في الصيام وأسماهم (العصاة)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْغَمِيمِ[3]**، فَصَامَ النَّاسُ، ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَرَفَعَهُ، حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، ثُمَّ شَرِبَ، فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ الْعُصَاةُ، أُولَئِكَ الْعُصَاةُ»**[4]

(1) صحيح مسلم: 1120.

(2) العزيمة الحكم الشرعي الثابت الخالي من معارض راجح.

(3) كراع الغميم: موضع بين مكة والمدينة على بعد نحو 60 كيلومترًا من مكة.

(4) صحيح مسلم: 1114.

هذا هو النبي عليه الصلاة والسلام، مدرك للطبيعة البشرية وضعفها واختلاف احتياجاتها في وقت السلم والكد اليومي عن وقت الحرب والقتال والمواجهة، بينما للأسف يعمد بعض من يحسنون النية إلى استخدام وقوع انتصاري بدر وفتح مكة في رمضان لتوظيف الأمر خارج سياقه تمامًا.

رؤيا عاتكة

في هذه الأثناء، كان هناك شيء ما يحدث في مكة.

عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: «**كَانَتْ عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاكِنَةٌ مَعَ أَخِيهَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَرَأَتْ رُؤْيَا قُبَيْلَ بَدْرٍ فَفَزِعَتْ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى أَخِيهَا عَبَّاسٍ مِنْ لَيْلَتِهَا حِينَ فَزِعَتْ، واسْتَيْقَظَتْ مِنْ نَوْمِها، وَقَالَتْ: رَأَيْتُ رُؤْيَا وَقَدْ خَشِيتُ مِنْهَا عَلَى قَوْمِكَ الْهَلَكَةَ،**

قَالَ: وَمَا رَأَيْتِ؟

قَالَتْ: لَنْ أُحَدِّثَكَ حَتَّى تُعَاهِدَنِي أَنْ لَا تَذْكُرُهَا فَإِنَّهُمْ إِنْ سَمِعُوها آذَوْنَا، فَأَسْمَعُونَا مَا لَا نُحِبُّ،

فَعَاهَدَها عَبَّاسٌ

فَقَالَتْ: رَأَيْتُ رَاكِبًا أَقْبَلَ عَلَى رَاحِلَتِهِ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا آلَ غُدَرَ، وَيَا آلَ فُجَرَ، اخْرُجُوا فِي لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَصَرَخَ فِي الْمَسْجِدِ ثَلَاثَ صَرَخَاتٍ، وَمَالَ إِلَيْهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، وَفَزِعَ النَّاسُ لَهُ أَشَدَّ الْفَزَعِ، ثُمَّ أُرَاهُ عَلَى ظَهْرِ الْكَعْبَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَصَاحَ ثَلَاثَ صَرَخَاتٍ: يَا آلَ غُدَرَ، وَيَا آلَ فُجَرَ، اخْرُجُوا فِي لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ حَتَّى أَسْمَعَ مَنْ بَيْنَ الْأَخْشَبَيْنِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، ثُمَّ عَمَدَ لِصَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ فَنَزَعَهَا مِنْ أَصْلِهَا، ثُمَّ أَرْسَلَهَا عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَأَقْبَلَتِ الصَّخْرَةُ لَهَا دَوِيٌّ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ عِنْدَ أَصْلِ الْجَبَلِ ارْفَضَّتْ، فَلَا أَعْلَمُ بِمَكَّةَ بَيْتًا وَلَا دَارًا إِلَّا قَدْ دَخَلَهَا فِلْقَةٌ مِنْ تِلْكَ الصَّخْرَةِ، فَلَقَدْ خَشِيتُ عَلَى قَوْمِكَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ شَرٌّ»[1]

عاتكة هي عمة النبي، وأمها نفس أم والده عبد الله، أي أنها شقيقة والد النبي عليه الصلاة والسلام.

---

(1) المعجم الكبير للطبراني: 860.

كانت آنذاك لا تزال في مكة، وقد اختلف في أمر إسلامها وهجرتها لاحقًا، لكن في هذه المرحلة كانت لا تزال في مكة.

عاتكة رأت فيما يرى النائم رؤيا مفزعة.

رجل يدخل على بعيره إلى مكة وهو يصرخ: يا آل غدر، يا آل فجر (وهما عبارتان تستخدمان مثل يا للغدر، ويا للفجر ولكن للجمع) ويطلب من الناس الخروج في ليلتين أو ثلاثة، ويكرر ذلك وهو يقف أمام الكعبة ثم على ظهرها -مع بعيره- وأخيرًا يذهب إلى جبل من جبال مكة وهو يقول الشيء ذاته ثم يحمل صخرة كبيرة ويلقيها على مكة فتتفتت وتصيب أجزاءً منها كل بيوت مكة.

عاتكة طلبت من العباس أن يكتم خبر الرؤيا، الوضع في مكة كان متوترًا تجاه بني عبد المطلب عمومًا.

ولكن..

قَالَ الْعَبَّاسُ: وَاللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا فَاكْتُمِيهَا،

قَالَتْ: وَأَنْتَ فَاكْتُمْهَا لَئِنْ بَلَغَتْ هَذِهِ قُرَيْشًا لَيُؤْذُونَنَا،

فَخَرَجَ الْعَبَّاسُ مِنْ عِنْدِهَا وَلَقِيَ الْوَلِيدَ بْنَ عُتْبَةَ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقًا فَذَكَرَهَا لَهُ وَاسْتَكْتَمَهُ إِيَّاهَا، فَذَكَرَهَا الْوَلِيدُ لِأَبِيهِ، فَتَحَدَّثَ بِهَا فَفَشَا الْحَدِيثُ،

قَالَ الْعَبَّاسُ: وَاللَّهِ، إِنِّي لَغَادٍ إِلَى الْكَعْبَةِ لِأَطُوفَ بِهَا إِذْ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا أَبُو جَهْلٍ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَتَحَدَّثُونَ، عَنْ رُؤْيَا عَاتِكَةَ،

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا أَبَا الْفَضْلِ، مَتَى حَدَثَتْ هَذِهِ النَّبِيَّةُ فِيكُمْ؟

قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ،

قَالَ: رُؤْيَا رَأَتْهَا عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَمَا رَضِيتُمْ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْ يَتَنَبَّأَ رِجَالُكُمْ حَتَّى تَنَبَّأَ نِسَاؤُكُمْ فَسَنَتَرَبَّصُ بِكُمْ هَذِهِ الثَّلَاثَ الَّتِي ذَكَرَتْ عَاتِكَةُ، فَإِنْ كَانَ حقًّا فَسَيَكُونُ، وَإِلَّا كَتَبْنَا عَلَيْكُمْ كِتَابًا إِنَّكُمْ أَكْذَبُ أَهْلِ بَيْتٍ فِي الْعَرَبِ،

فَوَاللَّهِ مَا كَانَ إِلَيْهِ مِنِّي مِنْ كَبِيرٍ إِلَّا أَنِّي أَنْكَرْتُ مَا قَالَتْ، فَقُلْتُ: مَا رَأَتْ شيئًا وَلَا سَمِعْتُ بِهَذَا، فَلَمَّا أَمْسَيْتُ لَمْ تَبْقَ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَّا أَتَتْنِي، فَقُلْنَ: أَصَبَرْتُمْ لِهَذَا الْفَاسِقِ الْخَبِيثِ أَنْ يَقَعَ فِي رِجَالِكُمْ، ثُمَّ تَنَاوَلَ النِّسَاءَ وَأَنْتَ تَسْمَعُ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ فِي ذَلِكَ غَيْرَةٌ؟ فَقُلْتُ: قَدْ وَاللَّهِ صَدَقْتُنَّ، وَمَا كَانَ عِنْدِي فِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرَةٍ

إِلَّا أَنِّي قَدْ أَنْكَرْتُ مَا قَالَ، فَإِنْ عَادَ لَأَكْفِيَنَّهُ، فَقَعَدْتُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أَتَعَرَّضُهُ لَيَقُولَ شيئًا فَأُشَاتِمُهُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَمُقْبِلٌ نَحْوَهُ، وَكَانَ رجلًا حَدِيدَ الْوَجْهِ، حَدِيدَ الْمَنْظَرِ، حَدِيدَ اللِّسَانِ إِذْ وَلَّى نَحْوَ بَابِ الْمَسْجِدِ يَشْتَدُّ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ كُلَّ هَذَا فَرَقًا مِنْ أَنْ أُشَاتِمَهُ، وَإِذَا هُوَ قَدْ سَمِعَ مَا لَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى بَعِيرِهِ بِالْأَبْطَحِ قَدْ حَوَّلَ رَحْلَهُ، وَشَقَّ قَمِيصَهُ، وَجَدَعَ بَعِيرَهُ، يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اللَّطِيمَةُ اللَّطِيمَةُ أَمْوَالُكُمْ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ، وَتِجَارَتُكُمْ قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ، فَالْغَوْثُ، فَشَغَلَهُ ذَلِكَ عَنِّي[1]

اتفقا معًا، عاتكة وأخوها العباس على كتمان الرؤيا.

المعتاد هو اتهام النساء بعدم الكتمان.

لكن من لم يلتزم بكتمان الرؤيا هو العباس.

روى رؤيا عاتكة لصديقه الوليد بن عتبة، الذي أخبر والده، عتبة بن ربيعة، والد هند -زوجة أبي سفيان- وهكذا فشا الأمر في مكة، ولم يستغرق طويلًا حتى وصل أبا جهل، رأس حربة جناح الصقور في ملأ قريش، الذي استفزته رؤيا عاتكة وتحدث مع العباس بلهجة المستهزئ، لم تكتفوا بأن يكون بين رجالكم نبي حتى صارت هناك نبية بين نسائكم؟ أنكر العباس الأمر بينما هدد أبو جهل العباس بأنه إذا انقضت الأيام الثلاثة دون حدوث ما رأته عاتكة فإنه سيكتب كتابًا يعلن فيه أن بني عبد المطلب هم أكذب بيت في العرب.

لوبي نساء بني عبد المطلب في مكة لم يسكت عما قاله أبو جهل. يقول العباس إنه لم تبق سيدة من بني عبد المطلب إلا جاءته يومها وهي تلومه على سكوته على ما قال أبو جهل، أن يقع في نساء بني عبد المطلب بعدما وقع في رجالهم، بل إنهن حسب رواية الطبراني، قلن للعباس: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَمْزَةُ مَا قَالَ مَا قَالَ[2]، أي لو أن حمزة كان مكانك لما تجرأ أبو جهل على أن يقول ما قال. وهي جملة تحريضية متقنة، ويمكنكم تخيل موقف العباس وهو يلتقي تباعًا سيدة تلو أخرى من نساء بيت عبد المطلب وكل منهن تقرعه وتلومه.

(1) المستدرك على الصحيحين: 4297.

(2) المعجم الكبير للطبراني: 859.

المجد للمرأة الخارقة!

نجحت خطة لوبي النساء في تحريك العباس على أبي جهل حتى عزم أن يلاقي أبا جهل في اليوم الثالث -الذي تنتهي فيه مهلة الرؤيا- لكي يقف بوجهه ويرد له إهاناته، وكان يراجع الردود التي حفظها من نساء بيت عبد المطلب عندما راجعنه (قال ذلك حرفيًّا[1])، ولكن بينما هو يستعد لذلك دخل ضمضم -الرجل الذي أرسله أبو سفيان من القافلة- وهو يلطم ويصرخ وقد شق ثوبه وقطع أنف بعيره، كما يفعل العرب عادة عند وقوع مصيبة.

سنترك ضمضمة ومن أرسله قليلًا، ونبقى مع عاتكة والعباس.

كَفَرَتَيْ رِهَانٍ

هل تعمد العباس أن يتحدث برؤيا عاتكة ليستفز قريشًا أو يشعرها بالقلق كجزء من الحرب الباردة الصامتة القائمة بينهم منذ حصار شعب أبي طالب بل منذ بدء البعثة؟

هل كان العباس يريد أن يضعف الروح المعنوية لقريش؟

لا شيء يدل على أي خطة مسبقة أو أي تعاون سري بين العباس والنبي عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة، ولم يكن العباس قد أسلم بعد، على الأقل لم يعلن ذلك، لكن مواقفه من النبي عليه الصلاة والسلام كانت واضحة، يسانده ويحميه دون أن يعلن إيمانه برسالته.

في ظل التوترات المتراكمة بين قريش ودولة المدينة الناشئة كان لا بد أن يشعر العباس بأنه أقرب إلى دولة ابن أخيه من قريش التي تعامل بعض رؤوس الملأ فيها مع بعثة النبي عليه الصلاة والسلام كما لو كانت محاولة من بني هاشم للسيطرة على قريش.

قال أبو جهل مخاطبًا العباس واصفًا كيف يرى الأمر من وجهة نظره كمنافسة بين بني عبد الدار (فرع قريش الذي يضم بني مخزوم عشيرة أبي جهل) وبني عبد مناف (الفرع الذي يضم بني هاشم).

(1) وَأَنْكَرَ مَا الْمُغَفَّلَتَيْنِ. للنساء أبدعن صنعة للتهوين على العقل. مغلزني. المقري، (1/39).

تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ، أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَاذَيْنَا عَلَى الرُّكْبِ، وَكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ، قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنْ السَّمَاءِ، فَمَتَى نُدْرِكُ مِثْلَ هَذِهِ، وَاَللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نُصَدِّقُهُ[1]

هذا التوصيف من أبي جهل للتنافس الذي انتهى بالنبوة لا علاقة له بعبادة الأصنام أو دين الأجداد لذا من الطبيعي من العباس أن يتخندق مع بني هاشم، على فرض أنه لم يكن قد أسلم بعد.

ومن الطبيعي أيضًا أن تكون رؤيا عاتكة- المزعجة لقريش- أمرًا يسر العباس ولو ضمنيًّا، خاصة أن بعض الروايات التي روت الرؤيا تقول إن الصخرة أصابت كل البيوت إلا بيوت بني هاشم وبني زهرة[2].

ربما تعمد العباس، وربما فعل ذلك دون وعي، لكن ما نقله من رؤيا أخته كان له تأثير كبير، فالعرب كانت تتطير برؤى كهذه، والتوترات التي كانت موجودة أصلًا (خاصة بعد مقتل عمرو بن الحضرمي) كانت كفيلة بجعل رؤيا كهذه تصب الزيت على النار.

ماذا عن رؤيا عاتكة؟

سأتعامل مع النص الذي وصلنا بشكل عام دون تفاصيل، لأن بعض التفاصيل ربما أضيفت لاحقًا، المؤكد أن السيدة عاتكة قد رأت رجلًا يدخل مكة وينذرها بخطر داهم يصيب قريش كلها، الرقم ثلاثة من الأرقام الشائعة في المنامات، وغالبًا ما يرمز إلى حدوث تحول أو نضج.

هل كانت رؤيا السيدة عاتكة نبوءة؟

بل كانت مما يراه النائم في منامه ويرتبط بمعطيات الواقع.

كان لما سيحدث مقدماته الواضحة، أخبار سرايا النبي عليه الصلاة والسلام وغزواته لمدة عام سابق كانت معروفة لقريش، وفي أكثر من مرة كان هدف السرايا واضحًا: قافلة قريش المتجهة إلى الشام أو العائدة من الشام، ولا بدَّ أن خبر محاولة النبي صلى الله عليه وسلم اعتراض القافلة الأخيرة وهي في طريقها إلى الشام كانت قد وصلت

(1) سيرة ابن هشام: (1/316) تحقيق السقا.

(2) مغازي الواقدي: (1/29).

قريش، وحدث بعدها اعتراض القافلة الصغيرة القادمة من الطائف ومقتل عمرو بن الحضرمي وأسر رفيقيه. كلها كانت حوادث تنذر بالتصعيد، واقترنت باقتراب موعد عودة قافلة الشام إلى مكة بقيادة أبي سفيان.

كانت السيدة عاتكة بنت عبد المطلب ممزقة بين ما يحدث، فهي ابنة عبد المطلب بينما زوجها وأبناؤها من بني مخزوم، عشيرة أبي جهل، وولداها (زهير وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة) كانا شديدي العداوة للنبي في تلك الفترة، في الوقت ذاته كانت ابنة زوجها هند بنت أبي أمية قد أسلمت وهاجرت الهجرة الأولى إلى الحبشة ومن ثم إلى المدينة، لن تعرف في التاريخ باسمها هذا، بل بكنيتها، أم سلمة، وستصبح واحدة من أمهات المؤمنين زوجات النبي عليه الصلاة والسلام.

من الطبيعي إذن أن السيدة عاتكة كانت قلقة ومتوترة، وربما كانت من نوع الشخصيات المفرطة في التفكير، وعادة ما ينعكس هذا القلق والإفراط في التفكير على المنامات. وربما ظهر كل هذا في شكل هذا المنام الذي يقول لقريش أنها على شفا حفرة من مصيبة كبيرة.

وكانت لرؤيتها هذه أثر كبير في جبهة قريش الداخلية وروحها المعنوية، كما سنرى.

قافلة كل قريش

وَكَانَتْ الْعِيرُ أَلْفَ بَعِيرٍ، وَكَانَتْ فِيهَا أَمْوَالٌ عِظَامٌ، وَلَمْ يَبْقَ بِمَكَّةَ قُرَشِيٌّ وَلَا قُرَشِيَّةٌ لَهُ مِثْقَالٌ فَصَاعِدًا، إلّا بَعَثَ بِهِ فِي الْعِيرِ، حَتّى إنّ الْمَرْأَةَ لَتَبْعَثُ بِالشّيْءِ التّافِهِ. فَكَانَ يُقَالُ: إنّ فِيهَا لَخَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَقَالُوا أَقَلّ، وَإِنْ كَانَ لَيُقَالُ إنّ أَكْثَرَ مَا فِيهَا مِنْ الْمَالِ لِآلِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ- أَبِي أُحَيْحَةَ- إمّا مَالٌ لَهُمْ، وإمَّا مَالٌ مَعَ قَوْمٍ قِرَاضٌ عَلَى النّصْفِ، فَكَانَتْ عَامّةُ الْعِيرِ لَهُمْ. وَيُقَالُ كَانَ لِبَنِي مَخْزُومٍ فِيهَا مِائَتَا بَعِيرٍ، وخَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةُ آلَافِ مِثْقَالِ ذَهَبٍ، وَكَانَ يُقَالُ لِلْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ فِيهَا أَلْفُ مِثْقَالٍ، وَكَانَ لِأُمَيّةَ بن خلف ألفا مثقال وكان لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ فِيهَا عَشْرَةُ آلَافِ مِثْقَالٍ [1].

سعيد بن العاص. الذي عذب ولده خالد بن سعيد عندما أسلم.

الحارث بن عامر بن نوفل. شقيق أبي لهب لأمه.

أمية بن خلف، أمية بلال ما غيره.

---

(1) مغازي الواقدي: (26-28/1).

ثلاثة من كبار أعداء الرسول عليه الصلاة والسلام يمتلكون أغلب القافلة.

وبنو مخزوم، قبيلة أبي جهل.

وبنو عبد مناف الذين ينتمي بنو هاشم لهم.

القافلة تمثل كل قريش بنسب متفاوتة.

تقريبًا بنسبة عدائهم لمحمد عليه الصلاة والسلام.

رجلٌ من جذام

قافلة قريش بقيادة أبي سفيان كانت قد أرسلت ضمضم بعد أن تأكدت من أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد خرج لملاقاتها.

وكان في القافلة عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل. مخرمة أسلم بعد فتح مكة وأصبح من (المؤلفة قلوبهم)، أما عمرو بن العاص فقد أسلم بعد صلح الحديبية وأصبح من قادة الفتوحات.

قال مخرمة بن نوفل عما حدث: لَمّا لَحِقْنَا بِالشّامِ أَدْرَكَنَا رَجُلٌ مِنْ جُذَامٍ، فَأَخْبَرَنَا أَنّ مُحَمّدًا كَانَ عَرَضَ لِعِيرِنَا فِي بَدْأَتِنَا، وَأَنّهُ تَرَكَهُ مُقِيمًا يَنْتَظِرُ رَجْعَتَنَا، قَدْ حَالَفَ عَلَيْنَا أَهْلَ الطّرِيقِ وَوَادَعَهُمْ. قَالَ مَخْرَمَةُ: فَخَرَجْنَا خَائِفِينَ نَخَافُ الرّصَدَ، فَبَعَثْنَا ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو حِينَ فَصَلْنَا مِنْ الشّامِ.

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ يُحَدّثُ يَقُولُ: لَمّا كُنّا بِالزّرْقَاءِ[1]- وَالزّرْقَاءُ بِالشّامِ بِنَاحِيَةِ مَعَانَ مِنْ أَذْرِعَاتٍ[2] عَلَى مَرْحَلَتَيْنِ[3]- وَنَحْنُ مُنْحَدِرُونَ إلَى مَكّةَ، لقينا رجلًا مِنْ جُذَامٍ، فَقَالَ: قَدْ كَانَ عَرَضَ مُحَمّدٌ لَكُمْ فِي بَدْأَتِكُمْ فِي أَصْحَابِهِ.

فَقُلْنَا: مَا شَعَرْنَا!

(1) الزرقاء المقصودة موضع بين الحجاز والشام بين درعا ومعان وأقرب إلى معان.

(2) أذرعات: درعا الحالية.

(3) مرحلتين: مسير يومين.

قَالَ: بَلَى، فَأَقَامَ شَهْرًا ثُمّ رَجَعَ إِلَى يَثْرِبَ، وَأَنْتُمْ يَوْمَ عَرَضَ مُحَمّدٌ لَكُمْ مُخْفُونَ، فَهُوَ الْآنَ أَحْرَى أَنْ يَعْرِضَ لَكُمْ، إِنّمَا يَعُدّ لَكُمْ الْأَيّامَ عَدًّا، فَاحْذَرُوا عَلَى عيركم وارتأوا آراءكم، فو الله مَا أَرَى مِنْ عَدَدٍ[1]، وَلاَ كُرَاعَ[2]، وَلَا حَلْقَةٍ[3].[4]

رجل من جذام هو من أخبر قافلة قريش أن محمدا عليه الصلاة والسلام يترصد لهم.

رجل لم يذكر التاريخ اسمه، بقي مجهولًا، وربما لم يسأله من في القافلة عن اسمه أصلًا.

وجذام قبيلة تسكن جنوب بلاد الشام وشمال الحجاز، لم تذكر المصادر علاقة تحالف لها مع قريش، أي أن الرجل ربما كان مخبرًا مأجورًا أو ربما كان متعاطفًا بالفعل مع المشركين ضد الدين الجديد، وكانت جذام قبيلة مشركة تحج إلى البيت مع بقية قبائل العرب وكان لها صنمها الذي عرف باسم (الصدى)، علمًا أن بعض قبائل العرب في تلك المنطقة كانت تدين بالنصرانية، وربما كان ذلك سببًا إضافيًّا يجعله (يتخندق) مع قريش، لأن الدين الجديد أقرب إلى النصرانية منه إلى ما يدين به المشركون.

أو ربما كان مجرد رجل متبرع بالمعلومات الخطيرة أو الحساسة لكي يشعر الآخرين بأهميته ومعرفته بخبايا الأمور، نموذج نراه كثيرًا في حياتنا اليومية.

لا نعرف دوافع الرجل من جذام، بقيت مجهولة، مثل اسمه.

لكن المؤكد أن ما فعله كان حلقة مهمة من الأحداث التي تلت ذلك، والتي ساهمت في تشكيل نقطة تغيير تاريخية كبيرة.

في النهاية الرجل لم يكذب ولم يبالغ. الرسول عليه الصلاة والسلام بالفعل كان قد حاول التعرض للقافلة في ذهابها إلى الشام، وبقي مدة قد تكون أقل من شهر، لكنها ليست أقل من ذلك بكثير، وأقام معاهدات وتحالفات مع القبائل في المنطقة، وكونه سيتعرض للقافلة في طريق عودتها أمرًا محتملًا جدًّا.

(1) عدد: يعني من الرجال.

(2) كراع: خيول.

(3) حلقة: سلاح.

(4) مغازي الواقدي: (1/28).

وما قاله عن عدم استعداد القافلة لمواجهة الرسول عليه الصلاة والسلام كان أمرًا منطقيًّا أيضًا: قال لهم لا أرى عندكم عددًا من الرجال، ولا سلاحًا، ولا خيولًا، ومحمد يعد لكم الأيام عدًّا.

بعبارة أخرى: افعلوا شيئًا وإلا فقافلتكم ستذهب لمحمد لا محالة.

دراما بعشرين مثقالًا

فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ، فَبَعَثُوا ضَمْضَمًا، وَكَانَ فِي الْعِيرِ، وَقَدْ كَانَتْ قُرَيْشٌ مَرّتْ بِهِ وَهُوَ بِالسّاحِلِ مَعَ بُكْرَانِ[1] لَهُ، فَاسْتَأْجَرُوهُ بِعِشْرِينَ مِثْقَالاً. وَأَمَرهُ أَبُو سُفْيَانَ أَنْ يُخْبِرَ قُرَيْشًا أَنّ مُحَمّدًا قَدْ عَرَضَ لِعِيرِهِمْ، وَأَمَرهُ أَنْ يَجْدَعَ بَعِيرهُ إذَا دَخَلَ، وَيُحَوّلَ رَحْلَهُ، وَيَشُقّ قَمِيصَهُ مِنْ قُبُلِهِ وَدُبُرِهِ وَيَصِيحَ: الْغَوْثَ! الْغَوْثَ![2]

فَإِذَا هُوَ قَدْ سَمِعَ صَوْتَ ضمضم ابن عَمْرٍو وَهُوَ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، يَا آلَ لُؤَيّ بْنِ غَالِبٍ، اللّطِيمَةَ، قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمّدٌ فِي أَصْحَابِهِ! الْغَوْثَ، الْغَوْثَ! وَاَللهِ، مَا أَرَى أَنْ تُدْرِكُوهَا! وَضَمْضَمُ يُنَادِي بِذَلِكَ بِبَطْنِ الْوَادِي، قَدْ جَدَعَ أُذُنَيْ بَعِيرِهِ، وَشَقّ قَمِيصَهُ قُبُلًا وَدُبُرًا، وَحَوّلَ رَحْلَهُ[3]

أجمع مَن في القافلة أمرهم على أن يبعثوا لقريش لإبلاغها بما عرفوه، وهذا الإجماع لا بدَّ أن يكون قد حدث بين أبي سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل، وربما كانت هناك أسماء أخرى لكن لا نعرفها، واتفقوا على أن يرسلوا رجلًا لقريش يبلغهم بالخبر، وهو رجل كان معهم في القافلة لكنه لم يكن فيها منذ البداية، بل التقوا به على الساحل وهو يرعى مع نوق له، وربما كانوا استأجروه لأنه يعرف الطرق جيدًا فيما لو أرادوا تغيير مسارهم.

كان هذا الرجل غفاريًّا، وغفار تسكن بين مكة والمدينة، واستأجروه بعشرين مثقالًا على أن يذهب بهذه المهمة، لماذا لم يذهب أحد منهم؟ ربما لأنهم كانوا معروفين وسينكشف أمرهم إذا لاقاهم أحد عيون محمد عليه الصلاة والسلام، أما الغفاري فهو ينتقل في منطقته وليس معروفًا أنه له علاقة بقريش.

---

(1) بكران: نوق.

(2) مغازي الواقدي/ السابق.

(3) مغازي الواقدي: (1/31).

هذا الرجل لم يكن اسمه مجهولًا، ضمضم بن عمرو الغفاري. أمره أبو سفيان تحديدًا أن يفتعل مشهدًا دراميًّا عندما يصل إلى مكة، لكي يستنفر الجميع.

أمره أن يشق ثيابه من الأمام والخلف، ويقطع أنف بعيره، ويضع ما يحمله بعيره أسفله بدلًا من المكان المعتاد، بحيث يبدو كما لو أنه قد خرج للتو من المعركة.

ويصيح الغوث الغوث، ولن تستطيعوا أن تنقذوا قافلتكم.

دخل ضمضم مكة بينما هي متوترة أصلًا بسبب رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب. وأدى المشهد المطلوب منه بحذافيره وربما زاد قليلًا.

ودخل أيضًا كتب السيرة من هذا المشهد، لا نعرف ماذا حدث معه بعدها، لا نعرف إن كان قد أسلم عندما أسلمت غفار أو إن كان مات مشركًا قبلها، لا نعرف أي شيء عنه بعد هذا الموقف.

مشهد واحد فقط، ثم اختفى، ولكنه كان مشهدًا مهمًّا -بإخراج أبي سفيان- وكان حلقة مهمة من الحلقات المؤدية إلى نقطة التغيير الكبيرة. نقطة التغيير التي جاءت على عكس ما أراده من رتبوا للمشهد.

***

كان ضمضم قد أدى دوره بنجاح منقطع النظير.

حتى إن بعض مشركي مكة قال عنه إنه شيطان من شدة حذقه وقدرته على التأثير في أهل مكة.

فَكَانَ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ يَقُولُ: مَا رَأَيْت أَعْجَبَ مِنْ أَمْرِ ضَمْضَمٍ قَطُّ، وَمَا صَرَخَ عَلَى لِسَانِهِ إلَّا شَيْطَانٌ، إنَّهُ لَمْ يُمَلِّكْنَا مِنْ أُمُورِنَا شيئًا حَتَّى نَفَرْنَا عَلَى الصَّعْبِ وَالذَّلُولِ. وَكَانَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ يَقُولُ: مَا كَانَ الَّذِي جَاءَنَا فَاسْتَنْفَرَنَا إلَى الْعِيرِ إنْسَانٌ، إنْ هُوَ إلَّا شَيْطَانٌ! فَقِيلَ: كَيْفَ يَا أَبَا خَالِدٍ؟ فَقَالَ: إنِّي لَأَعْجَبُ مِنْهُ، مَا مَلَّكَنَا مِنْ أُمُورِنَا شيئًا! [1]

لقد سيطر عليهم بما فعله فأسرعوا يجهزون أنفسهم للقتال فورًا دون تفكير، كما لو أن شيطانًا قد تملكهم.

---

(1) مغازي الواقدي: (1/31).

وصية أبي سفيان: لم يعمل بها أحد

كان هناك شيء آخر قاله أبو سفيان لضمضم، شيء يستحق التوقف عنده لأنه يترك هامشًا كبيرًا لاستنتاج كيف كان يفكر أبو سفيان.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ لِضَمْضَمٍ: **إِذَا قَدِمْتَ عَلَى قُرَيْشٍ فَقُلْ لَهَا لَا تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ**[1].

والأزلام: سهام كانت لأهل الجاهلية مكتوب على بعضها: أمرني ربي، وعلى بعضها: نهاني ربي، فإذا أراد الرجل سفرًا أو أمرًا، ضرب تلك القداح، فإن خرج السهم الذي عليه أمرني ربي مضى لحاجته، وإن خرج الذي عليه نهاني ربي لم يمض في أمره[2].

كانت العرب، إذا قررت أمرًا، تقف أمام صنمها (المفضل حسب كل قبيلة)، وترج القدح الذي فيه السهام، ثم تخرج سهمًا فيعتبر ما قرره الصنم بخصوص الأمر.

لماذا طلب أبو سفيان ذلك من قريش؟ عدم الاستقسام بالأزلام؟

من الواضح أن الاستقسام كان يعني التردد والحسم، ولم يكن أبو سفيان يريد أن يترك مجالًا لقريش لكي تتردد في أن تستنفر لإنقاذ القافلة.

هذا أولًا.

ثانيًا، ربما أبو سفيان في قرارة نفسه، لم يكن مقتنعًا حقًّا بهذا العبث، كان مقتنعًا بأن خروج قريش لملاقاة جيش محمد هو القرار الصحيح الذي لا داعي لتركه بين يدي (مصادفة) القدح والأزلام. الكثير من سادة قريش رفضوا دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام لأسباب لا علاقة لها بإيمانهم بالأوثان، بل تمسكًا بدين الآباء، ومكانة قريش بين العرب التي توفر لها مكاسب اقتصادية.

ولو انتبهنا إلى مواقف أبي سفيان اللاحقة، سنرى براغماتيته واضحة، لم يكن من جناح الصقور بالتأكيد، كما أنه لم يكن من الحمائم دائمًا، كان لاعبًا ماهرًا بين الجناحين.

---

(1) مغازي الواقدي: (1/34).

(2) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (12/535).

في كل الأحوال، كان خروج قريش سيصب في صالح قافلة أبي سفيان، وفي صالح قيادة أبي سفيان لها.

سيكون هناك إلهاء لجيش الرسول عليه الصلاة والسلام بحيث يتمكن أبو سفيان من الإفلات بالقافلة، وسيكون أبو سفيان قد انتصر لأنه أخرج القافلة سالمة.

وإن حدثت مواجهة بين الطرفين، وفاز المشركون على الرسول، فسيتمكن أيضًا من أن يجلب النصر لطرفه، فهو من جيّش قريش واستنفر خروجها.

وإن حدث العكس، فهو خارج المواجهة، ومن قاد جيش قريش هو المسؤول عن النتيجة.

وهناك المزيد مما يمكن أن يحدث، في هذا العكس المحتمل.

في أن تهزم قريش، بينما أبو سفيان يخرج بقافلته بأمان.

لا يعرف ماذا دار في ذهن أبي سفيان إلا الله وحده.

وما كان ما دار في ذهنه، مهما كان، إلا جزءًا من استدراج إلهي إلى نقطة التغيير القادمة لا محالة.

قريش تدق طبول الحرب

قَالُوا: وَتَجَهّزَ النّاسُ، وَشُغِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَكَانَ النّاسُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ، إمّا خَارِجٍ، وَإِمّا بَاعِثٍ مَكَانَهُ رجلًا. فَأَشْفَقَتْ قُرَيْشٌ لِرُؤْيَا عَاتِكَةَ، وَسُرّتْ بَنُو هَاشِمٍ. وَقَالَ قَائِلُهُمْ: كَلَا، زَعَمْتُمْ أَنّا كَذَبْنَا وَكَذَبَتْ عَاتِكَةُ![1]

كان من الطبيعي أن يشمت بنو هاشم بما يحدث، فبعد أن أسمعهم أبو جهل قبيح الكلام عن كذبهم تبين صدق رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب، وخاف بعض أهل مكة من الرؤيا وتشاءموا منها، ولكن سادة قريش لم يظهروا هذا الخوف -علنًا على الأقل- بل بدأوا للتجهز فورًا للخروج للقتال، واستمر تجهزهم يومين أو ثلاثة، وكانوا بين أن يخرج أحدهم أو يجهز آخر للقتال، ووقف سهيل بن عمرو(وهو الذي سيعرف لاحقًا باعتباره المفاوض الممثل لقريش في صلح الحديبية) يخطب في أهل مكة ويحمسهم للخروج للقتال وكذلك فعل زمعة بن الأسود (وهو واحد ممن اجتمعوا لنقض صحيفة

(1) مغازي الواقدي: (31 / 1).

المقاطعة)، وطعيمة بن عدي، وتبرع الأخير بتجهيز كل من لا يتمكن من تجهيز نفسه للقتال حتى أخرج عشرين بعيرًا، وكذلك فعل كل من خطب في قريش، إلا ولدي أبي سفيان حنظلة وعمرو اللذين خطبا في الناس ولم يجهزا أحدًا، ولما قيل لهما عن ذلك، قالا وَاَللهِ مَا لَنَا مَالٌ وَمَا الْمَالُ إلّا لِأَبِي سُفْيَانَ. وسنضع ما قالاه هنا في ملف ونرجع له لاحقًا لأنه سيساعدنا في فهم شخصية أبي سفيان أكثر[1].

قلوبهم شتى وأزلامهم متفقة

لكن خلف هذا الحماس في التجهز للخروج لقتال الرسول عليه الصلاة والسلام، كان هناك مواقف مترددة بحذر من بعض سادات قريش.

أبو لهب عم النبي رفض أن يخرج ورفض أيضًا أن يبعث أحدًا مكانه، فذهب إليه أبو جهل وهو يحثه على الخروج، ولكن أبو لهب أقسم باللات والعزى أنه لن يفعل ولن يبعث أحدًا مكانه، وقد قيل إن رؤيا أخته عاتكة كان لها هذا الأثر عليه، ثم قرر أن يتنازل عن دين له على العاص بن هشام بن المغيرة مقابل خروجه مكانه. وقتل العاص في بدر التي خرج لها مقابل تنازل أبي لهب عن دينه.

ورغم أن أبا سفيان كان قد أوصى بأن لا يستقسم أحد بالأزلام، فإن بعض سادة قريش استشاروا صنمهم هبل في الخروج.

قَالُوا: وَاسْتَقْسَمَتْ قُرَيْشٌ بِالْأَزْلَامِ عِنْدَ هُبَلَ لِلْخُرُوجِ، فَاسْتَقْسَمَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وَعُتْبَةُ، وَشَيْبَةُ عِنْدَ هُبَلَ بِالْآمِرِ وَالنَّاهِي، فَخَرَجَ الْقَدَحُ النَّاهِي لِلْخُرُوجِ، فَأَجْمَعُوا الْمُقَامَ حَتَّى أَزْعَجَهُمْ أَبُو جهل فقال: ما استقسمت وَلَا نَتَخَلَّفُ عَنْ عِيرِنَا!

وَلَمَّا تَوَجَّهَ زَمَعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ خَارِجًا، وَكَانَ بِذِي طُوًى[2]، أَخْرَجَ قِدَاحَهُ فَاسْتَقْسَمَ بِهَا، فَخَرَجَ النَّاهِي لِلْخُرُوجِ، فَلَقِيَ غَيْظًا، ثُمَّ أَعَادَهَا الثَّانِيَةَ فَخَرَجَ مِثْلُ ذَلِكَ، فَكَسَرَهَا، وَقَالَ: مَا رَأَيْت كَالْيَوْمِ قِدَاحًا أَكْذَبَ مِنْ هَذِهِ!

.... سَمِعْت حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ يَقُولُ: مَا وَجّهْت وَجْهًا قَطّ كَانَ أَكْرَهَ لِي مِنْ مَسِيرِي إلَى بَدْرٍ، وَلَا بَانَ لِي فِي وَجْهٍ قَطُّ. مَا بَانَ لِي قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ...فَاسْتَقْسَمْت بِالْأَزْلَامِ، كُلّ ذَلِكَ يَخْرُجُ الّذِي أَكْرَهُ...

---

(1) مغازي الواقدي: (1/32).

(2) ذي طوى: واد في مكة.

خمسة من سادات مكة، أمية بن خلف، عتبة وشيبة بن ربيعة وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام، يستقسمون بالأزلام لكي يحسموا أمر خروجهم.

عتبة وشيبة تقول لهما الأزلام ألا يخرجا لكن أبا جهل يقف لهما بالمرصاد يقول لهما أن يعتبرا أن ذلك لم يحدث، لم تستقسما ولن نتخلف عن القافلة.

زمعة بن الأسود يكون قد خرج فعلًا، لكنه يقرر أن يستقسم بعد خروجه، وهذا يعني أنه كان في قرارة نفسه مترددًا، تأتي النتيجة أن يرجع، فيغضب، ويكرر الاستقسام، وتأتي نفس النتيجة، فيكسر السهام ويقول إن الأقداح كاذبة.

حكيم بن حزام يقول إنه لم يكره خروجًا في حياته مثل خروجه إلى بدر، ولا شعر أنه يذهب إلى أمر سوء كما حدث مع خروجه إلى بدر، وكان استقسامه بالأزلام يؤكد له ذلك، لكن ضغط من حوله كان يسيره باتجاه بدر، وحكيم هو ابن أخي السيدة خديجة وكان ينقل الطعام لبني هاشم في أثناء حصار الشعب.

هل كانت هذه الأخبار حقيقية؟ أم إن قريشًا تداولتها بعد بدر كمحاولة لإضفاء طابع ما على نتائج ما حدث؟ أي أن الأصنام حذرت قريشًا، ولكنها لم تكترث فسارت إلى مصارع ساداتها؟

لو كانت حقيقية، وأعتقد أن جزءًا منها على الأقل كان حقيقيًّا، فالأمر أيضًا يؤكد هشاشة معتقدات قريش وضعف إيمانها بأصنامها مقابل حرصها على تجارتها.

أبو جهل يسرع إلى قدره بحماس

أريد أن أنبه هنا أيضًا إلى أن أبا جهل، الذي كان دومًا رأس حربة جناح الصقور في الملأ القريشي، والذي كان العدو الأكبر للرسول عليه الصلاة والسلام والأكثر تحريضًا ضده[1]، كان قد اعتبر ما يحدث فرصة سانحة لكي يقضي على عدوه عليه الصلاة والسلام.

للتذكير: أبو جهل كان يمتلك شخصية قوية ومؤثرة جعلت الرسول عليه الصلاة والسلام يتمنى إسلامه (اللهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ

(1) مررت سابقا في تحليل شخصيته في في كتاب السيرة مستمرة الصادر عن دار عصير الكتب.

بْنِ الْخَطَّابِ)[1]، الصفات الشخصية الأساسية هي وسائل محايدة يمكن استخدامها وتوظيفها في الخير أو الشر حسب توجه الشخص.

لكن أبا جهل، كان يريد من صفاته الشخصية أن تجعله ليكون سيدًا على مكة، كان يتطلع إلى أن يكون لا مجرد سيد من سادات بني مخزوم، بل كان يتطلع إلى مكانة تشبه مكانة عبد المطلب، الذي كان سيد مكة في فترة من الفترات أو مكانة أبيه هشام بن المغيرة الذي كان قائد قريش في حرب الفجار ولقب بـ (فارس البطحاء). وكل شيء كان يسير حسب خطته، فكان أصغر من دخل إلى دار الندوة، التي كانت حصرًا على مَن هو فوق الأربعين من العمر[2].

ثم فجأة، ودون أي مقدمات، يظهر رجل من بني هاشم يقول إن الوحي ينزل عليه من السماء.

الأنا التي تمركزت عليها شخصية أبي جهل، والتي كانت تطمح للوصول إلى أعلى المراتب، ما كان يمكن لها أن تتقبل ذلك، لم يكن الأمر بالنسبة إليه صدق النبي أو كذبه (حاشاه عليه الصلاة والسلام)، بل كان أن ذلك يهدد خططه لزعامته قريش، وكان الإيمان بالرسالة والوحي ليس فقط نسفًا لطموحاته، بل كان يعني أن تعترف تلك الأنا المتضخمة في داخله أن هناك من هو أفضل منه. وهذه الحالة من (النرجسية المتضخمة grandiose narcissism[3]) يمكن أن تجعل المصابين بها يرفضون مجرد الاعتراف أن هناك إنسانًا أفضل منهم حتى لو عاش قبل ألف سنة، ويمكن ملاحظتها بسهولة في بعض الملاحدة الجدد الذين تستفز مكانة النبي عليه الصلاة والسلام نرجسيتهم المتضخمة فتجعلهم يبحثون له عن عيوب مفترضة، أو عما يعتبرونه عيوب من وجهة نظرهم، لكي تسكن قليلًا أناهم المتورمة.

(1) مسند أحمد: 5696.

(2) أخبار مكة للأزرقي: (1/109).

(3) النرجسية المتضخمة: من أشهر أنواع الشخصية النرجسية، حيث تشبه نرجسية العظمة المفهوم الأوسع للنرجسية. في علم النفس، تُشير العظمة إلى الشعور بالتفوّق غير الواقعي، وبالتالي فإنّ نرجسية العظمة (وتسمى أحيانًا النرجسية الصريحة overt narcissism) تنطوي على المبالغة في تقدير المرء لقدراته، وتأكيد هيمنته على الآخرين، إضافة إلى شعور متضخم باحترام الذات.

كان أبو جهل هو صاحب خطة قتل النبي عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة، والتي وافق عليها ملأ قريش في دار الندوة، لكن الخطة فشلت، والآن جاءت فرصة ثانية لأبي جهل، كانت فرصته التي يحلم بها، لذلك كان يحرض الجميع على الخروج لهزيمة المسلمين وكسرهم، فذلك كان سيرجع خطته إلى نصابها.

وسنرى كيف أنه كان ضد أي محاولة للرجوع وعدم القتال.

وكل ذلك سيقود إلى ما نعرفه جيدًا. كما لو كان كل شيء يفعله أبو جهل كان يقربه أكثر فأكثر وبالتدريج من مصرعه.

قوة الكلمات

بعض سادة مكة كان خوفهم من بدر لا يتعلق بالأزلام ولا برؤيا عاتكة.

بل بما قاله عليه الصلاة والسلام- قبل كل ذلك- عن مصارعهم.

وَخَرَجَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُعْتَمِرًا قَبْلَ بَدْرٍ فَنَزَلَ عَلَى أُمَيّةَ بْنِ خَلَفٍ، فَأَتَاهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَتَنْزِلُ هَذَا، وَقَدْ آوَى مُحَمّدًا وَآذَنّا بِالْحَرْبِ؟

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: قُلْ مَا شِئْت، أَمَا إنّ طَرِيقَ عِيرِكُمْ عَلَيْنَا.

قَالَ أُمَيّةُ بْنُ خَلَفٍ: مَهْ، لَا تَقُلْ هَذَا لِأَبِي الْحَكَمِ، فَإِنّهُ سَيّدُ أَهْلِ الْوَادِي!

قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: وَأَنْتَ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أُمَيّةُ، أَمَا وَاَللهِ لَسَمِعْت مُحَمّدًا يَقُولُ «لَأَقْتُلَن أُمَيّةَ بْنَ خَلَف».

قَالَ أُمَيّةُ: أنت سَمِعْته؟

قال، قلت: نعم.

قَالَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ، فَلَمّا جَاءَ النّفِيرُ أَبَى أُمَيّةُ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمْ إلَى بَدْرٍ، فَأَتَاهُ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ. وَأَبُو جَهْلٍ، وَمَعَ عُقْبَةَ مِجْمَرَةٌ فِيهَا بَخُورٌ، وَمَعَ أَبِي جَهْلٍ مُكْحُلَةٌ وَمِرْوَدٌ، فَأَدْخَلَهَا عُقْبَةُ تَحْتَهُ وَقَالَ: تَبَخّرْ، فَإِنّمَا أنت امْرَأَةٌ! وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: اكْتَحِلْ، فَإِنّمَا أنت امْرَأَةٌ! قَالَ أُمَيّةُ: ابْتَاعُوا لِي أَفْضَلَ بَعِيرٍ فِي الْوَادِي. فَابْتَاعُوا لَهُ جَمَلًا بِثَلَاثِمِائَةِ دِرْهَمٍ مِنْ نَعَمِ بَنِي قُشَيْرٍ، فَغَنِمَهُ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ بَدْرٍ[1].

(1) مغازي الواقدي: (1-35-36).

سعد بن معاذ، سيد الأوس، يذهب إلى مكة معتمرًا، بعد هجرة النبي عليه الصلاة والسلام وقبل بدر، فينزل عند أمية بن خلف، فيأتي أبو جهل لأمية: أتنزله عندك وقد آوى محمدًا؟

فيرد عليه سعد بتهديد واضح. تحدث كما تشاء، في النهاية قوافلكم تمر من عندنا.

يستفظع أمية رد سعد. يقول له: هذا سيد مكة، لا أحد يتحدث معه هكذا.

فيلتفت سعد ويقول لأمية: اسكت أنت، سيقتلك محمد. هو قال إنه سيفعل.

يقولها سعد بلهجة حاسمة حسم المؤمن بما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام، لأقتلنَّ أمية بن خلف.

يخاف أمية من الحسم في جملة سعد، ويسأله: أنت سمعته يقول ذلك؟

فيأتي الرد حاسمًا مرة أخرى. نعم سمعته. سيقتلك.

بقي ذلك في روع أمية، وعندما جاء خبر قافلة قريش وتعرض المسلمين لها قرر ألا يخرج، لكن أبا جهل، ومعه عقبة بن أبي معيط، جاءا له بأدوات زينة النساء وقالا له إنما أنت امرأة، فتكحل وتبخر وتزين كما تفعل النساء.

فاستفزه ذلك، وطلب منهم شراء أغلى بعير في الوادي لكي يركبه مع الجيش، يريد أن يركب أفخر البعران لكي تراه قريش مزهوًّا وهو يخرج معها.

وصار هذا البعير الفاخر ضمن غنائم المسلمين.

أبو جهل ينتصر على قريش

قَالُوا: وَكَرِهَتْ قُرَيْشٌ -أَهْلُ الرَّأْيِ مِنْهُمْ- الْمَسِيرَ، وَمَشَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَكَانَ مِنْ أَبْطَئِهِمْ عَنْ ذَلِكَ الْحَارِثُ بْنُ عَامِرٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ، وَحَكِيمُ بْنُ حزام، وأبو البختريّ، وعليّ بن أميّة ابن خَلَفٍ، وَالْعَاصُ بْنُ مُنَبِّهٍ، حَتَّى بَكَّتَهُمْ[1] أَبُو جَهْلٍ بِالْجُبْنِ- وَأَعَانَهُ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كَلَدَةَ- فِي الْخُرُوجِ، فَقَالُوا:هَذَا فِعْلُ النِّسَاءِ!

فَأَجْمَعُوا الْمَسِيرَ.[2]

(1) بكتهم: لامهم ووبخهم.

(2) مغازي الواقدي: (1/37).

لم تكن جبهة قريش موحدة كما قد تبدو للوهلة الأولى، لكن أبا جهل كان لهم بالمرصاد، قام وحده (وأحيانًا مع عقبة بن أبي معيط الذي كان يريد إرضاء أبي جهل بأي شكل[1]) بالدور الذي تقوم به حاليًا جماعات الضغط والمؤسسات الإعلامية، وتمكن فعلًا من تجييش قريش لتحقيق أجندته الشخصية: قتل الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن هذه المرة ليس باغتيال تجتمع فيه بطون قريش كما في الخطة السابقة.

بل بحرب.

***

وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ سِرَاعًا. وَخَرَجُوا بِالْقِيَانِ وَالدِّفَافِ: سَارَّةِ مَوْلَاةِ عَمْرِو بْنِ هَاشِمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ، وَعَزَّةَ مَوْلَاةِ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَّلِبِ، وَمَوْلَاةِ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، يُغَنِّينَ فِي كُلِّ مَنْهَلٍ، وَيَنْحَرُونَ الْجُزُرَ. وَخَرَجُوا بِالْجَيْشِ يَتَقَاذَفُونَ بِالْحِرَابِ، وَخَرَجُوا بِتِسْعِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مُقَاتِلًا، وَقَادُوا مِائَةَ فَرَسٍ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَرًا وَرِئاءَ النَّاسِ ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَأَبُو جَهْلٍ يَقُولُ: أَيَظُنُّ مُحَمَّدٌ أَنْ يُصِيبَ مِنَّا مَا أَصَابَ بِنَخْلَةَ وَأَصْحَابُهُ؟ سَيَعْلَمُ أَنَمْنَعُ عِيرَنَا أَمْ لَا! وَكَانَتْ الْخَيْلُ لِأَهْلِ الْقُوَّةِ مِنْهُمْ، وَكَانَ فِي بَنِي مَخْزُومٍ مِنْهَا ثَلَاثُونَ فَرَسًا، وَكَانَتْ الْإِبِلُ سَبْعَمِائَةِ بَعِيرٍ، وَكَانَ أَهْلُ الْخَيْلِ كُلِّهُمْ دَارِعٌ.

وَكَانُوا مِائَةً، وَكَانَ فِي الرِّجَالَةِ دُرُوعٌ سِوَى ذَلِكَ[2].

أرادها أبو جهل أن تكون احتفالية مسبقة بالنصر الذي تصور أنه سيتحقق لا محالة. مغنيات ودفوف ولعب بالحراب وولائم طعام، وخلال ذلك كان يذكر قريشًا بما حدث قبل شهر، في سرية نخلة، عندما قتل عمرو بن الحضرمي وأخذت القافلة الصغيرة بالقرب من الطائف، في مخالفة صريحة لأوامره عليه الصلاة والسلام. كان أبو جهل يقوم بدور مؤسسة التوجيه المعنوي للجيش حفاظًا على الروح المعنوية وتماسك الجبهة الداخلية التي لم تكن كلها راغبة بالخروج.

(1) سبق تقديم صورة نفسية لشخصية عقبة بن أبي معيط فيفي كتاب (السيرة مستمرة) للكاتب، الصادر عن دار عصير الكتب.

(2) مغازي الواقدي:(1/39).

بحسابات الأرقام: كان الاحتفال المسبق بالنصر أمرًا منطقيًّا، مئة فارس مع دروعهم، وسبعمائة بعير، ومع الراجلين دروع كذلك، النصر محسوم...

دماء قبل القتال

... وعلى بعد مسير يوم من مكة، وقف الجيش ونحر أبو جهل إبلًا له لكي يطعم كل من خرج، مَن يجيش الجيش عليه أن يطعم.

وهناك حدث مشهد دموي مليء بالرموز والدلالات...

يكمل حكيم بن حزام: ثُمّ خَرَجْت عَلَى ذَلِكَ حَتّى نَزَلْنَا مَرّ الظَّهْرَانِ[1] فَنَحَرَ ابْنُ الْحَنْظَلِيّةِ (أبو جهل) جُزُرًا، فَكَانَتْ جَزُورٌ مِنْهَا بِهَا حَيَاةٌ، فَمَا بَقِيَ خِبَاءٌ مِنْ أَخْبِيَةِ الْعَسْكَرِ إلّا أَصَابَهُ مِنْ دَمِهَا،

فَكَانَ هَذَا بَيّنًا. ثُمّ هَمَمْت بِالرّجُوعِ، ثُمّ أَذْكُرُ ابْنَ الْحَنْظَلِيّةِ وَشُؤْمَهُ، فَيَرُدّنِي حَتّى مَضَيْت لِوَجْهِي[2].

واحدة من النوق لم تذبح جيدًا، بقي فيها إرادة حياة، فركضت تصارع الموت وهي نصف مذبوحة، وتدفق دمها في كل مكان، مصيبا كل خيام الجيش.

تلطخت خيام قريش بالدم حتى قبل أن تبدأ المعركة.

كان هذا بينًا، يقول حكيم، يعني أنها كانت إشارة واضحة لما سيحدث.

حزم أمره أن يرجع إلى مكة ويترك جيش قريش، لكنه تذكر ما سيفعله أبو جهل لو علم.

فبقي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

البعير ترك أثره

كانت قافلة قريش قد اقتربت من محاذاة المدينة في طريقها إلى مكة، وكان أبو سفيان يشعر بالقلق من تأخر نفير قريش، ويحاول أن يعرف إن كان هناك مَن يرصده من عيونه عليه الصلاة والسلام.

وكان أبو سفيان من قلقه يسبق قافلته ليستطلع الطريق...

---

(1) مر الظهران: على مسيرة يوم من مكة

(2) مغازي الواقدي:(1/34).

ووصل بدرًا..

وهناك سأل مجدي إن كان قد رأى أحدًا من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام.

قَالُوا: وَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ بِالْعِيرِ، وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا حِينَ دَنَوْا مِنْ الْمَدِينَةِ وَاسْتَبْطَأُوا ضَمْضَمًا وَالنَّفِيرَ.... فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو سُفْيَانَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ بِبَدْرٍ، قَدْ تَقَدَّمَ الْعِيرَ وَهُوَ خَائِفٌ مِنْ الرَّصَدِ، فَقَالَ: يَا مَجْدِي، هَلْ أَحْسَسْت أَحَدًا؟ تَعْلَمُ وَاَللهِ مَا بِمَكَّةَ مِنْ قُرَشِيّ وَلَا قُرَشِيّةٍ لَهُ نَشّ فَصَاعِدًا- وَالنَّشّ نِصْفُ أُوقِيّةٍ، وَزْنُ عِشْرِينَ دِرْهَمًا- إلّا وَقَدْ بَعَثَ بِهِ مَعَنَا، وَلَئِنْ كَتَمْتنَا شَأْنَ عَدُوِّنَا لَا يُصَالِحُك رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مَا بَلّ بَحْرٌ صُوفَةً. فَقَالَ مَجْدِي: وَاَللهِ، مَا رَأَيْت أَحَدًا أُنْكِرهُ، وَلَا بَيْنَك وَبَيْنَ يَثْرِبَ مِنْ عَدُوّ، وَلَوْ كَانَ بَيْنَك وَبَيْنَهَا عَدُوّ لَمْ يَخْفَ عَلَيْنَا، وَمَا كُنْت لَأُخْفِيهِ عَلَيْك، إلّا أَنّي قَدْ رَأَيْت رَاكِبَيْنِ أَتَيَا إلَى هَذَا الْمَكَانِ- فَأَشَارَ إلَى مُنَاخِ[1] قريب- فَأَنَاخَا بِهِ، ثُمَّ اسْتَقَيَا بِأَسْقِيَتِهِمَا، ثُمّ انْصَرَفَا. فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ مُنَاخَهُمَا، فَأَخَذَ أَبْعَارًا مِنْ بَعِيرَيْهِمَا فَفَتّهُ، فَإِذَا فِيهِ نَوَى، فَقَالَ: هَذِهِ وَاَللهِ عَلَائِفُ يَثْرِبَ، هَذِهِ عُيُونُ مُحَمّدٍ وَأَصْحَابِهِ، مَا أَرَى الْقَوْمَ إلّا قَرِيبًا! فَضَرَبَ وَجْهَ عِيرِهِ، فَسَاحَلَ بِهَا، وَتَرَكَ بَدْرًا يَسَارًا، وَانْطَلَقَ سريعًا.[2]

الحوار بين أبي سفيان ومجدي بن عمرو يشي بشك أبي سفيان بأي شيء سيقوله مجدي، لذا فهو يقول له مقدمًا، هذه القافلة استثمرت فيها كل قريش، ولو كتمتنا شيئًا من أخبار (عدوه)، ما صالحتك قريش ما دام البحر يبل الصوف، أي ما صالحتك أبدًا.

ومجدي بن عمرو هو نفسه الذي وقف بين الطرفين في سرية البحر وتمكن من أن يفض الأمر دون مواجهة بعد أن كان قد اصطفا للقتال، ووصف وقتها بأنه حليف للطرفين، وعرف بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أكرمه.

فأبو سفيان يعرف علاقته بالمسلمين.

لكن مجدي لم يكن يكذب، وقال لأبي سفيان لم يمر أحد هنا غير رجلين وقفا براحلتيهما واستقيا ثم ذهبا.

أبو سفيان ذهب ليتفحص موضع نزولهما، ووجد في فضلات البعيرين ما جعله يأخذ قرارًا سريعًا بتغيير وجه القافلة (التي لم تكن قد وصلت بعد لأن أبا سفيان سبقها).

---

(1) المناخ: مكان إنزال الرحل والدواب، الاستراحة المؤقتة.

(2) مغازي الواقدي: (40-41/1).

وجد في الفضلات نوى لتمر المدينة، فعرف أن الرجلين كانا عيونا للرسول عليه الصلاة والسلام.

فَحْص أبي سفيان لفضلات البعيرين واستنتاجه أن الأمر مرتبط بتحركات الرسول عليه الصلاة والسلام يدل على ذكاء وفطنة وحذر، وهو أمر يضاف إلى ذات الملف الذي وضعناه جانبًا عن شخصية أبي سفيان.

ترك أبو سفيان بدرًا واتجه إلى القافلة مغيرًا اتجاهها بسرعة نحو الساحل.

***

ولقد كان أبو سفيان صائبًا في استنتاجه.

والرجلان اللذان أشار لموضع نزولهما مجدي هما بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء[1].

وبسبس بن عمرو هو نفسه بسيسة بن عمرو الذي ذكره أنس أنه قال إنه دخل على الرسول في بيته ولم يكن فيه أحد آخر. حين أخبر عليه الصلاة والسلام بموضع القافلة.

إحدى الطائفتين تفلت، وذات الشوكة مصممة على الهلاك

فَلَمّا أَفْلَتَ أَبُو سُفْيَانَ بِالْعِيرِ وَرَأَى أَنْ قَدْ أحرزها، أَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ... يَأْمُرُهُمْ بِالرّجُوعِ، وَيَقُولُ: قَدْ نَجَتْ عِيرُكُمْ، فَلَا تُجْزِرُوا[2] أَنْفُسَكُمْ أَهْلَ يَثْرِبَ، فَلاَ حَاجَةَ لَكُمْ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ، إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لِتَمْنَعُوا عِيرَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، وَقَدْ نَجّاهَا اللهُ. فَإِنْ أَبَوْا عَلَيْك، فَلَا يَأْبَوْنَ خَصْلَةً وَاحِدَةً، يَرُدُّونَ الْقِيَانَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ إِذَا أَكَلَتْ نَكَلَتْ[3]. فَعَالَجَ قُرَيْشًا وَأَبَتْ الرّجُوعَ، وَقَالُوا: أَمَّا الْقِيَانُ فَسَنَرُدُّهُنَّ! فَرَدّوهُنَّ مِنْ الْجُحْفَةِ. ولحق الرسول أبا سفيان بِالْهَدَّةِ- وَالْهَدَّةُ عَلَى سَبْعَةِ أَمْيَالٍ مِنْ عَقَبَةِ عُسْفَانَ عَلَى تِسْعَةٍ وَثَلَاثِينَ مِيلًا مِنْ مَكّةَ- فأخبره بمضي قريش، فقال: وا قوماه! هَذَا عَمَلُ عَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، كَرِهَ أَنْ يَرْجِعَ لِأَنَّهُ قَدْ تَرَأَّسَ عَلَى النَّاسِ، وَبَغَى، وَالْبَغْيُ مَنْقَصَةٌ وَشُؤْمٌ، إِنْ أَصَابَ أَصْحَابُ مُحَمّدٍ النَّفِيرَ ذَلَلْنَا إِلَى أَنْ يَدْخُلَ مَكّةَ.

(1) مغازي الواقدي: (1/ 40).

(2) تجزروا أنفسكم أهل يثرب: تقدموا أنفسكم ذبائح لأهل يثرب.

(3) الحرب إذا أكلت نكلت: إذا اشتعلت الحرب فأنها حتمًا ستنطفئ لاحقًا.

وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ. لا والله، لا نرجع حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا- وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْجَاهِلِيّةِ يَجْتَمِعُ بِهَا الْعَرَبُ، لَهَا بِهَا سُوقٌ- تَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا، فَنُقِيمُ ثَلَاثًا عَلَى بَدْرٍ نَنْحَرُ الْجُزُرَ، وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَنَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَتَعْزِفُ الْقِيَانُ عَلَيْنَا، فَلَنْ تَزَالَ الْعَرَبُ تَهَابُنَا أبدًا[1].

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ قَيْسَ بْنَ امْرِئِ الْقَيْسِ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ الْعِيرَ وَيَأْمُرُهُمْ بِالرُّجُوعِ، فَأَبَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَرْجِعَ وَرَدُّوا الْقِيَانَ مِنَ الْجُحْفَةِ[2]

أبو سفيان لا يريد الحرب.

يرسل لقريش، القافلة نجت ولن يلحق محمد بها، أسباب خروجكم لم تعد قائمة، ارجعوا.

ولأنه يعرف أن في الجيش أبا جهل، فهو يتوقع أن تمضي قريش في طريقها غير آبهة بنجاة القافلة، فيطلب منهم -على الأقل- إعادة القيان (الجواري المغنيات) إلى مكة.

يرفض أبو جهل رجوع الجيش ولكنه يقبل إرجاع القيان فيرجعهن من الجحفة[3].

طلب أبي سفيان بإرجاع القيان على الأقل قد يبدو غريبًا، علمًا أنه لم يكن هناك من بينهن من تعود له.

القيان في الحروب كن يستخدمن لإشعال حماسة المقاتلين بالغناء والدق على الدفوف، وربما اعتقد أبو سفيان أن إرجاعهن سيخفف من الحماسة للقتال فتكون مجرد مناوشات بسيطة لا قتالًا حقيقيًّا، أي أنه ربما كان يريد أن يخفف من حماسة قريش للقتال، لا تفسير آخر منطقي لدي.

هل يتعارض خبر رد القيان (الذي ذكره الواقدي في المغازي وابن سعد في الطبقات) مع قول أبي جهل عندما رفض الرجوع: **لا نرجع حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا تَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا، فَنُقِيمُ ثَلَاثًا عَلَى بَدْرٍ نَنْحَرُ الْجُزُرَ، وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَنَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَتَعْزِفُ الْقِيَانُ عَلَيْنَا، فَلَنْ تَزَالَ الْعَرَبُ تَهَابُنَا أبدًا؟**

---

(1) مغازي الواقدي:(1/43-44) .

(2) الطبقات الكبرى: (2/13).

(3) الجحفة: قرية تبعد 180 كيلومترًا شمال غرب مكة، وهي ميقات أهل الشام ومصر وبلاد المغرب.

ليس بالضرورة، لأنه يمكن استئجار القيان من قبائل قريبة على بدر، ليس بالضرورة أن تكون القيان من مكة، ولعل أبا جهل أراد أن ينفذ (ظاهريًّا) جزء القيان مما طلبه ما أبو سفيان لمسايرته، بينما يجلب قيان أخريات.

في الحقيقة كل ما قاله أبو جهل عن الأمر كان خدعة: لم يكن رفضه الرجوع إلى مكة لغرض إقامة مهرجان فرض الهيبة على العرب كما يوحي كلامه (المعلن) هنا، بل كان يريد القتال، وبعدها يقيم مهرجان النصر، النصر الذي سيفرض الهيبة على العرب، لا نحر الجزور وشرب الخمر وغناء القيان.

هذا ما سيتأكد من مواقفه اللاحقة.

أبو سفيان كان متشائمًا، وكان يلقي بالمسؤولية على أبي جهل في كل ما سيحدث، ولا يمكن التأكد إن كان هذا الكلام المنقول عنه دقيقًا تمامًا (واقوماه! هَذَا عَمَلُ عَمْرِو بْنِ هِشَامٍ، كَرِهَ أَنْ يَرْجِعَ لِأَنَّهُ قَدْ تَرَأَّسَ عَلَى النَّاسِ، وَبَغَى، وَالْبَغْيُ مَنْقَصَةٌ وَشُؤْمٌ. إِنْ أَصَابَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ النَّفِيرَ دَلَلْنَا إِلَى أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ) لكن من الواضح أن جناح الحمائم في ملأ قريش كان متشائمًا ولم يكن يرغب بالذهاب إلى القتال، وهذا سيتوضح أكثر لاحقًا.

على العموم لم يلتزم كل من في نفير قريش بقرار أبي جهل، انسحبت بنو زهرة (وهم عشيرة والدة الرسول عليه الصلاة والسلام السيدة آمنة بنت وهب) بتمثيلية اتفقوا عليها مع حليفهم الأخنس بن شريق، حيث يسقط من بعيره ويتظاهر بأنه بين الموت والحياة، فتذهب معه بنو زهرة للاطمئنان عليه[1].

كذلك فعلت بنو عدي وصادفوا أبا سفيان في طريق عودتهم فقال لهم قولته التي أصبحت مثلًا: **كَيْفَ رَجَعْتُمْ لَا فِي الْعِيرِ وَلَا فِي النَّفِيرِ؟** قَالُوا: أنت أَرْسَلْت إلَى قُرَيْشٍ أَنْ تَرْجِعَ، فَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ وَمَضَى مَنْ مَضَى![2]

وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ

بينما وصل الخبر للرسول عليه الصلاة والسلام أن قافلة قريش ستنزل في بدر، كان أبو سفيان يستغل الوقت للابتعاد عن بدر باتجاه الساحل، وكان الوقت الذي يستغرقه

(1) مغازي الواقدي: (1/44-45).

(2) مغازي الواقدي:(1/45).

وصول الخبر للرسول عليه الصلاة والسلام يمنح أبا سفيان فرصة للإفلات وهذا ما حدث.

الأحداث هنا تتسارع:

أبو سفيان يرسل إلى قريش أن ترجع، وقريش ترفض وتكمل مسيرها إلى بدر.

لا بد أن وصول الخبر أيضًا أخذ وقتًا.

ولكن حتى هذه المرحلة، لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام يعرف أن قريشًا قد أخرجت جيشها.

التحرك من عرق الظبية إلى بدر كان من أجل قافلة قريش حصرًا.

ولا بدَّ أنه أخذ قرابة اليوم أو اليومين قبل أن يصل بدرًا.

وهنا، تحديدًا قبيل الوصول إلى بدر، عرف عليه الصلاة والسلام أن قريشًا قد استنفرت جيشها.

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَدَبَ أَصْحَابَهُ فَانْطَلَقُوا إِلَى بَدْرٍ، فَإِذَا هُمْ بِرَوَايَا[1] قُرَيْشٍ فِيهَا عَبْدٌ أَسْوَدُ لِبَنِي الْحَجَّاجِ، فَأَخَذُهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُ أَيْنَ أَبُو سُفْيَانَ؟ فَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَالِي بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ عِلْمٌ، وَلَكِنْ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ جَاءَتْ فِيهِمْ أَبُو جَهْلٍ، وَعُتْبَةُ، وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، فَإِذَا قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ ضَرَبُوهُ. فَيَقُولُ: دَعُونِي، دَعُونِي أُخْبِرْكُمْ، فَإِذَا تَرَكُوهُ قَالَ: وَاللَّهِ مَالِي بِأَبِي سُفْيَانَ مِنْ عِلْمٍ، وَلَكِنْ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ فِيهِمْ أَبُو جَهْلٍ، وَعُتْبَةُ، وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ قَدْ أَقْبَلُوا.

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي وَهُوَ يَسْمَعُ ذَلِكَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَتَضْرِبُونَهُ إِذَا صَدَقَكُمْ، وَتَدَعُونَهُ إِذَا كَذَبَكُمْ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ لِتَمْنَعَ أَبَا سُفْيَانَ».[2]

على مقربة من بدر، وجد الصحابة روايا لقريش، وهم من يقودون الإبل التي تحمل الماء في القوافل، ويسيرون عادة قبل القافلة.

(1) الروايا: مقدِّمة القافلة أو الإبل المحمَّلة بالماء أو الحراس المرافقون لها.

(2) سنن أبي داود: 2681.

الصحابة ظنوا أنهم عثروا على مقدمة قافلة أبي سفيان. الهدف الأساسي من خروجهم.

أمسكوا بالعبد الذي كان من الروايا، وجلبوه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان يصلي صلوات الله وسلامه عليه.

وكانوا يسألون العبد عن أبي سفيان، فيقول لهم: لا أعلم شيئًا عن أبي سفيان، لكن هناك عمرو بن هشام (أبو جهل) وأمية بن خلف وعتبة وشيبة بن ربيعة.

لكن ماذا يفعل هؤلاء في قافلة أبي سفيان؟ الكل يعرف أن هؤلاء في مكة.

لم يكونوا يعرفون بعد أن قريش قد خرجت في نفيرها.

لا بدَّ أنه يكذب، يقول أي شيء.

فضربوه لكي يخبرهم عن اتجاه قافلة أبي سفيان، لا يمكن أن تكون بعيدة ما دام رواياها قريبين.

فقال دعوني وسأخبركم.

فيسألونه: أين أبو سفيان؟

فيرد مجددًا: لا أعلم شيئًا عن أبي سفيان، لكن هناك أبا جهل، وأمية وعتبة وشيبة..

فعادوا لضربه.

وكان عليه الصلاة والسلام لا يزال يصلي ويسمع ما يدور.

فلما انتهى من صلاته، كان قد أدرك ما لم يدركه الصحابة، فهم عليه الصلاة والسلام لماذا يقول العبد هذه الأسماء.

قال لهم لائمًا: تضربونه عندما يصدقكم، وتدعونه عندما يكذبكم.

هذه قريش جاءت لتدافع عن قافلتها.

***

وكان هذا الخبر يمثل تغييرًا للمشهد كله.

لقد خرجوا للقافلة وغنائمها، أما الآن فقريش جاءت لتحارب.

لقد تغير كل شي..

وسنعرف لاحقًا أن هذا التغيير كان إلى الأفضل..

﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ (الأنفال/42).

والرسول يستشير.

قَالُوا: وَمَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا كَانَ دُوَيْنَ[1] بَدْرٍ أَتَاهُ الْخَبَرُ [2]بِمَسِيرِ قُرَيْشٍ، فَأَخْبَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَسِيرِهِمْ، وَاسْتَشَارَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ فَأَحْسَنَ، ثُمّ قَامَ عُمَرُ فَقَالَ فَأَحْسَنَ ثُمّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهَا وَاَللهِ قُرَيْشٌ وَعِزَّهَا، وَاَللهِ مَا ذَلَّتْ مُنْذُ عَزَّتْ، وَاَللهِ مَا آمَنَتْ مُنْذُ كَفَرَتْ، وَاَللهِ لَا تُسْلِمُ عِزّهَا أبدًا، وَلَتُقَاتِلَنك، فَاتَّهِبْ لِذَلِكَ أُهْبَتَهُ وَأَعِدَّ لِذَلِكَ عُدَّتَهُ...ثُمَّ قَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، امْضِ لِأَمْرِ اللهِ فَنَحْنُ مَعَك، وَاَللهِ لَا نَقُولُ لَك كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِنَبِيّهَا: فَاذْهَبْ أنت وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ، وَلَكِنْ اذْهَبْ أنت وَرَبُّك فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ لَوْ سِرْت بِنَا إِلَى بِرْكِ الْغِمَادِ لَسِرْنَا مَعَك- وَبِرْكُ الْغِمَادِ مِنْ وَرَاءِ مَكّةَ بِخَمْسِ لَيَالٍ مِنْ وَرَاءِ السّاحِلِ مِمّا يَلِي الْبَحْرَ، وَهُوَ عَلَى ثَمَانِ لَيَالٍ مِنْ مَكّةَ إِلَى الْيَمَنِ. فَقَالَ له رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ...[3]

قَالَ المِقْدَادُ يَوْمَ بَدْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لاَ نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: {فَاذْهَبْ أنت وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ} وَلَكِنِ امْضِ وَنَحْنُ مَعَكَ، «فَكَأَنَّهُ سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».[4]

نحتاج أن نتوقف هنا قليلًا.

ربما المشهد معروف لأنه متداول بكثرة في كل ما يتطرق لغزوة بدر.

لكن علينا أن ننتبه.

أخبرهم بمسير قريش. واستشار الناس. الناس أي كل من خرج معه من المدينة.

خرجوا معه من أجل أن يغنموا القافلة، كان واضحًا معهم منذ البداية.

---

(1) دوين: مصغر دون، على مقربة.

(2) عن طريق العبد من روايا قريش.

(3) المغازي للواقدي:(48/1) .

(4) صحيح البخاري: 4609.

بعد أن أخبرهم بمسير قريش بجيش إليهم، استشارهم.

لم يخبرهم بما يريد أن يفعل.

بل استشارهم.

هذا رسول الله الذي يأتيه الوحي من ربه، الذي آمن به هؤلاء الذين يستشيرهم.

يستشيرهم في أمر مصيري.

لو أنهم خرجوا منذ البداية وهم يعرفون أنهم ملاقو قريش، لكان الأمر مختلفًا.

لكن هنا، على مشارف بدر، ولأنهم خرجوا لشيء آخر غير هذا الذي سيلتقون به، فهو يستشيرهم.

هل أحتاج أن أذكر بالفرق الشاسع بين هذا الموقف الذي يستشير فيه النبي (الذي ينزل عليه الوحي) أصحابه في موضوع حساس وخطر كهذا، ويقدر وعده لهم، وبين مواقف أخرى، في عصور أخرى، لا شيء فيها يشبه هذا الحرص على حياة الناس وعلى تنفيذ الوعود المقطوعة لهم؟

هل أحتاج أن أذكر في هذا الموقف أن الوحي لم يكن مستمرًّا طيلة الوقت، بل كان يأتي عندما يجب أن يأتي، ويترك بين ذلك مساحات واسعة للحكمة النبوية في اتخاذ القرارات.

ومن هذه الحكمة النبوية: أن يستشير أصحابه، خاصة في قرار كهذا، من السنة أن يشارك الناس في القرارات التي تؤثر على حياتهم.

هذه كانت سنته، واضحة وقاطعة ولا لبس فيها ولا تشويش.

لم يتعامل مع الأمر كما لو أنه غير قابل إلا لما يراه فقط.

هذا وهو النبي الذي يوحى له، عليه الصلاة والسلام.

الأمر الآخر: الصحابة لم يسألوه ماذا يقول ربنا؟ ولماذا لم يخبرك عن مسير قريش وإفلات القافلة؟ ولماذا علينا أن نرسل عيونًا إلى القوافل ما دام الوحي يمكن أن يأتي بأخبارها مباشرة؟ أسئلة كهذه كانت لا ترد في أذهانهم أصلًا. كانوا قد تعودوا أن الوحي يأتي حين يأتي وحين يشاء الله عز وجل أن ينزل، وأن عليهم أن يقوموا بجهدهم البشري في الاستقصاء والمعرفة.

في هذا الموقف الممتلئ بالمعاني: أي نمط أولي نراه يرشح في موقفه عليه الصلاة والسلام؟

القائد؟

الحكيم؟

المحب؟

الراعي؟

أم النقي المبصر الذي رأى اللحظة التاريخية التي توشك على الدخول؟

أم كل هؤلاء؟

إنه النبي الذي احتوى كل ما سبق وتجاوزه.

عليه الصلاة والسلام.

لن نكون كما كانت بنو إسرائيل لموسى.

لا نعرف ماذا قال أبو بكر رضي الله عنه، لكن النص يقول إنه أحسن القول.

في رواية الواقدي هناك تفصيل لما قاله عمر رضي الله عنه، بينما بقية رواة السير يكتفون بأنه (أحسن القول) مثل أبي بكر، رضي الله عنهما.

عمر يقول ما معناه إن الصراع مع قريش صفري، صراع وجود، وإنها بالتأكيد عازمة على القتال، وإن هذه فرصتها.

ما قاله المقداد بن الأسود ثبت بروايات كثيرة، من ضمنها رواية في صحيح البخاري.

استحضر المقداد في لفتة عبقرية (لم نعد ننتبه إلى عبقريتها لأننا تعودنا عليها) موقف بني إسرائيل من موسى عندما قالوا له ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ (المائدة/24)، وهذا يعني أن الصحابة كانوا يتعاملون مع الآيات التي تخص بني إسرائيل ليس فقط من باب الحذر من اليهود الذين كانوا يشاركونهم المدينة، بل أيضًا كانوا يعتبرونها موجهة إليهم، تحذرهم من الانزلاق إلى أخطاء التجربة اليهودية نفسها. (هل يحتاج إلى أن نذكر أن هذا يخصنا أيضًا؟ وأن كثيرًا من سلوكيات بني إسرائيل المذمومة في القرآن تتمثل في سلوكيات بعض المنتمين للدين الخاتم وهم يجدون فهما معينًا لنصوص دينية ثابتة وصحيحة كي يبرر لهم سلوكياتهم هذه).

الآية التي استحضرها المقداد هي من سورة المائدة التي نزلت لاحقًا وفي فترة متقدمة بعد فتح مكة.

لكن هذه الآيات التي تتحدث عن هذا الموقف نزلت مبكرًا وقبل غزوة بدر، بدليل ورودها في أكثر من سند عن المقداد في هذه الحادثة[1]. كما لو أن هذه الآيات وسياقها كانت تعد الصحابة تحديدًا لهذه اللحظة، وكما لو إن إدراجها لاحقًا في سورة نزلت بعد فتح مكة كان لجعلهم يعون أن هذا الفتح ما كان سيتحقق لولا تلك اللحظة التاريخية التي كانوا على قدر مسئوليتها.

لكن الثلاثة الذين تحدثوا كانوا من المهاجرين، وموقفهم متوقع تمامًا.

كان عليه الصلاة والسلام يرغب أن يسمع من الأنصار...فبعد أن قال الثلاثة رضوان الله عليهم ما قالوه طلب عليه الصلاة والسلام المشورة من (الناس)، وذلك أن بيعتهم له كانت أن يدافعوا عنه وينصروه في المدينة، لا على بعد 160 كيلومترًا منها.

يريد الأنصار.

كأنك تريدنا يا رسول الله؟

(.. فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: أَنَا أُجِيبُ عَنْ الْأَنْصَارِ، كَأَنّك يَا رَسُولَ اللهِ تُرِيدُنَا! قَالَ: أَجَلْ.

قَالَ: إنّك عَسَى أَنْ تَكُونَ خَرَجْت عَنْ أَمْرٍ قَدْ أُوحِيَ إلَيْك فِي غَيْرِهِ، وَإِنّا قَدْ آمَنّا بِك وَصَدَّقْنَاك، وَشَهِدْنَا أَنَّ كُلَّ مَا جِئْت بِهِ حَقّ، وَأَعْطَيْنَاك مَوَاثِيقَنَا وَعُهُودَنَا عَلَى السَّمْعِ والطاعة، فامض يا نبيَّ الله، فو الذي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْت هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْته لَخُضْنَاهُ مَعَك، مَا بَقِيَ مِنَّا رَجُلٌ، وَصِلْ مَنْ شِئْت، وَاقْطَعْ مَنْ شِئْت، وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْت، وَمَا أَخَذْت مِنْ أَمْوَالِنَا أَحَبّ إلَيْنَا مِمّا تَرَكْت.)[2]

(1) قال ابن رجب في فتح الباري: (2/201): وقد صح أن المقداد قال للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يوم بدر: لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، فدل هذا على أن هذه الآية نزلت قبل غزوة بدر، والله أعلم.

(2) مغازي الواقدي:(1/49) .

كان موقف سعد بن معاذ حاسمًا ومؤثرًا، كان سيدًا مطاعًا في الأوس، وعندما أسلم حلف على قومه (بني عبد الأشهل) أن يؤمنوا بالله ورسوله فأسلموا جميعًا في يوم واحد[1].

وهو نفسه الذي قال لأمية بن خلف بلهجة حاسمة قاطعة أدخلت الرعب في قلب أمية: قال محمد إنه سيقتلك.

وها هو يقف ليقول للنبي عليه الصلاة والسلام: حتى لو أخذتنا إلى البحر، سنخوضه معك.

هل كان كل الأنصار لديهم هذا الموقف نفسه الذي أعلنه سعد؟

بالطبع لا. البشر ليسوا سواء، وإذا كان سعد بن معاذ قد حاز العلامة الكاملة في هذا الموقف، فإن هذا لا يعني أن كل من كان أقل منه قد رسب في الاختبار.

كل دفعة تتخرج، هناك فيها متفوقون يحوزون أعلى العلامات، وهناك من هم دون ذلك، لكنهم نجحوا أيضًا.

عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ، حَدَّثَهُ أَنَّهُ، سَمِعَ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ: «إِنِّي أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَةٌ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نُخْرِجَ قِبَلَ هَذَا الْعِيرِ؟ لَعَلَّ اللهُ يُغْنِمُنَاهَا»، فَقُلْنَا: نَعَمْ، فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا، فَلَمَّا سِرْنَا يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، قَالَ لَنَا: «مَا تَرَوْنَ فِي الْقَوْمِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أُخْبِرُوا بِمَخْرَجِكُمْ؟»، فَقُلْنَا: لَا وَاللهِ مَالَنَا طَاقَةٌ بِقِتَالِ الْعَدُوِّ، وَلَكِنْ أَرَدْنَا الْعِيرَ، ثُمَّ قَالَ: «مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ الْقَوْمِ؟» فَقُلْنَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو: إِذَنْ لَا نَقُولُ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]، **قَالَ: فَتَمَنَّيْنَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَوْ أَنَّا قُلْنَا كَمَا قَالَ الْمِقْدَادُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَنَا مَالٌ عَظِيمٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ:** ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾[2]

كان جزءًا مما قاله أبي أيوب الأنصاري قد مر بنا في بداية المسير إلى القافلة.

لكن هنا الصورة الكاملة لما حدث.

---

(1) دلائل النبوة للبيهقي:(2/440) .

(2) المعجم الكبير للطبراني: 4056.

هنا صورة الدفعة التي نجح كل طلابها بامتياز، ولكن هناك من كان أكثر امتيازًا من سواه.

خرجوا من أجل غنائم القافلة، هذا ما دعاهم الرسول عليه الصلاة والسلام له، لا شيء يعيب ذلك ولا ينقص من أي أحد. على العكس، علينا أن نحترم هذا الصدق وهذه الشفافية، وكان حيازة قافلة قريش أمر مهم لأجل توطيد أركان الدولة الجديدة حسب المفاهيم السائدة آنذاك.

خرجوا لأجل القافلة، واضحة وصريحة.

لكن الأمور سارت في طريق آخر غير طريق الغنائم.

والآن صار هناك احتمالية مواجهة قريش.

يقول أبو أيوب الأنصاري: قلنا: لا طاقة لنا بقتال العدو، إنما خرجنا من أجل القافلة.

أبو أيوب يقول إنه عليه الصلاة والسلام سألهم مرتين، وبقي جوابهم نفسه: لا طاقة لنا بالقتال.

ثم قام المقداد وألقى بكلمته التي انفجرت بوجوه الجميع، لن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا مثلما قالت بنو إسرائيل....

كانت الآية مثل عنصر دخل معادلة فغير التفاعل كله...

آية واحدة قلبت الميزان

صدمهم ما فعله المقداد، ربما كان الأمر يشبه أنهم يسمعون الآية للمرة الأولى... استفزت الكلمة كل مشاعرهم وإيمانهم وجعلتهم يتمنون لو أنهم هم من قالوا ما قاله المقداد، بدلا عن كل غنائم الدنيا..

ما حدث أيضًا من تغير موقف (بعض) الأنصار في هذه اللحظة يمكن فهمه في ضوء ما نفهمه اليوم من علم النفس الاجتماعي فيما يتعلق بما يعرف بظاهرة (تأثير المبادر الأول أو المستجيب الأول The first follower effect[1])، والتي ترصد تأثير ما يحدثه شخص واحد عندما يستجيب لفكرة طرحت دون أن تلاقي استجابة من جمهور

(1) ظاهرة تأثير التابع الأول (First Follower Effect) ، تشير إلى الدور الحاسم الذي يلعبه أول من يتبع القائد أو المبادر في تحويل المبادرة الفردية إلى حركة جماعية. فالقائد قد يكون صاحب الفكرة، لكن التابع الأول هو من يمنحها الشرعية الاجتماعية، ويشجع الآخرين على الانضمام.

صامت، ثم يقوم شخص أول، باستجابة واضحة للفكرة، فيتغير موقف الجمهور على الفور.

بالتأكيد هناك بعض الاختلافات فيما حدث، لأن هذا المبادر الأول، لم يقم برد فعل فقط، بل استخدم آية قرآنية تكفلت بمضاعفة أثر فعله عشرات المرات.

تغير موقف الأنصار حتى قبل أن يتحدث سعد بن معاذ رضي الله عنه، سيد الأوس، ويقول ما يقوله.

جولة في يوم غد، إن شاء الله

قَالَ: فَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا[1]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ عُمَرَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا عَنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: **إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ، بِالْأَمْسِ، يَقُولُ: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللهُ»**[2]

نزل بهم أرض بدر. عليه الصلاة والسلام. سار معهم على الأرض التي ستشهد انعطافة التاريخ. أخذهم في جولة في الميدان.

أشار لهم إلى مواضع بعينها على تلك الأرض، هنا مصرع فلان، وهنا مصرع فلان، إن شاء الله.

كان يريد أن يرفع الروح المعنوية لأصحابه؟ تحقق ذلك بالتأكيد، لكنه كان يرى ذلك حقيقة، تلك هي النبوة، الله عز وجل أراه تلك المواضع.

المشورة التي طلبها قبل هذا الموقف، على أعتاب بدر، كانت نابعة من القيادة والحكمة والرعاية.

ما استنتجه من كلام العبد في قافلة قريش كان من القيادة، التخطيط، الفهم العميق لما يحدث.

أما هنا، فهي النبوة، النبوة قطعًا وبالتأكيد.

(1) صحيح مسلم: 83.

(2) صحيح مسلم: 76.

هناك لبس مستمر بين هذه الجوانب في فهم البعض لشخصيته عليه الصلاة والسلام.

هناك من يغلب جانب على آخر، يعتبر أن كل شيء فعله في بدر كان صادرًا من النبوة فقط، تختفي الجوانب الأخرى في هذا اللبس، وهي الجوانب البشرية التي يمكن أن نستفيد منها في كل حياتنا بمختلف مناحيها.

وهناك من يجعل تلك الجوانب البشرية هي الأساس وهي كل شيء، فيفتقد رؤية النبوة التي كانت المحرك الأساسي لكل شيء في نقطة البداية، وتتحول رؤيته للنبي عليه الصلاة والسلام إلى مجرد قائد عبقري غير التاريخ بمواهب بشرية فذة يندر أن تجتمع في شخص قائد واحد، حاشاه.

العقلانية مهمة حتمًا، لكن عقلنة كل شيء ليس من العقل في شيء.

لقد كان النبي الذي جمع كل تلك الجوانب في شخصه الكامل، صلى الله عليه وسلم.

هنا مصرع فلان، وهنا مصرع فلان، يراها برؤية النبوة، فيقولها لأصحابه، ثم يقول إن شاء الله.

ارتفعت روحهم المعنوية؟ ربما، هذا إذا كانت تحتاج إلى ذلك، لكن كانت تلك مجرد نتيجة.

الأساس أنه رآها بالفعل.

وأشار إلى تلك المواضع، في أرض تبدو منبسطة، لكنها ستشهد كيف يستدير التاريخ.

***

ماذا كان يحدث في الجهة الأخرى؟

قريش تستطلع

لَمَّا اطْمَأَنَّ الْقَوْمُ[1]، بَعَثُوا عُمَيْرَ بْنَ وَهْبٍ الجُمَحِيُّ فَقَالُوا: احْزُرُوا[2] لَنَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، قَالَ: فَاسْتَجَالَ بِفَرَسِهِ حَوْلَ الْعَسْكَرِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: ثَلَاث مائَة رَجُلٍ،

(1) إلى نجاة قافلة أبي سفيان.

(2) الحزر: التقدير بالحدس والظن، ليس عدًّا دقيقًا.

يَزِيدُونَ قليلًا أَوْ يَنْقُصُونَ، وَلَكِنْ أَمْهِلُونِي حَتَّى أَنْظُرَ إلى الْقَوْمِ كَمِينٌ أَوْ مَدَدٌ؟ قَالَ: فَضَرَبَ فِي الْوَادِي حَتَّى أَبْعَدَ، فَلَمْ يَرَ شيئًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: مَا وَجَدْتُ شيئًا، وَلَكِنِّي قَدْ رَأَيْتُ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، **الْبَلَايَا[1] تَحْمِلُ الْمَنَايَا، نَوَاضِحُ [2] يَثْرِبَ تَحْمِلُ الْمَوْتَ النَّاقِعَ[3] ، قَوْمٌ لَيْسَ مَعَهُمْ مَنَعَةٌ[4] وَلاَ مَلْجَأٌ إِلاَّ سُيُوفُهُمْ، وَاَللَّهِ مَا أَرَى أَنْ يُقْتَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، حَتَّى يَقْتُلَ رجلًا مِنْكُمْ، فَإِذَا أَصَابُوا مِنْكُمْ أَعْدَادَهُمْ فَمَا خَيْرُ الْعَيْشِ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فَرُوا رَأْيَكُمْ[5]**.

ثم إنهم بعد أن سمعوا ما قاله عمير بن وهب أرسلوا رجلًا آخر هو أبو أسامة الجشمي ليقدم تقديره لعدد وعدة جيش المسلمين. فعاد بالتقدير نفسه[6].

أرسلوا عمير بن وهب، وهو صاحب أقداح الاستقسام في مكة، ليأتي لهم بخبر عدد وعدة من مع عليه الصلاة والسلام في بدر. فرجع ليقول إنهم ثلاثمائة، أكثر أو أقل قليلًا، وأن لا مدد قادم لهم، ولا كمين نصب لقريش في بدر.

لكنه قال أيضًا إن هؤلاء الرجال قد جاءوا وهم لا يهابون الموت، ليس لهم كثير عدة غير سيوفهم، ولكن هذا يجعلهم أكثر قوة، لن يقتل أحد منهم دون أن يكون قد قتل من قريش.

عليَّ أن أتوقف هنا عند ما قاله عمير.

العدد يمكن أن يقدر من بعيد إذا كانت العين خبيرة.

لذا لا مشكلة في دقة تقديره.

لكن ما قاله عن وضعهم المعنوي وحرصهم على القتال وعدم اكتراثهم للموت أمر لا يمكن أن يرى من بعيد، هل اقترب منهم إلى هذه الدرجة التي جعلته يعرف وضعهم المعنوي؟

(1) البلايا: جمع بلية، وَهِي النَّاقة أَو الدَّابَّة ترْبط على قبر الْمَيِّت فَلاَ تعلف وَلاَ تسقى حَتَّى تَمُوت.

(2) النَّوَاضِح: الإِبِل الَّتِي يستقى عَلَيْهَا المَاء.

(3) الناقع: الثَّابِت الْبَالِغ فِي الإفناء.

(4) منعة: قوة وحصانة.

(5) سيرة ابن هشام: (622/1) .

(6) مغازي الواقدي: (62/1).

هل اندس بينهم؟[1] أم قال ما قاله لأنه كان يريد أن يخيف قريشًا كي تحجم عن القتال، ذلك أنه كان من المترددين في أمر الخروج، ومن الذين كان يخرج لهم القداح الناهي عن الخروج، كما قال سهيل بن عمرو آنفًا، فربما كان يريد أن ينقل لقريش تردده وتشاؤمه عبر الحديث عن رغبة المسلمين في القتال دون أن يقدم أرقامًا لعددهم مخالفًا لما رآه.

بكل الأحوال، ما قاله عمير زاد من تردد المترددين، ومن تشبث من يريد القتال.

لم يتغير الموقف.

محاولة أخيرة لجناح الحمائم

فَلَمَّا سَمِعَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ذَلِكَ مَشَى فِي النَّاسِ، فَأَتَى عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، فَقَالَ:

يَا أَبَا الْوَلِيدِ، إِنَّكَ كَبِيرُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا، وَالْمُطَاعُ فِيهَا، هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ لَا تَزَالَ تُذْكَرُ فِيهَا بِخَيْرٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ؟

قَالَ: وَمَا ذَاكَ يَا حَكِيمُ؟

قَالَ: تَرْجِعُ بِالنَّاسِ، وَتَحْمِلُ أَمْرَ حَلِيفِكَ عَمْرِو بْنِ الْحَضْرَمِيِّ،

قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، أنت عَلَيَّ بِذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ حَلِيفِي، فَعَلَيَّ عَقْلُهُ وَمَا أُصِيبَ مِنْ مَالِهِ، فَأْتِ ابْنَ الْحَنْظَلِيَّةِ فَإِنِّي لَا أَخْشَى أَنْ يَشْجُرَ[2] أَمْرَ النَّاسِ غَيْرُهُ، يَعْنِي أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَام [3].

حكيم بن حزام بعد أن سمع ما قاله عمير ذهب إلى عتبة بن ربيعة- وهو واحد من سادات قريش وأكبرهم سنًّا- مقترحًا عليه أن ينهي الأمر كله بدفع دية عمرو بن الحضرمي الذي قتل على يد سرية نخلة، وبما أن القافلة قد نجت، فالأمر سينتهي عند دفع الدية.

عتبة وافق فورًا، سيدفع دية عمرو بن الحضرمي الذي كان حليفه فيما مضى.

(1) سماه عمر بن الخطاب بعد بدر بالفاجر الغادر فربما كان اندس فعلاً، المعجم الكبير للطبراني 117.

(2) يشجر: يخالف ويخاصم فيما بين الناس.

(3) سيرة ابن هشام: (1/622-623) .

لكن عليه أن يذهب إلى ابن الحنظلية[1]. أبي جهل، لن يخرب هذا سواه.

ثُمَّ قَامَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ خَطِيبًا، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ وَاَللَّهِ مَا تَصْنَعُونَ بِأَنْ تَلَقَّوْا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ شيئًا، وَاَللَّهِ لَئِنْ أَصَبْتُمُوهُ لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَنْظُرُ فِي وَجْهِ رَجُلٍ يَكْرَهُ النَّظَرَ إِلَيْهِ، قَتَلَ ابْنَ عَمِّهِ أَوْ ابْنَ خَالِهِ، أَوْ رجلًا مِنْ عَشِيرَتِهِ، فَارْجِعُوا وَخَلُّوا بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ أَصَابُوهُ فَذَاكَ الَّذِي أَرَدْتُمْ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ أَلْفَاكُمْ وَلَمْ تَعَرَّضُوا مِنْهُ مَا تُرِيدُونَ[2].

كانت هذه هي المحاولة الأخيرة تقريبًا لفريق الحمائم من كفار قريش.

لم يكونوا أقل تكذيبًا لمحمد عليه الصلاة والسلام ورسالته من فريق الصقور.

لكنهم كانوا يرون أن الحرب مع الرسول عليه الصلاة والسلام ستحول الانشقاق الموجود في صفوف قريش إلى ثارات من الصعب تجاهلها.

وكان عتبة يرى أنه عليه الصلاة والسلام سيصطدم مع بقية العرب فإن انتصروا عليه فقد تحقق ما تريده قريش دون أن يزيد الشقاق في داخلها، وإن لم يحدث ذلك فإن قريشًا يمكنها أن تفعل ذلك لاحقًا.

كان كلامه مقنعًا للأغلبية على ما يبدو.

لكن ما سيفعله أبو جهل بعد دقائق سيغير قناعة الأغلبية.

ذلك أن اللعب على عواطف الجماهير ينتصر في الغالب على صوت التروي والتعقل.

شعارات ابن الحنظلية

قَالَ حَكِيمٌ: فَانْطَلَقْتُ حَتَّى جِئْتُ أَبَا جَهْلٍ، فَوَجَدْتهُ قَدْ نَثَلَ[3] دِرْعًا لَهُ مِنْ جِرَابِهَا، فَهُوَ يُهَيِّئُهَا فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا الْحَكَمِ إِنَّ عُتْبَةَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ بِكَذَا وَكَذَا، لِلَّذِي قَالَ،

(1) الْحَنْظَلِيَّةُ أُمُّ أَبِي جَهْلٍ، وَهِيَ أَسْمَاءُ بِنْتُ مُخَرِّبَةَ، أَحَدُ بَنِي نَهْشَلْ بْنِ دَارِمِ بْنِ مَالِكِ بْنِ حَنْظَلَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ.

(2) سيرة ابن هشام: (623/1) تحقيق السقا.

(3) نثل: أخرج.

فَقَالَ: انْتَفَخَ وَاللَّهِ سَحْرُهُ[1] حِينَ رَأَى مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، كَلاَّ وَاللَّهِ لاَ نَرْجِعُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَمَا بِعُتْبَةَ مَا قَالَ، وَلَكِنَّهُ قَدْ رَأَى أَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ أَكَلَةُ جَزُورٍ[2]، وَفِيهِمْ ابْنُهُ، فَقَدْ تَخَوَّفَكُمْ عَلَيْهِ.

ثُمَّ بَعَثَ إِلَى عَامِرِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ، فَقَالَ: هَذَا حَلِيفُكَ يُرِيدُ أَنْ يَرْجِعَ بِالنَّاسِ، وَقَدْ رَأَيْتَ ثَأْرَكَ بِعَيْنِكَ، فَقُمْ فَانْشُدْ خُفْرَتَكَ[3]، وَمَقْتَلَ أَخِيكَ.

فَقَامَ عَامِرُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ فَاكْتَشَفَ[4] ثمَّ صرخَ: وَا عمراه، وَا عمراه، فَحَمِيَتْ الْحَرْبُ، وَحَقِبَ[5] النَّاسُ، وَاسْتَوْسَقُوا[6] عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الشَّرِّ، وَأُفْسِدَ عَلَى النَّاسِ الرَّأْيُ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ عُتْبَةُ.[7]

أبو جهل كان يتهيأ للقتال، يخرج درعه من جرابه، عندما جاءه حكيم ليقول له مقالة عتبة بن ربيعة.

وكما هو متوقع، أصر أبو جهل على موقفه، وقال إن عتبة جبن من كلام عمير بن وهب، لأن ابنه حذيفة بين المسلمين.

ثم ذهب إلى عامر بن الحضرمي، شقيق عمرو بن الحضرمي الذي يريد عتبة أن يدفع ديته ليطفئ ثأره، وقال له إن حليفكم عتبة يريد أن يرجع بالناس بينما ثأرك قريب منك على مرأى العين، فقم وطالب قريشا بأن تنفذ عهدهم معك حين اصبحتم حلفاء، وتأخذ معك بثأر أخيك.

فكشف عامر بن الحضرمي رأسه أو بجزء من بدنه، وهو ما كان يفعله العرب في الجاهلية لإثارة الغضب والحمية وانتباه الجميع، وصرخ باسم أخيه: واعمراه واعمره.

---

(1) انتفاخ السحر: كناية عن الجبن.

(2) أكلة جزور: الرجال الشجعان الجياع الذين إذا اجتمعوا على جمل لم يبقوا منه شيئًا، والقصد أنهم إذا اجتمعوا على شيء أنهوه.

(3) أنْشد خفرتك: أَي اطلب من قُرَيْش الْوَفَاء بخفرتهم لَك، أَي عَهدهم، لِأَنَّهُ كَانَ حليفًا لَهُم وجارًا.

(4) اكتشف: كشف عن رأسه أو جزء من بدنه.

(5) حقب: اشتد.

(6) استوسقوا: اجتمعوا

(7) سيرة ابن هشام: (623/1)، تحقيق السقا.

وتغير موقف الجمهور، بعد أن كان موافقًا على ما قاله عتبة، اشتعلت الحمية عنده وتعالت صيحات الحرب والقتال.

كثيرًا ما تصفق الجماهير للشعارات القاتلة، تبدو الشعارات كما لو أنها ستكون قاتلة للعدو.

ثم ينتهي الأمر إلى أن تكون قاتلة لها.

للجماهير.

***

من حق أي شخص أن يتساءل: أليس الأثر الذي أحدثه فعل عامر بن الحضرمي (بتحريض من أبي جهل) مشابه للأثر الذي أحدثه المقداد بن عمرو عندما قال للرسول: لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى...

تصرف عامر أشعل مشاعر الرغبة بالانتقام والثأر والإيفاء بعهود تحافظ على هيبة العشيرة.

أما ما قاله المقداد فقد استنهض قيم الإيمان التي غيرت حياة هؤلاء تمامًا، استنهضت قيم إيمان اختاروه اختيارًا واعيًا ولم يرثونه كما يورثون انتسابهم للعشيرة.

من الخارج، الموقفان فيهما بعض التشابه.

لكن تحت السطح، كل شيء يبدأ بالاختلاف، إلى أن نصل إلى الجوهر، فيكون جوهر الموقفين مختلفًا تمامًا.

كم ينحرون؟

بَعَثَ «رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ دَنَا مِنْ بَدْرٍ: عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَتَجَسَّسُونَ لَهُ الْخَبَرَ فَأَصَابُوا سُقَاةً لِقُرَيْشٍ غُلَامًا لِبَنِي سعيد بن العاص، وَغُلَامًا لِبَنِي الْحَجَّاجِ فَأَتَوْا بِهِمَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1]

ثُمّ أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السّقّاءِ فَقَالَ:

أَيْنَ قُرَيْشٌ؟

(1) دلائل النبوة للبيهقي:(3/42-43) .

قَالُوا: خَلْفَ هَذَا الْكَثِيبِ الّذِي تَرَى.

قَالَ: كَمْ هِيَ؟

قَالُوا: كَثِيرٌ.

قَالَ: كَمْ عَدَدُهَا؟

قَالُوا: لَا نَدْرِي كَمْ هُمْ.

قَالَ: كَمْ يَنْحَرُونَ؟

قَالُوا: يَوْمًا عَشَرَةً وَيَوْمًا تِسْعَةً.

قَالَ: الْقَوْمُ مَا بَيْنَ الْأَلْفِ وَالتّسْعِمِائَةِ.

ثُمّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلسّقّاءِ: مَنْ خَرَجَ مِنْ مَكّةَ؟

قَالُوا: لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ بِهِ طَعِمَ[1] إلاّ خَرَجَ. فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: هَذِهِ مَكَّةُ، قَدْ أَلْقَتْ إلَيْكُمْ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا.

ثُمّ سَأَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هَلْ رَجَعَ أَحَدٌ مِنْهُمْ؟

قَالُوا: رَجَعَ ابْنُ أَبِي شَرِيقٍ بِبَنِي زُهْرَةَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرْشَدُهُمْ وَمَا كَانَ بِرَشِيدٍ، وَإِنْ كَانَ مَا عَلِمْت لَمُعَادِيًا لِلّهِ وَلِكِتَابِهِ.

قَالَ: أَحَدٌ غَيْرُهُمْ؟

قَالُوا: بَنُو عَدِيّ بْنِ كَعْبٍ»[2].

بأسئلة بسيطة عرف عليه الصلاة والسلام أن قريشًا قد جاءت تلقي بأفلاذ كبدها، أهم وأقوى رجالاتها.

هناك بين التسعمائة والألف رجل هناك خلف التل المطل على وادي بدر.

كل قريش جاءت، ورجع منهم بنو زهرة وبنو عدي.

---

(1) طعم: قوة أو حياة

(2) مغازي الواقدي:(53/1).

المطر واحد، ولكن..

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَمَضَتْ قُرَيْشٌ حَتَّى نَزَلُوا بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى مِنْ الْوَادِي، خَلْفَ الْعَقَنْقَلِ[1] وَبَطْنِ الْوَادِي، وَهُوَ يَلَيْلُ[2]، بَيْنَ بَدْرٍ وَبَيْنَ الْعَقَنْقَلِ، الْكَثِيبُ الَّذِي خَلْفَهُ قُرَيْشٌ، وَالْقُلُبُ[3] بِبَدْرٍ فِي الْعُدْوَةِ الدُّنْيَا مِنْ بَطْنِ يَلَيْلَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

وَبَعَثَ اللَّهُ السَّمَاءَ[4]، وَكَانَ الْوَدْيُ دَهْسًا[5]، فَأَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ مِنْهَا مَا لَبَّدَ[6] لَهُمْ الْأَرْضَ وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ عَنْ السَّيْرِ وَأَصَابَ قُرَيْشًا مِنْهَا مَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَرْتَحِلُوا مَعَهُ. فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبادرهم[7] إِلَى المَاء، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ بَدْرٍ نَزَلَ بِهِ[8].

عَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَعَثَ اللهُ السَّمَاءَ وَكَانَ الْوَادِي دَهْسًا- وَالدَّهْسُ الْكَثِيرُ الرَّمْلِ- فَأَصَابَنَا مَا لَبَّدَ الْأَرْضَ وَلَمْ يَمْنَعْنَا مِنْ الْمَسِيرِ، وَأَصَابَ قُرَيْشًا مَا لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَرْتَحِلُوا مِنْهُ، وَإِنَّمَا بَيْنَهُمْ قَوْزٌ[9] مِنْ رَمْلٍ[10].

حتى نفهم ما حدث، ربما علينا أن نعرف بعض التفاصيل الجغرافية التي أحاطت بالمعركة.

بدر بالأساس هي وادٍ كان يقام فيه سوق من أسواق من العرب.

تحيطه الجبال من كل أجزائه، شرقًا جبل الصدمة الذي يعتبر جبلين (الصدمة الشمالية والصدمة الجنوبية) وجبل الدقيقة الذي يحاذي الصدمة الجنوبية وأقرب إلى

(1) العقنقل: الكثيب الرملي الذي نزلت خلفه قريش.

(2) يليل: بطن وادي بدر، الجزء المنخفض المسطح من الوادي.

(3) القلب: جمع قليب وهي الآبار.

(4) بعث الله السماء: بعث الله المطر.

(5) دهسًا: كثير الرمل، وهو رمل رخو يجعل السير صعبًا حيث تغوص الأقدام.

(6) لبد لهم الأرض أي ثبتها وجعل السير فيها أسهل.

(7) يبادرهم: يسبقهم.

(8) سيرة ابن هشام: (1/620).

(9) القوز: الكثيب المرتفع من الرمل.

(10) مغازي الواقدي: (1/54)، الطبقات الكبرى:(2/11).

الوادي، غربًا جبل الأصفر ويحد جبل الأصفر من الشمال جبل الملائكة ومن الجنوب جبل الرضة الجنوبية، جنوب الوادي هناك جبل كراش، وشمالًا يوجد كثيب (وهو تل رملي يتكون بفعل الرياح) وهو كثيب الحنان، وجنوب الغرب هناك كثيب العقنقل الذي كانت قريش خلفه.

العدوة هي طرف الوادي، فالعدوة القصوى هي الطرف الجنوبي للوادي الذي أقرب لمكة، والذي نزلت قريش فيه.

والعدوة الدنيا هي الطرف الشمالي للوادي الأقرب للمدينة، والذي دخل منه المسلمون إلى الوادي.

الآبار في وادي بدر كانت أقرب إلى العدوة الدنيا، أي إلى موضع المسلمين.

لكن أرض تلك المنطقة كانت رملية رخوة، يصعب السير فيها.

أما الجزء الجنوبي الأقرب إلى العدوة القصوى فقد كانت طينية صلبة، يسهل السير عليها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

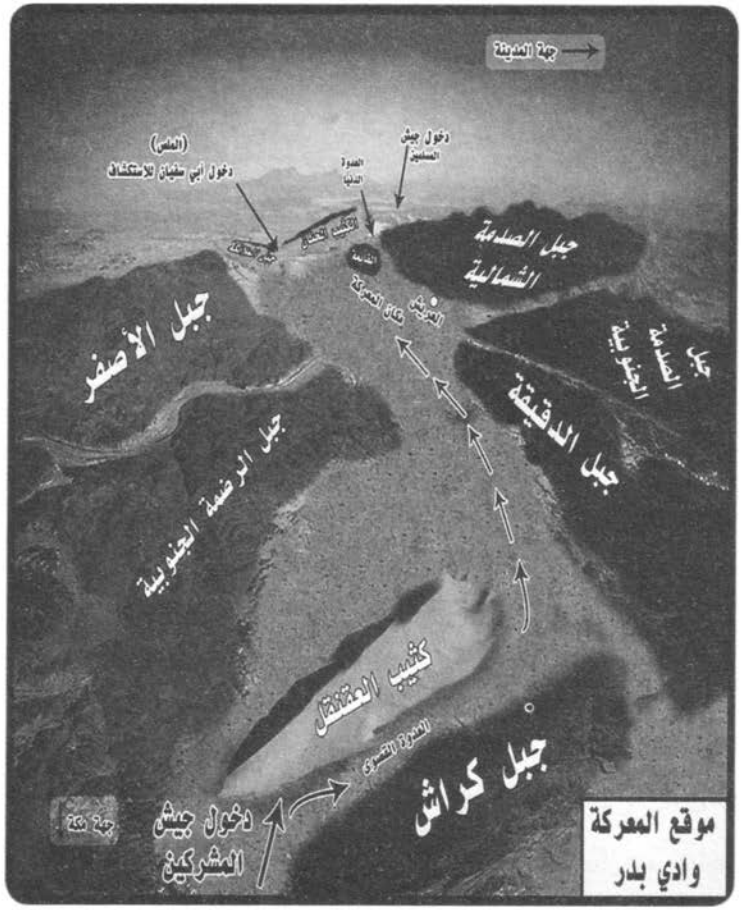

الخريطة من كتاب (غزوة بدر كأنك تراها) د. منصور بن ناصر الخالدي

شاء الله أن يبعث المطر في هذا التوقيت، والمطر ليس نادرًا في هذه الفترة من السنة، فقد كان رمضان تلك السنة في أواخر الشتاء، وكانت موقعة بدر في 13 مارس/ آذار حسب التقويم الشمسي.

المطر غيَّر من طبيعة الأرض في الموضعين، شمال الوادي وجنوبه.

فما كان رملًا يصعب المسير عليه، تماسك وأصبح السير عليه أسهل.

وما كان طينيًّا، أصبح وحلًا زلقًا، يصعب سير الدواب والرماة عليه.

وهذا جعل المسلمين يأخذون زمام المبادرة وينزلون عند أقرب بئر من آبار بدر.

بل الرأي والحرب والمكيدة

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحُدِّثْتُ عَنْ رِجَالٍ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ، أَنَّهُمْ ذَكَرُوا: أَنَّ الْحُبَابَ بْنَ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَمُوحِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمَنْزِلًا أَنْزَلَكَهُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ، وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟

قَالَ: بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضْ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ، فَنَنْزِلَهُ، ثُمَّ نُغَوِّرُ[1] مَا وَرَاءَهُ مِنْ الْقُلُبِ[2]، ثُمَّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَأُهُ مَاءً، ثُمَّ نُقَاتِلُ الْقَوْمَ، فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ.

فَنَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ النَّاسِ، فَسَارَ حَتَّى إِذَا أَتَى أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ نَزَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْقُلُبِ فَغُوِّرَتْ، وَبَنَى حَوْضًا عَلَى الْقَلِيبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ، فَمُلِئَ مَاءً، ثُمَّ قَذَفُوا فِيهِ الْآنِيَةَ[3].

هذا الموقف يجب أن يكون مدرسة كبيرة جدًّا لنا جميعًا.

وقف الحباب بن المنذر ليسأله بصراحة ووضوح: هل هذا المكان الذي نزلنا فيه هو مكان حدده لك الوحي من الله عز وجل فنبقى فيه دون أن نغيره (مؤمنين بصوابه)، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

مجرد السؤال وطرحه يدل على وعي دقيق يفتقده الكثير من المسلمين اليوم في أن الصحابة كانوا يدركون تمامًا أن هناك في أفعال الرسول عليه الصلاة والسلام ما هو وحي إلهي معصوم، يفعلها بأمر الله، وأفعال أخرى يفعلها حسب ما تقتضيه المصلحة وحسب تغير معطيات الواقع.

السؤال واضح، والجواب يأتي منه عليه الصلاة والسلام وهو لا يرى ضيرًا في أن يسمع رأيًا مغايرًا وأمام الجميع.

---

(1) نغور: ندفن أو نطمس.

(2) القلب: جمع قليب، وهي الآبار.

(3) المستدرك: 5801، الطبقات الكبرى: (3/427)، سيرة ابن هشام: (1/620)، تحقيق السقا.

يقول له: بل الرأي والحرب والمكيدة.

نقطة انتهى.

لدينا اليوم قادة لتيارات وأحزاب تقول شعاراتها إنها تقتدي بهديه عليه الصلاة والسلام، لكنها تعتبر خططها ومخططاتها جزءًا من المشروع الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه، وأي ملاحظة أو مراجعة، ناهيك عن النقد، سيعتبر تمردًا على هذا المشروع الإلهي ومساسًا بكل الثوابت.

أما معلم الناس الحكمة، النبي الذي يأتيه الوحي، فهو يقول بكل وضوح: بل الحرب والرأي والمكيدة.

فيقترح الحباب بن المنذر موضعًا آخر[1].

***

مقترح الحباب كان عبقريًّا على بساطته.

هناك عدة آبار في الوادي، اقترح الحباب أن ينزل المسلمون عند أقرب الآبار إلى قريش، وكانوا قبل ذلك عند أقربها إليهم وأبعدها عن قريش. يتقدم المسلمون إلى البئر الأقرب لقريش وتصبح بقية الآبار الأخرى خلفهم ثم يردمونها، بحيث تبقى بئر واحدة هي التي نزل عندها المسلمون، ويبنون عليها حوضًا، فيملؤون الحوض بالماء من البئر، بحيث يكون الماء متوفرًا عند الحاجة دون أن يستغرق ذلك وقتًا في استخراجه من البئر.

وهذا ما حدث.

نشرب ولا يشربون.

أخذ المسلمون موقعًا استراتيجيًّا جعل لهم السيطرة على الماء في الوادي.

بالرأي والحرب والمكيدة.

---

(1) قال د. أكرم ضياء العمري عن سند الحديث: ورد بسند حسن إلى عروة لكنه مرسل ورغم ضعف هذه الرواية من جهة الإرسال فإن مبدأ الشورى ثابت بنصوص القرآن الكريم وأحداث السيرة المطهرة ذكره ابن حجر: الإصابة 1/ 302 من طريق ابن إسحق، وقد صرح بالسماع، وثمة رواية عند الحاكم في المستدرك: (3/ 426 -427) بإسناد فيه من لم أقف على تراجمهم لكن الذهبي قال إنه حديث منكر وساق ابن هشام الخبر من طريق ابن إسحق بسند فيه إبهام، ولو عرف المبهم لحسن السند/ السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين: (2/ 360).

الخطة ب، فيما لو..

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ حُدِّثَ: أَنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلَا نَبْنِي لَكَ عَرِيشًا[1] تَكُونُ فِيهِ، وَنُعِدُّ عِنْدَكَ رَكَائِبَكَ[2]، ثُمَّ نَلْقَى عَدُوَّنَا، فَإِنْ أَعَزَّنَا اللَّهُ وَأَظْهَرَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، كَانَ ذَلِكَ مَا أَحْبَبْنَا، وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى، جَلَسْتَ عَلَى رَكَائِبِكَ، فَلَحِقْتَ بِمَنْ وَرَاءَنَا، فَقَدْ تَخَلَّفَ عَنْكَ أَقْوَامٌ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا نَحْنُ بِأَشَدَّ لَكَ حُبًّا مِنْهُمْ، وَلَوْ ظَنُّوا أَنَّكَ تَلْقَى حَرْبًا مَا تَخَلَّفُوا عَنْكَ، يَمْنَعُكَ اللَّهُ بِهِمْ، يُنَاصِحُونَكَ وَيُجَاهِدُونَ مَعَكَ[3]...

سعد بن معاذ ينصح ببناء عريش يبقى فيه عليه الصلاة والسلام في أثناء القتال، يشرف منه على المعركة ويقف على باب العريش من يحرسه... ويقترح سعد بن معاذ خطة بديلة، الخطة ب، لو أن أمور المعركة لم تسر لصالح المسلمين، راحلتك يا رسول الله تكون معدة بجانب العريش، تعود للمدينة وفيها رجال لم يخرجوا معنا ليس لأنهم أقل إيمانًا أو حبك لك، بل لأنهم ظنوا أنه لن يكون هناك قتال، يكملون الرحلة معك...

فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْضِي اللهُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ!

سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، فَإِنّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطّائِفَتَيْنِ[4]

ثُمَّ بُنِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرِيشٌ، فَكَانَ فِيهِ.[5]

ثاني اثنين: من غار ثور إلى عريش بدر

عن محمود بْنِ لَبِيدٍ، قَالَ: لَمّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْقَلِيبِ بُنِيَ لَهُ عَرِيشٌ مِنْ جَرِيدٍ،

---

(1) عريش: بناء من جريد النخل.

(2) ركائبك: راحلتك أو دابتك.

(3) سيرة ابن هشام: (1/621-620)، تحقيق السقا.

(4) مغازي الواقدي: (1/49).

(5) سيرة ابن هشام: (1/621).

فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ عَلَى بَابِ الْعَرِيشِ مُتَوَشِّحَ السَّيْفِ، فَدَخَلَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ.[1]

دخل النبي عليه الصلاة والسلام العريش ومعه أبو بكر.

رفيق الدرب منذ اليوم الأول للوحي، ورفيق رحلة الهجرة، صاحب الغار الذي قال له عليه الصلاة والسلام ألا يحزن إن الله معنا.

وها هو معه في عريش بدر، كما كان معه في غار ثور.

سنة ونصف فقط بين الموضعين، لكن العالم تغير كثيرًا، وهو على وشك التغير أكثر الآن، يوم الغار كانا يختبئان من غدر قريش، ويوم بدر جاءت قريش لتلقى مصرعها...

من غيره سيكون معه في العريش؟ الصديق الصدوق الصدّيق، رابط الجأش، الحكيم الهادئ الثابت دائمًا.

ليلة بدر: نعاس ومطر، وصلاة تحت الشجرة

قَالُوا: وَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ النُّعَاسُ، أُلْقِيَ عَلَيْهِمْ فَنَامُوا، وَمَا أَصَابَهُمْ مِنْ الْمَطَرِ مَا يُؤْذِيهِمْ. قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ: سُلِّطَ عَلَيْنَا النُّعَاسُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى إنِّي كُنْت لَأَتَشَدَّدُ، فَتَجْلِدُنِي الْأَرْضُ فَمَا أُطِيقُ إلّا ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الحال. وقال سعد ابن أَبِي وَقّاصٍ: رَأَيْتنِي وَإِنّ ذَقَنِي بَيْنَ يَدَيَّ، فَمَا أَشْعُرُ حَتَّى أَقَعَ عَلَى جَنْبِي.[2]

والنعاس نعاسان. نعاس بدر ونعاس أُحد.

وكل منهما كان لسبب مختلف.

نعاس ليلة بدر قد يبدو غريبًا؛ إذ من المنطقي أن يكون هناك توتر وقلق قبل المواجهات الكبيرة، توتر يطرد النعاس ويبدله بالأرق. على الأقل هذا هو الطبيعي عند الكثير من البشر، حتى في مواجهات حياتهم الشخصية: الامتحان. مقابلات العمل. الزواج...إلخ.

---

(1) مغازي الواقدي:(55/1).

(2) مغازي الواقدي: (54/1).

لكن شاء الله أن يلقي النعاس على كل أهل بدر تلك الليلة، كانوا يقاومون ذلك، الزبير يقول إنه كان يحاول أن يبقى يقظًا فيجد نفسه على الأرض كما لو أنها ضربته. وكان سعد يسند ذقنه بيديه، فيقع على جنبه.

كان النعاس نعمة منه عز وجل، وكانوا يحتاجون إلى النوم لكي يجددوا شحن قواهم، كان لديهم يوم حافل في الغد، كان لديهم يوم يصنع فيه التاريخ.

ناموا جميعًا، إلا واحدًا.

عن علي بن أبي طالب: **وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إلا نَائِمٌ، إِلَّا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ شَجَرَةٍ يُصَلِّي، وَيَبْكِي، حَتَّى أَصْبَحَ**[1] ...

نام الجميع، إلا هو عليه الصلاة والسلام.

يصلي تحت الشجرة، ويبكي...حتى الصباح.

يناجي ربه ويدعوه، يبكي بين يديه، يطلب أن ينجز وعده الذي وعد.

تحت الشجرة، كان الرسول عليه الصلاة والسلام في أعلى مراتبه: الرسول المرتبط بربه عبر عبوديته لله عز وجل، كل ما نراه من سعة شخصيته وتنوع قدراتها كان يقع ضمن هذه المرتبة العليا: عبوديته له تعالى. خضوعه له.

كان وهو يبكي، تحت الشجرة، في أقوى حالاته، لأنه بين يدي ربه..

الكل نيام، ماذا لو أغارت قريش؟

لكنه كان مستيقظًا، يصلي، لو حدث شيء أو سمع صوتًا فسينبه الجميع، كان أيضًا المحب الذي يحرص على الجميع، فلم يطلب من أحد أن يبقى مستيقظًا.

كانوا يحتاجون إلى النوم لأن أمامهم مواجهة كبرى في الغد.

أما هو فكان يتقوى تحت الشجرة في صلاته..

ماذا عن علي بن أبي طالب؟

من الواضح أن قلبه كان يوقظه بين الحين والآخر، فيطمئن على الرسول عليه الصلاة والسلام، ويراه يصلي، ثم يعود إلى النوم لأن وراءه تحديدًا جزء مهم مما سيحدث في الغد..

---

(1) مسند أحمد: 1023.

ونزل المطر وهم نيام، كما لو أن السماء تريد أن تغسل عنهم تعب النهار، وتثبت الأرض تحت أقدامهم عندما يسيرون عليها في الغد..

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ (الأنفال/11).

قمر ليلة 17

تلك كانت الليلة السادسة عشر من رمضان.

يفترض أن يكون البدر قد بدأ بالتناقص منذ الليلة السابقة.

لقد دخل في مرحلة (الأحدب المتناقص)..

لكن قمر ليلة 17 كان مختلفًا.

كان أكثر ضياءً منه في ليلة 14.

كان بدرًا مشعَّ الضياء، وهو يطل على ما يحدث، متشبثًا بمنزلته، كما لو أنه يريد أن يرى ما سيحدث، كما لو أنه يريد أن يترك كل أطواره ورحلته حول الأرض لينزل معهم في أرض بدر.

كما لو أنه يريد أن يبقى حتى بعد أن تطلع الشمس...

الجمعة 17: يوم القتال

فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ نَادَى: «الصَّلاةَ عِبَادَ اللَّهِ»، فَجَاءَ النَّاسُ مِنْ تَحْتِ الشَّجَرِ، وَالْحَجَفِ، فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَرَّضَ عَلَى الْقِتَالِ[1]

أيقظهم للصلاة.

الصلاة يا عباد الله.

لا نعرف -للأسف- ماذا قرأ في الصلاة لكنه قرأ فيهم ما يحرضهم على القتال ويثبتهم عليه..

ربما تضمنت قراءته..

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/216).

كانت الآيات نزلت في أحداث سرية نخلة التي ساهمت في الوصول إلى بدر بشكل أو بآخر...

كانوا على بعد ساعات فقط من مشاهدة كيف يكون ما كرهوه خيرًا لهم، خيرًا أكبر بكثير من القافلة التي خرجوا لأجلها.

أم لعله قرأ عليه الصلاة والسلام -من البقرة أيضًا- آيات طالوت وجالوت؟ وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة؟

---

(1) مسند أحمد: 948.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة/ 249-251).

وكان الصحابة قد شبهوا موقفهم بالفعل بموقف أصحاب طالوت:

عَنِ البَرَاءِ، قَالَ: كُنَّا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَتَحَدَّثُ: «أَنَّ عِدَّةَ أَصْحَابِ بَدْرٍ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ، وَلَمْ يُجَاوِزْ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ»[1]

لقد استلهموا من القصة ما يثبتهم، وكانوا أيضًا على بعد ساعات فقط من أن يكونوا الفئة القليلة التي غلبت الفئة الكثيرة، وساعات من أن يكونوا جزءًا من دفع الله الناس بعضهم ببعضهم، كي لا تفسد الأرض...هل حدث هذا قبل بدر أم بعدها؟ لا ندري. لكن الآيات نزلت قبل بدر، ومن الصعب ألا يكونوا قد فكروا فيها وهم في ذلك الموقف...

أم تراه أخذهم -عليه الصلاة والسلام- إلى ما هو أبعد؟

إلى القمر.

إلى سورة القمر.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ (القمر/ 41-46)

إن لم تكن هذه، فهم سيرونها رأي العين بعد قليل.

(1) صحيح البخاري: 3958.

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: 45] قُلْتُ: أَيُّ جَمْعٍ هَذَا؟ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِيَدِهِ السَّيْفُ مُصْلِتًا، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: 45] [1]

أم قرأ السجدة، والإنسان كما هي سنته كل جمعة؟

لا نعرف..

أَنْ يَمَسَّ جِلْدِي جِلْدَكَ

ثم صَفَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ قُرَيْشٌ،[2]

قالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدَّلَ صُفُوفَ أَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَفِي يَدِهِ قِدْحٌ[3] يُعَدِّلُ بِهِ الْقَوْمَ، فَمَرَّ بِسَوَادِ بْنِ غَزِيَّةَ، حَلِيفِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ وَهُوَ مُسْتَنْتِلٌ[4] مِنْ الصَّفِّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ بِالْقِدْحِ، وَقَالَ: اسْتَوِ يَا سَوَّادُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْجَعْتَنِي وَقَدْ بَعَثَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، فَأَقِدْنِي[5] .. يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ طَعَنْتَنِي وَلَيْسَ عَلَيَّ قَمِيصٌ، فَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَطْنِهِ، وَقَالَ: اسْتَقِدْ، قَالَ: فَاعْتَنَقَهُ فَقَبَّلَ بَطْنَهُ: فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَّادُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَضَرَ مَا تَرَى، فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ الْعَهْدِ بِكَ أَنْ يَمَسَّ جِلْدِي جِلْدَكَ. فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَيْرٍ.[6]

وقف عليه الصلاة والسلام يصفهم ويسوي صفوفهم ويعدل من وقفتهم وبيده سهم يؤشر به... لم يكن ذلك جديدًا عليه ولا عليهم، لأنه كان يسوي الصفوف بنفسه أيضًا في الصلاة في مسجده...

النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَوِّي صُفُوفَنَا حَتَّى كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ حَتَّى رَأَى أَنَّا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ، ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا فَقَامَ، حَتَّى

---

(1) المعجم الأوسط للطبراني: 3829.

(2) مغازي الواقدي: (57/1).

(3) قدح: سهم.

(4) مستنتل: خارج.

(5) اقدني: اقتص لي من نفسك.

(6) السلسلة الصحيحة: 2835، سيرة ابن هشام: (626/1)، تحقيق السقا.

كَادَ يُكَبِّرُ فَرَأَى رجلًا بَادِيًا صَدْرهُ مِنَ الصَّفِّ، فَقَالَ: «عِبَادَ اللهِ لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ».[1]

تسوية الصفوف في الحرب، كما في الصلاة، كما في الحياة كلها...

وفي أثناء تسويته للصفوف، يحدث موقف إنساني لا يمكن إلا أن أقف عنده.

سوَّاد بن غزية-أنصاري، حليف بني عدي بن النجار- يقف خارج الصف قليلًا... يضربه عليه الصلاة والسلام بالسهم على بطنه ضربة خفيفة بين المزح والجد ويقول له: استو يا سوَّاد. فيتظاهر سوَّاد بالألم من الضربة ويقول للرسول عليه الصلاة والسلام أنه قد آذاه ويطالب بحقه بأن يقتص له من نفسه.

فيعطيه عليه الصلاة والسلام السهم ليقتص لنفسه.

فيقول له سوَّاد: ليس عليَّ قميص، يقصد أنه ضربه على بطنه مباشرة، لذا فالضربة أشد.

فيكشف له الرسول عليه الصلاة والسلام عن بطنه ويقول له اقتص.

فيعانق سوَّاد بطنه عليه الصلاة والسلام، ويقبلها.

فيسأله عليه الصلاة: لماذا يا سوَّاد؟

فيرد: قد حضر ما ترى (أي أننا على وشك القتال، وقد أقتل) فأردت أن يكون آخر ما يلمسه جلدي هو جلدك..

كل هذا يحدث بين يدي بدر، والمعركة على وشك البدء، وقريش قد جاءت بفلذات كبدها لتقضي على المسلمين، وعليه الصلاة والسلام يرص الصفوف استعدادًا للمعركة. ومع كل ذلك، يكون قريبًا حميمًا من الجميع بحيث يخطط أحدهم لتقبيله، فقط تحوطًا في أنه لو نال الشهادة، يكون أيضًا قد قبَّل الرسول عليه الصلاة والسلام.

لم يكن سوَّاد بين شهداء بدر، وقد استخدمه عليه الصلاة والسلام على خيبر لاحقًا.

لكنه نال جائزة أخرى، غير مشاركته في بدر..

قبلة طبعها على جسده عليه الصلاة والسلام.

أي قائد يكون قريبًا لهذه الدرجة من جنوده؟

لكنه ليس أيَّ قائدٍ.

---

(1) صحيح مسلم:436.

بل هو النبي الذي ضمَّت شخصيته أبعادًا ما اجتمعت في أحد سواه.

عليه الصلاة والسلام.

لَمَّا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قُرَيْشًا تُصَوّبُ مِنْ الْوَادِي- وَكَانَ أَوّلُ مَنْ طَلَعَ زَمَعَةَ بْنَ الْأَسْوَدِ عَلَى فَرَسٍ لَهُ، يَتْبَعُهُ ابْنُهُ، فَاسْتَجَالَ بِفَرَسِهِ يُرِيدُ أَنْ يَتَبَوّأَ [1] لِلْقَوْمِ مَنْزِلًا- فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللهُمّ، إنّك أَنْزَلْت عَلَيّ الْكِتَابَ، وَأَمَرْتنِي بِالْقِتَالِ، وَوَعَدْتنِي إحْدَى الطّائِفَتَيْنِ[2]، وَأَنْتَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ! اللهُمّ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلَائِهَا وَفَخْرِهَا، تُحَادّك وَتُكَذّبُ رَسُولَك! اللهُمَّ، نَصْرُك الّذِي وَعَدْتنِي! اللهُمّ أَحِنْهُمْ[3] الْغَدَاةَ![4]

بِالْعُدْوَةِ الشّامِيّةِ.

...وَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْظُرُ إلَى الصّفُوفِ، فَاسْتَقْبَلَ الْمَغْرِبَ، وَجَعَلَ الشّمْسَ خَلْفَهُ، وَأَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ فَاسْتَقْبَلُوا الشّمْسَ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعُدْوَةِ الشَّامِيَّةِ[5] وَنَزَلُوا بِالْعُدْوَةِ الْيَمَانِيَّةِ- عُدْوَتَا النَّهْرِ وَالْوَادِي جَنْبَتَاهُ- فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إنْ كَانَ هَذَا مِنْك عَنْ وَحْيٍ نَزَلَ إلَيْك فَامْضِ لَهُ، وَإِلَّا فَإِنّي أَرَى أَنْ تَعْلُوَ الْوَادِيَ، فَإِنّي أَرَى رِيحًا قَدْ هَاجَتْ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي، وَإِنّي أَرَاهَا بُعِثَتْ بِنَصْرِك.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ صَفَفْت صُفُوفِي وَوَضَعْت رَايَتِي، فَلَا أُغَيّرُ ذَلِكَ! [6]

كما سبقهم إلى الآبار، سبقهم أيضًا في موضع الاصطفاف الذي يجعل الشمس خلفه، فلما جاءوا اضطروا إلى أخذ الموضع الذي يجعل الشمس في مواجهتهم.

---

(1) يتبوأ لقومه منزلًا: يبحث عن موضع لنزولهم فيه.

(2) إحدى الطائفتين: العير أو النفير.

(3) أحنهم الغداة: أهلكهم في الصباح الباكر، أي عاجلًا لا آجلًا.

(4) مغازي الواقدي: (59/1).

(5) العدوة الشامية هي جانب الوادي الأقرب للمدينة وباتجاه الشام والعدوة اليمنية هي الجهة الأخرى من الوادي باتجاه اليمن.

(6) مغازي الواقدي: (57/1).

وفي الساعات الأولى من الصباح بعد الشروق، أي عندما تكون الشمس لا تزال منخفضة، يكون هذا الموضع سيئًا للمشركين من الناحية التكتيكية، حسب مقاييس ذلك العصر بطبيعة الحال. الشمس تكون في مستوى نظر المشركين تقريبًا، وتكون أكثر سطوعًا وحِدَّة، مما يعوق رؤيتهم وتركيزهم.

يكون ذلك في أشده وقت الضحى الباكر، ويقل تدريجيًّا مع ارتفاع الشمس حيث يقل تأثيره عند الزوال، أي وقت الظهر.

بعد أن أخذ هذا الموضع وبعد رص الصفوف، جاء أحد الصحابة ليقول أهو موضع حدده الوحي؟ لأنه يرى أن هناك موضعًا آخرَ أفضل من هذا.

لن يتكرر ما حدث مع الحباب بن المنذر هذه المرة، ليس لأن الوحي هو الذي حدد المكان، ولكن لن يغير موضعه بعد أن رص الصفوف ووضع اللواء، وكان بيد مصعب بن عمير.

لن يظهر للمشركين بمظهر المتردد الذي لم يحزم أمره.

هذه المرة، الرأي والحرب والمكيدة هي التي جعلته يبقى في موضعه.

ربما لو قدم الصحابي مقترحه قبل أن يرص الصفوف ويضع اللواء، لكان يمكن أن يأخذ به عليه الصلاة والسلام، لو رأى وجاهته.

أما الآن، فلا.

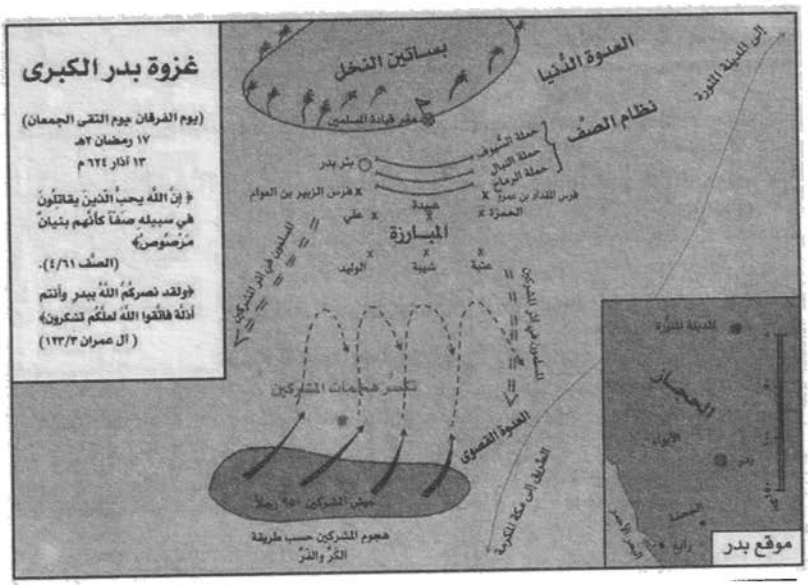

وصايا عسكرية، وأخرى اجتماعية.

وأوصى عليه الصلاة والسلام الصحابة بوصايا عسكرية خالصة:

وقَالَ: لَا تُقَاتِلُوا حَتّى أُوذِنَكُمْ، وَإِنْ كَثَبُوكُمْ فَارْمُوهُمْ وَلَا تَسُلّوا السّيُوفَ حَتّى يَغْشَوْكُمْ[1]

عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ: «إِذَا أَكْثَبُوكُمْ[2] فَارْمُوهُمْ، وَاسْتَبْقُوا[3] نَبْلَكُمْ»[4]

عن أنس قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ[5]

وَقَالَ خِفَافُ بْنُ إِيمَاءٍ: فَرَأَيْت أَصْحَابَ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَدْ تَصَافّ النّاسُ وَتَزَاحَفُوا، فَرَأَيْت أَصْحَابَ النّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَسُلّونَ السّيُوفَ، وَقَدْ أَنْبَضُوا الْقِسِيّ(6)، وَقَدْ تَرّسَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِصُفُوفٍ مُتَقَارِبَةٍ، لاَ فُرَجَ بَيْنَهَا، وَالْآخَرُونَ قَدْ سَلُّوا السُّيُوفَ حِينَ طَلَعُوا. فَعَجِبْت مِنْ ذَلِكَ فَسَأَلْت بَعْدَ ذَلِكَ رجلًا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ

فَقَالَ، أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم أَلَّا نسل السّيُوفَ حَتّى يَغْشَوْنَا.[7]

أكمل الرسول عليه الصلاة والسلام تموضع الجيش ورص الصفوف قبل أن تكمل قريش نزولها في الموضع المواجه، فأوصى الجيش بالانضباط بمجموعة من التعليمات: لا يبدأ القتال دون إشارة منه، بحيث يكون هو قرب أول من يبدأ أو قبله، لا رمي للسهام قبل أن يقترب المشركون بحيث تصيبهم السهام ولا تهدر في رمي لا طائل وراءه. ولا

(1) مغازي الواقدي: (67/1) .

(2) اكثبوكم: اقتربوا منكم.

(3) استبقوا: أي لا تهدروها برميها دون أن تصل لهم.

(4) صحيح البخاري: 3984.

(5) صحيح مسلم: 1901.

(6) أنبضوا القسي: حركوا أوتارها.

(7) مغازي الواقدي:(67/1-68) :.

أحد يستل سيفه من غمده قبل أن يقترب المشركون ويكونون على وشك الدخول فيهم. ويبين النص الأخير الفرق في ذلك بين جيش المشركين وجيش المسلمين بحيث أن أحد المشركين سأل لاحقًا عن الأمر، كان العرب في قتالهم في الجاهلية غير منظمين بصفوف ويعتمدون في الغالب على أسلوب الكر والفر، هجوم ثم انسحاب، ثم هجوم وهكذا[1]. وهذا الأسلوب لا يتطلب الكثير من الانضباط العسكري، بينما كان الأمر عند المسلمين في يوم بدر مختلفًا ومرتكزًا من الناحية العسكرية على الانضباط لدرجة أنه عليه الصلاة والسلام أمرهم بعدم سل السيوف إلا في اللحظة الأخيرة، قبل وصول المشركين إليهم.

***

كما أوصى أيضًا بعدم قتل بني عبد المطلب ومحاولة أسرهم بدلًا عن ذلك **فَإِنَّهُمْ خَرَجُوا كُرْهًا**[2] وحدد عمه العباس لأنه **خَرَجَ مُسْتَكْرَهًا**[3]، وكذلك عموم بني هاشم للسبب نفسه، وأضاف أيضًا أبا البختري بن هشام[4] من بني أسد لأنه كان من أقل الناس أذى للنبي رغم عدم إيمانه وكان ممن نقضوا وثيقة المقاطعة.

يا رسول الله، قد دنا القوم

وذهبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الْعَرِيشِ (وأبو بكر معه) وَأَصْحَابُهُ عَلَى صُفُوفِهِمْ، فَاضْطَجَعَ فَغَشِيَهُ النَّوْمُ...

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ دَنَا الْقَوْمُ..

.... فَفَزِعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ، يُنَاشِدُ رَبَّهُ مَا وَعَدهُ مِنْ النَّصْرِ[5].

بعد أن أكمل الرسول عليه الصلاة والسلام رصَّ الصفوف وأوصى الجيش ثم ذهب إلى العريش ليرتاح قليلًا ومعه أبو بكر. فغشيه النوم.

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام:(93/10).

(2) مسند أحمد:676.

(3) المستدرك على الصحيحين: 4988.

(4) دلائل النبوة:(140/3).

(5) مغازي الواقدي: (67/1).

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (الأنفال/43)

في منامه عليه الصلاة والسلام جعله عز وجل يرى جيش المشركين بعدد قليل، أقل من حقيقته..

وفي هذه الأثناء اقترب جيش المشركين.

فأوقظه أبو بكر.

***

... لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رجلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9] **فَأَمَدَهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ**[1]

هنا بدر!

بعض الأحداث المفصلية عصية على الاختزال.

وبدر بكل تفاصيلها وسياقاتها كانت كذلك.

لكن لو أن هناك موقفًا واحدًا يمكن أن يقدم بدرًا، فسيكون هذا الموقف..

موقفه عليه الصلاة والسلام وهو يدعو ربه قبل بدء القتال.

***

وقف على عتبة الحدث الكبير، على مرمى حجر من الدخول إليه...

(1) صحيح مسلم: 1763.

كان الجيشان لا يبعدان أكثر من 200-300 متر عن بعضهما بعضًا على أقصى تقدير[1].

على مرمى نظرة، بل على مرمى كلمة تقال بصوت مرتفع قليلًا فتسمع هناك.

وخلال دقائق سيبدأ النزال، على الأقل ستبدأ المبارزة.

نظر عليه الصلاة والسلام إلى أصحابه، ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، مقابل ألفًا من المشركين.

قبل قليل كان قد رأى المشركين في منامه وهم أقل بكثير، أراه الله عز وجل وذلك.

والآن هو ينظر لهم على أرض الواقع، لا، عددهم أكبر بكثير.

كان لا بدَّ أن يتفاعل عليه الصلاة والسلام مع ما أراه الله في المنام، وما يراه على أرض المعركة..

كما لو أنه عز وجل يقوده إلى هذا الدعاء، إلى هذا الموقف على عتبة المعركة.

وقف عليه الصلاة والسلام يدعو بتلك الدعوة التي عبرت عن وعيه بتاريخية اللحظة ومفصليتها وأثرها على كل شيء مما سيأتي بعدها.

كان يدرك عليه الصلاة والسلام أنه يقف على مفترق طريق التاريخ في هذا الوادي، بدر، وأن الاتجاه الذي سيذهب له تيار الأحداث في السويعات القليلة القادمة، سيحدد كل ما سيحدث لاحقًا من الآن فصاعدًا، وكان يدرك أيضًا أن موازين القوى العددية المجردة ليست في صالح المسلمين..

وقف عليه الصلاة والسلام رافعًا يديه، مستقبلًا القبلة، يطلب من الله عز وجل أن ينجز وعده، ويأتي بوعده، لقد وعده إحدى الطائفتين، إما القافلة وإما الجيش، ...وهذا الوقت الذي سيتحقق فيه الوعد.

ثم قال تلك الجملة: **اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض أبدًا.**

قال العصابة.

---

(1) حسب madain project

والعصابة في لسان العرب هم مجموعة من الأشخاص، لا يتجاوز عددهم الأربعين رجلًا، مجتمعون على شيء واحد، وقد جدّوا في السير إليه[1].

لم يكونوا أربعين، كانوا أكثر بطبيعة الحال، لكنهم قلة أمام جيش قريش، وقلة أمام بقية العرب..

كانوا كما وصفهم القرآن بعد ذلك، أذلة.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران/123)

هذه الفئة القليلة، التي وصفها عز وجل بهذا الوصف، كانت تحمل الدين الخاتم، وكان فيهم خاتم النبيين، وإن حدث وهلكوا في هذه المواجهة، فهذا يعني أن البشر قد فقدوا آخر فرصهم في النجاة.

أو هذا ما يفهم مما قاله عليه الصلاة والسلام.

لكنه عليه الصلاة والسلام كان يعرف أنه قد وعده عز وجل، وأن وعده حق، فلماذا إذن هذا الدعاء بهذه الطريقة؟

الوعد حق. وهو مؤمن بذلك.

لقد أراد أن يعامل هذا الوعد بما يستحق من الخضوع والتذلل والعبودية.

رفع يديه وابتهل، حتى سقط رداءه عن كتفيه، فأعاده أبو بكر وهو يقول إن الله سينجز ما وعده.

لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام أقل ثقةً من أبي بكر، حاشاه.

لكنه كان يريد أن يتحقق الوعد وقد استغاث ربه أكثر..

ربما كان يريد أن يتحقق هذا الوعد بأقل قدر من الأذى للمؤمنين..

أو بطلب ما يدخل الطمأنينة على قلوب المؤمنين وهم على وشك الدخول في اللحظة الفارقة.

ببشارة تجعلهم يدخلون دون أن يكون التفوق العددي مربكا لهم.

وهكذا كان..

جاء المدد.

---

(1) لسان العرب: عصب.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال/9).

نزل الوحي ليخبره ألا يقلق من قلة العدد، لقد جاء المدد بألف من الملائكة.

أَتُرَاهُمْ سَبْعِينَ؟

وكما أراه الله في منامه المشركين أقل من عدده الحقيقي، كذلك كان كل طرف يرى الآخر فيقدر عدده بأقل من حقيقته...

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الأنفال/44)

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود قَالَ: لَقَدْ قُلِّلُوا فِي أَعْيُنِنَا يَوْمَ بَدْرٍ، حَتَّى قُلْتُ لِصَاحِبِي الَّذِي إِلَى جَانِبِي: كَمْ تُرَاهُمْ؟ أَتُرَاهُمْ سَبْعِينَ؟

قَالَ: أُرَاهُمْ مِائَةً،

حَتَّى أَخَذْنَا مِنْهُمْ رجلًا فَسَأَلْنَاهُ، فَقَالَ: كُنَّا أَلْفًا[1]

يا عُتْبَةُ: تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ وَتَكُونُ أَوَّلَهُ!

ثم دعا عتبة إلى المبارزة.

لكن عتبة كان من أكثر سادة قريش دعوة إلى التهدئة والعودة عن القتال، حتى إنه عرض أن يدفع دية عمرو بن الحضرمي إلى أخيه عامر لكي يتنازل ويصبح الأمر كله من الماضي.

وكان كارهًا للخروج من البداية.

كيف انتهى به الأمر أن يكون أول من ينادي بالقتال؟

نعم دعا عتبة إلى العودة، ولاقت دعوته في البداية قبولًا، ثم نفخ أبو جهل في الأمر وسعَّره، ونادى عامر يطالب بدم أخيه، وتغير الموقف.

(1) المعجم الكبير للطبراني: 10269.

حتى والمعركة على وشك أن تبدأ، والمشركون يتجمعون مقابل المسلمين وقد أنهى الرسول عليه الصلاة والسلام تسوية صفوفهم، كان عتبة لا يزال يحاول ألا يحدث قتال.

فَلَمَّا دَنَا الْقَوْمُ مِنَّا وَصَافَفْنَاهُمْ إِذَا رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَحْمَرَ يَسِيرُ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « يَا عَلِيُّ نَادِ لِي حَمْزَةَ -وَكَانَ أَقْرَبَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ-: مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ، وَمَاذَا يَقُولُ لَهُمْ؟» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ يَأْمُرُ بِخَيْرٍ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ « فَجَاءَ حَمْزَةُ فَقَالَ: هُوَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَهُوَ يَنْهَى عَنِ الْقِتَالِ، وَيَقُولُ لَهُمْ: يَا قَوْمُ، إِنِّي أَرَى قَوْمًا مُسْتَمِيتِينَ لَا تَصِلُونَ إِلَيْهِمْ وَفِيكُمْ خَيْرٌ، يَا قَوْمُ اعْصِبُوهَا الْيَوْمَ بِرَأْسِي، وَقُولُوا: جَبُنَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي لَسْتُ بِأَجْبَنِكُمْ[1]

ما الذي حدث إذن؟ كيف تحول عتبة من ناهي عن القتال إلى أول داع له؟

فَسَمِعَ ذَلِكَ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: أنت تَقُولُ هَذَا؟ وَاللهِ لَوْ غَيْرُكَ يَقُولُ هَذَا لَأَعْضَضْتُهُ[2]**، قَدْ مَلَأَتْ رِئَتُكَ جَوْفَكَ رُعْبًا، فَقَالَ عُتْبَةُ: إِيَّايَ تُعَيِّرُ يَا مُصَفِّرَ اسْتِهِ**[3]**؟ سَتَعْلَمُ الْيَوْمَ أَيُّنَا الْجَبَانُ، قَالَ: فَبَرَزَ عُتْبَةُ وَأَخُوهُ شَيْبَةُ وَابْنُهُ الْوَلِيدُ حَمِيَّةً، فَقَالُوا: مَنْ يُبَارِزُ؟**[4]

أوقعه أبو جهل في الفخ.

أهانه علنًا وقال إنه ممتلئ جبنًا.

وهو سيد من سادات قريش، والجبن عند العرب إهانة كبيرة، وفي سياق كلام أبي جهل إهانات أكبر لكنه وضعها في سياق (لو أن غيرك قالها).

ووجد عتبة نفسه -مع أخيه شيبة وابنه الوليد- مضطرًا أن يزيل هذه الإهانة العلنية عبر إثبات عكس ما قاله أبو جهل.

لا بالقبول بالحرب والكف عن النهي عنها فحسب.

بل بأن يكون أول من يدعو لبدء القتال.

حتى إن حكيمًا بن حزام استغرب هذا..

(1) مسند أحمد: 948.

(2) لأعضضته: سباب من العيار الثقيل.

(3) مصفر استه: سباب من العيار الثقيل أيضًا.

(4) مسند أحمد: 948.

وَأَقْبَلَ عُتْبَةُ يَعْمِدُ إِلَى الْقِتَالِ، فَقَالَ لَهُ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ: أَبَا الْوَلِيدِ، مَهْلًا، مَهْلًا! تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ وَتَكُونُ أَوَّلَهُ![1]

ولكن آلية التعويض المفرط (overcompensation) تفعل ذلك وأكثر[2].

قُمْ يَا حَمْزَةُ، قُمْ يَا عَلِيُّ، قُمْ يَا عُبَيْدَةَ

عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: تَقَدَّمَ -يَعْنِي عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ- وَتَبِعَهُ ابْنُهُ وَأَخُوهُ فَنَادَى مَنْ يُبَارِزُ؟ فَانْتَدَبَ لَهُ شَبَابٌ مِنَ الْأَنْصَارِ. فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا فِيكُمْ إِنَّمَا أَرَدْنَا بَنِي عَمِّنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُمْ يَا حَمْزَةُ، قُمْ يَا عَلِيُّ، قُمْ يَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ». فَأَقْبَلَ حَمْزَةُ إِلَى عُتْبَةَ، وَأَقْبَلْتُ إِلَى شَيْبَةَ، وَاخْتُلِفَ بَيْنَ عُبَيْدَةَ وَالْوَلِيدِ ضَرْبَتَانِ فَأَثْخَنَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، ثُمَّ مِلْنَا عَلَى الْوَلِيدِ فَقَتَلْنَاهُ، وَاحْتَمَلْنَا عُبَيْدَةَ[3]

لم تكن مبادرة عتبة بالمبارزة إيجابية على قريش.

فقد نادى بها حمية كرد فعل على اتهام أبي جهل له بالجبن، وليس اقتناعًا منه بقتال المسلمين.

والتحق به أخوه شيبة وابنه الوليد حمية له.

وكان أن قتل ثلاثتهما.

وأصيب عبيدة بن الحارث بساقه ثم استشهد لاحقًا نتيجة الضربة.

كانت نتيجة المبارزة لصالح المسلمين على نحو جلي، فقدت قريش اثنين من كبار زعمائها على الفور وثالث من أبنائهم.

لا بدَّ أن هذا كان له أثره الفوري على الروح المعنوية للطرفين، سلبًا على المشركين وإيجابًا على المسلمين.

لكن أبا جهل اتَّهم عتبة ومن معه بالتعجل والغرور.

---

(1) مغازي الواقدي: (1/67)

(2) آلية التعويض المفرط ظاهرة نفسية وصفها ألفرد أدلر Alfred Adler، تعني أن الفرد يُبالغ في إظهار القوة أو النجاح في مجال معيّن ليُخفي شعوره العميق بالنقص في مجال آخر. مثل من يشعر بالضعف الجسدي فيُبالغ في السيطرة أو التسلّط لتعويض ذلك.

(3) سنن أبي داود: 2556.

أبو جهل في حالة إنكار؟

وَأَقْبَلَ أَبُو جَهْلٍ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَحَضَّهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَقَالَ: لَا يَهُولَنكُمْ مَقْتَلُ عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَالْوَلِيدِ، فَإِنَّهُمْ عَجَّلُوا وَبَطِرُوا حِينَ قَاتَلُوا! وَأَيْمُ اللهِ، لَا نَرْجِعُ الْيَوْمَ حَتَّى نَقْرِنَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فِي الْحِبَالِ، فَلَا أُلْفِيَن أَحَدًا مِنْكُمْ قَتَلَ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَلَكِنْ خُذُوهُمْ أَخْذًا، نُعَرِّفُهُمْ بِالَّذِي صَنَعُوا لِمُفَارَقَتِهِمْ دِينَكُمْ وَرَغْبَتَهُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ![1]

رفع أبو جهل سقف خطابه، لم يعد يطالب بقتل النبي عليه الصلاة والسلام ومن معه، بل أصبح يطالب بأخذهم أسرى. يقول للمشركين لا تقتلوهم، بل خذوهم مصفَّدين بالحبال لكي نعذبهم!

هل كان أبو جهل يقول هذا لكي يرفع الروح المعنوية للمشركين؟ أم كان مقتنعًا فعلًا بما يقول؟

هل من الممكن أن يكون قد عجز عن رؤية المشهد على حقيقته؟ هل عجز حقًّا عن قراءة أن موازين القوة ليست بالضرورة كما قد تخيل أو تمنى؟

صحيح أن الاشتباك الحقيقي لم يبدأ بعد، لكن خسارة قريش ثلاث من سادة بني عبد شمس قبل أن تبدأ المعركة لا يمكن أن يمر بلا تأثير.

فلننتبه أنه لم يحاول حتى استخدام مقتل عتبة وشيبة والوليد بن عتبة لإثارة حماسة المقاتلين أو رغبتهم بالثأر والانتقام، بل تحدث عنهم كما لو أنهم قد تسببوا بقتل أنفسهم.

هل كان أبو جهل في حالة إنكار؟

ربما (أناه) المتضخمة أوصلته إلى مستوى من النرجسية التي تجعله وقت الأزمة ينزل على عينيه عصابة الإنكار التام لكل ما يحدث. شاهدنا طغاة وهم يؤكدون ليلة سقوطهم أن كل شيء بخير وأن شعوبهم تموت عشقا بهم. كذلك ربما كان أبو جهل، ينكر ما يراه بأم عينه، ويؤكد أنه قادر على أخذ الرسول واصحابه أسرى.

ثم نادى أبو جهل ببدء القتال.

(1) مغازي الواقدي: (71/1).

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: **لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرٍ، أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ: حِينَ الْتَقَى الْقَوْمُ: «اللَّهُمَّ أَقْطَعَنَا الرَّحِمَ، وَآتَانَا بِمَا لَا يُعْرَفُ فَأَحْنِهِ الْغَدَاةَ، فَكَانَ الْمُسْتَفْتِحَ**[1]**»**[2]

سوّلت له أناه المتضخمة أن تتورم أوهامه، وقاده إنكاره إلى أن يبدأ الدعوة للقتال بالدعاء لله أن يهلك الفئة الظالمة.

هذا النوع من الأشخاص يصل إلى هذه الدرجة من تضخم الأنا، حيث يعتقدون أنهم فعلًا على صواب، وأن غيرهم على خطأ، لدرجة أنهم يدعون الله بالنصر على الفئة الظالمة دون أن يحدد من هي الفئة، لا شك لديه أنه على صواب بحيث أن الأمر لا يحتاج إلى ذكر..

وكان يدعو الله على نفسه.

ونزلت الآية الكريمة:

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال/19)

بخٍ بخٍ! وغنائم

أما عليه الصلاة والسلام فقد دعا المؤمنين إلى الجنة...

فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»[3]

لكن ليس ذلك فقط. كانت الجنة أولًا، ولكنها ليست وحدها.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: **«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ أَسَرَ أَسِيرًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا»**[4]

(1) المستفتح: البادئ بأمر عبر الدعاء.

(2) مسند أحمد: 23661.

(3) صحيح مسلم: 1901.

(4) سنن أبي داود: 2738.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَتَى مَكَانَ كَذَا وَكَذَا، أَوْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا، فَلَهُ كَذَا وَكَذَا» فَسَارَعَ إِلَيْهِ الشُّبَّانُ وَثَبَتَ الشُّيُوخُ تَحْتَ الرَّايَاتِ[1]

نعم الجنة أولًا، ولكن هناك أيضًا الغنائم. لا يمكن تجاهل الطبيعة البشرية بكل تنوعاتها وتدرجاتها واختلافاتها، لا تتحرك المجتمعات أصلًا دون وجود هذه التنوعات والاختلافات.

هناك من يسمع أن الجنة التي عرضها السماوات والأرض على بعد أقدام منه، فيهب لها وهو يقول (بَخٍ بَخٍ[2])[3]

وهناك من يريد الجنة، ولكنه يريد أيضًا الغنائم إن لم يستشهد، وربما يفضل -برغبة البقاء الغريزية- أن تكون الجنة لاحقًا. النصر والغنائم الآن وهنا، والجنة ونعيمها لاحقًا.

الرؤية السائدة تنظر إلى مشهد الـ (بَخٍ بَخٍ) بتبجيل (مستحق بلا شك)، لكنها تتجاهل النظر إلى بقية الصحابة الذين كان ترتيب أولوياتهم مختلفًا أو أنها تنظر لهم باستحياء كما لو أنهم أقل مكانة. رغم أن المشهد لا يكون متكاملًا إلا بوجود الطرفين، رضوان الله عليهم جميعًا.

اختلاف الأولويات هو الذي يدفع بعجلة المجتمع، لا يمكن لمجتمع أن يتقدم إذا كان كل أفراده لهم ترتيب الأولويات نفسها، في نقطة ما سيزدحم الجميع على الهدف نفسه في التوقيت ولن يحدث أي تقدم.

المهم أن تكون هذه الأولويات كلها ضمن الطبيعة البشرية التي خضعت لمقاييس الخطأ والصواب والحلال والحرام كما أرادها الخالق عز وجل.

لقد خاطبهم عز وجل في موقف معين فور انتهاء المعركة: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ (الأنفال/67).

يريدون عرض الدنيا؟ نعم. البعض منهم، مَن هم؟ بعض أهل بدر، الذين قال عنهم عليه الصلاة والسلام لاحقًا:

(1) السنن الكبرى للنسائي:11133.

(2) بَخٍ بَخٍ: اسم فعل يستخدم للتعبير عن الإعجاب بشيء.

(3) صحيح مسلم: 1901.

لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ؟ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ، أَوْ: فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ[1]

اختلاف ترتيب الأولويات أمر طبيعي.

ونرى في كل هذا وبوضوح شخصية القائد في الرسول عليه الصلاة والسلام... توظيف اختلاف ترتيب الأولويات لصالح الدولة الناشئة التي تمر في منعطفها التاريخي.

وابتدأت المعركة.

السيوف في اللحظة الأخيرة

نعود لوصيته عليه الصلاة والسلام بعدم سل السيوف حتى اللحظة الأخيرة.

وأريد أن أضغط على زر الإيقاف هنا، على هذه اللحظة، أريدها أن تتجمد وأقف لأتأمل فيها.

هذه اللحظة تشكلت بناءً على توصياته الصريحة الواضحة قبل المعركة.

فلتكن زاوية الرؤية عندنا من الناحية الأخرى، من جهة المشركين.

ها نحن نتقدم نحو المسلمين بسرعة، نهرول باتجاههم، شعارات الثأر والحمية والانتقام، وشرف القبيلة ودين الآباء.

ومشاعر أننا أقوى.

عددنا أكبر، بثلاثة أضعاف، وعدتنا أكثر وأفضل، لدينا مئة فارس ولا نرى لديهم إلا فارسين، نحن أشد قوة ومنعة، سنسحقهم، سيكونون فريسة سهلة، لن يأخذ الأمر سوى وقت قليل، ربما سيفرون أصلًا قبل المواجهة.

نقترب أكثر، نكاد نراهم بوضوح...لكن هناك شيئًا مختلفًا عن توقعاتنا.

كنا نتوقع أن يتحركوا، باتجاهنا لإيقافنا، أو بأي اتجاه آخر للفرار أو لإعادة التوزيع.

لكنهم واقفون في أماكنهم كما لو أن على رؤوسهم الطير، لا يتحركون، في صفوف منظمة متراصة، كما لو أنهم لا يروننا.

***

(1) صحيح البخاري: 3983.

هنا تبدأ سلسلة من التفاعلات النفسية في دواخل المشركين، تفاعل سيقود إلى آخر، وكلٌ منها سيأكل من ثقتهم بأنفسهم.

أولًا: خلخلة التوقعات المسبقة

(Disruption Of Expectations Effect- Violation Of Expectations)

عندما يدخل المقاتل ساحة القتال وهو يتوقع نمطًا معينًا من رد الفعل عند الطرف الآخر، ثم يواجهه الواقع بشيء مختلف يبدأ بالشك والارتباك، هل هذا كمين؟ هل هناك فخ؟

هذا التخلخل بين التوقعات والواقع يعطل مراكز القرار اللحظي عند المهاجمين، ويبدأ في سحب بساط الثقة من تحت أقدامهم[1].

ثانيًا: الرهبة من الثبات والثقة التي لا تهتز (Fear of Unshaken Confidence)

عندما يواجه العدو خصمًا ثابتًا لا تبدو عليه أي رهبة من قوتك فإن ذلك سيترجم ولو على نحو غير واعٍ عند المهاجم أن خصمه لديه قوة داخلية غير طبيعية، ثقة بالنصر، وعدم خوف من الموت، وهذا يجعل المهاجم يسأل: هل يعرف هؤلاء شيئًا لا أعرفه؟ لماذا لا يتحركون؟ هل يتوقعون تدخلا إلهيًّا؟ لماذا هم واثقون لهذه الدرجة؟

وهذا كله يُترجم نفسيًّا بشعور بالرهبة والخوف وهو يتسرب إلى نفسية المهاجم الذي كان قبل لحظات واثقًا من نصره.[2]

ثالثًا: تآكل وهم التفوق العددي(Disillusionment with numerical superiority)

عندما يواجه العدو خصمًا أقل عددًا، ولكنه لا يظهر الخوف في المواجهة فإن ما كان قد بناه من تصور عن حتمية النصر بسبب تفوقه العددي يبدأ بالضعف والتآكل، العدد مهم ولكنه نادرًا ما يكون العامل الحاسم في النصر[3].

(1) Meyer, W.-U., Reisenzein, R., & Schützwohl, A. (1997). Toward a process analysis of emotions: The case of surprise. *Motivation and Emotion, 21*(3), 251–274. https://doi.org/10.1023/A:1024422330338
Grossman, D. (2004). *On killing: The psychological cost of learning to kill in war and society.* Back Bay Books.
Damasio, A. R. (1994). *Descartes' error: Emotion, reason, and the human brain.* Putnam

(2) Gray, J. A. (1987). *The psychology of fear and stress.* Cambridge University Press.

(3) Clausewitz, Carl von. *On War.* Trans. Michael Howard and Peter Paret. Princeton University Press, 1976.

هناك الكثير من الدراسات عن الأمر، وصار الأمر يرتبط بقصة داود وجالوت ويسمى أحيانًا بنظرية داود وجالوت أو متلازمة داود وجالوت، حيث تكون الصفات التي يتوقع أنها ستكون السبب في النصر هي ذاتها السبب في الهزيمة، بينما صعوبات الطرف الذي يبدو أنه أضعف ستدفعه إلى ابتكار أساليب مختلفة تقوده إلى النصر[1].

رابعًا: تأثير التوقيت المفاجئ (Psychological Shock of Timing)

هنا اللحظة الحاسمة.

من زاوية الرؤية التي اخترناها، شهدنا المسلمين ثابتين لا يتحركون بينما المشركون يقتربون منهم، وبما أننا نرى بعيون المشركين، فقد مررنا بعدة تفاعلات نفسية أكلت من ثقتنا بأنفسنا وأوهام النصر الحتمي واغترارنا بتفوقنا العددي، التوتر يزداد مع الاقتراب، لا يزال المسلمون ثابتين كما لو أنهم لا يروننا أصلًا، هل سيتركوننا نذبحهم؟ هل سينتهي الأمر هكذا؟ هل هذا فخ؟

وفجأة تشهر السيوف.

ولأنه عليه الصلاة والسلام قد اختار موضعًا يجعلهم يقفون والشمس وراءهم فإن السيوف ستظهر فجأة وهي تلتمع بسبب انعكاس أشعة الشمس عليها، وسيزيد هذا كله من الصدمة التي تراكمت كل التفاعلات النفسية السابقة لكي توصلنا لها.

هذا ما حدث على صعيد الدواخل النفسية: كانوا يتوقعون ردة فعل معينة عندما بدأوا في الهجوم.

لم يحدث هذا، ولم يحدث أي رد فعل أصلًا.

خلق هذا توترا بسبب الفرق بين المتوقع والواقع، بين التصور المسبق وبين المعطيات على الأرض.

أدى هذا إلى حالة من الشك والريبة.

وأدى هذا بدوره إلى تراجع في الثقة بالنفس وفي المعنويات.

ثم يظهر رد الفعل فجأة، بينما التوتر قد جعل ثقتهم بأنفسهم تهتز.

تلتقي السيوف بينما هم في حالة الصدمة والتراجع النفسي.

(1) Gladwell, M. (2009, May 4). *How David beats Goliath. The New Yorker.* https://www.newyorker.com/magazine/2009/05/11/how-david-beats-goliath
Gladwell, M. (2013). *David and Goliath: underdogs, misfits, and the art of battling giants.* First edition. Little, Brown and Company.

هذه تفاعلات لا تخص معركة بدر تحديدًا، هي تفاعلات عصبية نفسية[1]، ولكن يمكن تطبيقها على ما حدث في معركة بدر كحالة نموذجية.

***

الرسول في ساحة المعركة، الرسول القائد عليه الصلاة والسلام.

لم يدرس علم النفس.

لم يدرس في أعلى الأكاديميات العسكرية.

لكن هذه اللقطة، اللحظة الحاسمة، كافية لتجعلنا نفهم أنه قد ختم هذا النمط من الشخصية، شخصية القائد.

يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ

بدأت المعركة، واشتدت..

وفي قلب المعركة كان عليه الصلاة والسلام يسجد في العريش ويكرر الدعاء..

قَاتَلْتُ شيئًا مِنْ قِتَالٍ ثُمَّ جِئْتُ مُسْرِعًا لِأَنْظُرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا فَعَلَ فَجِئْتُ فَأَجِدُهُ وَهُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ» لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى الْقِتَالِ، ثُمَّ جِئْتُ وَهُوَ سَاجِدٌ، يَقُولُ ذَلِكَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى الْقِتَالِ ثُمَّ جِئْتُ وَهُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ ذَلِكَ فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ.[2]

علي بن أبي طالب يقاتل ثم يعود ليطمئن على الرسول عليه الصلاة والسلام، فيجده ساجدًا وهو يقول **يا حي يا قيوم**، فيذهب يقاتل، ويعود مرة أخرى، فيجده على الحال نفسها..

وكان هذا من الأدعية التي يدعو بها عليه الصلاة والسلام عندما يكربه أمر ما:

عن أنس بن مالك قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر قال **يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**[3]

---

(1) Fanselow, M. S., & Lester, L. S. (1988). A functional behavioristic approach to aversively motivated behavior: Predatory imminence theory. In R. C. Bolles & M. D. Beecher (Eds.), *The psychology of learning and motivation* (Vol. 22, pp. 185–212). Academic Press. https://doi.org/10.1016/S0079-7421(08)60009-5

(2) المستدرك: 809.

(3) سنن الترمذي: 3524.

لكن هذا لا يعني أنه لم يشارك في القتال.. فعن علي بن أبي طالب أيضًا:

قَالَ: لَقَدْ « رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ[1] بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا[2]

كيف يمكن الجمع بين الأمرين؟ إنه كان عليه الصلاة والسلام ساجدًا وهو يدعو الله عز وجل وأنه كان في ساحة القتال يحارب؟

في الغالب، كانت عادة عرب الجاهلية القتال بأسلوب الكر والفر كما سبق، لذا كان المشركون ينسحبون إلى نقطة يتجمعون فيها، وربما يلتقطون أنفاسهم ثم يعاودون الكرة، وكان هذا يعني وجود فترات ينقطع فيها القتال.

في فترات الانقطاع هذه كان يختلي عليه الصلاة والسلام بربه، الحي القيّوم.

ماذا عن المدد الملائكي؟

مدد الملائكة جاء بعد أن دعا الرسول عليه الصلاة والسلام ربه، إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض أبدًا..

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال/ 9-10)

الغاية الأولى من مدد الملائكة كان إشعار المؤمنين أنهم ليسوا فئة قليلة.

وهذا واضح في الآية: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ﴾ (الأنفال/10)

لكن هل حاربت الملائكة مع المسلمين؟

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال/12)

---

(1) نلوذ: نحتمي.

(2) مسند أحمد: 654.

وهناك خلاف بين المفسرين حول المخاطب في (فاضربوا)، هل هم الملائكة أم المؤمنون، فذهب القرطبي[1] أن المقصود هو الملائكة، بينما ذهب الطبري[2] والرازي[3]، وابن كثير[4] والزمخشري[5] إلى أن المخاطب هم المؤمنون.

وبكل الأحوال، ورغم أن الهدف الأساسي كان تثبيت المؤمنين في القتال (كما هو واضح في الآيتين 10 و12) فإن هناك أحاديث صحيحة كثيرة ذكرت أن الملائكة حاربت فعلًا في يوم بدر.

عليَّ أن أسجل هنا أن صورة الملائكة في أذهاننا مرتبطة بصورهم المرسومة في الأديان الأخرى، تسربت هذه الصورة إلى أذهاننا لكن لا شيء في نصوص ديننا يحدد الملائكة بهذه الصورة، وما نعرفه أن بعضهم على الأقل يتمثل بأشكال مختلفة.

نحن لا نعرف مظهر الملائكة ولا أشكالهم في يوم بدر، ولسنا ملزمين بصورة ذهنية تسربت من أديان أخرى، لذا فعندما نؤمن بمدد الملائكة (الثابت قرآنيًّا) أو مشاركتهم في القتال (المختلف في تأويله في القرآن)، فإن هذا جزء من إيماننا بالغيب الذي هو ركن من أركان إيماننا، ما دمنا مؤمنين بالدين فإن هناك حتمًا جزءًا من هذا الإيمان لا يخضع للعقل المادي الذي نتعامل به مع معطيات واقعنا اليومي.

الأحاديث تروي أشكالًا متنوعة لمشاركة الملائكة في بدر.

أحيانًا كان هناك قتال فعلي مباشر شاهد الصحابة أثره دون أن يروا الملائكة

بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ

(1) تفسير القرطبي: (3/378).

(2) تفسير الطبري: (13/423).

(3) تفسير الرازي: (15/463).

(4) تفسير ابن كثير: (4/26).

(5) تفسير الزمخشري: (2/205).

ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»[1]

عَنْ أَبِي دَاوُدَ الْمَازِنِيِّ، وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا، إِنِّي لَأَتْبَعُ رجلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِأَضْرِبَهُ، إِذْ وَقَعَ رَأْسُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفِي، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِي».[2]

وأحيانًا كانت المشاركة في أسر المقاتلين من قريش كما في حديث أسر العباس حيث قال أحد الأنصار إنه هو من أسر العباس عم النبي عليه الصلاة والسلام، بينما وصف العباس شخصًا آخر وقال عنه إنه من أحسن الناس وجهًا، ولما أصر الأنصاري على أنه هو من أسر العباس قال له عليه الصلاة والسلام **«اسْكُتْ، فَقَدْ أَيَّدَكَ اللهُ تَعَالَى بِمَلَكٍ كَرِيمٍ».**[3]

والثابت عبر القرآن أن مدد الملائكة قد زاد لاحقًا، عندما انتشر بين المسلمين أن المشركين سيصلهم مدد من مكة:

رَوَى بن أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ إِلَى الشَّعْبِيِّ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بَلَغَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَنَّ كُرْزَ بْنَ جَابِرٍ يَمُدُّ الْمُشْرِكِينَ[4] فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَلَنْ يكفيكم أَن يمدكم ربكُم بِثَلَاثَة آلَاف الْآيَةَ.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (آل عمران/123-126)

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) صحيح مسلم: 1763.

(2) مسند أحمد: 23778.

(3) مسند أحمد: 948.

(4) فتح الباري: (7/285).

هل حاربت الملائكة في يوم آخر غير يوم بدر؟

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «لَمْ يُقَاتِلِ الْمَلَائِكَةُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا يَوْمَ بَدْرٍ وَكَانَتْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ إِمدادًا[1]

والحديث ضعيف، وهناك حديث صحيح يشير إلى قتال الملائكة في يوم أحد.

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَمَعَهُ رَجُلَانِ يُقَاتِلَانِ عَنْهُ، عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ، كَأَشَدِّ القِتَالِ مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ**»[2]

كما وردت بعض التفسيرات التي ربطت نزول الملائكة بغزوة حنين

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (التوبة/26)

وكذلك في غزوة الخندق

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الأحزاب/9)

ولكن الوصف الذي استخدم في هاتين الآيتين (وكذلك في الآية 40 من سورة التوبة عن وجود الرسول عليه الصلاة والسلام في الغار) هو وصف الجنود غير المرئيين، وهذا قد يكون أي شيء مما يقدره الله، بينما آيات سورة الأنفال وسورة آل عمران كانت صريحة وواضحة بشأن الملائكة.

بكل الأحوال، هذا كان خاصًّا بالرسول عليه الصلاة والسلام وبوجوده في هذه الغزوات، ووفق تسلسل الأحداث لم يأتِ مدد الملائكة من الله إلا بعد أن وقف عليه الصلاة والسلام يستغيث ربه على أعتاب المعركة.

والسبب الرئيس لنزول الملائكة حسب القرآن كان لتثبيت المؤمنين، مع عدم إنكار أنهم قاتلوا معهم حسب أحاديث صحيحة، وحسب بعض تفسيرات الآية التي اختلف فيها المفسرون.

---

(1) المعجم الكبير للطبراني: 11377.

(2) صحيح البخاري: 4054.

الأمر كان خاصًّا بالرسول عليه الصلاة والسلام، نؤمن فيه كما نؤمن بإسرائه ومعراجه بل كما نؤمن قبل ذلك بنزول الوحي عليه ربه.

لذا فمن المؤسف أن تجد هنا من يروج لقصص نزول الملائكة للقتال في مواجهات معاصرة، وهناك الكثير من هذه القصص في الأربعين سنة الأخيرة وهي تستخدم غالبًا لإثارة الحماسة والعاطفة وصناعة صورة أسطورية مبالغ بها للجهة التي نزل إليها الملاك المزعوم.

وبغض النظر عن نية مروجي هذه القصص، فإن آثارها على المدى البعيد سلبي جدًّا، لأنها تبتذل شيئًا خصَّه الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام في معارك بعينها، وعندما يتبين كذب هذه القصص أو اختلاقها أو مبالغاتها فإن هذا قد يرتد سلبًا على ما ثبت وصح وما لا يمكن اعتباره إلا جزءًا من إيماننا وديننا.

أكثر من ربع القتلى لعلي!

اشتدت المعركة، وقاتل الصحابة قتالًا شديدًا.

حمزة قال عنه أحد مشركي قريش ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل[1] وقال آخر عن علي بن أبي طالب: **كان لَيْثًا عِبقريًّا**[2] **يَفْرِي الْفَرِيَّا**[3]، **وَهُوَ يَقُولُ: لَنْ تَأْكُلُوا التَّمْرَ بِبَطْنِ مَكَّةَ**[4] (أي مخاطبًا المشركين يقول لهم لن تعودوا لمكة)، وقد قتل علي بن أبي طالب وحده اثنين وعشرين رجلًا من أصل السبعين الذين قتلوا من قريش في بدر.[5]

وسعد بن أبي وقاص الذي **قاتل قتال الفارس والراجل**[6] وأبو بكر الصديق الذي قال عنه علي بن أبي طالب كان **أشجع الناس يوم بدر إذ وقف شَاهِرًا بِالسَّيْفِ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَهْوِي إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا أَهْوَى عَلَيْهِ**[7] والزبير بن

(1) المستدرك على الصحيحين: 2548.

(2) عبقري: سيد القوم وكبيرهم القوي الفطن حاد الذكاء.

(3) يفري الفريا: إذا عمل العمل أجاده.

(4) المعجم الكبير للطبراني: 2956.

(5) مغازي الواقدي: (1/ 152).

(6) مسند البزار: 1517.

(7) مسند البزار: 761.

العوام الذي **انثنت عنزته (وهي رمح قصير أو حربة صغيرة) من كثرة استخدامها فطلبها منه عليه الصلاة والسلام واحتفظ بها ثم استردها الزبير بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.**[1]

كذلك قتل بعض الصحابة أقارب الدم منهم. أبو عبيدة بن الجراح كان يتجنب أباه لكن الأخير ظلَّ يتصدى ليحاول قتله، فاقتتلا وقتل أبو عبيدة أباه[2].

وقتل عمر بن الخطاب خاله العاص[3].

ولم تكن الأنصار أقل شدةً وبأسًا يوم بدر: منهم عمير بن الحمام الذي قال (بخٍ بخٍ) فور بدء القتال[4].

وأبو دجانة الذي قتل أكثر من مشرك كان يستهدف قتل الرسول عليه الصلاة والسلام[5] وعوف ومعوذ أبناء الحارث (أمهما عفراء) وعبد الله بن رواحة[6] ومعاذ بن عمرو الجموح. [7]

بالتدريج بدأ مشركو قريش يدركون أن قد هزموا، وبدأ بعضهم بالهروب..

لكن بعض النهايات لم تكن نهاية لحدث بدأ قبل ساعات.

بل لحدث كان قبل سنوات.

حدث في مكة، طارد أصحابه مثل قدر حتمي لا فرار منه، وأوصلهم إلى بدر.

وقائع موت معلن

المكان: مكة، عند الكعبة.

الزمان: السنة الخامسة للبعثة، تقريبًا.

---

(1) صحيح البخاري: 3998.

(2) المستدرك على الصحيحين: 5152.

(3) مسند الفاروق: 625.

(4) صحيح مسلم: 1901.

(5) مغازي الواقدي: (1/86).

(6) سيرة ابن هشام: (1/625)، تحقيق السقا.

(7) صحيح مسلم: 1752.

المناسبة: صلاة النبي عليه الصلاة والسلام عند الكعبة.

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى[1] جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى القَوْمِ[2] فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لاَ أُغْنِي شيئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدٌ لاَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ البَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ».[3]

ستة أشخاص بالاسم[4].

أبو جهل/ عمرو بن هشام.

عتبة بن ربيعة.

شيبة بن ربيعة.

الوليد بن عتبة.

أمية بن خلف.

---

(1) سلا جزور: المشيمة وهي غشاء جنين الناقة المذبوحة.

(2) أشقى القوم: عقبة بن أبي معيط.

(3) صحيح البخاري: 240.

(4) بعض الروايات تذكر اسم عمارة بن الوليد بن المغيرة أيضًا، وهو شقيق خالد بن الوليد، وكان من أجمل الرجال في قريش وهو الذي عرضت قريش على أبي طالب أن تبادله بالنبي عليه الصلاة والسلام! لكن لا يوجد ما يدل أنه قتل في بدر، تذكر الأخبار أنه ذهب مع عمرو بن العاص إلى الحبشة للطلب النجاشي بإرجاع المسلمين، وتذكر كتب السيرة قصة غريبة عن محاولته إغراق عمرو بن العاص في البحر، ومن ثم محاولته التحرش بزوجة النجاشي ووشاية عمرو بن العاص به ومن ثم هربه إلى الأدغال والعيش مع الوحوش فيها ومن ثم موته في عهد خلافة عمر، والقصة تبدو درامية أكثر من الحقيقة، لأنها لو صحت أو صح أجزاء منها لكانت عرفت بسند صحيح وانتشرت، ولكن على ما يبدو أنه لم يرجع من الحبشة ومات فيها أو انقطعت أخباره.

عقبة بن أبي معيط.

عتبة وشيبة والوليد بن عتبة قتلوا فورًا في المبارزة الأولى.

بقي ثلاثة.

***

عقبة بن أبي معيط هو الذي وضع سَلَا الجزور على ظهر الرسول عليه الصلاة والسلام ليضحك ملأ قريش، الذي كان سبق له أن قال الشهادة ثم تراجع عنها بضغط من صديقه أبي بن خلف الذي طلب منه لا أن يتراجع عن الشهادة فقط، بل إن يبصق على وجه الرسول الكريم[1]...

فأما عقبة هذا، فقد أسر في بدر ومن ثم أمر الرسول عليه الصلاة بقتله.

أن رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- لمَّا أقبَلَ بالأُسارَى حَتَّى إذا كان بعِرْقِ الظُّبيَةِ أمَرَ عاصِمَ بنَ ثابِتِ بنِ أبي الأقلَحِ أن يَضرِبَ عُنُقَ عُقبَةَ بنِ أبى مُعَيطٍ، فجَعَلَ عُقبَةُ بنُ أبى مُعَيطٍ يقولُ: يا ويلاه عَلامَ أُقتَلُ مِن بَينِ هَؤُلاءِ؟

فقالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «لِعَداوَتِكَ للهِ ولِرسولِه».

فقالَ: يا محمدُ مَنُّكَ أفضَلُ، فاجعَلنى كَرَجُلٍ مِن قَومِى؛ إن قَتَلتَهُم قَتَلتَنِى، وإن مَنَنتَ عَلَيهِم مَنَنتَ علىَّ، وإن أخَذتَ مِنهُمُ الفِداءَ كُنتُ كأحَدِهِم، يا محمدُ مَن لِلصِّبيَةِ؟

فقالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-:

«النَّارُ. يا عاصِمَ بنَ ثابِتٍ، قَدِّمْه فاضرِبْ عُنُقَه». فقَدَّمَه فضَرَبَ عُنُقَه[2].

قتله أسيرًا؟

نعم، قتله أسيرًا، وأستطيع أن أتخيل من سيقول ماذا عن معاهدة جنيف وحقوق الأسرى؟ عدا عن المغالطة المنطقية في إسقاط مواد معاهدة وقعت في عام 1949 (وبعد أن أكملت الدول الأوروبية كل حروبها الكبرى) على حادثة في القرن السابع الميلادي، لكن حتى ضمن معاهدة جنيف هناك استثناءات تخص المجرمين وتتيح محاكمتهم وإصدار الحكم عليهم.

(1) سيرة ابن هشام، تحقيق السقا: (1/361).

(2) السنن الكبرى للبيهقي: 18081.

وهذا ما كان مع عقبة.

لو أنه عاد لمكة بعد دفع الفدية، فسيحارب المسلمين من جديد وربما بشدة أكبر.

ليس هناك أي مجال للمخاطرة بجعل عدو كهذا يفلت في الوقت الذي لا تزال فيه الدولة في مرحلة النشوء.

ربما لو كانت في مرحلة أخرى، سيكون هناك موقف آخر.

وهكذا كان بالفعل في مرحلة لاحقة.

أما الآن فلا.

***

وأمية بن خلف؟

عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَاتَبْتُ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ كِتَابًا، بِأَنْ يَحْفَظَنِي فِي صَاغِيَتِي[1] بِمَكَّةَ، وَأَحْفَظَهُ فِي صَاغِيَتِهِ بِالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا ذَكَرْتُ الرَّحْمَنَ[2]» قَالَ: لاَ أَعْرِفُ الرَّحْمَنَ، كَاتِبْنِي بِاسْمِكَ الَّذِي كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَكَاتَبْتُهُ: عَبْدَ عَمْرٍو، فَلَمَّا كَانَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ، خَرَجْتُ إِلَى جَبَلٍ لِأُحْرِزَهُ[3] حِينَ نَامَ النَّاسُ، فَأَبْصَرَهُ بِلَالٌ، فَخَرَجَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مَجْلِسٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ: لاَ نَجَوْتُ إِنْ نَجَا أُمَيَّةُ، فَخَرَجَ مَعَهُ فَرِيقٌ مِنَ الأَنْصَارِ فِي آثَارِنَا، فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يَلْحَقُونَا، خَلَّفْتُ لَهُمُ ابْنَهُ لِأَشْغَلَهُمْ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ أَبَوْا حَتَّى يَتْبَعُونَا، وَكَانَ رجلًا ثَقِيلًا، فَلَمَّا أَدْرَكُونَا، قُلْتُ لَهُ: «ابْرُكْ»[4] فَبَرَكَ، فَأَلْقَيْتُ عَلَيْهِ نَفْسِي لِأَمْنَعَهُ[5]، فَتَخَلَّلُوهُ[6] بِالسُّيُوفِ مِنْ تَحْتِي حَتَّى

(1) صاغيتي: أهلي وحاشيتي.

(2) فلما ذكرت الرحمن: يقصد لما ذكر اسمه عبد الرحمن في المكاتبة.

(3) لأحرزه: لأحفظه.

(4) ابرُك: انبطح.

(5) لأمنعه: لأحميه منهم.

(6) تخللوه: أدخلوا سيافهم خلاله.

قَتَلُوهُ، وَأَصَابَ أَحَدُهُمْ رِجْلِي بِسَيْفِهِ، وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ يُرِينَا ذَلِكَ الأَثَرَ فِي ظَهْرِ قَدَمِهِ[1]

كان عبد الرحمن بن عوف قد كاتب أمية بن خلف على أن يحافظ على أهله وحاشيته في مكة. وكان أمية يرفض حتى أن يلفظ اسم الرحمن رفضًا منه لكل ما جاء به الإسلام، فكانت المكاتبة باسم عبد الرحمن القديم قبل إسلامه، عبد عمرو.

عندما حدثت المعركة، تمكن عبد الرحمن من أن يأسر أمية بن خلف لينقذه من القتل ومعه ابنه علي بن أمية، وبينما هو يحاول الانسحاب رآه بلال بن رباح وصاح: **لا نجوت إن نجا أمية.**

وأمية هو الذي عذب بلال لإسلامه عندما كان عبدًا له، وبقي يعذبه إلى أن اشتراه أبو بكر الصديق.

صاح بلال: لا نجوت إن نجا أمية.

وانتبه الأنصار، فأسرع عبد الرحمن تاركا لهم ابن أمية، لكنهم قتلوه ومضوا خلف أمية الذي كان ثقيل الجسم بطيء الحركة، فطلب منه عبد الرحمن أن يلقي بنفسه أرضًا ثم ألقى بنفسه عليه لكي يحميه منهم.

لكنهم قتلوه، وأصيب عبد الرحمن في قدمه.

***

وماذا عن رأس حربة كفار قريش وفرعونهم؟

أبو جهل.

مات ميتة تليق به.

وهناك ثلاث روايات عن قتله.

كل واحدة من زاوية.

وتفرق دمه بين ثلاثة على الأقل.

كما كان يريد أن يتفرق دم الرسول عليه الصلاة والسلام بين القبائل.

---

(1) صحيح البخاري: 2301.

عَنْ عبد الرحمن بن عوف، قَالَ بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بِغُلاَمَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ - حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا[1]، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا[2] -فَغَمَزَنِي[3] أَحَدُهُمَا فَقَالَ: يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لاَ يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَه[4] حَتَّى يَمُوتَ الأَعْجَلُ مِنَّا، فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الآخَرُ، فَقَالَ لِي مِثْلَهَا، فَلَمْ أَنْشَبْ[5] أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، قُلْتُ: أَلاَ إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي، فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا، فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلاَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ: «أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟»، قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ، فَقَالَ: «هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟»، قَالاَ: لاَ، فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ: «كِلاَكُمَا قَتَلَهُ، سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الجَمُوحِ»، وَكَانَا مُعَاذَ ابْنَ عَفْرَاءَ، وَمُعَاذَ بْنَ عَمْرِو بْنِ الجَمُوحِ[6]

يقول عبد الرحمن بن عوف أنه عندما كان واقفًا استعدادًا للقتال وجد نفسه بين شابين صغيرين من الأنصار، وتمنى في نفسه لو أنه كان بين رجلين أشد قوة من هذين.

ثم مال عليه أحدهما يسأله: هل تعرف شكل أبي جهل؟ فسأله عن السبب فقال إنه سمع أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويريد أن يقتله، ثم سأله الشاب الأخر السؤال نفسه.

ثم ظهر أبو جهل وهو يتجول بين جيش قريش فأشار لهما عبد الرحمن بن عوف إليه، هذا مَن تطلبان.

(1) حديثة أسنانهما: صغيرا السن.

(2) أضلع منهما: أشد قوة منهما.

(3) فغمزني: أشار لي.

(4) لا يفارق سوادي سواده: لا يترك جسدي جسده.

(5) لم أنشب: لم ألبث.

(6) صحيح البخاري: 3141.

فظلا يحومان حوله إلى أن ابتدراه بسيفيهما وقتلاه.

ثم ذهبا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فأخبراه أنهما ضرباه معًا، فسألهما إن كانا قد مسحا سيفيهما، ثم تفحص السيفين، فقال لهما إنهما شاركا بالقتل معًا، لكن غنيمة أبي جهل ستكون من نصيب معاذ بن عمرو بن الجموح، أما الآخر فقد كان معاذ بن الحارث (ابن عفراء).

عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَنْظُرُ لَنَا مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ؟» فَانْطَلَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَوَجَدَهُ قَدْ ضَرَبَهُ ابْنَا عَفْرَاءَ[1]، حَتَّى بَرَدَ[2]، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، فَقَالَ: أنت أَبُو جَهْلٍ؟ فَقَالَ: وَهَلْ فَوْقَ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ - أَو قَالَ: قَتَلَهُ قَوْمُهُ -، قَالَ: وَقَالَ أَبُو مِجْلَزٍ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: فَلَوْ غَيْرُ أَكَّارٍ[3] قَتَلَنِي[4]

سأل الرسول عليه الصلاة والسلام عن أبي جهل وماذا حل به، وربما هذا قبل أن يأتياه معاذ بن عفراء ومعاذ بن عمرو بخبر قتلهما له، أو ربما أيضًا بعد أن جاءا، ولكن أراد أن يتأكد من موته...فذهب عبد الله بن مسعود يبحث عنه بين الجثث فوجده لا يزال فيه رمق أخير، ولكنه لم يكن متأكدًا من هويته (ربما لأنه جرح بشكل كبير في وجهه)، فسأله: أأنت أبو جهل؟

فكان الجواب طافحًا بأناه الطاغية حتى في لحظات الموت: وهل قتلتم من هو أفضل مني؟

ثم استدرك: فقط لو أن الذي قتلني لم يكن فلاحًا...

كان يتمنى أن يقتله رجل في مكانة أفضل من مكانة الفلاح من وجهة نظره.

بالتأكيد لا رجل سيكون كفؤًا له...لكن على الأقل ليس فلاحًا.

كانت تلك آخر أمنياته.

---

(1) معاذ بن الحارث هو ابن عفراء، والآخر هو معاذ بن عمرو بن الجموح أما معوذ ابن عفراء الآخر فقد تصدى لعتبة عندما نادى للمبارزة مع شقيقه ومع عبد الله بن رواحة ولكن لا يوجد ما يدل على قتله أبي جهل غير هذه الإشارة.

(2) حتى برك في هذا الحديث وبرد في حديث رقم 3862 والأصح برد أي كاد يفارق الحياة.

(3) أكار: فلاح أجير.

(4) صحيح مسلم: 118.

وعندما وضع عبد الله بن مسعود رجله على عنقه قال له لَقَدْ ارْتَقَيْت مُرْتَقًى صَعْبًا يَا رُوَيْعِيَ الْغَنَمِ[1]

ثم أجهز عليه.

وَرَأَتْ بَنُو مَخْزُومٍ مَقْتَلَ مَنْ قُتِلَ، قَالُوا: أَبُو الْحَكَمِ، لَا يَخْلُصُ إلَيْهِ، فَإِنّ ابْنَيْ رَبِيعَةَ قَدْ عَجّلَا وَبَطِرَا، وَلَمْ تُحَامِ عَلَيْهِمَا عَشِيرَتُهُمَا. فَاجْتَمَعَتْ بَنُو مَخْزُومٍ فَأَحْدَقُوا بِهِ[2]، فَجَعَلُوهُ فِي مِثْلِ الْحَرَجَةِ[3]. وَأَجْمَعُوا أَنْ يَلْبَسُوا لْأَمَةَ[4] أَبِي جَهْلٍ رجلًا منهم، فألبسوها عبد الله ابن الْمُنْذِرِ بْنِ أَبِي رِفَاعَةَ، فَصَمَدَ[5] لَهُ عَلِيّ عَلَيْهِ السّلَامُ فَقَتَلَهُ وَهُوَ يَرَاهُ أَبَا جَهْلٍ، وَمَضَى عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ: خُذْهَا وَأَنَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطّلِبِ! ثُمّ أَلْبَسُوهَا أَبَا قَيْسِ بْنَ الْفَاكِهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ: فَصَمَدَ لَهُ حَمْزَةُ وهو يراه أبا جهل فضربه[6] قَتَلَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ! ثُمّ أَلْبَسُوهَا حَرْمَلَةَ بْنَ عَمْرٍو، فَصَمَدَ لَهُ عَلِيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَتَلَهُ، وَأَبُو جَهْلٍ فِي أَصْحَابِهِ. ثُمَّ أَرَادُوا أَنْ يُلْبِسُوهَا خَالِدَ بْنَ الْأَعْلَمِ، فَأَبَى أَنْ يَلْبَسَهَا يَوْمَئِذٍ.

فَقَالَ معاذ بن عمرو ابن الْجَمُوحِ: نَظَرْت إلَى أَبِي جَهْلٍ فِي مِثْلِ الْحَرَجَةِ، وَهُمْ يَقُولُونَ: أَبُو الْحَكَمِ، لَا يَخْلُصُ إلَيْهِ! فَعَرَفْت أَنّهُ هُوَ، فَقُلْت: وَاَللهِ لَأَمُوتَن دونه اليوم أو لا أخلصنَّ إلَيْهِ! ...فَضَرَبْته ضَرْبَةً وَطَرَحْت رِجْلَهُ مِنْ السَّاقِ، فَشَبَّهْتهَا بِالنَّوَاةِ تَنْزُو[7] مِنْ تَحْتِ الْمَرَاضِخِ[8]. ثُمّ أَقْبَلَ ابْنُهُ عِكْرِمَةُ عَلَيّ، فَضَرَبَنِي عَلَى عَاتِقِي[9]، وَطَرَحَ يَدِي

(1) مغازي الواقدي: (1/90).

(2) أحدقوا به: أحاطوا به من كل جانب.

(3) الحرجة: دائرة مغلقة من الأشخاص.

(4) اللأمة: السلاح الكامل من الخوذة والدرع والسيف.

(5) صمد له: أقبل عليه.

(6) مغازي: (1/86).

(7) تنزو: تقفز وترتد.

(8) المراضخ: جمع المرضخة، والمرضخة حجر يرضخ به النوى، أي يكسر.

(9) عاتقي: العاتق ما بين الكتف والعنق.

مِنْ الْعَاتِقِ، إلَّا أَنَّهُ قَدْ بَقِيَتْ جِلْدَةٌ، فَإِنِّي أَسْحَبُ يَدِي بِجِلْدَةٍ مِنْ خَلْفِي، فَلَمَّا آذَتْنِي وَضَعْت عَلَيْهَا رِجْلِي، فَتَمَطَّيْت عَلَيْهَا حَتَّى قَطَعْتهَا.

عن عَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَنّ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عليه وآله وَسَلَّمَ نَفّلَ مُعَاذَ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ سَيْفَ أَبِي جَهْلٍ- وَهُوَ عِنْدَ آلِ مُعَاذِ بْنِ عَمْرِو الْيَوْمَ، بِهِ فَلّ[1]- بَعْدَ أَنْ أرسل النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وَسَلَّمَ إلَى عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ فَسَأَلَهُ: مَنْ قَتَلَ أَبَاك؟ قَالَ: الّذِي قَطَعْت يَدَهُ[2].

بنو مخزوم رأت مقتل سادة قريش، فقرروا أن يحموا أبا جهل بأي حال. أخذوا لأمته (سلاحه الكامل من الدرع والخوذة والسيف الذي كان يميز أبا جهل ويعرف به) إلى شخص آخر منهم، فأقبل علي بن أبي طالب وهو يظنه أبا جهل وقتله، فألبسوها آخر، فجاء حمزة وقتله، فألبسوها ثالث، فقتله علي أيضًا، ثم أرادوا أن يلبسوها رابع فأبى.

وبينما هم يتناقشون في ذلك سمعهم معاذ بن عمرو بن الجموح وفهم ما يدور فضربه ضربة قطعت رجله، فأقبل عكرمة بن أبي جهل وضرب معاذ بن عمرو بن الجموح على كتفه فتدلت يده ثم قطعت.

ثم لاحقًا أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام يسأل عكرمة: من قتل أباك.

فأجاب: الذي قطعت يده.

كيف نرتب هذه الأخبار عن مقتل أبي جهل؟

في البداية هناك شابان صغيران يسألان عبد الرحمن بن عوف عن أبي جهل، أتراه؟ فيشير إليه من بعيد، وهو يعرفه من خوذته ودرعه.

في خضم المعركة يحاول الشابان ملاحقة أبي جهل وهما يميزانه من خوذته ودرعه كما أشار لهما عبد الرحمن بن عوف.

ينتبهان، أو واحد منهما على الأقل، أن صاحب هذه الخوذة يقتل، ثم تصبح الخوذة على رجل آخر، ويقتل أيضًا، وهكذا ثلاث مرات، مما يعني أن أبا جهل الحقيقي ليس أيًّا من هؤلاء.

---

(1) بِهِ فَلّ: به خدش.

(2) مغازي الواقدي: (1/-86 87).

إلى أن يكون هناك تردد وارتباك عندما يرفض رابع رجل أن يرتدي خوذة أبي جهل.

فيسمع معاذ الحوار وفيه من يتحدث مع (أبي الحكم) باسمه، فيميزه ويضربه بسرعة على رجله، بينما يهاجمه عكرمة بن أبي جهل مدافعًا عن أبيه ويضربه على كتفه فيقطع يده.

أبو جهل لم يمت فورًا على أي حال، وحسب الحديث الآخر فقد ضربه معاذ بن الحارث (الذي أمه عفراء) بعد ضربة معاذ بن عمرو...

عندما أرسل عليه الصلاة والسلام عبد الله بن مسعود لكي يرى ماذا حدث لأبي جهل وحدث بينهما الحوار الذي لخص شخصية أبي جهل حتى وهو في رمقه الأخير، كان هناك من ضربه أكثر من ضربة مميتة، وأجهز عليه ابن مسعود.

وعندما ذهب معاذ بن عمرو ومعاذ بن الحارث إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وأخبراه، فحص السيفين وقرر أن يكون النفل (سيف أبي جهل) من حصة معاذ بن عمرو بن الجموح مع تأكيده لهما أنهما قد قتلاه سوية.

مات ميتة يستحقها، على يد أشخاص كان يراهم أقل مكانة من أن يقتلوه.

وربما كان هذا أكثر إيلامًا له من ضربة السيف التي قطعت رجله...

لأنها كانت طعنة في أناه.

أناه المتورمة التي أخرجته من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام (اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِعمرو بن هشام أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ»[1] إلى (اللهم عليك بعمرو بن هشام)..

***

على قليب بدر، الذي ألقيت فيه جثث مشركي قريش الذين قتلوا في بدر...

وقف عليه الصلاة والسلام وناداهم، بأسمائهم، يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان..

«هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حقًّا؟»[2]

(1) سنن الترمذي:3681، وصححه الألباني.

(2) صحيح البخاري: 4026.

لم يُسمع منهم رد.

لكننا نعرفه.

وجدوه حقًّا.

كما وجده المسلمون في بدر حقًّا.

قريش بعد بدر: لقد أخبرتكم عاتكة!

عندما بلغت أنباء ما حدث لقريش، صدمت لدرجة أن عدم التصديق كان رد الفعل الأول.

أول من وصلها شخص اسمه الحَسيمان بن عبد الله الخزاعي وجعل يعدد أسماء من قتلوا من سادة قريش وزعمائها.

لم يصدقوه.

فأخذوا يسألونه عن رجال لم يخرجوا للقتال في بدر، فإذا قال إنهم قتلوا انكشف وبان كذبه. وإذا قال عن هؤلاء أنهم لم يرهم في الجيش أو لا يعرف عنهم شيء يكون صادقًا.

فسألوه عن صفوان بن أمية، وكان في مكة، وما فعل صفوان بن أمية؟

فقال لهم: صفوان لم يخرج، ولكني رأيت أباه وأخاه يقتلان[1].

كان رد فعل الإنكار لما حدث في بدر هو أول رد فعل يصدر عن قريش، وهو رد فعل طبيعي جدًّا لأن ما حدث في بدر لم يكن متوقعًا لأحد في مكة.

(أم كانوا يخشونه فعلا بعد رؤيا عاتكة؟)

بالتدريج بدأت تتأكد الأخبار، فعدد مَن نجا من القتل أو الأسر وفر من المعركة كان كبيرًا، وأخذوا يصلون تباعًا وهم يحملون أخبار ما حدث.

(1) تحقيق السقا سيرة ابن هشام: (1/646).

قتل من قريش سبعون رجلًا وأسر مثلهم وكان بنو مخزوم وبنو عبد شمس هم أكثر بطون قريش تكبدًا للخسائر، حيث قتل من بني مخزوم 24 رجلًا، ومن بني عبد شمس 14 رجلًا.

يليهم في ذلك بنو أسد وبنو سهم حيث خسر كل منهم سبعة رجال.

لكن لكي نفهم الأثر الكبير الذي أحدثته بدر على خريطة موازين القوى بين قريش والرسول عليه الصلاة والسلام علينا أن نفهم أكثر عن طبيعة قتلى قريش في بدر.

أفلاذ كبدها

بحسابات الأرقام المجردة، نسبة القتلى من مشركي قريش في بدر كانت 7%. نسبة مرتفعة ولكن ليست مرتفعة للغاية، ليست كارثة كبيرة.

الكارثة الحقيقية كانت في طبيعة هذه الـ 7 %.

لقد ضمت سادة قريش وزعمائها والصف الأول منها.

من السبعين كان هناك على الأقل عشرون سيدًا من سادات قريش.

أكثر من ربع القتلى كانوا من السادة والزعماء.

والكارثة التي لا تقل عن هذا كان عدد الأسرى، سبعون آخرين. 7% أخرى.

والكارثة التي لا تقل عن هذه وتلك كان وقع الهزيمة ذاتها، ذلت قريش أمام كل العرب وهي التي كانت تخطط لإقامة مهرجان للنصر يسمع به الجميع، تنحر فيه الجزور ويطعم فيه الطعام وتشرب الخمر وتعزف القيان، الخطة كانت جاهزة.

ثم أُجهز على الخطة وعلى قريش.

وما وصل من أخبار عن خوف قريش من الشماتة يبين لنا أن الكارثة الأخيرة كانت لا تقل عن بقية الكوارث.

وجه قريش أمام العرب كان يعني لها الكثير.

ولكن هذا كله خارج التغير الحقيقي الذي حصل في مكة.

التغير في موازين القوى وطبيعتها.

قائمة الأشد عداوة

قريش لم تكن قبيلة واحدة لكي يكون لها سيد أو زعيم واحد، بل كانت أقرب إلى تآلف عشائري مختلط وفي كل عشيرة وبطن هناك سادة وشخصيات تتزعم ويمتد تأثيرها من عشيرتها إلى بقية العشائر بدرجات متفاوتة، وكان هذا التأثير مرتبط بعدد أفراد العشيرة وقوتها ومالها وبدرجة كبيرة بقوة شخصية الزعيم المتصدر لها وبقدرته في التأثير على قرارات بقية الزعماء وسادات العشائر.

ولقد رأينا كيف استطاع أبو جهل التأثير على قرار كل قريش عبر ما استخدمه من أساليب جعلت حتى من يخالفه في آرائه يندفع نحو حتفه قبل أبي جهل شخصيًّا.

حدد المؤرخون[1] سبعة وعشرين شخصية في قريش كانت الأكثر عداءً للرسول عليه الصلاة والسلام[2].

وهؤلاء السبعة وعشرون شخصًا لم يكونوا بطبيعة الحال بنفس مستوى عداء أبي جهل مثلًا، لكنهم كلهم كانوا أعداء، وفي كل صراع، هناك مستويات مختلفة من العداء.

على سبيل المثال، هناك من ضمن هؤلاء أبو البختري الذي كان من ضمن وفد قريش إلى أبي طالب الذي طالب بتسليم الرسول عليه الصلاة والسلام إليهم، لكنه أيضًا كان من الذين نقضوا صحيفة المقاطعة، وقد حفظ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام هذا الموقف له، فأمر بعدم قتله في يوم بدر، لكنه قاوم الأسر فقتل.

من هؤلاء السبعة وعشرون، هناك ثلاثة ماتوا كفارا قبل يوم بدر[3]. بوفاة طبيعية.

(1) إمتاع الأسماع: (1/41-42).

(2) من بني هاشم: أبو لهب. من بني المطلب بن عبد مناف: ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب. من بني نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدي (أخو مطعم)، الحارث بن عامر بن نوفل. من بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري بن هشام بن الحارث، الأسود بن المطلب بن أسد. من بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف (وهو ابن خال الرسول عليه الصلاة والسلام). من بني عبد شمس: الحكم بن أبي العاص بن أمية، عتبة وشيبة ابنا ربيعة، العاص بن سعيد بن أمية، عقبة بن أبي معيط. من بني عبد الدار: النضر بن حارث بن علقمة بن كلدة. من بني مخزوم: عمرو بن هشام أبو جهل، الوليد بن المغيرة، أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، زهير بن أبي أمية (ابن عاتكة عمة النبي عليه الصلاة والسلام)، هبيرة بن أبي وهب المخزومي. من بني سهم: العاص بن وائل، الحارث بن قيس بن عدي، منبه ونبيه ابنا الحجاج بن عامر. من بني جمح: أمية وأبي بن خلف. من خزاعة: الحارث بن مالك (وقيل عمرو بن مالك) وهو ابن الطلاطلة، عدي بن الحمراء. من المحالفين: الأخنس بن شريق وهو ثقفي محالف لبني زهرة.

(3) وهم العاص بن وائل السهمي، الحارث بن قيس بن عدي والوليد بن المغيرة.

أي أن العدد صبيحة يوم بدر قل إلى أربع وعشرين.

قتل ثلاثة عشر منهم في يوم بدر.

أي أن أكثر من نصف هؤلاء الأعداء قتلوا في يوم واحد.

بضمنهم رأس حربة صقور الملأ القريشي: **أبو جهل عمرو بن هشام.**

وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف، وطعيمة بن عدي، والحارث بن عامر بن نوفل، والنضر بن حارث بن علقمة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، ومنبه ونبيه بن الحجاج، وعتبة وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام بن الحارث، والعاص بن سعيد بن أمية.

أربعة ممن تبقوا ماتوا بوفاة طبيعية بعد بدر وقبل أحد، وبضمنهم أبو لهب، والأسود بن المطلب بن أسد والأسود بن عبد يغوث بن وهب، ومالك بن الطلاطلة.

وعندما يموت كل هؤلاء، وبضمنهم أبو جهل زعيم الحرب على الرسول عليه الصلاة والسلام.

فقد كان هذا يعني أن مكة تتغير[1].

وكان هذا كله يصب لصالح زعامة مختلفة في قريش.

***

وَلَمّا رَجَعَتْ قُرَيْشٌ إلَى مَكَّةَ قَامَ فِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حرب فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لَا تَبْكُوا عَلَى قَتْلَاكُمْ، وَلَا تَنُحْ عَلَيْهِمْ نَائِحَةٌ، وَلَا يَبْكِهِمْ شَاعِرٌ، وَأَظْهِرُوا الْجَلَدَ وَالْعَزَاءَ، فَإِنَّكُمْ إذَا نُحْتُمْ عَلَيْهِمْ وَبَكَيْتُمُوهُمْ بِالشِّعْرِ أَذْهَبَ ذَلِكَ غَيْظَكُمْ، فَأَكَلَكُمْ ذَلِكَ عَنْ عَدَاوَةِ مُحَمّدٍ وَأَصْحَابِهِ، مَعَ أَنَّهُ إنْ بَلَغَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ شَمِتُوا بِكُمْ، فَيَكُونُ أَعْظَمَ الْمُصِيبَتَيْنِ شَمَاتَتَهُمْ، وَلَعَلّكُمْ تُدْرِكُونَ ثَأْرَكُمْ، وَالدّهْنُ وَالنّسَاءُ عَلَيّ حَرَامٌ حَتّى أَغْزُوَ مُحَمّدًا. فَمَكَثَتْ قُرَيْشٌ شَهْرًا لَا يَبْكِيهِمْ شَاعِرٌ وَلَا تَنُوحُ عَلَيْهِمْ نَائِحَةٌ[2].

والتزمت قريش بذلك لشهر ثم تدخل كعب بن الأشرف وكتب أبياتا يرثي بها قتلى قريش..

---

(1) أسلم أربعة من الباقين وهم: ركانة بن عبد يزيد بن هاشم والحكم بن أبي العاص بن أمية والأخنس بن شريق وزهير بن أبي أمية بن المغيرة.

(2) مغازي الواقدي:(1/121).

فَلَمّا أَرْسَلَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ أَخَذَهَا الناس معه وَأَظْهَرُوا الْمَرَاثِيَ وَجَعَلَ مَنْ لَقِيَ مِنْ الصّبْيَانِ وَالْجَوَارِي يُنْشِدُونَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ بِمَكّةَ، ثُمّ إنّهُمْ رَثَوْا بِهَا، فَنَاحَتْ قُرَيْشٌ عَلَى قَتْلَاهَا شَهْرًا، وَلَمْ تَبْقَ دَارٌ بِمَكّةَ إلّا فِيهَا نَوْحٌ، وَجَزّ النّسَاءُ شَعْرَ الرُّءُوسِ، وَكَانَ يُؤْتَى بِرَاحِلَةِ الرّجُلِ مِنْهُمْ أَوْ بِفَرَسِهِ فَتُوقَفُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَيَنُوحُونَ حَوْلَهَا، وَخَرَجْنَ إلَى السّكَكِ فَسَتَرْنَ السّتُورَ[1] فِي الْأَزِقّةِ وَقَطَعْنَ الطّرُقَ فَخَرَجْنَ يَنُحْنَ، وَصَدّقُوا رُؤْيَا عَاتِكَةَ.[2]

صدقوا رؤيا عاتكة؟

ولم يصدقوا الأهم..

لم يراجعوا ما حدث منذ البداية..

أبو سفيان: زعيم بالتصفيات

لا نعرف إن كان أبو سفيان بن حرب يريد هذه الزعامة أو يطمح لها أساسًا.

لكنه وجد نفسه في موضع يحتم عليه أن يتخذ موقف الزعامة.

كان ضد القتال، رغم أنه من دعا قريش إلى النفير، لكنه كان يرى أن يعود الجيش إلى مكة ونقل عنه موقفًا حادًّا مما اعتبره حماقة أبي جهل.

في الوقت ذاته، نكبت عشيرته بني عبد شمس بمقتل أربعة عشر من رجالها، من ضمنهم عتبة بن ربيعة والد زوجته هند، وشقيقها الوليد بن عتبة وعمها شيبة، كما قتل أيضًا ابنه: حنظلة بن أبي سفيان، وأسر ابنه الآخر: عمرو.

وكانت عشيرته بني عبد شمس وعشيرة أبي جهل بنو مخزوم، هي الأهم والأقوى في قريش.

وجد نفسه بعد بدر سيدًا لقريش، في غياب كل الشخصيات القوية الأخرى. بقوة الفراغ.

وكان أبو سفيان مختلفًا جدًّا عن أبي جهل.

---

(1) سترن الستور: وضعن حواجز على الطريق للنوح فيها.

(2) مغازي الواقدي: (122/1).

كان عدوًّا بلا شك للرسول عليه الصلاة والسلام، رافضًا لكل ما جاء به، لكنه لم يكن يتصدى للرسول في شوارع مكة بكلام بذيء أو بموقف مهين. لم يكن ذلك بسبب أنه أكثر تقبلًا لرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام، بل كان ذلك غالبًا بسبب طبيعته الشخصية الأكثر حذرًا وتحسبًا.

ماذا نعرف عن طبيعته الشخصية؟

مما هو معروف عنه أنه كان بخيلًا شحيحًا.

قالت زوجته هند بنت عتبة للرسول عليه الصلاة والسلام لاحقًا، بعد فتح مكة وإسلامها:

إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ آخُذَ مِنْ مَالِهِ سِرًّا؟ قَالَ: «خُذِي أنت وَبَنُوكِ مَا يَكْفِيكِ بِالْمَعْرُوفِ».[1]

ولو نذكر ما قاله ولداه عند جمع قريش الأموال لدعم النفير، عندما سألتهم قريش أن يساهموا بمال: قالا المال لأبي سفيان[2]. أي أنه لم يكن يسمح لهما بالتصرف في ماله حتى في ظل ظروف استثنائية.

الأكثر من هذا، عندما أسر ابنه عمرو، رفض أن يدفع الفداء لفك أسره.

كَانَ عَمْرُو بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ أَسِيرًا فِي يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَسْرَى بَدْرٍ. فَقِيلَ لِأَبِي سُفْيَانَ: افْدِ عَمْرًا ابْنَكَ، قَالَ: أَيُجْمَعُ عَلَيَّ دَمِي وَمَالِي! قَتَلُوا حَنْظَلَةَ، وَأَفْدِي عَمْرًا! دَعُوهُ فِي أَيْدِيهِمْ يُمْسِكُوهُ مَا بَدَا لَهُمْ[3].

ثم احتجز أحد الأنصار ممن ذهب إلى مكة معتمرًا، وبادله بابنه.

إذن بخل أبي سفيان أمر مؤكد.

ما علاقة هذا بالموضوع؟

له علاقة بشخصيته التي ستؤثر على طبيعة الصراع القادم مع المسلمين، معه عليه الصلاة والسلام.

---

(1) صحيح البخاري: 2211.

(2) مغازي الواقدي: (32/1).

(3) سيرة ابن هشام: (650/1).

والبخل أو الشح بحد ذاته لا يقود بالضرورة إلى أن يكون الشخص برغماتيًّا، يمكن أن يكون الشخص بخيلًا ولكن مندفعًا، فيفكر فقط في المصالح السريعة الآنية ويقوده ذلك إلى إهمال النتائج بعيدة المدى.

وقد يكون هذا البخيل متحسبًا حذرًا، فيفكر بالنتائج طويلة الأمد، الآجلة ويحسب حساباتها على حساب المصالح العاجلة.

ويبدو أن أبا سفيان كان من النوع الثاني.

دعا إلى النفير والقتال لإنقاذ القافلة، فلما أفلت بها، رأى ألا حاجة للقتال.

في الحالتين: المصلحة هي من قادته إلى موقفه.

كانت بوصلته هي المصلحة، بينما كانت (الأنا) والزعامة الشخصية هي بوصلة أبي جهل.

وكان ذلك يعني صراعًا مختلفًا.

سيبقى الصراع قائمًا، لكن ستكون هناك معطيات مختلفة.

في كل الأحوال سيكون على أبي سفيان أن يحرز (نصرًا) ما، ليس بالضرورة بحجم هزيمة بدر، لكن أي نصر، على الأقل ليحفظ ماء وجهه وقد أصبح سيد قريش بفعل فراغ القوة الذي نشأ بعد بدر.

وذلك سيكون في وقفة أخرى من السيرة.

إن شاء الله.

عندما طلع يوم بدر علينا

بموازين القوة العسكرية، لم تكن معركة بدر معركة كبيرة، حتى لو حسبت بمقاييس عصرها.

قُتل من قريش سبعون رجلًا، ومن المسلمين استشهد أربعة عشر صحابيًّا.

أي أن العدد من الطرفين لم يتجاوز المئة.

بمقاييس العدد هذه معركة صغيرة أو متوسطة[1].

لكنها ربما كانت أكبر معركة صغيرة في التاريخ من ناحية تأثيراتها على إقليمها، ومن ثم على كل العالم القديم خلال مدة تقل عن العقدين. وهو أمر لم يحدث له مثيل في التاريخ.

لو نظرنا إلى الأمر من السطح الخارجي دون أن نحسب حساب قوة فكرة الإيمان ونمط التفكير المختلف الذي جاء مع الإيمان وشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام، فكل شيء قبل بدر كان يقول إن هناك مشروعَ تمرد على السائد في الجزيرة، وأن فرص هذا المشروع في النجاح والتمدد تبدو ضئيلة أو شبه منعدمة. مجرد صموده سيعتبر نجاحًا.

ثم جاء يوم بدر ليكون يومًا مختلفًا قلب الطاولة وأعاد توزيع أوراق القوة والتأثير.

هزمت قريش التي كانت تسيطر على مكة حاضرة العرب وأكبر مراكزهم التجارية والدينية.

(1) Madain Project. (n.d.). *Battlefield of Badr*. Madain Project (English). Retrieved July 26, 2025, from https://madainproject.com/battlefield_of_badr

وأصبح للمدينة وزنًا سياسيًّا وعسكريًّا لا يمكن تجاهله عند بقية قبائل العرب.

ولكن الأهم من كل ما سبق هو تأثير هذا الانتصار على انتشار الإسلام، أو على الأقل على زيادة الاهتمام به وأخذه بجدية أكبر في هذه المرحلة.

النجاح والانتصار يجلب الانتباه للمنتصر ولأفكاره بطبيعة الحال، ويزيد الأمر عندما تكون حربه من أجل أفكاره.

كان انتصارًا في معركة، وليس في حرب.

ولم تكن هزيمة قريش نهائية لها بطبيعة الحال.

لكن المسلمين الآن أصبحوا أندادًا على الأقل، بعد أن كانوا ينظر لهم -حين ينظر لهم- على أنهم على الهامش.

وكان هذا كله مفصَّلًا من مفاصل التاريخ.

ما بعد لم يعد كما ما قبل.

ولا شيء يمكن أن يعود كما كان.

ماذا فعل بعضنا ببدر؟

من المؤسف جدًّا أن تعامل البعض منا مع يوم بدر كان تعاملا يسلب من اليوم أعظم ما فيه، ويركز بطريقة خاطئة على أجزاء من نهاية الحدث دون أن ينتبه إلى الصورة الكبيرة التي كان الحدث بكامله جزءًا منها.

كلما دخل البعض في مواجهة غير متكافئة استل من يوم بدر ما يناسبه وقال لقد انتصروا رغم قلة عددهم، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله...إلى آخره.

هناك مَن يرى الأمر على أنه كان هكذا فحسب للأسف الشديد، ربما بحسن نية، لكن نتائج استخدام جزء من سيرته الشريفة لتبرير مواجهات غير مخطط لها (حتى لا أقول شيئًا آخر) هو آخر ما يجب أن تعامل به هذه السيرة الشريفة.

عندما خرجوا: كانوا الأكثر عددًا

عندما خرج الرسول عليه الصلاة والسلام لملاقاة قافلة قريش في طريق عودتها من الشام، كان عدد الصحابة الذين خرجوا معه أكثر من ثلاثمائة صحابي.

بالمقابل، كانت القافلة التي خرجوا لها مصحوبة بأربعين رجلًا فقط.

أي أن مقياس القوة كان لصالح المسلمين بلا شك.

لم يخرج عليه الصلاة والسلام ليزج المسلمين في مواجهة مع قريش دون استعداد.

بل خرج وهو الطرف الأكثر استعدادًا من قافلة قريش.

وعندما وجد أن قريشًا خرجت بجيش لتحمي قافلتها، وقف يسأل أصحابه والأنصار خصوصًا عما يرون، لم يتركهم أمام الأمر الواقع، بل أتاح لهم أن يقرروا. لقد خرجوا من أجل قافلة بلا قتال حقيقي، ولكنهم الآن أمام احتمالية قتال مع جيش لم يكونوا يعرفون حجمه بعد.

لقد خرج وهو الأكثر استعدادًا، ولكنه اضطر لاحقًا لمواجهة غير الذي خرج من أجله.

هل كانت هناك إمكانية للتراجع إلى المدينة دون المواجهة مع جيش قريش؟

نظريًّا نعم، لكن قريش هي التي بقيت للقتال بعد أن تمكن أبو سفيان من الفرار بالقافلة.

وبدر أقرب إلى المدينة منها إلى مكة.

والتراجع -على فرض أن هناك من اقترحه- كان قد يشجع قريشًا على التمادي والتقدم أكثر نحو المدينة، أو على الأقل كان سيعتبر هزيمة ويشجع باقي القبائل على المدينة.

لذا لا يمكن مقارنة هذه الصورة الكاملة، التي بدأت بكون المسلمين هم أصحاب الكفة الأكثر وزنًا والعدد الأكبر، وانتهت إلى غير ذلك، بمواجهة يعرف أصحابها سلفًا أنهم أصحاب الكفة الأقل وزنًا والأقل عددًا، ورغم ذلك يستخدمون يوم بدر لتبرير المواجهة وعواقبها.

مغالطات المقارنة خارج السياق

الأمر الآخر الذي لا ينتبه له هؤلاء هو عدم وجود **فجوة تقنية** بين المسلمين والمشركين يوم بدر.

كان الكفار أكثر عددًا بنحو ثلاث أضعاف، وعدد فرسانهم يزيد بخمسين ضعفًا عن فرسان المسلمين.

ولكن عدة القتال كانت من النوعية ذاتها، سيوفًا ورماحًا وسهامًا ودروعًا وخوذًا.

لم تكن هناك فجوة في نوعية السلاح لصالح المشركين.

لا يمكن القفز فوق هذه الحقيقة وإسقاط مواجهة يوم بدر على مواجهات بين طرفين بينهما فجوة تقنية هائلة في نوع الأسلحة. ببساطة لا يمكن. دع يوم بدر وشأنه إذا كنت تريد أن تواجه فحسب بغض النظر عن نتيجة المواجهة وعواقبها، يوم بدر كان مليئًا بالحسابات الدقيقة حتى بعد أن تغير الطرف المواجه، كان هناك قرار مشترك، ومرونة في تقبل المشورة قادت إلى موضع فيه أفضلية على الطرف الآخر، وكانت هناك خطة بديلة فيما لو سارت الأمور باتجاه معاكس.

وكانت هناك صفوف منظمة، وتعليمات دقيقة.

وكان هناك الوعد بالجنة، وأيضا بالغنائم، خيط رفيع من التوازن الأساسي بين ترتيب أولويات مختلف بين البشر.

تريد أن تقارن؟ قارن على نحو صحيح، قارن مع الصورة الكبيرة بكل تفاصيلها، وليس مع أجزاء تناسب ما تريد تأكيده.

ولكن هناك ما هو أهم من كل ذلك.

حضوره الشريف

لا أعرف كيف يمكن لأي من يستخدم يوم بدر في أي مقارنة أن يتجاوز حضوره الكريم عليه الصلاة والسلام وأثر هذا الحضور على كل شيء.

دعاؤه الذي غير موازين القوى أساسًا.

لقد جاءهم المدد بالملائكة بنص القرآن.

وأمدهم عز وجل بقوة مضاعفة لكل فرد منهم، بنص القرآن أيضًا.

وكان هذا خاصًّا بوجود الرسول عليه الصلاة والسلام وبأهل بدر يوم بدر.

موازين العدد تغيرت بهذا.

آية ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ذكرت في أثناء مشورة القوم، لكنها لم تنزل في أهل بدر، بل في سياق قصة طالوت وجالوت.

قبل أن تبدأ المعركة، كان المسلمون أقل عددًا بالفعل، لكن بعد الغوث والمدد الإلهي، لم يعد الأمر كذلك.

ولا يدعي أحد أنه قادر على الحصول على مدد كهذا.

هذا كان للرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.

وليوم طلع فيه البدر علينا.

البدر التمام كامل الأوصاف

وعندما طلع يوم بدر علينا.. رأينا البدر كاملًا مكتملًا، رأيناه في كل التفاصيل الدقيقة التي وصلتنا من سيرته عليه أفضل الصلاة والسلام.

نعم، البدر في التفاصيل.

والتفاصيل قربتنا من كامل الأوصاف، عليه أفضل الصلاة والسلام.

البدر في تفاصيله التي جمعت كل ما يجعلنا نحبه أكثر، البدر في التفاصيل التي تجعل شيئًا مغروسًا في أعماقنا، في فطرتنا، في التاريخ السحيق لإنسانيتنا، ينبض بشدة، مثل قلب يخفق أول مرة، عندما يلتقي وجها لوجه مع صفاته، صلوات الله وسلامه عليه.

إنه النبي الذي يدعو لنا وينير لنا درب النجاة، الحكيم الذي نسمع منه، والذي يسمع منا ولا يجد في ذلك غضاضة. القائد الذي ينظم الصفوف ويعطي تعليمات محددة تكسر معنويات الطرف الآخر ولا يجد مشكلة في أن يمازح أحدنا في أثناء ذلك. المحب الذي بقي يذكر حبه ويسمع دقتها على الباب حتى بعد رحيلها بسنوات طويلة، اليتيم الذي عرف فقدان الأب والأم فكان أبًا للجميع دون أن يكون أبًا لرجل منهم. الراعي الذي يقبل الجميع بأخطائهم، المتواضع الذي عندما استقبله أهل المدينة لم يفرقوا بينه وبين أبي بكر، المتوازن الذي عرف كيف لا يقترب أكثر مما يجب من أي بطن من بطون الأوس والخزرج فلا يثير الغيرة عليه بينهم، الخبير بنفسيات البشر وتنوعها واختلاف احتياجاتها، الوفي الذي يحفظ حتى لمن أذاه من المشركين مواقفهم الجيدة معه، المتعبد الذي يصلي تحت الشجرة، ليلة بدر، ويبكي في صلاته بينما الناس نيام يغسلهم المطر.

عندما طلع يوم بدر علينا، رأينا كامل الأوصاف في شخصية لم نرَ تكاملها هكذا من قبل.

رأينا القائد الذي انتصر على أعدائه، لم نرَ أكاليل النصر ولا هتافاته، بل رأيناه ساجدًا يقول يا حي يا قيوم..

ورأيناه يخاطب قتلى المشركين: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟

كما لو أنه يقول لهم: ليتكم سمعتم ما بقيت أقوله لكم لثلاثة عشر عامًا في مكة..

***

عندما يطلع البدر، ونرى التفاصيل، لا يعود شيء كما كان أبدًا.

مهما حدث، مهما اغتربنا، مهما بعدنا، مهما هزمنا ومهما هرمنا ومهما هرمت قلوبنا..

هناك بدر طلع علينا وجعلنا نرى الأمور بشكل أدق وأوضح وأكثر صوابًا.

هناك بدر طلع علينا وجعلنا نراه -عليه أفضل الصلاة والسلام- على نحو أقرب، لا شيء يمكن أن يأخذ ذلك منا.

هناك بدر طلع علينا ودخل في حياتنا وأصبح جزءًا من لا وعينا ووعينا..

طلع علينا وجعلنا نحبه حبًّا غير مسبوق.

لسنا دومًا على قدر مسؤولية حمله معنا...

لكننا لا نستطيع إلا أن نحمله..

ولسنا دومًا على قدر مسؤولية هذا الحب..

ولكن لا يمكن أن يقل..

فقد دخل في مساماتنا، تحت جلدنا، في النخاع منا.

والسيرة مستمرة..

يتبع، إن شاء الله وكتب لنا ذلك

الأحد ٢٠/٧/٢٥

الموافق

٢٤/١/١٤٤٧

مكتبة
t.me/soramnqraa

عندما طلع البدر علينا

ما الذي يجعلنا نقرأ كتابًا عن سيرةٍ نعرف مسبقًا كل أحداثها؟

ربما لأننا في كل مرة نقرأ عنها نشعر بالمزيد من القرب منه عليه الصلاة والسلام، ونحن نحتاج دومًا إلى المزيد من ذلك.

وربما لأننا نعرف أن هناك دومًا المزيد مما لم ننتبه له في المرات السابقة، وأن في كل مرة ثمة كنوز تخرج لم تكن قد اكتُشِفت بعد في المرات السابقة...

وربما لأن السيرة أصبحت جزءًا منا، من ذاكرتنا وهويتنا، مهما بعدنا، ومهما قصرنا، ومهما وضعنا أقنعة مختلفة واستعرنا هويات أخرى، شيء ما في أعماقنا لا يزال يحمل بقايا هوية تماهت مع سيرته عليه الصلاة والسلام، نعود إليها دومًا كما لو لنتفقد الطفل النقي في داخلنا، كما لو لنتأكد من أنه في أمان. أمانه يعني أننا لا نزال، بطريقة ما، ولو بحد أدنى، بخير.

أو ربما لأنهم يحاولون تشويهها بشتى الوسائل، فإننا نعود إلى سيرته عليه الصلاة والسلام لنتأكد من أنهم مهما حاولوا فإنهم لن ينالوا منها.

أعمال أخرى للكاتب

غلاف: محمود هشام

مكتبة
t.me/soramnqraa

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb